غسان كنفاني

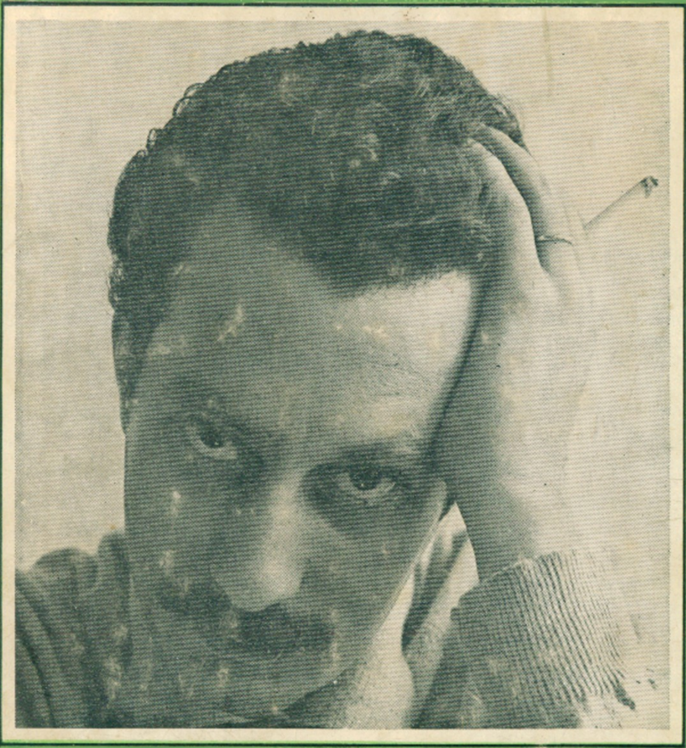

الآثار الكاملة

المجلد الأول — الروايات

جميع الحقوق محفوظة
للجنة تخليد غسان كنفاني

الطبعة الأولى
تشرين الثاني(نوفمبر)١٩٧٢

HAMDAN.B
29/11/2009

غسّان كنفاني

الآثار الكاملة

الروايات

المجلّد الأول

لجنة تخليد غسان كنفاني

دار الطليعة للطباعة والنشر

رجال في الشمس

ما تبقى لكم

أم سعد

عائد إلى حيفا

العاشق

"الأعمى والأطرش"

برقوق نيسان

الرسوم لمنى السعودي

مقدمة

بقلم الدكتور

إحسان عبّاس

المبنى الرمزي في قصص غسّان

- ١ -

ليس من العسير على من يقرأ قصص غسان حسب تتابعها الزمني أن يلمح فيها صورة من التدرّج الواعي المتعمد نحو واقعية صلبة محدّدة الحواني جاسية المظهر، مشمولة بمزيد من البساطة ومزيد من الوضوح. كأنما كان دائماً يحاول أن يقترب من حدود الهدف الذي وضعه لنفسه – في دور مبكر – وهو أن تكون القصة «واقعية مائة بالمائة، وبنفس الوقت تعطي شعوراً هو غير موجود»[١]. حتى قصة «ما تبقى لكم» التي يعدّها بعض النقاد غامضة، تكاد لا تشذ كثيراً عن تلك القاعدة، إذ حاول غسّان فيها أن يطوّع طريقة التداعي وانعدام الفواصل بين مونولوجات شخصياته فيها، ويجعلها في أوضح مستوى ممكن، قائمةً على نظامٍ محدّد السمات. مع أن هذه التقنية الفنية لدى

(١) من مقال للاستاذ فضل النقيب، بعنوان «عالم غسان كنفاني» (مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١٣، الصفحة ١٩٤، أيلول ١٩٧٢).

غيره من الكتاب تنحو نحو الحلم المبهم الموشّح بالايماء ، المؤيد بالتظليل والتأرجح والتداخل وعدم الانضباط الكثير في حركة النفس الداخلية .

ورغم بلوغ غسان في التزام الواقعية إلى درجة يتعذّر فيها الفصل أحياناً بين الواقع الحضاري والواقع الفني ، فاننا لا نستطيع أن نعدّه « وثائقيّاً » في فنه ، لأنه لم يكن يكتفي بترتيب عناصر الواقع الحضاري على نحو تاريخي متصاعد أو متكامل ، بل كان يعيد ترتيب تلك العناصر ، ويمنحها التكثيف والتوجيه ، ويستغل فيها الصور والمقارنات والمفارقات ، بحيث تجيء خلقاً جديداً هو الواقع وليس به — هو الواقع الذي يراه أو يريد أن يراه قاصٌ متفنن ملتزم ، وليس هو الواقع الحرفي — طبيعياً كان أو حضارياً — .

وكما تدرج غسان في طريقه نحو تلك الواقعية الصلبة ، تدرج أيضاً في طريقة الافادة من الوسائل الفنية التي كان يظنها كفيلة بتحقيق تلك الغاية : فمرّة كان يعتمد رسم المفارقات والمتناظرات ، ومرة كان يلجأ إلى إيثار البساطة الموحية في طبيعة الحوار ، ومرة ثالثة يستغل عنصر « الامكان » الضروريّ ، ومرة يجمع بين هذه الوسائل جميعاً ؛ غير أنه من البداية إلى النهاية ظلّ مصراً على أن خير ما يبلغه هدفه هو طبيعة الشخصيات التي لا مناص لها من العيش ضمن إطار واقعيته المبتغاة ؛ وحين كتب غسان « أم سعد » كان قد

تنازل عن كلّ « فذلكة » فنية في سبيل أن لا يدع هناك أية مسافة بين الواقع الحضاري والواقع الفني ، وبذلك أيضاً تنبئنا قصة « برقوق نيسان » التي أعجلته المنية عن وضعها في شكلها النهائي .

إن القصة حين تترك أثراً عميقاً في نفوسنا لأنها كذلك ، أعني لأننا نراها واقعية واضحة بسيطة ، كأنها — دون تعمّل — لون من ألوان الحكاية ، من غير أن تتذرع للوصول إلينا بذرائع من فلسفة فكرية أو من إثارة عاطفية أو من تقنية مركبة أو غير ذلك من وسائل وعناصر ، أقول : إن القصة حين تفعل ذلك ، تبلغ مرحلة الأثر الفني المعجب المدهش الذي لا نملك إزاءه تعليلاً لما يتملكنا من إعجاب ودهشة ، مع إيماننا بأننا أسرى لسحرٍ غير سريّ أو غامض فيه . ترى أي دور كان من المقدر لغسان أن يؤديه في تطوير القصة العربية الفلسطينية لو امتدّ به طلق العمر ؟ رغم أني ممن لا يؤمنون كثيراً بالحكم على الغيب من رؤية التباشير الأولى ، فانني أستطيع أن أزعم بأنه كان من الممكن للقصة على يدي غسان أن تبلغ مرحلة « الرؤيا الجماعية » التي يستوي في مدى ارتياحه اليها وتأثره بها المثقف وغير المثقف ، على نحو متشابه أو متقارب ، لأنها تربط بين الأحاسيس متخطيةً الفوارق في الميول والمواقف والأذواق .

وحين نكبر إخلاص غسّان في هذه المحاولة الشاقّة ،

فان ذلك لا يعني انتقاصاً أو تهويناً من شأن الطرائق الفنية الأخرى التي يعتمدها غيره من كتاب القصة ؛ ولكن إصرار غسان على أن تصبح القصة التي يكتبها « واقعية مائة بالمائة ، وبنفس الوقت تعطي شعوراً هو غير موجود » ليس يدل وحسب من الزاوية الفنية على محاولة في التفرد والاصالة ، وإنما يدلُّ أيضاً على مدى التلازم بين الفن وقضية الانسان ، ومدى استعداد الفنان لأن يجعل فنّه في خدمة الشعب ، وقدرته على الاحتفاظ بالتوازن الضروريّ بين الاثارة الفنية المتجددة والحاجة الشعبية المتطوّرة .

— ٢ —

لكن ، لا ريب في أن جعل القصة واقعية بالقدر الذي أراده غسان يعني التضحية بأمور كثيرة قد كانت تحيط الفن القصصي بمزيد من القدرة على التأثير ، وفي مقدمة تلك الأمور قيام القصة على الرمز . إن قيام القصة على مبنيين : ظاهري وداخلي يمنح القصة عمقاً خاصاً ويجعلها مليئة بالايحاءات ، قابلة للفروض والاحتمالات ، وبقوة الرمز وتجدد ضروب التفسير تحتفظ القصة بالديمومة ، وتتجدد فيها الطاقات رغم تغير الظروف . فاذا شاءت القصة التي تتشبث بالواقعية المطلقة (أو شبه المطلقة) أن تعوّض عن قوة الرمز ، كان لا بدّ لها أنْ تحتفل « بزخم » في عجيب .

وكل من يقرأ « عائد إلى حيفا » أو « أم سعد » أو « برقوق نيسان » – حتى في شكلها الأوّلي – يحسُّ حقّاً أن الرمز لم يعد ضرورياً ؛ وانما أصبحت مواجهة الحقيقة هي الشيء المهم ، ولكن هل يظلُّ هذا الشعور حيّاً في نفوس قرائها بمرور الزمن ؟

أياً كان الأمر فان غسّان لم يستطع أن يبلغ تلك المرحلة من الواقعية طفرةً أو على نحو تعسفي ، وإنما حاول استغلال المزاوجة بين بناءين : ظاهري وباطني ، وجرَّب طريقة الاعتماد على « الرمز » في الايحاء والتأثير . وإذا صحَّ أن يستشهد الناقد حين يدرس أثر الفنان بشيء من تصوّر الفنان نفسه لعمله (وغسان كان دائماً واعياً بما يريد أن يحققه) فلا ضير عليّ في أن أورد هذه الحكاية البسيطة : ذات يوم لقيني غسان في شارع أرتوا برأس بيروت على أثر صدور قصته « رجال في الشمس » ، وبعد التحية قال لي : هل قرأت القصة ؟ قلت : أجل يا غسان ، الحقّ أنها قصة آسرة متوحشة تنشب أظافرها في القارىء بحيث لا تدع له منهـــا فكاكاً ، ويخرج منها في النهاية ، وسؤال خائف مفزّع يعتصر وجدانه كلّه : « لماذا تمَّ ذلك كذلك ؟ (أيّ مصير هذا ؟!) تماماً مثلما أن أبو الخيزران يصيح في نهايتها : « لماذا لم يدقوا جدران الخزّان ؟ » ؛ ولكن – قلت وقد توقفنا قليلاً عن السير – إن كنت أردتها ذات بعد رمزي ، فما أظنها استطاعت أن تحقق ذلك . فنظر إليّ في شيء من

التردد الذي لا يكاد يلوح حتّى تمحوه الثقة النفسية ، وقال : إن صحَّ قولك . وكانت قد عجزت عن نقل هذه الناحية (أي البعد الرمزي) فاني أعد نفسي مخفقاً .

إذن كان غسان — حين أنشأ قصة « رجال في الشمس » — على وعي تامّ بأنه يريدها ذات بعد رمزي ، فهل أخفق حقاً فيما حاوله أو كان الخطأ في طبيعة قراءتي الأولى لها ؟ لقد أتيح — بعد ذلك التعليق الجازم الذي سمعته من كاتبها — أن أعود إلى قراءتها ، فتبدَّت لي تحت ضوء جديد . نعم إن واقعية التصوير للشخصيات فيها وطبيعة الحوار والدقة في التفصيلات (الدقة حتّى في تصوير التفاوت بين الجثث في وزنها وحالتها حين كان أبو الخيزران ينتشلها من الصهريج ليلقي بها عند أكوام القمامة) — كل ذلك يجعل من أشخاصها ناساً نعرفهم حق المعرفة ، وينقل الينا أحداثاً صغيرة نألفها أو نكاد نلمسها من شدة واقعيتها ، ويضعنا — بعد صفحات قليلة من البداية — في ترقب متوجس يحسُّ إحساساً كأنه يقيني بأن ما وقع لا بد أن يقع هو أو شيء شبيه به ، وبالجملة فانها تشدّنا إلى واقعيتها الدقيقة شدّاً مأساوياً متوتراً ، بحيث ننسى أن نتساءل عن أي مدلول أو عمق رمزي وراء ذلك . ولكن هل هي حقاً صورة لذلك الحدث وحده بكلّ ما فيه من تدقيق وتفصيل ؟ إن طبيعة « العمد » فيها (وهو عمدٌ لا يصيب التقنية الفنية فيها وانما يتحكم في الأحداث) تثير في النفس تساؤلات متلاحقة ؛ ولنبدأ بحقيقة بارزة هنالك :

لماذا عمد القاص الى اختيار رجل فلسطيني ليقود الشاحنة . وعدل – عامداً أيضاً – عن إجراء الأمر على يدي أحد المهربين المحترفين في البصرة من غير الفلسطينيين ؟ من هنا يبدأ شعورنا بأن أبو الخيزران ليس فرداً وحسب ، يقوم بدور في قصة ذات أحداث وإنما هو أيضاً رمز . ولا بدّ ؛ بذلك تقضي طبيعة « العمد » في الاختيار . ولا مناص لنا – بعد القراءة الأولى – من مواجهة هذه الحقيقة . ولو أننا اتخذنا شخصية أبو الخيزران مدخلاً لفهم هذه القصة لما تعذر علينا أن نرى فيه رمزاً للقيادة الفلسطينية في بعض الظروف التي مرّت بها القضية[1] . وهي تؤدي دوراً « قاتلاً » مغرّراً خادعاً مخدوعاً قائماً على المداورة والمراوغة والكذب . شأنها في ذلك شأن « المهربين الآخرين » – ممثلي القيادات العربية الأخرى – ولا تبقى هنالك حاجة تدفعنا لنسأل بعد ذلك : « لم اختار القاصُ أن يكون أبو الخيزران امرءاً قد فقد قدرته الجنسية ؟ » فذلك يجيء وكأنه أمر طبيعي ، وخاصة حين نعلم أن أبو الخيزران أصيب بذلك في حوادث سنة ١٩٤٨ ، حيث أصيبت القيادة نفسها بالعجز والعنّة ، وظلّت – مع ذلك – تدعي أنها تستطيع « توجيه » الفلسطينيين

(١) حاول فضل النقيب أن يرى في أبو الخيزران رمزاً للجيوش العربية ، وهي رؤية ربما تجاوزت الدلالة التي أشير اليها ، على ان التشابه بين حال القيادة الفلسطينية والقيادات العربية والجيوش العربية حينئذ فرق ضئيل (المصدر السابق : ١٩٨) .

و « إنقاذهم » . وها هي الأجيال الثلاثة ـ التي يمثلها أبو قيس وأسعد ومروان ـ لا تزال – في طيبة مفزعة – تؤمن بالخلاص على يد تلك القيادة : وهي أجيال مرتهنة بقيودها الوضعية . وليس لديها أي شعور بضرورة الثورة على الواقع أو بإرادة الثورة : أبو قيس لا يرى شيئاً سوى همومه العائلية . وأسعد مرتبط بوعد قطعه غيره وقرّر له به مستقبل حياته . ومروان أصبح مقيداً باعالة أمّه ، دون أن يستطيع مبادأة أبيه بالكراهية ، بعد أن هجر أبوه البيت وتزوج امرأة أخرى مقطوعة الرجل (تزوَّج في الحقيقة بيتاً من ثلاث غرف لشدة ظمأه إلى التعويض عما فقد) – كلهم رغم اختلاف أجيالهم والتباين النسبي في مشكلاتهم يسعون إلى شيء واحد يجمعهم في صعيد . اسمه العابر : العمل من أجل التغلب على الجوع والفقر . واسمه الخالد : طلب الاستقرار ؛ إذ أن كلاً منهم كان يدرك أنه قد اقتلع من الجذور ؛ حتى أبو الخيزران كانت أمنيته الكبرى أن يستريح متمدّداً في الظلّ . بعد أن يجمع لنفسه مبلغاً من المال يمكنه من نيل ما يريد . الظل ؟ لا وجود له في القصة إلا من حيث هو غاية أو أمنية كبيرة . أو كلمة جميلة تتلمظ بها شفاه العاطشين إليه . هذه الأجيال الثلاثة قد حرمت الظلّ . ومن سخرية الرمز في القصة أنها جميعاً تتخذ وجهتها نحو بلد ليس فيه شجرة واحدة ؛ وهذه الأجيال تسلم مصيرها إلى قيادة مصابة بالعجز . وتشترك معها في اختيار

الوجهة الخاطئة . بل تبلغ من السذاجة حدّاً مخيفاً حين ترضى أن تسير في تلك الوجهة ، وهي محجوبة الأبصار دون رؤيتها . قابعة في جوف صهريج مظلم . مكمومة الأفواه – بعد انغلاقه – عن الصراخ ، ولو صرخت لم يسمعها أحد . إنها في وضعها ذاك ليست أقلّ عنّةً وعجزاً من القيادة نفسها ؛ وكل ذلك والقيادة تتعامل مع بيروقراطية فاسدة (موظفي الحدود) ومع قيادة أخرى مشبوهة التصرّف والأهداف (الحاج رضا) ؛ وهنا يمكن أن نرى كيف أن دائرة الرمز قد أخذت تكبر وتتسع : العالم العربي كلّه صهاريج أو أفران لاهبة ، ناس يتقلبون في جحيم الحرمان الجنسي ولا يفكرون في الحياة إلاّ من هذه الزاوية (موظفو الحدود) وقوم يحترقون في فرن الشهوة إلى اكتناز المال (المهربون ومن أشبههم) وناس يعيشون في أتون اسمه « واقع الاستئصال » (الفلسطينيون) ولكن أسرعهم إلى الموت في جوف الأتون هم الفريق الأخير . لأنه أتيح لهم أن يفهموا معنى الجحيم . فكيف يقبلون أن يخدعوا مرة أخرى ويدخلوها عن طوعٍ ورضىً ؟ لقد قبلوا صلابة « الصهريج الحديدي » بدلاً من صلابة الأرض . ورضوا بالوجهة التي تبعدهم عن أرضهم . وظنوا أن « رمل » الصحراء يغنيهم عن « الرملة » . وخايلتهم أحلام الاستقرار في الظل حيث لا يتعامل الناس إلا مع الشمس والصحراء . وبلغ من سلبيتهم أنهم ماتوا مختنقين بحبل الاستسلام دون أن يدقوا دقة احتجاج

واحدة . لقد كانت النذر تحوم حولهم وتومىء إلى أنهم يسيرون نحو مصير مظلم فلم يتنبهوا — لقد سمع أحدهم أن الصحراء مليئة بالجرذان ، وأن الكبير منها يقتات بالصغير ، ومرَّ هذا الكلام على أذنه كأنه لم يسمعه . لا القيادة الواحدة وحّدت بينهم ، ولا الشاحنة حين جمعتهم معاً ، ولا أمنية الاستقرار حين ربطت بين نوازعهم ، ولا الالتزام بالوفاء لمواضعات الأسرة حين كانت قيداً واحداً يلوح في أعناقهم ومعاصمهم ؛ انما الذي وحّد بينهم هو « الأرض » حين دفنوا جميعاً في حفرة واحدة . ذلك هو مصيرهم المشترك ، ولكنهم ماتوا دون أن يدركوا أنهم هربوا من موت إلى موت (القصة كتبت للذين ظلوا يمارسون الهرب غافلين) ؛ وفي النهاية تخلّت عنهم القيادة ، ولم تنسَ أن تستخرج النقود من جيوبهم وأن تنزع ساعة مروان ؛ وحين كان أبو الخيزران يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ كانت كلمته هذه تحمل دلالتين : أولاهما بالنظر إلى نفسه فانها محاولة لإراحة ضميره وإلقاء اللائمة عليهم ، والثانية بالنسبة إلى القاص نفسه ، وترجمتها على هذا المستوى : « إلى متى تظل بوادر الثورة هاجعة لا تستيقظ ؟ » وهذا المعنى الثاني هو الذي حمله الصدى حين كانت تردده الصحراء : « لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » .

يخيل إليّ أن غسان حين كتب هذه القصة كان يعاني صراعاً حاداً بين الاحساس بالواقع والاحساس بالفن ؛

كان في واقعه يحسّ أنه كأي فلسطيني آخر . مقهور مقتول أو حبيس في مصيدة العجز والخذلان . ولهذا سمح لنفسه في سياق البناء القصصي بالاختيار الحرّ في كل خطوة : انتقى كل شيء بارادة من يملك أن يختار دون أن يحاسبه أحد . وجرّ الواقع إلى جوار كومة من القمامة . ليطرحه هناك . ويتشفى بمصرعه . فهو واقع يغلّ يديه ويكبّل روحه . ولا بد له – كي يرتاح – من رؤيته صريعاً ؛ فإذا كان ذلك . امحت المسافة بين ذلك الواقع وبين الفنّ .

ولكن هل كان يستطيع أن يغيّر زاوية الرؤية ؟ كان ذلك صعباً ، لأنه من تلك الأجيال الثلاثة – على حالها تلك – لا يمكن أن يولد الثوريّ الفلسطيني . إذ أن هذه الأجيال نفسها لم تولد – على وجه الرمز – وإنما ماتت في داخل الرحم ؛ وعندما خرجت إلى الضوء كانت قد فقدت القدرة على رؤيته . هي أجيال تسعى إلى « الطُّعم » دون أن تحسّ أنها وقعت في « المصيدة » . قبل أن تستيقن أيهما يقع قبل الآخر . والقاصُّ لا يتعاطف معها إلا بالقدر الذي تفرضه براءتها .

لا أظنني في هذه القراءة قد حمّلت قصة « رجال في الشمس » شيئاً خارجاً عن طبيعتها . ولكن أحقاً أن المبنى الرمزي الذي قامت عليه القصة قد جعلنا نرى فيها شيئاً غير ما نقلته إلينا في واقعها الظاهري ؟ أم أنه يمكننا أن نقول

مؤيدين ما قاله الناقد فضل النقيب في بعض رموزها : « هذه رمزية مبتذلة لا تعجب أحداً . الحقائق التي يعرفها كل الناس لا تثير اهتمامهم عندما تطلّ عليهم من جديد بقناع الرمزية . كلّ ما تثيره فيهم هو حسّ الملل »[1] . الحقيقة أن سطوع الواقع في قصة غسان هذه ، وجبروت ذلك الواقع كما كان مستمراً في حياة الفلسطينيين جميعاً ، كان يضائل من قيمة الرمز . وإن كانت القراءة الرمزية نفسها تمنح ذلك الواقع عمقاً آخر ، وتجعل ما فيه من بشاعة قضيةً مفلسفة معلّلة . ترى لو أن ناقداً آخر غير فضل النقيب – وبصراحة لو كان ذلك الناقد غير فلسطيني – قرأ هذه القصة ، أكان الجانب الواقعي الظاهري فيها يرجح رجوحاً كبيراً على الجانب الرمزي الداخلي ؟ هل كان من الممكن أن يقول ذلك الناقد كما قال فضل : « عندما قرأنا هذه القصة .... شعرنا مع الكلمات الأولى بنبض قلوبنا يرتفع كصوت طبول تأتي من بعيد . تشتدّ مع كل مقطع ، مع كل صفحة ، وتعلو في النهاية كصوت طبول الموت . فتضيق أنفاسنا ونحن نرى القبر يلتهم أربعة منّا ، ونجبر على أن نتساءل : متى يأتي الدور ؟ »[2] . لم يكن غسان في هذه القصة « يعيد ترتيب العالم » ، ولكنه كان يحاول أن ينبهنا إلى ضرورة إعادة ترتيبه . وما الصيحة التي ترتفع حين نتساءل : « متى يأتي

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) المصدر نفسه .

الدور » إلا جرس اليقظة يدق في رأس كل منا وفي صدره وفي ضميره . إن تعميق الواقع كي نحسّ به – بعد أن طمست الألفة بيننا وبينه معالم البشاعة فيه – هو بداية تنبيه الارادة الانسانية التي تستطيع أن تقول : لا . لن نسمح لهذا الدور بأن يجيء على هذا النحو .

- ٣ -

ولست أظن أن غسان حاول المبنى الرمزي مرة أخرى في قصصه إلا أن يكون ذلك في « ما تبقى لكم » : ولعله أدرك أن درجة « المائة بالمائة » من الواقعية لا تتلاءم والبناء الرمزي ، بل ربما لم تكن بحاجة اليه ، لأن واقعاً يحتوي كلّ القدر اللازم من الثقل الفني يستطيع أن يكون – من جميع جهاته – بناءً مستقلاً قائماً بنفسه .

وتعتمد قصة « ما تبقى لكم » على التوافق الزمني في حبكتها العامة . أي أن الأحداث والشخصيات ترتبط بزمن واحد ، رغم التباعد المكاني ، ويتلاعب القاص في ابراز معنى الزمن بالنسبة لكل منها ، وهذا هو الذي حدا به إلى أن يجعل « حضور » كل شخصية قائماً على التداعي ، وكأن أحاديثها النفسية وأفعالها متداخلة لارتباطها بعنصر الزمن .

وهي قصة تكمّل « رجال في الشمس » – من بعض

نواحيها – فكلتاهما تصوّر محاولة الفلسطيني للهرب من واقعه وسعيه نحو الاستقرار وتشبثه بالحياة على نحو فرديّ ، ولكن الارادة المسلوبة في الأولى أخذت تتضح ، وتتطور نحو التشكل في الثانية . في القصة الأولى كانت « الولادة » ميتة ، حتى الدق على جدار الخزان لم يحدث ؛ أما في القصة الثانية فكل شيء يدق وينبض : مؤشر الزمن – سواء أكان الساعة في بيت مريم أو الساعة التي ألقى بها حامد في حضن الأرض – يدق ويدق ، والخطوات تدق على صدر الصحراء ، والجنين ينبض وتدفق حركته الصغيرة ، مع دقات الساعة ، في رحم الأمّ ؛ والشهوات تدق . ومجاذيف القوارب التي نقلت المهاجرين يوم نقلتهم من بلدهم كانت تمثل صوت الدق على سطح الماء (أي أن الذكريات تدق) ، بل الصمت نفسه يدق : « وخيّل إليّ تلك اللحظة أن هذه الدقات هي صوت الصمت ، وان الصمت لا يكون بلا صوت ، وإلا لما كان »[1] . كل شيء يتهيأ للولادة . ذلك لأن الموت المبكر الذي أصاب « سالم » الفدائي . قد حرّك شرارة الانبعاث في كل نفس : على شعاع ذلك الموت اتضحت خيانة زكريا عارية كريهة منفّرة ، وتحركت في نفس حامد نوازع تشدّه إلى الماضي – متمثلاً في الأم – ونوازع أخرى تهزه للانطلاق من قيوده ؛ والجنين

---

(١) ما تبقى لكم : ٢٢٢ وانظر أيضاً : ٢٢٥ .

في أحشاء مريم يدق . والأرض تحتضن حامد – بديلاً عن أمه – لتلده من جديد إنساناً سوياً يدرك أنه صاحب « موقف » يتطلب الثبات . وحين تتحدث الأرض عنه وقد اكتشفت دوره تقول : « هذه المرة بدت وقفته حازمة ونهائية . وخيل إليّ أن قدميه قد غرستا في صدري كجذعي شجرة لا تقتلع . لقد كنت على يقين لا يتزعزع بأنه لن يعود . ولكنني اعتقدت لوهلة أنه لن يستمر أيضاً ، وأنه سيظل مغروساً هنا ينبض وحده في العراء إلى أن يموت واقفاً . مثل الساعة الصغيرة التي غادرها . تدق لنفسها حتى تقف دون أن يكترث لها أحد »[1]. لقد ولد حامد في حضن الأرض حالما تحرر من قيود الماضي الواقعة على طرفيه : وراءه وأمامه ، ولن يولد إلا ما يستحق أن يولد : مريم لن تلد الطفل لأنه زرعته الخيانة . وانما ستلد الارادة التي تقتل الخيانة . وفي مطبخ بسيط في غزة تغوص السكين في جسم الخيانة هازئة بالشهوة ودفء الحب . وفي جوف الصحراء يقف حامد وقفة الندّ أمام خصمه متمتعاً بارادة جديدة .

وأحسّ حامد بذلك التغير الذي اجتاح نفسه . ولهذا نجده يقول لخصمه : « فقبل دقائق فقط كان كلُّ شيء في هذا الكون ضدّي تماماً . وكانت الأمور كلها في غزة وفي الأردن تعمل في غير صالحي . وكنت أقف هنا ، هنـــا

---

(١) ما تبقى لكم : ١٩٥ .

بالضبط ، في رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب ، فتعال أقول لك شيئاً مهماً : ليس لديّ ما أخسره الآن ، ولذلك فقد فاتت عليك فرصة أن تجعلني ربحاً »[1] . اذن لم تكن « الولادة » في « ما تبقى لكم » كالولادة في « رجال في الشمس » ، وإن كان الموت لا يزال هو المسيطر على مصاير الأشخاص ، ولكنه موت من نوع جديد ، لأن ارادة الموت لدى « سالم » سرت إلى الآخرين .

غير أن « ما تبقى لكم » تؤكد الحقيقة الكبرى التي اكدتها القصة السابقة لها ، وهي أن كل طريق بعيدة عن الوطن مرصدة بموت مجّاني ، ومن ثم شهدت الأرض كيف أن « حامد » انحرف في طريقه عما يرده إلى الماضي – إلى أمه – واذا بهذا الانحراف الذي يقربه من غايته الصحيحة يوقفه أمام خصمه ، وقد سقط من حسابه مبدأ الربح والخسارة ، بسقوط قيمة الزمن ؛ ذلك أنه حين يصطدم الزمن بالفعل يصبح غير ذي قيمة ، وذلك ضروري لمن يريد أن يطرح الماضي من حسابه ، ويعيش الواقع – متضافراً مع المكان – . تقول الأرض : « وكان يتفوق على خصمه بأنه لم يكن ينتظر شيئاً ، مثلي »[2] ويهتف حامد « ان حياتي وموتك يلتحمان بصورة لا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا فكهما »[3] –

(١) المصدر السابق : ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق : ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق : ٢١٨ .

تلك نهاية وبداية تتحدث عن نفسها دون حاجة إلى تحليل : « ما تبقى لكم » تمثل تجرّد النفس الفلسطينية من كل السلبيات الثقيلة التي كانت ترزح تحتها ؛ وهي صلة جديدة بالواقع وبالأرض تلد الارادة العازمة — وان كانت الولادة بطيئة عسيرة — وهي نظرة وداع غير آسفة نحو ماض يتوارى ويغيب .

٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢

إحسان عباس

رجال في الشمس

١٩٦٣

رجال في الشمس

« أبو قَــيسُ »

اراح ابو قيس صدره فوق التراب النديّ ، فبدأت الأرض تخفق من تحته : ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجّة ثم تعبر الى خلاياه ... في كل مرة يرمي بصدره فوق التراب يحس ذلك الوجيب كأنما قلب الأرض ما زال ، منذ ان استلقى هناك أول مرة . يشق طريقاً قاسياً الى النور قادماً من اعمق اعماق الجحيم . حين قال ذلك مرة لجاره الذي كان يشاطره الحقل ، هناك ، في الأرض التي تركها منذ عشر سنوات . اجابه ساخراً :

« هذا صوت قلبك انت تسمعه حين تلصق صدرك بالأرض » ، أي هراء خبيث .! والرائحة إذن ؟ تلك التي إذا تنشقها ماجت في جبينه ثم انهالت مهوّمة في عروقه ؟. كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيّل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام وقد إغتسلت بالماء البارد .. الرائحة إياها . رائحة إمرأة إغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيباً .. الخفقان ذاته : كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً ..

الأرض الندية – فكّر – هي لا شك بقايا من مطر أمس .. كلا ، أمس لم تمطر !. لا يمكن أن تمطر السماء الآن إلاّ قيظاً وغباراً ! أنسيت أين أنت ؟ أنسيت ؟

دوّر جسده واستلقى على ظهره حاضناً رأسه بكفيه وأخذ يتطلع إلى السماء : كانت بيضاء متوهجة . وكان ثمة طائر أسود يحلق عالياً وحيداً على غير هدى . ليس يدري لماذا امتلأ . فجأة . بشعور آسن من الغربة . وحسب لوهلة أنه على وشك أن يبكي .. كلا . لم تمطر أمس . نحن في آب الآن .. أنسيت ؟ كل تلك الطريق المنسابة في الخلاء كأنها الأبد الأسود .. أنسيتها ؟ ما زال الطائر يحوّم وحيداً مثل نقطة سوداء في ذلك الوهج المترامي فوقه .. نحن في آب ! إذن لماذا هذه الرطوبة في الأرض ؟ إنه الشط ! ألست تراه يترامى على مدّ البصر إلى جانبك ؟

– « وحين يلتقي النهران الكبيران : دجلة والفرات ، يشكلان نهراً واحداً إسمه شط العرب يمتد من قبل البصرة بقليل إلى ... » .

الأستاذ سليم . العجوز النحيل الأشيب . قال ذلك عشر مرات بصوته الرفيع لطفل صغير كان يقف إلى جانب اللوح الأسود ، وكان هو ماراً حينذاك حذاء المدرسة في قريته .. فارتقى حجراً وأخذ يتلصص من الشباك : كان الأستاذ سليم واقفاً أمام التلميذ الصغير وكان يصيح بأعلى صوته وهو يهز عصاه الرفيعة :

ــ « .. وحين يلتقـــي النهران الكبيران : دجلـــة والفرات ... »

وكان الصغير يرتجف هلعاً فيما سرت ضحكات بقية الأطفال في الصف .. مدّ يده ونقر طفلاً على رأسه فرفع الطفل نظره إليه وهو يتلصص من الشباك :

ــ « ... ماذا حدث ؟ »

ضحك الطفل وأجاب هامساً :

ــ « تيس ! »

عاد ، فنزل عن الحجر وأكمل طريقه وصوت الأستاذ سليم ما زال يلاحقه وهو يكرر :

ــ « وحين يلتقي النهران الكبيران ... »

في تلك الليلة شاهد الأستاذ سليم جالساً في ديوانيـــة المختار يقرقر بنرجيلته : كان قد أرسل لقريتهم من يافا كي يعلم الصبية . وكان قد أمضى شطراً طويلاً من حياته في التعليم حتى صارت كلمة أستاذ جزءاً لا يتجزأ من إسمه ، وفي الديوانية سأله أحدهم ، تلك الليلة :

ــ « .. وسوف تؤم الناس يوم الجمعة .. أليس كذلك ؟ »

وأجاب الأستاذ سليم ببساطة :

ــ « كلا ، إنني أستاذ ولست إماماً .. »

قال له المختار :

ــ « وما الفرق ؟ لقد كان أستاذنا إماماً .. »

ــ « كان أستاذ كتّاب . أنا أستاذ مدرسة .. »

وعاد المختار يلح :

– « وما الفرق ؟. »

لم يجب الأستاذ سليم بل دوّر بصره من وراء نظارتيه فوق الوجوه كأنه يستغيث بواحد من الجالسين ، إلا أن الجميع كانوا مشوشين حول هذا الموضوع مثل المختار ..

بعد فترة صمت طويلة تنحنح الأستاذ سليم وقال بصوت هادىء :

– « طيب ، أنا لا أعرف كيف أصلي .. »

– « لا تعرف ؟ »

زأر الجميع ، فأكد الأستاذ سليم مجدداً :

– « لا أعرف ! »

تبادل الجلوس نظرات الإستغراب ثم ثبتوا أبصارهم في وجه المختار الذي شعر بأن عليه أن يقول شيئاً . فاندفع دون أن يفكر :

– « .. وماذا تعرف إذن ؟ »

وكأن الأستاذ سليم كان يتوقع مثل هذا السؤال ، إذ أنه أجاب بسرعة وهو ينهض :

– « أشياء كثيرة .. إنني أجيد إطلاق الرصاص مثلاً .. »

وصل إلى الباب فالتفت ، كان وجهه النحيل يرتجف :

– « إذا هاجموكم أيقظوني ، قد أكون ذا نفع .. »

* * *

ها هو إذن الشط الذي تحدث عنه الأستاذ سليم قبل عشر سنوات ! ها هو ذا يرتمي على بعد آلاف من الأميال

والأيام عن قريته وعن مدرسة الأستاذ سليم .. يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم !. يا رحمة الله عليك ! لا شك أنك ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في أيدي اليهود .. ليلة واحدة فقط .. يا الله ! أتوجد ثمة نعمة إلهية أكبر من هذه ؟.. صحيح أن الرجال كانوا في شغل عن دفنك وعن إكرام موتك .. ولكنك على أي حال بقيت هناك .. بقيت هناك ! وفرت على نفسك الذل والمسكنة وأنقذت شيخوختك من العار .. يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم .. ترى لو عشت ، لو أغرقك الفقر كما أغرقني .. أكنت تفعل ما أفعل الآن ؟ أكنت تقبل أن تحمل سنيك كلها على كتفيك وتهرب عبر الصحراء إلى الكويت كي تجد لقمة خبز ؟

نهض . واستند إلى الأرض بكوعيه وعاد ينظر إلى النهر الكبير كأنه لم يره قبل ذلك . إذن هذا هو شط العرب : « نهر كبير تسير فيه البواخر محملة بالتمر والقش كأنه شارع في وسط البلد تسير فيه السيارات .. »

هكذا صاح إبنه . قيس ، بسرعة حين سأله تلك الليلة :

— « ما هو شط العرب ؟ »

كان يقصد أن يمتحنه ، إلا أن قيس صاح الجواب بسرعة . وأردف قائلاً :

— « .. لقد رأيتك تطل من شباك الصف اليوم .. »

إلتفت إلى زوجه فضحكت ، أحس بشيء من الخجل ،

وقال ببطء :

– « أنني أعرف ذلك من قبل .. »

– « كلا ، لم تكن تعرفه .. عرفته اليوم وأنت تطل من الشباك .. »

– « طيب ! وماذا يهمني أن أعرف ذلك أو أن لا أعرفه ، هل ستقوم القيامة ؟ »

رمقته زوجته من طرف عينيها ثم قالت :

– « إذهب والعب يا قيس في الغرفة الأخرى ... »

وحين صفق الباب خلفه قالت لزوجها :

– « لا تحكي أمامه بهذا الشكل ، الولد مبسوط لأنه يعرف ذلك ، لماذا تخيب أمله ؟ »

قام واقترب منها ثم وضع كفه على بطنها وهمس :

– « متى ؟ »

« بعد سبعة أشهر »

– « أوف ! »

– « نريد بنتاً هذه المرة .. »

– « كلا ! نريد صبياً ! صبياً ! »

* * *

ولكنها أنجبت بنتاً سماها « حسنا » ، ماتت بعد شهرين من ولادتها وقال الطبيب مشمئزاً : « لقد كانت نحيلة للغاية ! »

كان ذلك بعد شهر من تركه قريته ، في بيت عتيق يقع في قرية أخرى بعيدة عن خط القتال :

— « يا أبا قيس ، أحس بأنني سألد ! »
— « طيب ، طيب . إهدأي »
وقال في ذات نفسه :
« بودي لو تلد المرأة بعد مئة شهر من الحمل ! أهذا وقت ولادة ؟ »
— « يا إلهي ! »
— « مـــاذا ؟ »
— « سألد »
— « أأنادي شخصاً ؟ »
— « أم عمـــر »
— « أين أجدها الآن ؟ »
— « ناولني هذه الوسادة .. »
— « أين أجد أم عمر ؟ »
— « يا إلهي .. إرفعني قليلاً ، دعني أتكىء على الحائط .. »
— « لا تتحركي كثيراً ، دعيني أنادي أم عمر .. »
— « أسرع .. أسرع .. يا رب الكون ! »
هرول إلى الخارج ، وحين صفق وراءه الباب سمع صوت الوليد ، فعاد وألصق أذنه فوق خشب الباب ..
صوت الشط يهدر ، والبحارة يتصايحون ، والسماء تتوهج والطائر الأسود ما زال يحوّم على غير هدى .
قام ونفض التراب عن ملابسه ووقف يحدق إلى النهر .. أحس ، أكثر من أي وقت مضى ، بأنه غريب وصغير ،

مرر كفه فوق ذقنه الخشنة ونفض عن رأسه كل الأفكار التي تجمعت كجيوش زاحمة من النمل .

وراء هذا الشط ، وراءه فقط ، توجد كل الأشياء التي حرمها.

هناك توجد الكويت .. الشيء الذي لم يعش في ذهنه إلاّ مثل الحلم والتصور يوجد هناك .. لا بد أنها شيء موجود ، من حجر وتراب وماء وسماء ، وليست مثلما تهوم في رأسه المكدود .. لا بد أن ثمة أزقة وشوارع ورجالاً ونساء وصغاراً يركضون بين الأشجار .. لا .. لا .. لا توجد أشجار هناك .. سعد ، صديقه الذي هاجر إلى هناك واشتغل سواقاً وعاد بأكياس من النقود قال إنه لا توجد هناك أية شجرة .. الأشجار موجودة في رأسك يا أبا قيس .. في رأسك العجوز التعب يا أبا قيس .. عشر أشجار ذات جذوع معقدة كانت تساقط زيتوناً وخيراً كل ربيع .. ليس ثمة أشجار في الكويت ، هكذا قال سعد .. ويجب أن تصدق سعداً لأنه يعرف أكثر منك رغم أنه أصغر منك .. كلهم يعرفون أكثر منك ... كلهم .

في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أن تنتظر .. لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها .. في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وأنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير .. ماذا تراك كنت تنتظر ؟ أن تثقب الثروة سقف بيتك .. بيتك ؟ إنه ليس بيتك .. رجل كريم

قال لك : أسكن هنا ! هذا كل شيء ، وبعد عام قال لك أعطني نصف الغرفة ، فرفعت أكياساً مرقعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد .. وبقيت مقعياً حتى جاءك سعد وأخذ يهزك مثلما يهز الحليب ليصير زبداً .

– « إذا وصلت إلى الشط بوسعك أن تصل إلى الكويت بسهولة . البصرة مليئة بالأدلاء الذين يتولون تهريبك إلى هناك عبر الصحراء .. لماذا لا تذهب ؟ »

سمعت زوجته كلام سعد فنقلت بصرها بين وجهيهما وأخذت تهدهد طفلها من جديد .

– « انها مغامرة غير مأمونة العواقب ؟ »

– « غير مأمونة العواقب ؟ ها ! ها ! أبو قيس يقول : غير مأمونة العواقب .. ها ها » !

ثم نظر إليها وقال :

– « أسمعت ما يقول زوجك ؟ غير مأمونة العواقب ! كأن الحياة شربة لبن ! لماذا لا يفعل مثلنا ؟ هل هو أحسن ؟.. »

لم ترفع بصرها إليه ، وكان هو يرجو أن لا تفعل ..

– « أتعجبك هذه الحياة هنا ؟ لقد مرت عشر سنوات وأنت تعيش كالشحاذ.. حرام! إبنك قيس، متى سيعود للمدرسة ؟ وغداً سوف يكبر الآخر .. كيف ستنظر إليه وأنت لم ... »

– « طيب ! كفى ! »

– « لا ! لم يكف ! حرام ! أنت مسؤول الآن عن

عائلة كبيرة . لماذا لا تذهب إلى هناك ؟ ما رأيك أنتِ ؟ »

زوجته ما زالت صامتة وفكر هو : « غداً سيكبر هو الآخر ... » ولكنه قال :

– « الطريق طويلة . وأنا رجل عجوز ليس بوسعي أن أسير كما سرتم أنتم .. قد أموت .. »

لم يتكلم أحد في الغرفة ، زوجته ما زالت تهدهد طفلها . وكف سعد عن الإلحاح ولكن الصوت الغليظ إنفجر في رأسه هو :

– « تموت ؟ هيه ! من قال أن ذلك ليس أفضل من حياتك الآن ؟ منذ عشر سنوات وأنت تأمل أن تعود إلى شجرات الزيتون العشر التي امتلكتها مرة في قريتك ... قريتك ! هيه ! »

عاد فنظر إلى زوجته :

– « ماذا ترين يا أم قيس ؟ »

حدقت إليه وهمست :

« كما ترى أنت ... »

« سيكون بوسعنا أن نعلم قيس .. »

– « نعم » .

– « وقد نشتري عرق زيتون أو إثنين .. »

– « طبعاً ! »

– « وربما نبني غرفة في مكان ما .. »

– « أجـــل »

ـ « إذا وصلت .. إذا وصلت .. »

كف . ونظر إليها .. لقد عرف أنها سوف تبكي : ستر تجف شفتها السفلى قليلاً ثم ستنساب دمعة واحدة تكبر رويداً رويداً ثم تنزلق فوق خدها المغضن الأسمر .. حاول أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يستطع . كانت غصة دامعة تمزق حلقه .. غصة ذاق مثلها تماماً حين وصل إلى البصرة وذهب إلى دكان الرجل السمين الذي يعمل في تهريب الناس من البصرة إلى الكويت . وقف أمامه حاملاً على كتفيه كل الذل وكل الرجاء اللذين يستطيع رجل عجوز أن يحملهما .. وكان الصمت مطبقاً مطناً حين كرر الرجل السمين صاحب المكتب .

ـ « انها رحلة صعبة . أقول لك . ستكلفك خمسة عشر دينـــاراً » .

ـ « وهل تضمن أننا سنصل سالمين ؟ »

ـ « طبعاً ستصل سالماً . ولكن ستتعذب قليلاً . أنت تعرف ، نحن في آب الآن . الحر شديد والصحراء مكان بلا ظل .. ولكنك ستصل .. »

كانت الغصة ما تزال في حلقه . ولكنه أحس أنه إذا ما أجل ذلك الذي سيقوله فلن يكون بوسعه أن يلفظه مـــرة أخرى :

ـ « لقد سافرت آلافاً من الأميال كي أصل إليك . لقد أرسلني سعد . أتذكره ؟ ولكنني لا أملك إلا خمسة عشر

ديناراً . ما رأيك أن تأخذ منها عشرة وتترك الباقي لي ؟ »

قاطعه الرجل :

– « إننا لا نلعب .. ألم يقل لك صديقك أن السعر محدود هنا ؟ اننا نضحي بحياة الدليل من أجلكم .. »

– « ونحن أيضاً نضحي بحياتنا .. »

– « انني لا أجبرك على هذا »

– « عشرة دنانير ؟ »

– « خمسة عشر ديناراً .. ألا تسمع ؟ »

لم يعد بوسعه أن يكمل . كان الرجل السمين الجالس وراء كرسيه . المتصبب عرقاً . يحدق إليه بعينين واسعتين وتمنى هو لو يكف الرجـــل عن التحديق ، ثم أحس بها ، ساخنة تملأ مؤقه وعلى وشك أن تسقط .. أراد أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع . أحس أن رأسه كله قد امتلأ بالدمع من الداخل فاستدار وانطلق إلى الشارع . هناك بدأت المخلوقات تغيم وراء ستار من الدمع . إتصل أفق النهار بالسماء وصار كل ما حوله مجرد وهج أبيض لا نهائي . عاد ، فارتمى ملقياً صدره فوق التراب الندي الذي أخذ يخفق تحته من جديد .. بينما انسابت رائحة الأرض إلى أنفه وانصبت في شرايينه كالطوفان .

« أسْعَد »

وقف أسعد أمام الرجل السمين صاحب المكتب الذي يتولى تهريب الناس من البصرة إلى الكويت ، ثم انفجر :

ـ خمسة عشر ديناراً سأدفعها لك ؟.. لا بأس ! ولكن بعد أن أصل وليس قبل ذلك قط ..

حدق إليه الرجل من وراء جفنيه السمينين وسأل ببلاهة :

ـ لمـــاذا ؟

ـ لماذا ؟ ها ! لأن الدليل الذي سترسلونه معنا سوف يهرب قبل أن نصل إلى منتصف الطريق ! خمسة عشر ديناراً . لا بأس .. ولكن ليس قبل أن نصل ..

طوى الرجل أوراقاً صفراء أمامه وقال بلؤم :

ـ أنا لا أجبرك على أي شيء .. أنا لا أجبرك .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أنه إذا لم تعجبك شروطنا فبوسعك أن تستدير ، وتخطو ثلاث خطوات ، وستجد نفسك في الطريق .

الطريق !.. أتوجد بعد طرق في هذه الدنيا ؟ ألم يمسحها بجبينه ويغسلها بعرقه طوال أيام وأيام ، كلهم يقولون ذلك : ستجد نفسك على الطريق !.. قال له أبو العبد الذي هربه

من الاردن إلى العراق :

– « ما عليك إلا أن تدور حول الإتشفور . لا بأس أن تضرب قليلاً إلى الداخل . أنت ما زلت فتى وبوسعك أن تتحمل قليلاً من القيظ .. ثم عد ، وستجدني بانتظارك على الطريق .. »

– « ولكن هذا لم يكن ضمن الشروط .. لقد قلت لي ، ونحن في عمان أنك ستأخذني إلى بغداد ودفعت لك عشرين ديناراً كاملاً .. لم تقل لي أنني سأدور حول الإتشفور .. »

وضرب أبو العبد جناح سيارته المغبر فعلّمت أصابعه الخمسة وبان من تحتها لون السيارة الأحمر الفاقع .. كانت السيارة الضخمة واقفة إلى جانب البيت قرب جبل عمان حين تفاوض معه . وهو يذكر تماماً كل الشروط التي قيلت :

– « إنها مهمة صعبة . وسوف يأخذونني إلى السجن لو أمسكوك معي ، ورغم ذلك فسوف أقدم لك خدمة كبرى لأنني كنت أعرف والدك ، رحمه الله .. بل إننا قاتلنا سوية في الرملة منذ عشر سنوات .. »

صمت أبو العبد قليلاً .. كان قميصه الأزرق ينضح بالعرق وأعطاه وجهه الحاد شعوراً بأنه أمام واحد من أولئك الرجال الذين يعتقدون أن اجتراح معجزة ما هو واجب من واجبات رب العائلة :

– « سآخذ منك عشرين ديناراً .. وسوف تجد نفسك في بغداد .. »

– « عشرون ديناراً ؟ »

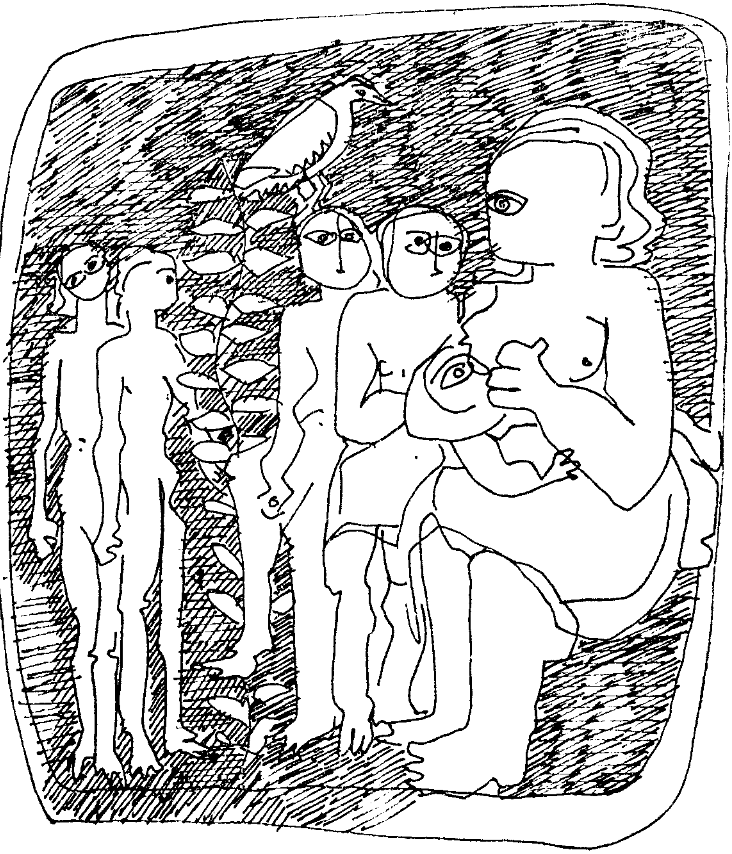

— « نعم ! وعليك أيضاً أن تساعدني طوال الطريق . سنبدأ بعد غد ، علي أن أشحن سيارة صغيرة لرجل ثري في بغداد كان قد أمضى شطراً من الصيف في رام الله ثم اراد أن يعود إلى بغداد بالطائرة .. »

— « ولكن .. عشرين ديناراً ؟ »

نظر إليه أبو العبد بإلحاح ، ثم إنفجر :

— « انني أنقذ حياتك بعشرين ديناراً .. أتحسب أنك ستمضي عمرك مختفياً هنا ؟ غداً يلقون القبض عليك .. »

— « ولكن من أين .. من أين أحضر لك عشرين ديناراً ؟»

— « إستدن .. إستدن ، أي صديق بوسعه أن يعطيك عشرين ديناراً إذا عرف بأنك ستسافر إلى الكويت .. »

— « عشرون ديناراً ؟ »

— « عشرون .. عشرون .. »

— « إلى بغداد ؟ »

— مباشرة !

ولكنه كذب عليه ، إستغل براءته وجهله ، خدعه ، أنزله من السيارة ، بعد رحلة يوم قائظ ، وقال له ان عليه أن يدور حول الإتشفور كي يتلافى الوقوع في أيدي رجال الحدود ، ثم يلتقيه على الطريق !

— « لكنني لا أعرف هذه المنطقة.. أتفهم أنت معنى أن أسير كل هذه المسافة حول الإتشفور ، في عز الحر ؟ »

ضرب أبو العبد جناح سيارته المغبر مرة أخرى : كانا

واقفين منفردين قبل ميل من الإتشفور وصاح :

ــ ماذا تعتقد ؟ ان إسمك مسجل في كل نقاط الحدود . إذا رأوك معي الآن . لا جواز سفر ولا سمة مرور .. ومتآمر على الدولة ماذا تعتقد أنه سيحدث ؟ كفاك دلالاً .. أنك قوي كالثور بوسعك أن تحرك ساقيك .. سألاقيك وراء الإتشفور على الطريق .

كلهم يتحدثون عن الطرق .. يقولون : تجد نفسك على الطريق ! وهم لا يعرفون من الطريق إلاّ لونها الأسود وأرصفتها ! وها هو الرجل السمين ، المهرب البصراوي يكرر القصة نفسها .

ــ ألا تسمع ؟ أنني رجل مشغول جداً . قلت لك : خمسة عشر ديناراً وسأوصلك إلى الكويت . طبعاً عليك أن تمشي قليلاً ولكنك فتى في غاية القوة ، لن يضيرك هذا .

ــ ولكن لماذا لا تصغي إلي ؟ قلت لك أنني سأعطيك المبلغ إذا ما وصلنا إلى الكويت .

ــ ستصل ! ستصل !

ــ كيف ؟

ــ انني أقسم لك بشرفي أنك ستصل إلى الكويت !

ــ تقسم بشرفك ؟

ــ أقسم لك بشرفي انني سألتقيك وراء الاتشفور ! ما عليك إلاّ أن تدور حول تلك المنطقة الملعونة وستجدني بانتظارك !

لقد دار دورة كبيرة حول الإتشفور . كانت الشمس تصب لهباً فوق رأسه ، وأحس فيما كان يرتقي الوهاد الصفر . أنه وحيد في كل هذا العالم .. جرجر ساقيه فوق الرمل كما لو أنه يمشي على رمل الشاطىء بعد أن سحب زورقاً كبيراً إمتص صلابة ساقيه .. إجتاز بقاعاً صلبة من صخور بنية مثل الشظايا ثم صعد كثباناً واطئة ذات قمم مسطحة من تراب أصفر ناعم كالطحين .. تراهم لو حملوني إلى معتقل الجفر الصحراوي .. هل سيكون الأمر أرحم مما هو الآن ؟ عبث .. الصحراء موجودة في كل مكان ، كان أبو العبد قد أعطاه كوفية لف بها رأسه ، ولكنها لم تكن ذات جدوى في رد اللهب بل خيل إليه أنها آخذة ، هي الأخرى ، في الإحتراق .. كان الأفق مجموعة من الخطوط المستقيمة البرتقالية ، ولكنه كان قد عقد عزمه على المسير بجدّ .. وحتى حينما إنقلب التراب إلى صفائح لامعة من ورق أصفر ، لم يتباطأ .. وفجأة بدأت الأوراق الصفر تتطاير فانحنى يلمها :

— شكراً ، شكراً .. إن هذه المروحة الملعونة تطيّر الأوراق من أمامي ، ولكن دونها ليس بوسعي أن أتنفس .. ها ! ماذا قررت ؟.

— هل أنت متأكد من أن الدليل الذي سترسله معنا لن يهرب ؟

— كيف يهرب أيها الغبي ؟ ستكونون أكثر من عشرة أشخاص .. لن يكون بوسعه أن يهرب منكم ...

– وإلى أين سيوصلنا ؟

– حتّى طريق الجهرة ، وراء المطلاع . وهناك ستكونون داخل الكويت ..

– هل سنمشي كثيراً ؟.

– ست أو سبع ساعات فقط ...

بعد أربع ساعات وصل إلى الطريق . كان قد خلف الإتشفور وراءه ، وكانت الشمس قد سقطت وراء التلال البنيّة إلا أن رأسه كان ما يزال يلتهب وخيل إليه أن جبينه يتصبب دماً .. لقد اقتعد حجراً وألقى بصره بعيداً إلى رأس الطريق الأسود المستقيم ، كان رأسه مشوّشاً تخفق فيه آلاف الأصوات المتشابكة ، وبدا له أن بروز سيارة كبيرة حمراء في رأس تلك الطريق أمر خيالي وسخيف .. وقف . حدق إلى الطريق من جديد ، لم يكن بوسعه أن يرى بوضوح بعد ، تراه الغسق أم العرق ؟. كان رأسه ما يزال يطن مثل الخلية ، وصاح بملء رئتيه :

– أبو العبد .. يلعن أبوك .. يلعن أصلك ..

– ماذا قلت ؟

– أنا ؟ لا شيء ، لا شيء .. متى ستبدأ الرحلة ؟

– حال يصير عددكم عشرة .. أنت تعرف ، ليس بوسعنا أن نرسل دليلاً مع كل واحد منكم . ولذلك فنحن ننتظر حتّى يرتفع العدد إلى عشرة أشخاص ونرسل معهم دليلاً واحداً .. هل ستعطيني النقود الآن ؟

شدّ على النقود في جيبه وفكّر : « سوف يكون بوسعي ان أرد لعمي المبلغ في أقل من شهر .. هناك في الكويت يستطيع المرء أن يجمع نقوداً في مثل لمح البصر ... »

– لا تتفاءل كثيراً ، قبلك ذهب العشرات ثم عادوا دون أن يحضروا قرشاً ... ورغم ذلك سأعطيك الخمسين ديناراً التي طلبتها ، وعليك أن تعرف أنها جنى عمر ...

– إذن لماذا تعطيني النقود إذا كنت متأكداً من أنني لن أعيدها لك ؟

– أنت تعرف لماذا .. ألست تعرف ؟ انني أريدك أن تبدأ .. أن تبدأ ولو في الجحيم حتى يصير بوسعك أن تتزوج ندى .. انني لا أستطيع أن أتصور إبنتي المسكينة تنتظر أكثر هل تفهمني ؟

أحس الإهانة تجترح حلقه ورغب في أن يرد الخمسين ديناراً لعمه يقذفها بوجهه بكل ما في ذراعه من عنف وفي صدره من حقد ، يزوجه ندى ! من الذي قال له إنه يريد أن يتزوج ندى ؟ لمجرد أن أباه قرأ معه الفاتحة حين ولد هو وولدت هي في يوم واحد ؟ إن عمه يعتبر ذلك قدراً ، بل إنه رفض مئة خاطب قدموا ليتزوجوا إبنته ، وقال لهم إنها مخطوبة ! يا إله الشياطين ! من الذي قال له أنه يريد أن يتزوجها ؟ من قال له أنه يريد أن يتزوج أبداً ؟ وها هو الآن يذكره مرة أخرى ! يريد أن يشتريه لإبنته مثلما يشرى كيس الروث للحقل ، شد على النقود في جيبه وتحفز في مكانه ..

ولكنه حين لمسها هناك ، في جيبه ، دافئة ناعمة . شعر بأنه يقبض على مفاتيح المستقبل كله ، فلو أتاح الآن لحنقه أن يسيطر عليه ليرجع النقود إلى عمه ، إذن لما تيسرت له قط فرصة الحصول على خمسين دينار بأي شكل من الأشكال .. هدأ غضبه مطبقاً فمه بأحكام وشدّ أصابعه على النقود الملتفة في جيب بنطاله ، ثم قال :

ـ لا ، لا ، سأسلمك النقود حالما تجهز الرحلة تماماً .. سوف أراك مرة في كل يوم .. انني أنزل في فندق قريب ..

إبتسم الرجل السمين ، ثم تطاولت إبتسامته فانفجر ضاحكاً بصخب :

ـ من الخير لك أن لا تضيع وقتك يا بنيّ .. كل المهربين يتقاضون نفس السعر ، نحن متفقون فيما بيننا .. لا تتعب نفسك .. وعلى أي حال : إحتفظ بنقودك حتى تجهز الرحلة . أنت حر ... ما إسم الفندق الذي تنزل فيه ؟

ـ فندق الشط ..

ـ آه ! فندق الجرذان ! .

نط جرذ الحقل عبر الطريق فلمعت عيناه الصغيرتان في ضوء السيارة وقالت الفتاة الشقراء لزوجها المنهمك بالسياقة :

ـ إنه ثعلب ! أرأيته ؟

قال الزوج الأجنبي ضاحكاً :

ـ أف منكن أيتها النساء ! تجعلن من الجرذ ثعلباً ! .

كانا قد إلتقطاه بعد الغروب بقليل بعد أن لوّح لهما وهما

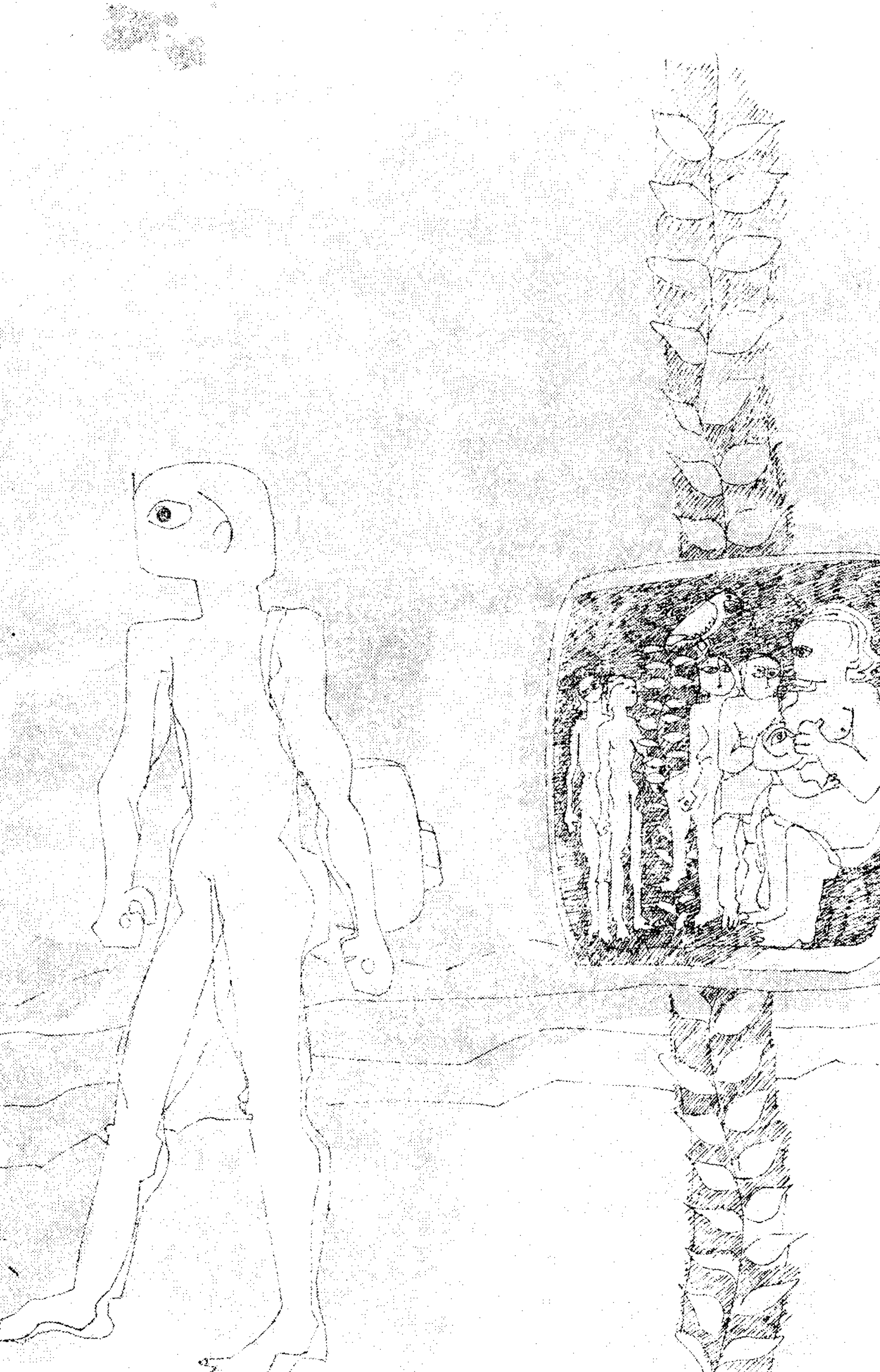

في سيارتهما الصغيرة . فلما أوقف الزوج السيارة ، أطل هو من النافذة ... كان يرجف من فرط البرد . وكانت الزوجة خائفة منه .. إلاّ أنه جمّع في ذهنه ما تعلمه من اللغة الإنكليزية وقـــال :

ـ لقد أضطر صديقي أن يعود إلى الإتشفور بالسيارة وتركني ...

قاطعه الرجل :

ـ لا تكذب .. أنت هـــارب من هناك ، لا بـــأس ، اصعد .. سأوصلك إلى بعقوبة .

كان المقعد الخلفي مريحاً وناولته الفتاة بطانية إلتفح بها وكان لا يستطيع أن يعرف بالضبط ، هل هو يرجف بسبب البرد الصحراوي ، أم بسبب الخوف ، أم بسبب التعب .. وقال الرجل :

ـ هل مشيت كثيراً ؟

ـ لست أدري .. ربما أربع ساعات ..

ـ لقد تركك الدليل .. أليس كذلك ؟ ان ذلك يحدث دائماً .

إلتفتت إليه الفتاة وسألت :

ـ لماذا تهربون من هناك ؟

أجابها زوجهـــا :

ـ انها قصة طويلة .. قل لي .. هل تجيد قيادة السيارات ؟

ـ نعـــم ..

– بوسعك أن تأخذ مكاني بعد أن تستريح قليلاً .. قد أستطيع أن أساعدك على عبور مركز الحدود العراقي .. سنصل هناك في الثانية بعد منتصف الليل . وسيكون المسؤولون نياماً ..

لم يكن يستطيع أن يركز رأسه على محور واحد ، كان مشوشاً ولم يكن بوسعه أن يهتدي إلى أول طريق التساؤلات كي يبدأ ، ولذلك حاول جهده أن ينام ولو لنصف ساعة ..

– من أين أنت ؟.

– من فلسطين .. من الرملة .

– أوف.. ان الرملة بعيدة جداً .. قبل اسبوعين كنت في زيتا .. أتعرف زيتا ؟ لقد وقفت أمام الأسلاك الشائكة ، فاقترب مني طفل صغير وقال بالانكليزية ان بيته يقع على بعد خطوات وراء الأسلاك ..

– هل أنت موظف ؟

– موظف ؟ ها ! ان الشيطان نفسه تأبى عليه براءته أن يكون موظفاً . كلا يا صديقي .. أنا سائح ..

– « أنظر .. أنظر ، انه ثعلب آخر .. ألم ترَ إلى عينيه كيف تتقدان ؟ »

– « يا عزيزتي انه جرذ .. جرذ .. لماذا تصرين على أنه ثعلب ؟ هل سمعت ما حدث أخيراً هناك ، قرب زيتا ؟ »

– « كلا .. ماذا حدث ؟ »

ــ « الشيطان لا يعرف ماذا حدث ! هل ستستقر في بغداد ؟ »

ــ « كـــلا .. »

ــ « أوف ! إن هذه الصحراء مليئة بالجرذان . تراها ماذا تقتات؟ »

أجاب بهدوء :

ــ « جرذاناً أصغر منها .. »

قالت الفتاة :

ــ « حقاً ؟ إنه شيء مرعب ! الجرذ نفسه حيوان مرعب كريه .. »

قال الرجل السمين صاحب المكتب :

ــ « الجرذ حيوان كريه .. كيف بوسعك أن تنام في ذلك الفندق ؟ »

ــ « إنه رخيص . »

نهض الرجل السمين صاحب المكتب واقترب منه ثم وضع ذراعه الثقيلة فوق كتفيه :

ــ « تبدو متعباً أيها الفتى ... ماذا حدث ؟ هل أنت مريض ؟ »

ــ « أنا ؟ كلا ! »

ــ « إذا كنت مريضاً قل لي .. قد أستطيع أن أساعدك .. لي كثير من الأصدقاء يعملون أطباء .. واطمئن . لن تدفع شيئاً .. »

— « بارك الله فيك . ولكنني تعب قليلاً .. هذا كل ما في الأمر .. هل سيتأخر إعداد الرحلة ؟ »

— « كلا . نحمد الله أنكم كثر .. خلال يومين ستجد نفسك على الطريق .. »

أدار ظهره واتجه إلى الباب ، ولكن قبل أن يجتازه سمع الرجل السمين يقهقه من وراء كتفيه :

— « ... لكن حاذر أن تأكلك الجرذان قبل أن تسافر .. »

« مَـــروان »

خرج مروان من دكان الرجل السمين الذي يتولى تهريب الناس من البصرة إلى الكويت . فوجد نفسه في الشارع المسقوف المزدحم الذي تفوح منه رائحة التمر وسلال القش الكبيرة .. لم تكن لديه أية فكرة محددة عن وجهته الجديدة .. فهناك . داخل الدكان . تقطعت آخر خيوط الأمل التي شدت . لسنوات طويلة . كل شيء في داخله .. كانت الكلمات الأخيرة التي لفظها الرجل السمين حاسمة ونهائية . بل خيِّل إليه أنها كانت مصبوبة من رصاص :

– خمسة عشر ديناراً .. ألا تسمع ؟

– ولكن ..

– أرجوك ! أرجوك ! لا تبدأ بالنواح ! كلكم تأتون إلى هنا ثم تبدأون بالنواح كالأرامل !.. يا أخي . يا روحي .. لا أحد يجبرك على الالتصاق هنا . لماذا لا تذهب وتسأل غيري . البصرة مليئة بالمهربين !

طبعاً سيذهب ويسأل غيره . لقد قال له حسن – الذي اشتغل في الكويت أربع سنين – أن تهريب الفرد الواحد من

البصرة إلى الكويت يكلف خمسة دنانير فقط لا غير . وانه يجب أن يكون – حين يمثل أمام المهرب – أكبر من رجل وأكثر من شجاع وإلا ضحك عليه وخدعه واستغل سنيه الست عشرة وجعل منه ألعوبة .

– قالوا أن سعر الواحد خمسة دنانير .

– خمسة دنانير ؟ هاهاها ! كان ذلك قبل أن تزف حواء إلى آدم .. يا بني ، استدر ، واخط ثلاث خطوات . وستجد نفسك في الطريق غير مطرود !

جمع شجاعته كلها وحشدها في لسانه ، كل ما تبقى في جيبه لا يزيد عن السبعة دنانير . ولقد كان يحسب قبل هنيهة أنه غني .. أما الآن .. أتراه يستصغره ؟

– سوف تأخذ مني خمسة دنانير وأنت مبسوط .. وإلاّ ..

– وإلاّ ماذا ؟

– وإلاّ فضحتك في مخفر الشرطة !.

قام الرجل السمين ودار حول مكتبه ثم وقف أمامه وهو يلهث ويتصبب عرقاً .. حدق فيه هنيهة قاسه فيها من رأسه حتى قدميه ثم رفع يده الثقيلة في الهواء ..

– تريد أن تشكوني إلى الشرطة يا ابن ا ...

وهوت اليد الثقيلة فوق خده . فضاعت الكلمة في طنين شيطاني أخذ يدور بين أذنيه .. لم يستطع أن يحتفظ بتوازنه للحظة فخطا إلى الوراء خطوتين صغيرتين ، ووصله صوت الرجل السمين مبحوحاً بالغضب :

– إذهب وقل للقواويد أنـني ضربتك .. تشكوني للشرطة ؟

تحفز في مكانه لبرهة وجيزة ، ولكنها كانت كافية ليكتشف فيها عبث أية محاولة يقوم بها لترميم كرامته ، بل إنه أحس – حتى عظامه – بأنه قد أخطأ خطأ لا يغتفر . فأخذ يمضغ ذله وعلامات الأصابع فوق خده الأيسر تلتهب ..

– ماذا تراك تنتظر هنا ؟

دار على عقبيه ، واجتاز الباب إلى الخارج فصفعت أنفه روائح التمر وسلال القش الكبيرة .. تراه ماذا سيفعل الآن ؟ لم يكن يريد أن يسأل السؤال لنفسه قط .. ولكنه ليس يدري لماذا كان يحس بنوع من الارتياح .. ترى ما السبب في ذلك ؟ لقد أحب أن يشغل نفسه بالتقصي عن السبب .. ثمة شعور يملأ جانباً من رأسه ويوحي له بالارتياح والسعادة ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفصله عن كل الأحداث المؤسية التي إحتشدت في صدره خلال نصف الساعة الماضي .. وحين إنتهت كل محاولاته إلى الفشل اتكأ على الحائط .. كانت جموع الناس تعبر حواليه دون أن تلتفت إليه . ربما يحدث هذا للمرة الأولى في حياته : أن يكون منفرداً وغريباً في مثل هذا الحشد من البشر .. ولكنه كان يريد أن يعرف سبب ذلك الشعور البعيد الذي يوحي له الاكتفاء والارتياح . شعور يشابه ذاك الذي كان يراوده

بعد أن ينتهي من مشاهدة فيلم سينمائي فيحس بأن الحياة كبيرة وواسعة وأنه سوف يكون في المستقبل واحداً من أولئك الذين يصرفون حياتهم، لحظة أثر لحظة وساعة أثر ساعة بامتلاء وتنوع مثيرين.. ولكن ما السبب في كونه يحس الآن مثل ذلك الشعور رغم أنه لم يشاهد منذ زمن بعيد فيلماً من ذلك النوع، ورغم أن خيوط الأمل التي نسجت في صدره أحلاماً كباراً قد تقطعت، قبيل لحظات، داخل دكان الرجل السمين؟

لا فائدة.. يبدو أنه لن يستطيع اختراق الحجاب الكثيف من خيبة الأمل الذي ارتفع دونه ودون ذلك الشعور الملتف على نفسه في مكان ما من رأسه.. وقرر، فيما بعد، أن لا يرهق رأسه قط.. وأن يشغل نفسه بالمسير.. ولكنه ما أن ترك الجدار وبدأ يمشي في الزحام حتى شعر بيد تربت على كتفه..

– لا تيأس إلى هذا الحد... إلى أين ستذهب الآن؟

كان الرجل الطويل قد بدأ يسير إلى جانبه بألفة. وحين نظر إليه خيل له أنه قد شاهده في مكان ما من قبل. ولكنه رغم ذلك، ابتعد عنه خطوة وصب فوق وجهه عينين متسائلتين، فقال الرجل:

– إنه لص شهير.. ما الذي قادك إليه؟

أجاب بعد تردد قصير:

– كلهم يأتون إليه..

إقترب الرجل منه وشبك ذراعه بذراعه كأنه يعرفه منذ زمن بعيد:

– أتريد أن تسافر إلى الكويت ؟

– كيف عرفت ؟

– لقد كنت واقفاً إلى جانب باب تلك الدكان ، وشهدتك تدخل ثم شهدتك تخرج .. ما اسمك ؟

– مـــروان .. وأنت ؟

– إنهم ينادونني « أبو الخيزران . »

لأول مرة منذ رآه لاحظ الآن أن منظره يوحي حقاً بالخيزران ، فهو رجل طويل القامة جداً ، نحيل جداً ، ولكن عنقه وكفيه تعطي الشعور بالقوة والمتانة وكان يبدو لسبب ما ، أنه بوسعه أن يقوس نفسه ، فيضع رأسه بين قدميه دون أن يسبب ذلك أي إزعاج لعموده الفقري أو بقية عظامه .

– حسناً ، ماذا تريد مني ؟

تجاهل أبو الخيزران السؤال بسؤال من عنده :

– لماذا تريد أن تسافر إلى الكويت ؟

– أريد أن أشتغل .. أنت تعرف كيف تجري الأمور هناك .. منذ شهور طويلة وأنا ..

صمت فجأة ووقف .

الآن ، فقط ، عرف منشأ ذلك الشعور بالارتياح والاكتفاء الذي لم يكن بوسعه ، قبل دقائق ، أن يكتشفه .. إنه ينفتح أمام عينيه بكل اتساعه وصفائه ، بل إنه هدم ، بشكل رائع ، كل سدود الكآبة التي حالت بينه وبين معرفته ..

وها هو الآن يتملكه من جديد بسطوة لا مثيل لها قط .. كان أول شيء فعله ذلك الصباح الباكر هو كتابة رسالة طويلة إلى أمه .. وإنه يشعر الآن بمزيد من الارتياح لأنه كتب تلك الرسالة قبل أن تخيب آماله كلها في دكان الرجل السمين فيضيع صفاء الفرح الذي صبه في تلك الرسالة .. لقد كان بديعاً أن يعيش بعض ساعة مع أمه .

نهض باكراً جداً ذلك الصباح .. كان الخادم قد رفع السرير إلى سطح الفندق لأن النوم داخل الغرفة في مثل ذلك القيظ وتلك الرطوبة أمر مستحيل .. وحينما أشرقت الشمس فتح عينيه .. كان الجو رائعاً وهادئاً وكانت السماء ما زالت تبدو زرقاء تحوّم فيها حمامات سود على علو منخفض ويسمع رفيف أجنحتها كلما اقتربت – في دورتها الواسعة – من سماء الفندق .. كان الصمت مطبقاً بكثافة ، والجو يعبق برائحة رطوبة مبكرة صافية .. مد يده إلى حقيبته الصغيرة الموضوعة تحت السرير فأخرج دفتراً وقلماً ومضى يكتب رسالة إلى أمه وهو مستلق هناك .

كان ذلك أحسن ما فعله خلال شهور . لم يكن مجبراً على فعله ، ولكنه كان يريد ذلك بملء رغبته وإرادته .. كان مزاجه رائقاً ، وكانت الرسالة تشبه صفاء تلك السماء فوقه .. ليس يدري كيف أجاز لنفسه أن يصف أباه بأنه مجرد كلب منحط ولكنه لم يشأ أن يشطب ذلك بعد أن كتبه . لم يكن يريد أن يشطب أي كلمة في الرسالة كلها .. ليس

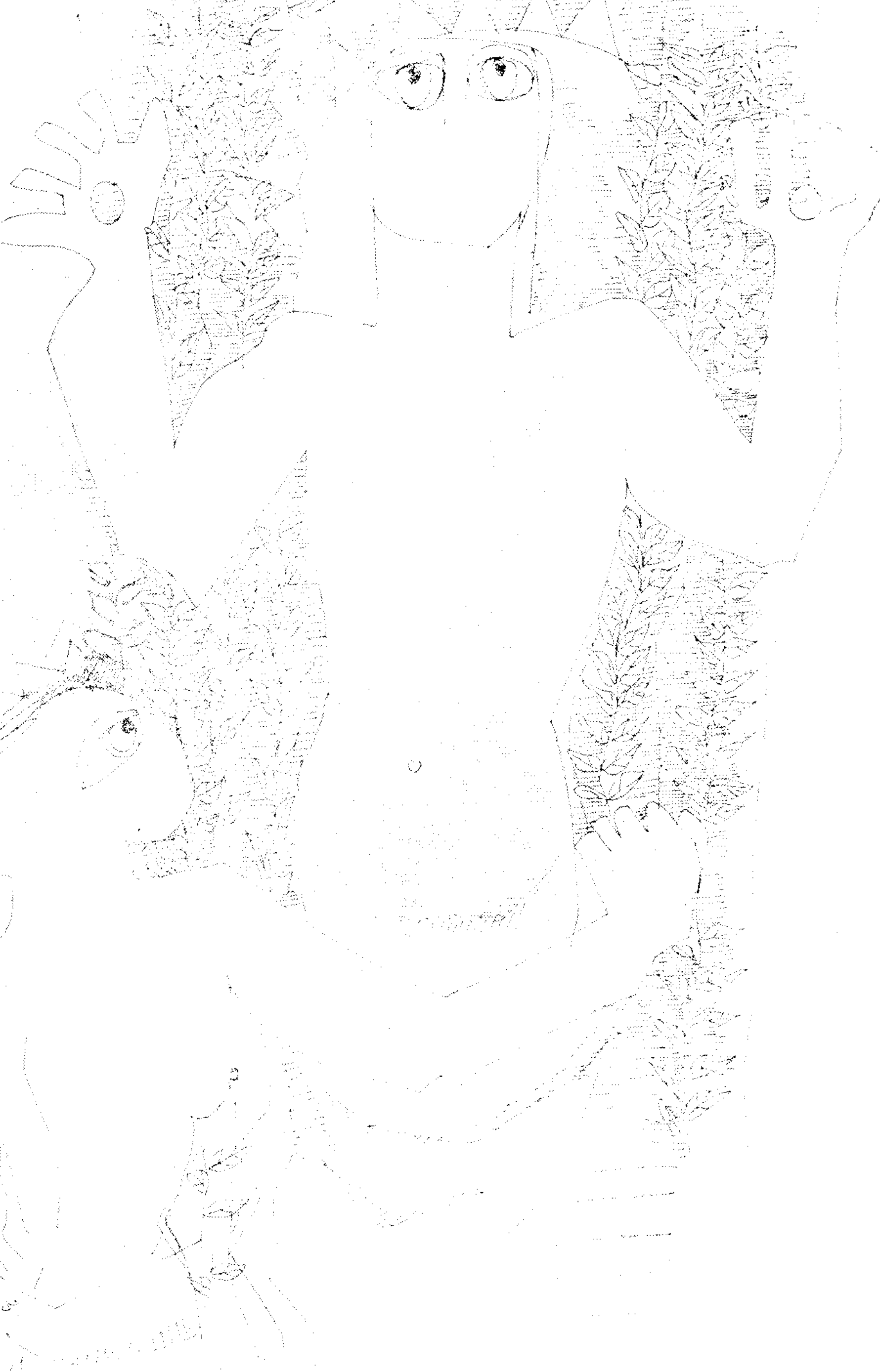

لأن أمه تتشاءم من الكلمات المشطوبة فقط ، بل لأنه كان لا يريد ذلك أيضاً ، وببساطة .

ولكنه — على أي حال — لا يحقد على أبيه إلى ذلك الحد .. صحيح أن أباه قام بعمل كريه ، ولكن من منا لا يفعل ذلك بين الفينة والأخرى ؟ إنه يستطيع أن يفهم بالضبط ظروف والده ، وبوسعه أن يغفر له .. ولكن هل بوسع والده أن يغفر لنفسه تلك الجريمة ؟

« ان يترك أربعة أطفال . أن يطلقك أنت بلا أي سبب ، ثم يتزوج من تلك الامرأة الشوهاء .. هذا أمر لن يغفره لنفسه حين يصحو ، ذات يوم ، ويكتشف ما فعل .

اني لا أريد ان أكره أحداً ، ليس بوسعي أن أفعل ذلك حتى لو أردت .. ولكن لماذا فعل ذلك ، معك أنت ؟ أنا أعرف أنك لا تحبين لأحد منا أن يحكي عنه ، أعرف .. ولكن لماذا تعتقدين أنه فعل ذلك ؟

لقد مضى كل شيء الآن وراح ولا أمل لنا بأن نستعيده مرة أخرى .. ولكن لماذا فعل ذلك ؟ دعينا نسأل ، لماذا ؟

أنا سوف أقول لك لماذا.. منذ ان انقطعت عنا اخبار اخي زكريا اختلف الوضع نهائياً .. كان زكريا يرسل لنا من الكويت ، كل شهر حوالي مئتي روبية .. كان هذا المبلغ يحقق لأبي بعض الاستقرار الذي يحلم به .. ولكن حين انقطعت أخبار زكريا — نرجو أن يكون ذلك خيراً — ماذا تعتقدين انه فكر ؟

لقد قال لنفسه — بل قال لنا كلنا — ان الحياة أمر عجيب ..

وان الرجل يريد أن يستقر في شيخوخته لا أن يجد نفسه مجبراً على إطعام نصف دزينة من الأفواه المفتوحة .. ألم يقل ذلك؟ زكريا راح .. زكريا ، ضاعت أخباره ، من الذي سيطعم الأفواه ؟ من الذي سيكمل تعليم مروان ويشتري ملابس مي ويحمل خبزاً لرياض وسلمى وحسن ؟ من ؟

إنه رجل معدم ، أنت تعرفين ذلك .. لقد كان طموحه كله .. كل طموحه ، هو أن يتحرك من بيت الطين الذي يشغله في المخيم منذ عشر سنوات ويسكن تحت سقف من اسمنت . كما كان يقول .. الآن ، زكريا راح .. آماله كلها تهاوت .. أحلامه انهارت .. مطامحه ذابت .. فماذا تعتقدين أنه سيفعل ؟

لقد عرض عليه صديقه القديم والد شفيقة أن يتزوجها .. قال له انها تمتلك بيتاً من ثلاث غرف في طرف البلد ، دفعت ثمنه من تلك النقود التي جمعتها لها منظمة خيرية .. وأبو شفيقة يريد شيئاً واحداً : أن يلقي حمل ابنته – التي فقدت ساقها اليمنى أثناء قصف يافا – على كاهل زوج ! إنه على عتبة قبره ويريد أن يهبطه مطمئناً على مصير ابنته التي رفضها الجميع بسبب تلك الساق المبتورة من أعلى الفخذ .. لقد فكر والدي بالأمر : لو أجّر غرفتين وسكن مع زوجته الكسحاء في الثالثة إذن لعاش ما تبقى له من الحياة مستقراً غير ملاحق بأيما شيء .. وأهم من ذلك .. تحت سقف من إسمنت .. »

– أتريد أن تبقى واقفاً هنا إلى الأبد ؟

نفض رأسه وسار .. كان « أبو الخيزران » ينظر إليه من

طرف حدقتيه . وخيل إليه أنه على وشك أن يبتسم ساخراً .

ــ ما بالك تفكر بهذا الشكل ؟ ان التفكير غير ملائم لك يا مروان . ما زلت صغير السن .. والحياة طويلة ..

وقف مرة أخرى وألقى برأسه إلى الوراء قليلاً :

ــ والآن .. ماذا تريد مني ؟.

واصل « أبو الخيزران » المسير فلحق به من جديد :

ــ أستطيع أن أهربك إلى الكويت ..

ــ كيف ؟

ــ هذا شأني أنا .. أنت تريد أن تذهب إلى الكويت أليس كذلك ؟ ها هو ذا إنسان بوسعه أن يأخذك إلى هناك .. ماذا تريد غير ذلك ؟

ــ كم ستأخذ مني ؟

ــ هذا ليس مهماً في الواقع ..

ــ إنه المهم .

إبتسم أبو الخيزران إبتسامة واسعة فانشقت شفتاه عن صفين من الأسنان الكبيرة الناصعة البياض ثم قال :

ــ سأخبرك الأمر بكل صراحة .. أنا رجل مضطر للذهاب إلى الكويت . قلت لنفسي : لا بأس من أن أرتزق فأحمل معي بعض من يريد أن يذهب إلى هناك ... كم بوسعك أن تدفع ؟.

ــ خمسة دنانير ..

ــ فقط ؟

– لا أملك غيرها .

– حسناً . سأقبلها ..

وضع أبو الخيزران يديه في جيبه ومضى يسير بخطوات واسعة حتى اوشك مروان أن يضيعه ، فاضطر إلى اللحاق به مسرعاً . إلاّ أن أبا الخيزران وقف فجأة وهز اصبعه أمام فمــــه :

– .. ولكن ! لا تقل ذلك لأي إنسان .. أعني إذا طلبت من رجل آخر عشرة دنانير فلا تقل له انني أخذت منك خمسة فقط ...

– ولكن كيف تريدني أن أثق بك ؟

فكر أبو الخيزران قليلاً ثم عاد فابتسم تلك الإبتســـامة الواسعة وقال :

– معك حق ! ستعطيني النقود في ساحة الصفاة في الكويت .. في العاصمة .. في منتصف العاصمة ، مبسوط ؟

– مــــوافق !

– ولكننا سنحتاج إلى عدد آخر من المسافرين .. وعليك أن تساعدني ، هذا شرط .

– انني أعرف واحداً ينزل معي في الفندق ويرغب في السفر .

– هذا رائع . أنا أعرف واحداً آخر .. إنه من بلدتي في فلسطين أيام زمان قابلته صدفة هنا ... ولكنني لم أسألك .. ماذا تريد أن تفعل في الكويت .. هل تعرف أحداً ؟

وقف مرة أخرى ، إلاَّ أن أبا الخيزران شده من ذراعه فعاد يخب إلى جانبه ..

ـ إن أخي يعمل هناك .

هزَّ أبو الخيزران رأسه فيما كان يسير متعجلاً ثم رفع كتفيه فغاصت عنقه وبدا أقصر من ذي قبل ..

ـ وإذا كان أخوك يشتغل هناك ... فلماذا تريد أنت أن تشتغل ؟ الذين في سنك ما زالوا في المدارس !..

ـ لقد كنت في المدرسة قبل شهرين . ولكنني أريد أن أشتغل الآن كي أعيل عائلتي ..

وقف أبو الخيزران ثم رفع كفيه من جيبيه وثبتهما على خصريه وأخذ يحدق إليه ضاحكاً :

ـ ها ! لقد فهمت الآن .. أخوك لم يعد يرسل لكم نقوداً ، أليس كذلك ؟

هزَّ مروان رأسه وحاول أن يسير ، إلاَّ أن أبا الخيزران شده من ذراعه فأوقفه ..

ـ لماذا ؟ هل تزوج ؟

حدق مروان إلى أبي الخيزران مشدوهاً ثم همس :

ـ كيف عرفت ؟

ـ ها ! الأمر لا يحتاج إلى ذكاء خارق . كلهم يكفون عن إرسال النقود إلى عائلاتهم حين يتزوجون أو يعشقون ..

أحسَّ مروان بخيبة أمل صغيرة تنمو في صدره ، لا لأنه فوجىء ، بل لأنه اكتشف ان الأمر شائع ومعروف . لقد كان

يحسب أنه يخنق صدره على سرّ كبير لا يعرفه غيره : حجبه عن أمه وأبيه طوال شهور وشهور .. وها هو الآن يبدو على لسان أبي الخيزران كأنه قاعدة معروفه وبديهية ..

– ولكن .. لماذا يفعلون ذلك ؟ لماذا يتنكرون لـ ...

صمت فجأة . كان أبو الخيزران قد بدأ يضحك :

– أنا مبسوط انك ستذهب إلى الكويت لأنك ستتعلم هناك أشياء عديدة .. أول شيء ستتعلمه هو أن : القرش يأتي أولاً . ثم الأخلاق .

حين تركه أبو الخيزران على أمل لقاء بعد الظهر كان قد فقد – من جديد – كل تلك المشاعر الرائعة التي كانت تغسله من الداخل . طوال الصباح .. بل انه استغرب كيف تكون تلك الرسالة التي كتبها لأمه قد أعطته الشعور الرائق الذي جعل خيبة أمله تبدو أقل قيمة مما هي في الواقع .. رسالة سخيفة كتبها تحت وطأة الشعور بالوحدة والأمل على سطح فندق حقير مرمي في طرف الكون .. ما هو الخارق في الأمر ؟ أيحسب ان أمه لا تعرف القصة كلها ؟ ماذا كان يريد أن يقول ؟ أكان يريد أن يقنعها بأن هجران زوجها لها ولأولادها أمر رائع وطبيعي ؟ إذن لماذا كل تلك الثرثرة ؟ انه يحب والده حباً خارقاً لا يتزعزع .. ولكن هذا لا يغير شيئاً من الحقيقة الراعبة .. الحقيقة التي تقول ان أباه قد هرب .. هرب .. هرب .. تماماً كما فعل زكريا الذي تزوّج وأرسل له رسالة صغيرة قال له فيها ان دوره قد أتى . وأن عليه أن يترك تلك المدرسة السخيفة

التي لا تعلم شيئاً وأن يغوص في المقلاة مع من غاص ..

كل عمره كان على طرفي نقيض مع زكريا .. بل إنهما كانا – في الواقع – يكرهان بعضهما .. زكريا لم يكن يستطيع أن يفهم قط لماذا يتوجب عليه أن يصرف على العائلة طوال عشر سنوات بينما يروح مروان ويجيء الى المدرسة مثل الاطفال .. وكان هو يريد أن يصبح طبيباً .. كان يقول لأمه ان زكريا لن يفهم قط معنى أن يتعلم الإنسان لأنه ترك المدرسة حين ترك فلسطين وغاص ، منذ ذاك ، في المقلاة ، كما يحب أن يقول .

وها هو الآن قد تزوج دون أن يقول ذلك لأحد غيره . كأنه كان يريد أن يضعه أمام ضميره وجهاً لوجه .. ولكن ماذا ترك له ليختار ؟ لا شيء غير أن يترك المدرسة ويعمل . يغوص في المقلاة من هنا وإلى الأبد !

لا بأس ! لا بأس .. أيام قليلة ويصل الى الكويت .. إذا ساعده زكريا كان ذلك أفضل ، إذا تجاهله فلسوف يعرف كيف يهتدي إلى أول الطريق كما اهتدى الكثيرون .. ولسوف يرسل كل قرش يحصله إلى أمه . سوف يغرقها ويغرق إخوته بالخير حتى يجعل من كوخ الطين جنة إلهية .. ويجعل أباه يأكل أصابعه ندماً !

ورغم ذلك ، فإنه لا يكره أباه الى هذا الحد . لسبب بسيط هو أن أباه ما زال يحبهم جميعاً .. لقد تأكد من ذلك تماماً حين ذهب إليه يودعه قبل أن يسافر . لم يقل لأمه أنه سيذهب إلى بيت شفيقة وإلاّ لكانت جنت.. قال له أبوه هناك:

– أنت تعرف يا مروان بأن لا يد لي في الأمر . هذا شيء مكتوب لنا منذ بدء الخليقة .

قالت شفيقة :

– قلنا لأمك أن تأتي وتسكن هنا لكنها لم تقبل .. ماذا تريدنا أن نفعل أكثر من ذلك ؟

كانت جالسة فوق بساط من جلد ماعز ، وكان العكاز ملقى إلى جانبها . وفكر هو : « ترى أين ينتهي فخذها ؟ » كان وجهها جميلاً ولكنه حاد الملامح مثل وجوه كل أولئك المرضى الذين لا يرجى لهم الشفاء . وكانت شفتها السفلى مقوسة كأنها على وشك أن تبكي ..

قال أبوه :

– خذ. هذه عشرة دنانير .. قد تنفعك .. واكتب لنا دائماً.

حين قام رفعت شفيقة ذراعيها في الهواء ودعت له بالتوفيق . كان صوتها فاجعاً وحين التفت إليها قبل أن يجتاز الباب بدأت تشهق بالبكاء . وقال له أبوه :

– وفقك الله يا مروان يا سبع .

وحاول أن يضحك إلاّ أنه لم يستطع فأخذ يربت بكفه الكبيرة الخشنة على ظهره بينما تناولت شفيقة عكازها واستوت واقفة بحركة سريعة . كانت قد كفت عن البكاء .

صفق الباب وراءه وسار . كان ما زال يسمع صوت عكاز شفيقة يقرع البلاط برتابة . وعند المنعطف تلاشى الصوت .

« الصَفقَــة »

إقتاد مروان زميله أسعد إلى موعده مع أبي الخيزران ، وصلا متأخرين قليلاً فوجدا أبا الخيزران بانتظارهما ، جالساً مع أبي قيس فوق مقعد إسمنت كبير على رصيف الشارع الموازي للشط .

ـ لقد إجتمعت العصابة كلها الآن ، أليس كذلك ؟

صاح أبو الخيزران ضاحكاً وهو يضرب كتف مروان بكفه ويمد الأخرى ليصافح أسعد .

ـ هذا هو صديقك إذن .. ما اسمه ؟

أجاب مروان باقتضاب :

ـ أسعد .

ـ دعني إذن أعرفكما على صديقي العجوز .. « أبو قيس .. » وبهذا تكون العصابة قد اكتملت .. لا بأس أن تزداد واحداً .. ولكنها الآن كافية أيضاً .

قال أسعد :

ـ يبدو لي أنك فلسطيني .. أأنت الذي سيتولى تهريبنا ؟

– نعم ، أنا .

– كيف ؟

– هذا شأني أنا ..

ضحك أسعد بسخرية ثم قال ببطء شاداً على كلماته بعنف :

– لا يا سيدي .. انه شأننا نحن .. يجب أن تحكي لنا كل التفاصيل ، لا نريد متاعب منذ البدء .

قال أبو الخيزران بصوت حاسم :

– سأحكي لكم التفاصيل بعد أن نتفق ، وليس قبل ذلك ..

قال أسعد :

– لا يمكن أن نتفق قبل أن نعرف التفاصيل . ما رأي الشباب ؟

لم يجب أحد ، فأكد أسعد من جديد :

– ما رأي العم أبو قيس ؟

– الرأي رأيكم ..

– ما رأيك يا مروان ؟

– أنا معكم .

قال أسعد بعنف :

– اذن ، دعونا نختصر الوقت .. يبدو لي أن العم أبو قيس غير خبير بالأمر ، أما مروان فإنها تجربته الأولى .. أنا عتيق في هذه الصنعة ، ما رأيكم أن أتفاوض عنكم ؟

رفع أبو قيس كفه في الهواء موافقاً ، وهزّ مروان رأسه . فالتفت أسعد إلى أبي الخيزران ..

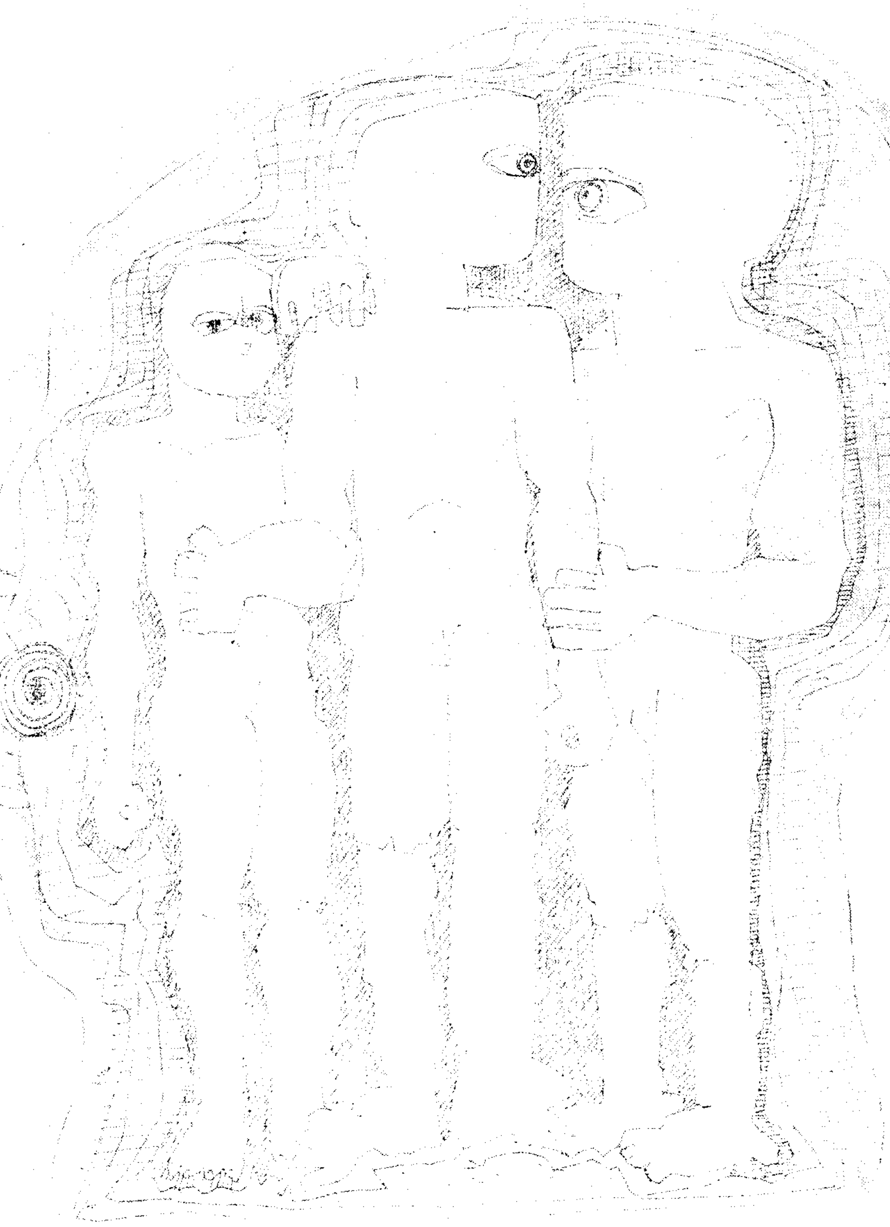

ـ لقد رأيت : الشباب سلموني الأمر ، فدعني أقول لك شيئاً : إننا من بلد واحد . نحن نريد أن نرتزق وأنت تريد أن ترتزق ، لا بأس ، ولكن يجب أن يكون الأمر في منتهى العدل .. سوف تحكي لنا بالتفصيل كل خطوة ، وسوف تقول لنا بالضبط كم تريد ، طبعاً سنعطيك النقود بعد أن نصل وليس قبل ذلك قط ..

قال أبو قيس :

ـ الأخ أسعد يحكي الحق .. يجب أن نكون على بينة من الأمر ، وكما يقول المثل : ما يبدأ بالشرط ينتهي بالرضا .

رفع أبو الخيزران كفيه من جيبيه ووضعهما على خصريه ، ثم نقل بصره فوق الوجوه جميعاً ببطء وببرود حتى قرّ قراره فوق وجه أسعد :

ـ أولاً ، كل واحد منكم سيدفع عشرة دنانير .. موافقون ؟

قال أبو قيس :

ـ أنا موافق .

قال أسعد :

ـ أرجوك .. لقد سلمتني الأمر اذن دعني أحكي .. عشرة دنانير مبلغ كبير ، ان المهرب المحترف يأخذ خمسة عشر ديناراً .. ثم ..

قاطعة أبو الخيزران :

ـ لقد اختلفنا إذن قبل أن نبدأ ، هذا ما كنت أخشاه ..

عشرة دنانير لا تنقص فلساً .. السلام عليكم .

أدار ظهره وخطا خطوتين بطيئتين قبل أن يلحقه أبو قيس صائحاً :

– لماذا غضبت ؟ الموضوع سؤال وجواب والإتفاق أخو الصبر ..

– حسناً . نعطيك عشرة دنانير .. ولكن كيف ستأخذنا ؟

– ها ! نحن الآن في شغل الجد .. إسمع .

جلس أبو الخيزران على مقعد الإسمنت ووقف الثلاثة حواليه ومضى يشرح مستعيناً بيديه الطويلتين :

– لديَّ سيارة مرخصة لاجتياز الحدود .. ها ! يجب أن تنتبهوا : انها ليست سيارتي .. أنا رجل فقير أكثر منكم جميعاً وكل علاقتي بتلك السيارة أنني سائقها ! صاحب هذه السيارة رجل ثري معروف . ولذلك فانها لا تقف كثيراً على الحدود . ولا تتعرض للتفتيش . فصاحب السيارة معروف ومحترم . والسيارة نفسها معروفة ومحترمة وسائق السيارة . تبعاً لذلك . معروف ومحترم ..

كان أبو الخيزران سائقاً بارعاً . فقد خدم في الجيش البريطاني في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ أكثر من خمس سنين . وحين ترك الجيش وانضم إلى فرق المجاهدين كان معروفاً بأنه أحسن سائق للسيارات الكبيرة يمكن أن يعثر عليه . ولذلك إستدعاه مجاهدو الطيرة ليقود مصفحة عتيقة كان رجال القرية قد استولوا عليها إثر هجوم يهودي .. ورغم أنه لم يكن خبيراً

في قيادة المصفحات إلاّ أنه لم يخيب آمال أولئك الذين وقفوا على جانبي الطريق يتفرجون عليه وهو يدخل من الباب المصفح الصغير ويغيب لحيظات . ثم يهدر المحرك بالضجيج وتمضي المصفحة تدرج في الطريق الرملي الضيق . إلاّ أن المصفحة ما لبثت أن تعطلت ، ولم تجدِ كل المحاولات التي بذلها أبو الخيزران لإعادتها إلى سيرتها السوية .. وإذا كانت خيبة أمل الرجال كبيرة . فإن خيبة أمله كانت أكبر ، ولكن ابا الخيزران – على أي حال – أضاف إلى تجاربه في عالم المحركات تجربة أخرى ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول أن أن هذه التجربة لم تنفعه حين انضم الى سائقي سيارات الحاج رضا في الكويت ؟

لقد إستطاع ذات يوم أن يقود سيارة ماء جبارة أكثر من ست ساعات في طريق ملحي موحل دون أن تغوص في الأرض وتتعطل مثلما حدث لجميع سيارات القافلة .. كان الحاج رضا قد خرج مع عدد من رجاله إلى الصحراء ليغيبوا عدة أيام في القنص .. إلاّ أن الربيع كان خادعاً ، وأثناء عودتهم كانت الطريق تبدو بيضاء صلدة ، وهذا ما دفع سائقي السيارات لاقتحامها دون وجل ، وهناك بدأت السيارات ، الكبيرة والصغيرة ، تغوص في الوحل واحدة أثر الأخرى .. إلاّ أن أبا الخيزران ، الذي كان يقود سيارته الجبارة خلف الجميع واصل السير ببراعة ودون أن يتعطل ثانية واحدة .. وحين شارف سيارة الحج رضا الرمادية الغارقة حتى ثلاثة أرباع

عجلاتها الورائية في الوحل . أوقف سيارته وهبط ثم اقترب من الحج وقال له :

– ما رأي عمي الحج رضا أن يصعد الى سيارتي ؟ ان انتشال هذه السيارات يستلزم أكثر من أربع ساعات ، وفي هذا الوقت يكون عمي الحج رضا قد وصل إلى بيته .

قال الحج رضا :

– تمام ! ان صوت محرك سيارتك أرحم من الوقوف هنا مدة أربع ساعات .

وقاد ابو الخيزران سيارته الضخمة طوال ست ساعات فوق تلك الأرض الخادعة التي تبدو بيضاء صلدة بسبب طبقة رقيقة من الملح الذي جف على السطح ، وكان أبو الخيزران . طوال الطريق . يحرك مقود سيارته حركات خفيفة وسريعة ذات اليمين وذات اليسار كي تستطيع العجلتان الأماميتان أن تفتحا طريقاً أوسع قليلاً من حاجتهما ..

لقد سرّ الحج رضا للغاية من براعة أبي الخيزران وتحدث بذلك لكل أصدقائه طوال شهور .. وقد سرّ الحج أكثر حين نما إليه أن أبا الخيزران رفض عروضاً عديدة للعمل عند سواه ، بعد أن تفشت هذه الأخبار . واستدعاه وأثنى عليه ثم زوّد راتبه قليلاً .. ما هو أهم من ذلك أن الحج رضا بات يشترط أن يكون أبو الخيزران رفيقاً ضرورياً لكل رحلة قنص أو سفر بعيد .

منذ أسبوع خرج الحج رضا في قافلة من سياراته إلى رحلة قنص أقامها خصيصاً من أجل ضيوف ينزلون عنده . وقد

كلف أبو الخيزران بقيادة سيارة الماء الكبيرة التي سترافق القافلة طوال الرحلة وتؤمن الماء الوفير للرجال أثناء الرحلة التي قد تستغرق أكثر من يومين .. لقد ضربت القافـــلة بعيداً في الصحراء حتى أن الحج رضا فضل أن يسلك في طريق عودته دروباً أخرى تصل به إلى الزبير . ومن الزبير يستطيع أن يسلك الطريق الرئيسي الذي يعود إلى الكويت .. كان من الممكن أن يكون أبو الخيزران الآن في الكويت . مع بقية القافلة لو لم يصب سيارته الكبيرة عطل صغير يضطره للبقاء في البصرة يومين آخرين حتى يصلحه . ثم يلحق بمن سبق .

– أنت تريد إذن أن تضعنا داخل خزان ماء سيارتك في طريق عودتك ؟

– بالضبط ! لقد قلت لنفسي : لماذا لا تنتهز الفرصة فترتزق بقرشين نظيفين طالما أنت هنا . وطالما أن سيارتك لا تخضع للتفتيش ؟

نظر مروان إلى أبي قيس . ثم إلى أسعد فنظرا إليه بدورهما متسائلين :

– إسمع يا أبا الخيزران .. هذه اللعبة لا تعجبني ! هل تستطيع أن تتصور ذلك ؟ في مثل هذا الحر من يستطيع أن يجلس في خزان ماء مقفل ؟

– لا تجعل من القضية مأساة . هذه ليست أول مرة .. هل تعرف ما الذي سيحدث ؟ ستنزلون إلى الخزان قبل نقطـــة الحدود في صفوان بخمسين متراً . سأقف على الحدود أقل من

خمس دقائق . بعد الحدود بخمسين متراً ستصعدون إلى فوق.. وفي المطلاع على حدود الكويت . سنكرر المسرحية لخمس دقائق أخرى ، ثم هوب ! ستجدون أنفسكم في الكويت !

هزّ أسعد رأسه ثم حدق إلى الأرض لبرهة وقد قلب شفته السفلى . أما مروان فقد أخذ يتلهى بقصف عود جاف ، وواصل أبو قيس التحديق إلى السائق طويل القامة .. وفجأة قـــال مـــروان :

– هل يوجد ماء في الخزان ؟

إنفجر أبو الخيزران ضاحكاً وابتسم أسعد :

– طبعاً لا .. ماذا تعتقد ؟ هل أنا مهرب أم معلم سباحة ؟

وكأنما راقت الفكرة لأبي الخيزران فقد مضى يقهقـــه ويضرب فخذيه بكفيه ويدور حول نفسه ..

– ماذا تعتقد ؟ هل أنا معلم سباحة ؟ أيها الصغير : إن الخزان لم يرَ الماء منذ ستة شهور !

قال أسعد بهدوء :

– حسبت أنك كنت تنقل الماء في رحلة قنص قبل أسبوع ؟

– أوف .. أنت تعرف . تعرف مـــاذا أقصد .

– لا ، لا أعرف .

– أقصد منذ ستة أيام .. إن المرء يبالغ أحياناً .. والآن ، هل اتفقنا ؟.. دعونا ننهي هذا الإجتماع الخطير !.

وقف أبو قيس مهيئاً نفسه للقول الفصل . ولكنه قبل ان ينطق دوّر بصره على الجميع وتوقف هنيهة وهو ينظر إلى أسعد

كأنه يرجوه العون ، ثم اقترب من أبي الخيزران ..

ــ إسمع يا أبا الخيزران .. أنا رجل درويش ولا أفهم بكل هذه التعقيدات .. ولكن قصة رحلة القمنص تلك . لم تعجبني .. تقول انك حملت للحج رضا ماء . ثم تقول الآن ان خزان سيارتك لم يشم رائحة الماء منذ ستة أشهر . سأقول لك الحقيقة وأرجو أن لا تغضب : أنا أشك في أنك تملك سيارة ..

إلتفت أبو قيس للبقية ومضى يكمل بصوت حزين :

ــ أنا أفضل أن أدفع خمسة عشر ديناراً وأذهب مع مهرب عن طريق الصحراء .. لا أريد مزيداً من المشاكل.

ضحك أبو الخيزران وقال بصوت عال :

ــ إذهب وجرب .. أتحسب أنني لا أعرف هؤلاء المهربين ؟ سيتركونكم في منتصف الطريق ويذوبون مثل فص الملح ! . وأنتم بدوركم ستذوبون في قيظ آب دون ان يشعر بكم أحـــد .. إذهب .. إذهب وجرب .. قبلك جرب الكثيرون .. تريد أن ادلك ؟ لماذا تحسب أنهم يأخذون منكم المبلغ سلفاً ؟

ــ « ولكنني أعرف كثيرين وصلوا إلى هناك عن طريق المهربين » .

ــ « عشرة بالمئة على الأكثر .. ثم اذهب واسألهم وسيقولون لك أنهم أكملوا الطريق بلا مهرب وبلا دليل . وان حظهم قد ساعدهم على النجاة . »

جمد أبو قيس في مكانه . وبدا للحظة أنه موشك على

السقوط . ولاحظ مروان أن أبا قيس يشبه والده الى حد بعيد ، فأشاح بوجهه عنه . لم يعد بوسعه أن يركز رأسه على موضوع واحد .. فيما مضى أبو الخيزران صائحاً :

– يجب أن تقرروا بسرعة! ليس لدي مزيد من الوقت لأضيعه . أقسم لكم بشرفي ..

قال أسعد مقاطعاً بهدوء :

– أترك موضوع الشرف في ناحية أخرى .. الأمور تمضي بشكل أفضل حين لا يقسم المرء بشرفه ..

إلتفت أبو الخيزران إليه وقال :

– والآن يا سيد أسعد ، أنت رجل ذكي ومجرب.. ما رأيك ؟

– رأيي بماذا ؟

– بكل شيء .

إبتسم أسعد ولاحظ أن أبا قيس ومروان ينتظران أن يسمعا قراره . فمضى يحكي ببطء وسخرية :

– أولاً ، أعفينا من تصديق قصة رحلة التمنص !. يبدو لي أن الحج رضا وجنابك تعملان بالتهريب .. عفوك قليلاً ، دعني أكمل .. الحج رضا يعتقد أن تهريب الأشخاص في طريق العودة أمر تافه ، لذلك يتركه لك ، أما أنت فتترك له بالمقابل تهريب الأمور الأهم .. وبنسبة من الأرباح المعقولة . أم تراه لا يعرف أنك تهرب أشخاصاً في طريق العودة ؟

إبتسم أبو الخيزران ابتسامة واسعة فبانت أسنانه البيضاء النظيفة من جديد وبدا أنه لا يريد أن يجيب أسعد ..

قال مروان فجأة :

ـ وقصة القنص ؟

ـ أوه ! قصة القنص معدة لرجال الحدود . ليس لنا .. ولكن أبا الخيزران لا يجد بأساً من أن يرويها ..

إتسعت إبتسامة أبي الخيزران أكثر من قبل وأخذ يبادل الرجال النظر دون أن يتكلم .. وبدا ، للحظة . أنه غبي .

قال أبو قيس :

ـ ولكن مـاذا يهرّب الحج رضا ؟ لقد قلت انـه رجل ثري !.

نظر الجميع الى أبي الخيزران الذي كف . فجأة . عن الابتسام وعاد وجهه يكتسي بطابع اللامبالاة والتسلط ثم قال بحزم :

ـ والآن كفوا عن الثرثرة .. يجب أن لا تعتقد يا سيد أسعد أنك ذكي الى هذا الحد .. ماذا قررتم ؟.

قال أسعد بهدوء :

ـ أنا شخصياً لا أهتم إلاّ بموضوع وصولي إلى الكويت ، أما ما عدا ذلك فإنه لا يعنيني .. ولذلك فانني سأسافر مع أبي الخيزران .

قال مروان بحماسة :

ـ وأنا سأسافر معكما .

قال أبو قيس :

– هل تعتقدون أنه بوسعي أن أرافقكم ، أنا رجل عجوز ..

ضحك أبو الخيزران بعنف ثم شبك ذراعه بذراع أبي قيس

– له ! له ! يا أبا قيس .. من الذي أوهمك أنك عجوز الى هذا الحد ؟. ربما أم قيس ! له ! يجب أن تأتي معنا ...

كانا قد سارا خطوات قليلة معاً وتركا مروان وأسعد واقفين إلى جانب مقعد الاسمنت الكبير . إلتفت أبو الخيزران من فوق كتفه وصاح :

– سينام أبو قيس معي في السيارة .. وسأزمر لكما صباح غد الباكر أمام الفندق .

« الطريق »

لم يكن الركوب فوق ظهر السيارة الجبارة مزعجاً كثيراً . فرغم أن الشمس كانت تصب جحيمها بلا هوادة فوق رأسيهما إلاّ أن الهواء الذي كان يهب عليهما بسبب سرعة السيارة خفف من حدة الحر .. كان أبو قيس قد صعد مع مروان الى فوق وجلسا على حافة الخزان متجاورين أما أسعد فقد رست عليه القرعة ليجلس الى جانب السائق في الفترة الأولى من الرحلة .

قال أسعد محدثاً نفسه :

ـ « سوف يأتي دور العجوز أخيراً ليستظل هنا .. ولكن لا بأس ، على أي حال . فإن الشمس تبقى محتملة الآن .. أما عند الظهيرة فسيكون حظ العجوز حسناً .. »

قال أبو الخيزران فجأة . بصوت عـــال ليسمع عبر هدير المحرك :

ـ هل تتصور ؟.. إن هذه الكيلومترات المئة والخمسين أشبهها بيني وبين نفسي بالسراط الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجري توزيعهم بين الجنة والنار .. فمن سقط عن

السراط ذهب إلى النار ، ومن اجتازه وصل إلى الجنة .. أما الملائكة هنا فهم رجال الحدود !

إنفجر أبو الخيزران ضاحكاً كأنه لم يكن هو الذي قال ذلك ، ثم أخذ يضرب المقود بكلتا يديه ويهز رأسه ..

– أتعرف ؟ انني أخاف أن تفطس البضاعة ، هناك ..

أشار بعنقه الى حيث يجلس العجوز مع مروان فوق الخزان ومضى يضحك بعنف ..

قال أسعد بهدوء :

– قل لي يا أبا الخيزران .. ألم تتزوج أبداً ؟

– انـا ؟

سأل بعجب ، واكتسى وجهه الهزيل بالأسى كأنه لم يكن يضحك قبل هنيهة .. ثم قال ببطء :

– لماذا تسأل ؟

– لا لشيء معين .. كنت أقول لنفسي ان حياتك رائعة .. لا أحد يشدك من هنا ولا أحد يشدك من هناك .. وتطير أنت منفرداً حيث شئت : تطير .. تطير .. تطير ..

هز أبو الخيزران رأسه ثم ضيّق جفنيه كي يتلافى ضوء الشمس الذي انصب ، فجأة ، فوق زجاج الواجهة .. كان الضوء ساطعاً بحدة حتى أنه لم يستطع ، بادىء الأمر ، أن يرى شيئاً .. إلاّ أنه أحس بألم فظيع يتلولب بين فخذيه ، ثم استطاع أن يتبين ، بعد لأي ، أن ساقيه مربوطتان إلى حمالتين ترفعانهما الى فوق ، وان عدداً من الرجال يدور حوله .. أغمض عينيه برهة ثم فتحهما ، مرة أخرى ، على وسعيهما . كان الضوء

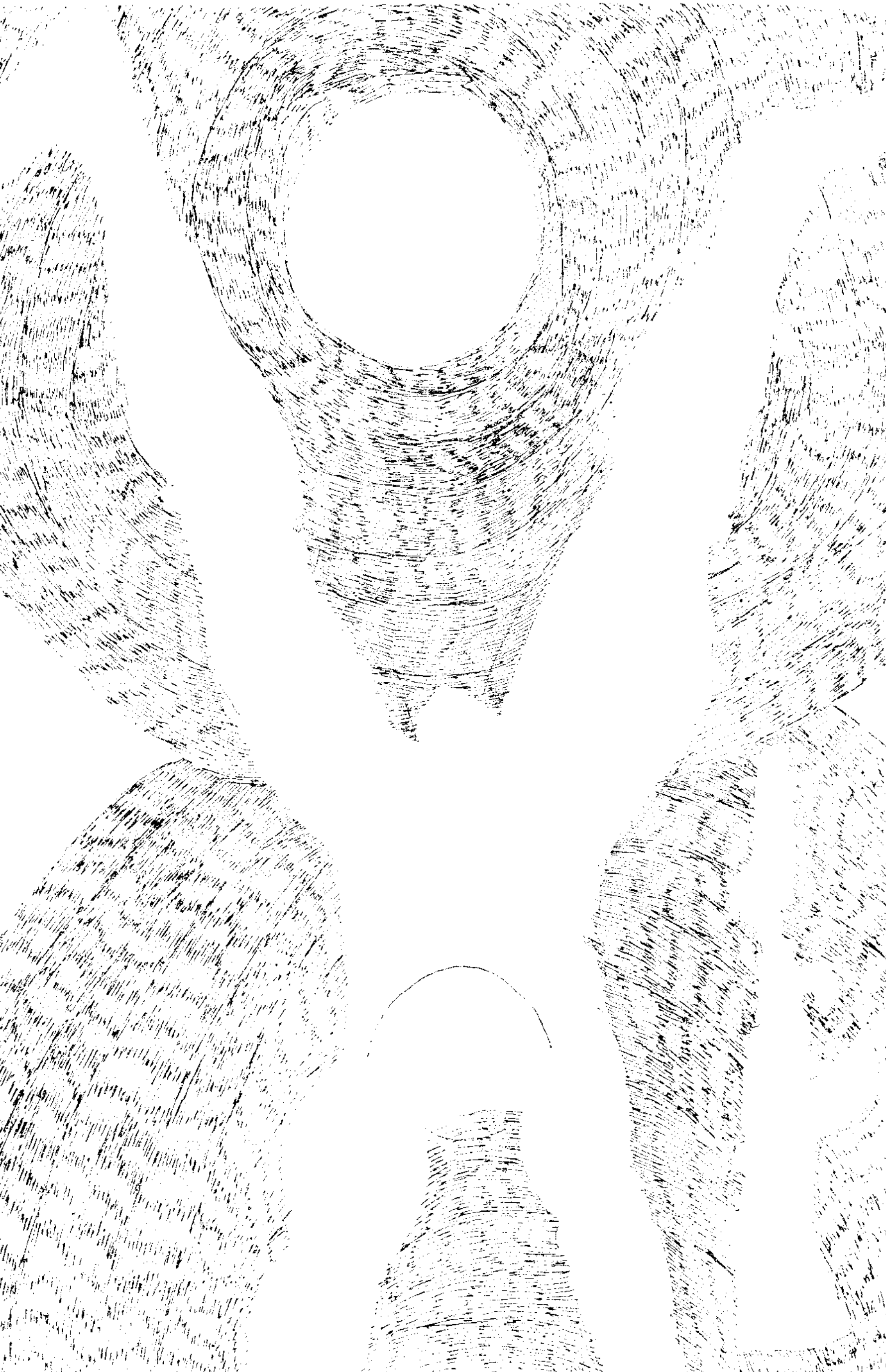

المستدير الموضوع فوق رأسه يحجب عنه السقف ويعشي بصره. ولم يستطع أن يتذكر ، وهو مقيد هناك على ذلك الشكل المحكم والغريب ، أكثر من شيء واحد حدث له منذ برهة . ليس غير .. كان يركض مع عدد من الرجال المسلحين حين تفجرت جهنم أمامه فسقط على وجهه .. هذا كل شيء ، والآن ، الألم الفظيع ما زال يغوص بين فخذيه والضوء المستدير الضخم معلق فوق عينيه وهو يحاول أن يرى الى الأمور والأشخاص مضيقاً جفنيه قدر ما يستطيع .. وفجأة خطر له خاطر أسود فبدأ يصيح بجنون ، ليس يذكر ما الذي قاله حينذاك ، ولكنه أحس بيد تطبق فوق فمه بعنف ، كانت تلبس قفازاً لزجاً .. ووصله الصوت ، كأنما عبر قطن :

ــ كن عاقلاً .. كن عاقلاً .. إن ذلك على أي حال أفضل من أن تموت !..

ليس يدري هل إستطاعوا أن يسمعوه وهو يصيح من بين أسنانه واليد اللزجة مطبقة فوق فمه ؟ أم ان صوته ضاع في حلقه ، انه ، على أي حال ، ما زال يسمع الصوت نفسه كأن إنساناً آخر كان يصيح في أذنيه :

ــ لا .. الموت أفضل .

والآن .. مرت عشر سنوات على ذلك المشهد الكريه ..

مرت عشر سنوات على اليوم الذي اقتلعوا فيه رجولته منه ، ولقد عاش هذا الذل يوماً وراء يوم وساعة اثر ساعة ، مضغه مع كبريائه ، وافتقده كل لحظة من لحظات هذه السنوات

العشرورغم ذلك فانه لم يعتده قط . لم يقبله قط .. عشر سنوات طوال وهو يحاول أن يقبل الأمور . ولكن أية أمور؟ ان يعترف ببساطة بأنه قد ضيّع رجولته في سبيل الوطن ؟ وما النفع ؟ لقد ضاعت رجولته وضاع الوطن وتباً لكل شيء في هذا الكون الملعون ...

كلا إنه لم يقبل . بعد عشر سنوات . أن ينسى مأساته ويعتادها .. بل أنه لم يقبل ذلك حتى حين كان تحت المبضع يحاولون أن يقنعوه بأن فقدان الرجولة أرحم من فقدان الحياة . يا إله الشياطين . إنهم لا يعرفون ذلك قط . لا يعرفون شيئاً ثم يتنطعون لتعليم الناس كل الأشياء .. أتراه لم يقبل أم إنه كان عاجزاً عن القبول ؟ منذ اللحظات الأولى كان قد قرر أن لا يقبل . نعم . هذا هو الصحيح بل أنه كان عاجزاً عن تصور الأمر بتمامه حتى أنه . بلا وعي . هرب من المستشفى قبل أن يشفى نهائياً .. كأن هروبه كان قادراً على تسوية الأمور من جديد . لقد احتاج الى وقت طويل حتى يعتاد مجرد الحياة .. ولكن . تراه اعتادها ؟ ليس بعد .. كلما سئل بشكل عابر : « لماذا لا تتزوج ؟ » عاد إليه الإحساس الكريه بألم يغوص بين فخذيه كأنه ما زال ملقى تحت الضوء المستدير الساطع وساقاه مرفوعتان الى فوق .

كان الضوء متوهجاً وساطعاً حتى أن عينيه بدأتا تدمعان . عندها . مد أسعد يده فأنزل حاجبة الشمس المستطيلة ليقع الظل على وجه أبي الخيزران :

ـ « نعم . إن هذا أفضل .. شكراً .. أتعرف ؟ إن أبا قيس رجل محظوظ ! » أحس أسعد بأن أبا الخيزران يريد تغيير موضوع الزواج الذي أثاره بسؤاله فاستجاب لذلك ببساطة :

ـ لمــاذا ؟

ـ لو قدر له أن يذهب مع المهربين لكان وصوله الى الكويت بمثابة أعجوبة لا أكثر ولا أقل .

كتّف أبو الخيزران ذراعيه على المقود واتكأ بصدره فوقهما ..

ـ أنت لا تعرف كيف تجري الأمور هنا .. كلكم لا تعرفون .. إسألني أنا .. إسألني ، انني أعرف قصصاً يبلغ عددها عدد شعر القط !

ـ إن الرجل السمين يبدو طيباً .. لقد ملت إليه .

أنزل أبو الخيزران رأسه ومسح عرق جبينه بكمه المتكىء على المقود وقال :

ـ هه ! إن الرجل السمين لا يذهب معك عبر الحدود وهو لا يعرف ماذا يحدث ..

ـ ماذا يحدث ؟

ـ لي ابن عم يدعى حسنين ، هُرّب مرة عبر الحدود ، وبعد مسير أكثر من عشر ساعات ، حل الظلام .. عندها أشار المهرب الى مجموعة من الأضواء البعيدة وقال : تلك هــي الكويت .. تصلونها بعد مسيرة نصف ساعة .. أتدري ما الذي

حدث ؟ لم تكن تلك الكويت .. كانت قرية عراقية نائية ! أستطيع أن أروي لك آلافاً من القصص المشابهة . قصص رجال تحولوا إلى كلاب وهم يبحثون عن نقطة ماء واحدة يغسلون بها ألسنتهم المشققة .. وماذا تحسب أنه حدث حين شاهدوا خيام البدو ؟ لقد اشتروا جرعة الماء ، بكل ما يملكون من نقود أو خواتم زواج أو ساعات ... يقولون ان حاتم كان بدوياً .. ولكنني أعتقد أنها مجرد كذبة !.. ذلك زمن راح يا أبا السعد .. راح .. ولكنكم لا تدركون ذلك .. تحسبون أن الرجل السمين بوسعه أن يعمل كل شيء .. أعرف رجلاً عاش في الصحراء وحيداً مدة أربعة أيام ، وحين التقطته سيارة على طريق الجهرة كان على وشك أن يلفظ آخر أنفاسه .. أتدري ماذا فعل ؟ كان يريد شيئاً واحداً من كل هذه الحياة .. كان يريد أن يعود إلى البصرة فور أن يسترد صحته . ويعود إليها عبر الصحراء أيضاً إذا لزم الأمر .. أتعرف لماذا ؟ قال لي انه يريد العودة إلى هناك كي يطبق بكفيه حول عنق الرجل السمين ويخنقه . ثم لتقم القيامة .. كان قد بدأ رحلتهمع صديقين من أصدقاء شبابه . من غزة . عبر إسرائيل . عبر الأردن . عبر العراق .. ثم تركهم المهرب في الصحراء . وهم لما يعبروا حدود الكويت .. لقد دفن صديقيه بتلك الأراضي المجهولة وحمل معه هويتيهما على أمل أن يصل إلى الكويت . فيرسلهما إلى أهليهما . لم يكن يريد لأحد أن ينصحه .. كان يقول انه لا يريد أن ينسى ولا يريد أن يغفر .. وبعد مرور أقل من شهر

عاد أدراجه إلى العراق . ولكنهم ألقوا القبض عليه .. وهو الآن يمضي سنته الثانية في سجن حقير .. ماذا تراك تحسب ؟ تأتون إلينا من المدارس مثل الأطفال وتحسبون أن الحياة هيّنة . أتحسب ان أبا قيس لم يكن يقامر بحياته .. وسوف يكون هو الخاسر !. أنا متأكد من ذلك تأكدي من الشمس الملعونة هذه! غداً حين تصل إلى الكويت ستتذكرني بالخير وتقول : كـان أبو الخيزران يحكي الصحيح . ثم تحمد ربك ألف مرة لأنني أنقذتك من أظافر الرجل السمين .. هل رأيت في عمرك كله هيكلاً عظمياً ملقى فوق الرمل ؟

ــ ماذا قلت ؟

ــ سألتك : هل رأيت في عمرك كله هيكلاً عظمياً ملقى فوق الرمل ؟

ــ كـلا ...

دوّر أبو الخيزران مقود سيارته بعنف ليتجاوز حفرة واسعة في الرمل . ثم بدأت السيارة تخب وترتجف فوق طريق تشبه الدرج المنبسط . وأحس أسعد بأن أمعاءه على وشك أن تقفز من بين أسنانه المصطكة .

ــ كنت سترى الكثير منها لو مشيت مع المهربين .. وعلى أي حال . سوف لن يعني ذلك شيئاً ...

ــ لمـاذا ؟

ــ لأنك ستكون مشغولاً عن التفكير به .. أو . مثلما قال حسنين . لأنك لا تريد أن تفكر به ..

إبتسم أسعد ببلاهة ، لمجرد أنه لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل ، ثم سأل وهو يلكز أبا الخيزران في خاصرته :

— لماذا تعمل إذن في التهريب ؟

— أنا ؟ أنا لا أعمل في التهريب ..

ضحك أسعد وضرب كفه فوق فخذ أبي الخيزران :

— إذن ماذا تسمي هذا ؟

— أقول لك الحقيقة ؟ انني أريد مزيداً من النقود .. مزيداً من النقود .. مزيداً من النقود .. ولقد اكتشفت أنه من الصعب تجميع ثروة عن طريق التهذيب .. أترى هذا المخلوق الحقير الذي هو أنا ؟ انني أمتلك بعض المال !.. وبعد عامين سأترك كل شيء وأستقر .. أريد أن أستريح .. أتمدد .. أستلقي في الظل وأفكر أو لا أفكر .. لا أريد أن أتحرك قط .. لقد تعبت في حياتي بشكل أكثر من كاف ! إي والله ، أكثر من كاف ..

أطفأ أبو الخيزران المحرك بسرعة ، وفتح الباب ثم قفز إلى الأرض .. وأخذ يصيح :

— لقد بدأ الجد .. هيا .. سأفتح لكم باب الخزان .. هاها سيكون الطقس كالآخرة ، هناك في الداخل ..

صعد بخفة فوق السلم الحديدي الصغير وأخذ يعالج باب الخزان المستدير وفكر مروان ببطء : « ان ذراعيه قويتان .. » كانوا يتصببون عرقاً ، إلا أن قميص أبي الخيزران كان مبتلاً تماماً وكان وجهه يبدو كأنه مطلي بالوحل .

إنفتح الباب مقرقعاً ورفع أبو الخيزران طرف القرص

الحديدي إلى فوق فاستوى واقفاً فوق مفصله وبدا باطنه أحمر من فرط الصدأ .. جلس أبو الخيزان إلى جانب الفوهة موسعاً ما بين ساقيه المدلاتين وأخذ يمسح عرقه بالمنديل الأحمر الذي يلفه على مؤخرة رقبته ، تحت قبة القميص الأزرق . وكان يلهث :

ـ أنصحكم أن تنزعوا قمصانكم .. الحر خانق ومخيف هنا وسوف تعرقون كأنكم في المقلى .. ولكن .. لخمس دقائق أو سبع ، وسوف أقود بأقصى ما أستطيع من السرعة .. توجد في الداخل عوارض حديدية .. في كل زاوية عارضة .. انني أفضل أن تتمسكوا بها جيداً وإلا تدحرجتم كالكرات .. طبعاً ستخلعون أحذيتكم ..

بقي الجميع واقفين على الأرض دون حراك ، نهض أبو الخيزران ثم قفز الى تحت وكان يحاول أن يضحك :

ـ بوسع المرء أن ينام في الداخل لو كان الطقس أرحم قليلاً ..

نظر أبو قيس الى مروان ثم نظر كلاهما الى أسعد .. الذي خطا ـ تحت تأثير تلك النظرات ـ خطوتين صغيرتين الى الأمام ، ثم عاد ، فوقف من جديد ، وكان أبو الخيزران يراقبه.

ـ أنصحكم أن تعجلوا قليلاً .. إننا ما زلنا في مطلع النهار وبعد قليل سيصبح الخزان من الداخل فرناً حقيقياً .. بوسعكم أن تأخذوا معكم مطارة . ولكن لا تستعملوها حين تحسون أن السيارة واقفة ..

حسم مروان رأيه فاقترب متسرعاً من السلم الحديدي . إلاّ أن أسعد سبقه فتسلق العجل ثم انحنى فوق الفوهة المفتوحة وأسقط رأسه داخل الخزان لبرهة وجيزة . ثم عاد فرفعه :

– هذه هي جهنم ! إنها تتقد !

قال أبو الخيزران وهو يفرش كفيه الكبيرتين :

– لقد قلت لكم ذلك من قبل ..

كان مروان قد وصل هو الآخر ودس رأسه داخل الفوهة ثم عاد فرفعه وقد ارتسمت على وجهه علائم الاشمئزاز والرعب .. أما أبو قيس فقد وصل إلى جانبهما لاهثاً .. وصاح أبو الخيزران من تحت :

– أتعرفون ماذا تفعلون إذا راود أحدكم العطاس ؟

إبتسم أسعد ابتسامة باهتة بينما نظر مروان الى تحت وبدا أن أبا قيس لم يفهم السؤال ..

– ليضع إصبعه تحت منخريه مستقيماً .. هكذا ..

مثل أبو الخيزران الحركة فبدا وجهه مضحكاً . وقال أسعد وهو يخطو إلى الأمام :

– لا أعتقد أن أحدنا سيعطس في هذا الفرن .. لا تقلق من هذه الناحية ..

وضع أسعد كفيه على خاصرتيه ووقف الى جانب الفوهة مطأطئاً رأسه وكأنه يريد أن يرى ماذا يوجد في الداخل .. بينما خلع أبو قيس قميصه ولفه باعتناء تحت إبطه . وبدا صدره مشعراً شائباً وعظام كتفيه بارزة الى الأمام .. جلس على حافة

الفوهة مدلياً ساقيه داخلها . رمى بقميصه أولاً . ثم بدأ ينزلق بطيئاً مستقيماً معتمداً على ذراعيه المشدودتين فوق حافة الفوهة حتى إذا مالمست قدماه أرض الخزان أرخى ذراعيه وجعل جسده ينساب باعتناء. فغاص رأسه ثم توارت ذراعاه ..

قوّس أسعد جسده وصاح :

ـ كيف ترى الأمور ؟

ودوّى صوت عريض من الداخل كأنه آت من عمق سحيق :

ـ إنه بئر ملعونة ... تعال .

نظر أسعد إلى مروان الذي خلع قميصه ووقف ينتظر بينما بدأ أبو الخيزران يتسلق السلم الحديدي من جديد .

ـ دور من ؟

ـ دوري .

توجه مروان إلى الفوهة وأدار لها ظهره .. أنزل ساقيه أولاً جاعلاً بطنه فوق الحافة ثم انزلق الجسد ببراعة . وبقيت الكفان متمسكتين بإطار الفوهة لبرهة . ثم اختفتا .

لحق أسعد بزميليه دون أن يخلع قميصه . وحين وارته الفوهة انحنى أبو الخيزران محاولاً أن يرى الوضع في الداخل إلاّ أنه لم يرَ شيئاً . في كل مرة كان يطل بها كان جسده يحجب الضوء المتسلل من الفوهة فتتعذر الرؤيا . وأخيراً صاح :

ـ هــا ؟

وأجابه صوت عريض :

ـ ماذا تنتظر ؟ عجل . إننا على وشك الاختناق !

أغلق أبو الخيزران الغطاء بسرعة ودوَّر يده المضلعة دورتين ثم انحدر راكضاً الى مقعده . وبدأت السيارة . قبل أن يغلق الباب . تلتهم الطريق .

في تلك الدقائق القليلة كانت . ثمة . فكرة واحدة تحوّم في رأس أبي الخيزران . ليس غير .

إن الطريق المحفرة . التي تشبه درجاً منبسطاً . تهز السيارة وترجفها بلا هوادة وبلا إنقطاع .. إن هذا الهزيز جدير بأن يجعل البيض عجة في وقت أقل مما تستطيع الخفاقة الكهربائية أن تفعل .. لا بأس بذلك بالنسبة لمروان فهو فتى ، ولا بأس بذلك بالنسبة لأسعد فهو قوي البنية .. ولكن ، ماذا عن أبي قيس ؟ لا شك أن أسنانه تصطك مثل إنسان على وشك أن يموت من شدة الصقيع . ولكن الفرق أنه ليس ثمة صقيع هنا .

بوسع أبي الخيزران أن يتلافى بعض هذا الهزيز لو زاد من سرعته أكثر .. لو جعل هذه الدبابة الجهنمية تسير بسرعة مئة وعشرين بدل التسعين التي يشير لها المؤشر الآن .. ولكن إذا فعل ذلك من يضمن أن لا تنقلب السيارة فوق مثل هذه الطريق الملعونة ؟ لا بأس أن تنقلب السيارة ، فهي ليست له ، ولكن ماذا لو استقرت على قفاها ؟ ثم من قال أن محرك السيارة يتحمل مثل هذه السرعة في مثل هذا الجو وهذه الأرض ؟ إنهم يضعون دائماً على المؤشر أرقاماً عالية ليس من الحكمة أن يبلغها السائق الماهـــر ..

لم يخفف السرعة حين وصل الى صفوان . بل انه ـــ حين

دور في الساحة متجهاً الى اليسار حيث يقوم المخفر لم يرفع قدمه عن مضغط البنزين قيد شعرة بل جعلها دورة واسعة نثرت الغبار في حلقة واسعة .. ولم يرفع قدمه إلا حين ضغط المكبح أمام باب المخفر بعنف . ومرق كالسهم إلى الداخل .

ساحة الجمرك ساحة رملية واسعة في صفوان تتوسطها شجرة كبيرة يتيمة تتهدل أوراقها المتطاولة فترمي ظلاً واسعاً في الساحة .. وعلى الأطراف تنتصب حجرات ذات أبواب خشبية واطئة في داخلها مكاتب مكتظة ورجال مشغولون دائماً.. لم يلحظ أبو الخيزران . وهو يقتحم الساحة بقده المديد . سوى بعض النسوة الجالسات في ظل الشجرة ملتفعات بالعباءات كان ثمة طفل أو طفلان يقفان الى جانب صنبور المياه وكان الحاجب نائماً فوق كرسي القش العتيق .

ــ أبو الخيزران متعجل اليوم !

ــ نعم .. الحج رضا ينتظر .. إذا تأخرت طردني .

ــ الحج رضا لن يطردك . لا تخف .. لا يمكن أن يعثر على شاب مثالك .

ــ هه! الشباب يملأون الأرض كالفقع .. لو أشار بيديه لتهاووا فوقه كالذباب .

ــ ماذا تحمل معك ؟

ــ أسلحة ! دبابات ! ومصفحات ! وست طائرات ومدفعين ..

انفجر الرجل ضاحكاً من أعماقه وتناول أبو الخيزران

الأوراق من تحت يديه بخفة وانطلق إلى الخارج .. قال في ذات نفسه وهو يدخل إلى غرفة أخرى : « أصعب المراحل انتهت » بعد دقيقة واحدة خرج من الغرفة الأخرى .. وبأقل من لمح البصر كان يدوّر المحرك فيمزق السكون الضارب فوق صفوان وينطلق إلى الطريق من جديد .

فيما كانت السيارة تنطلق كالسهم تاركة وراءها خطاً من غيوم الغبار كان أبو الخيزران ينزف عرقاً غزيراً يصب في وجهه ممرات متشعبة تلتقي عند ذقنه .. كانت الشمس ساطعة متوهجة وكان الهواء ساخناً مشبعاً بغبار دقيق كأنه الطحين : « لم أرَ في حياتي مثل هذا الطقس اللعين .. » فك أزرار قميصه فلامست أصابعه شعر صدره الغزير المبتل .. كانت الطريق قد استوت . ولم تعد السيارة ترجف شأنها من قبل فزاد من سرعته ــ كان المؤشر يندفع إلى الأمام ككلب أبيض مربوط إلى وتد .

نظر إلى الأمام بعينيه الغارقتين في عرقه فتبين نهاية الهضبة الصغيرة .. وراء هذه الهضبة تحتجب صفوان . وهناك يتعين عليه أن يقف .

زوّد ضغط قدمه فوق المضغط كيما تتسلق السيارة الهضبة دون أن تتباطأ . وأحس بأن عضلة ساقه قد تكوَّرت حتى أوشكت أن تتمزع . الأرض تنطوي والسيارة تزأر . والزجاج يتوهج والعرق يحرق عينيه . وما تزال قمة الهضبة تتراءى له بعيدة كالأبد .. يا إلهي العزيز العلي القدير . كيف يمكن لقمة هضبة ما أن تعني كل هذه المشاعر التي تموج في شرايينه وتصب

لهبها على جلده الملوّث بالوحل عرقاً مالحاً ؟ يا إلهي العلي الذي لم تكن معي أبداً . الذي لم تنظر إلي أبداً . الذي لا أومن بك أبداً . أيمكن أن تكون هنا هذه المرة ؟ هذه المرة فقط ؟

رفّ عينيه رفات سريعة ليغسل العرق عن جفنيه ، وحين فتحهما آخر مرة كانت قمة الهضبة قد صارت أمامه ..

وصل إلى أعلاها فأطفأ المحرك وترك السيارة تنزلق قليلاً ثم أوقفها وقفز من الباب إلى ظهر الخزان .

خرج مروان أولاً : رفع ذراعيه فانتشله أبو الخيزران بعنف وتركه مفروشاً فوق سطح الخزان .. أطل أبو قيس برأسه ثم حاول أن يخرج إلا أنه لم يستطع . عاد فأخرج ذراعيه وترك أبا الخيزران يساعده .. أما أسعد فقد استطاع أن يتسلق الفوهة . كان قد خلع قميصه .

جلس أبو الخيزران فوق سطح الخزان الساخن . كان يلهث وبدا أنه قد كبر عن ذي قبل .. بينما انزلق أبو قيس ببطء فوق العجلات واستلقى في ظل السيارة منبطحاً على وجهه . وقف أسعد هنيهة يتنشق بملء صدره . كان يبدو أنه يريد أن يتكلم إلاّ أنه لم يستطع .. وأخيراً قال لاهثاً :

ــ اووف ! الطقس هنا في غاية البرودة !

كان وجهه محمراً ومبتلاً . وكان بنطاله مغسولاً بالعرق أما صدره فقد انطبعت عليه علائم الصدأ فبدا وكأنه ملطخ بالدم .. نهض مروان وهبط السلم الحديدي بإعياء .. كانت عيناه حمراوين وكان صدره مصبوغاً بالصدأ وحين وصل إلى

الأرض وضع رأسه فوق فخذ أبي قيس ومدد جسده ببطء إلى جانب العجل .. بعد لحظة تبعه أسعد ثم أبو الخيزران فجلسا واضعين رأسيهما فوق ركبهما المطوية .. قال أبو الخيزران بعد فترة :

– هل كان الأمر مخيفاً ؟

لم يجبه أحد .. فدوَّر نظره فوق وجوههم فبدت له وجوهاً صفراء محنطة . ولولا أن صدر مروان كان يرتفع ويهبط ، ولولا أن أبا قيس كان يتنفس بصفير مسموع ، لخيل إليه إذن أنهما ميتان ..

– قلت لكم سبع دقائق .. ورغم ذلك لم يستغرق الأمر أكثر من ست .

نظر إليه أسعد ببرود بينما فتح مروان عينيه دون أن ينظر إلى شيء معين ودوّر أبو قيس وجهه إلى الناحية الأخرى .

– أقسم لك بشرفي . ست دقائق ! أنظر إلى الساعة يا أسعد . ست دقائق بالضبط ! أنظر ! لماذا لا تريد أن تنظر ؟ لقد قلت لكما ذلك . قلته منذ البدء ، وأنتم تعتقدون الآن أنني أكذب عليكم ... ها هي الساعة .. أنظر .. أنظر .

رفع مروان رأسه ثم استند على عضديه وأخذ ينظر . ملقياً برأسه بعض الشيء إلى الوراء . باتجاه أبي الخيزران .. لم يكن يبدو أنه يراه بوضوح ..

– هل جربت أن تجلس هناك ست دقائق ؟

– لقد قلت لكم ..

ـ ثم إنها لم تكن ست دقائق .

ـ لماذا لا تنظر إلى ساعتك .. لماذا ؟ إنها في رسغك ، هيا انظر .. أنظر .. وكف عن التحديق بي كالمجنون ..

قال أبو قيس :

ـ إنها ست دقائق .. كنت طوال الو قت أعدُّ .. من الواحد إلى الستين : دقيقة ، هكذا حسبت .. عددت ست مرات .. في المرة الأخيرة عددت ببطء شديد ..

كان يتكلم بصوت منخفض وببطء .. فقال أسعد :

ـ ماذا بك يا أبا قيس ؛ هل أنت مريض ؟

ـ أنا ؟ أنا ؟ أوف ، كلا .. لكنني أتنفس حصّتي من الهواء .

وقف أبو الخيزران ونفض عن بنطاله الرمل ثم ثبت كفيه فوق خاصرتيه وأخذ ينقـــل بصره بين الرجال الثلاثة :

ـ هيا بنا .. يجب أن لا نضيع وقتاً أكثر .. أمامكم حمام تركي آخر بعد فترة وجيزة .

نهض أبو قيس واتجه إلى غرفة السائق بينما تسلق أسعد السلم الحديدي وبقي مروان جالساً في الظل .

قال أبو الخيزران :

ـ ألا تريد أن تنهض ؟

ـ لماذا لا نستريح قليلاً ؟

صاح أسعد من فوق :

ـ سنستريح كثيراً بعد أن نصل وليس قبل ذلك .. هيا ..

ضحك أبو الخيزران بصوت عال .. ثم ضرب بكفه فوق كتف مروان وقال :

– تعال إجلس إلى جانب أبي قيس . إنك نحيل ولن تضايقنا كثيراً . ثم إنك ، كما يبدو ، متعب جداً .

صعد مروان فجلس إلى جانب أبي قيس بينما صاح أبو الخيزران بصوت عال قبل أن يغلق الباب :

– إلبس قميصك يا أسعد وإلا شوتك الشمس ..

قال مروان لأبي الخيزران بصوت موهن :

– قل له أن يترك باب الفرن مفتوحاً عله يبترد .

صاح أبو الخيزران جذلاً :

– واترك باب الخزان مفتوحاً ..

هدر المحرك ومضت السيارة الكبيرة ترسم في الصحراء خطاً من الضباب ، يتعالى ، ثم يذوب في القيظ ..

« الشمسُ وَالظِّـل »

شق العالم الصغير الموهن طريقه في الصحراء مثل قطرة زيت ثقيلة فوق صفيحة قصدير متوهجة .. كانت الشمس ترتفع فوق رؤوسهم مستديرة متوهجة براقة . ولم يعد أحد منهم يهتم بتجفيف عرقه .. فرش أسعد قميصه فوق رأسه وطوى ساقيه إلى فخذيه وترك للشمس أن تشويه بلا مقاومة .. أما مروان فقد اتكأ برأسه على كتف أبي قيس وأغمض عينيه .. وكان أبو قيس يحدق إلى الطريق مطبقاً شفتيه بإحكام تحت شاربه الرمادي الكث .

لم يكن أي واحد من الأربعة يرغب في مزيد من الحديث .. ليس لأن التعب قد أنهكهم فقط بل لأن كل واحد منهم غاص في أفكاره عميقاً عميقاً .. كانت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وآمالهم وبؤسهم ويأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم .. كما لو أنها آخذة في نطح باب جبار لقدر جديد مجهول .. وكانت العيون كلها معلقة فوق صفحة ذلك الباب كأنها مشدودة إليه بحبال غير مرئية .

سوف يكون بوسعنا أن نعلم قيساً وأن نشتري عرق زيتون أو عرقين . وربما نبني غرفة نسكنها وتكون لنا . أنا رجل عجوز قد أصل وقد لا أصل .. أو تحسب إذن أن حياتك هنا أفضل كثيراً من موتك ؟ لماذا لا تحاول مثلنا ؟ لماذا لا تنهض من فوق تلك الوسادة وتضرب في بلاد الله بحثاً عن الخبز ؟ هل ستبقى كل عمرك تأكل من طحين الإعاشة الذي تهرق من أجل كيلو واحد منه كل كرامتك على أعتاب الموظفين ؟

وتمضي السيارة فوق الأرض الملتهبة ويدوي محركها بلا هوادة ...

شفيقة إمرأة بريئة .. كانت صبية يافعة حين طوحت قنبلة مورتر بساقها فبترها الأطباء من أعلى الفخذ .. وأمه لا تحب أن يحكي انسان عن أبيه . زكريا راح .. هناك . في الكويت . ستتعلم كل شيء .. ستعرف كل شيء .. أنت ما زلت فتى لا تفهم من الحياة إلا قدر ما يفهم الطفل الرضيع من بيته ! المدرسة لا تعلم شيئاً .. لا تعلم سوى الكسل فاتركها وغص في المقلاة مثلما فعل سائر البشر .

السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة . ويدوي محركها بهدير شيطاني ..

ربما كانت قنبلة مزروعة في الأرض تلك التي داس عليها فيما كان يركض . أو ربما قذفها . أمامه . رجل كان مختبئاً في خندق قريب . كل ذلك لا يهم الآن . ساقاه معلقتان الى فوق وكتفاه ما زالتا فوق السرير الأبيض المريح والألم الرهيب

يتلولب بين فخذيه .. كانت . ثمة . إمرأة تساعد الأطباء . كلما يتذكر ذلك يعبق وجهه بالخجل .. ثم ماذا نفعتك الوطنية؟ لقد صرفت حياتك مغامراً . وها أنت ذا أعجز من أن تنام الى جانب امرأة ! وما الذي أفدته ؟ ليكسِّر الفخار بعضه . أنا لست أريد الآن إلاَّ مزيداً من النقود .. مزيداً من النقود .

السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة.. ويدوي محركها بالهدير.

دفعه الشرطي أمام الضابط فقال له : تحسب نفسك بطلاً وأنت على أكتاف البغال تتظاهرون في الطريق ! بصق على وجهه ولكنه لم يتحرك فيما أخذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه . لزجة كريهة تتكوم على قمة أنفه .. أخرجوه . وحينما كان في الممر سمع الشرطي القابض على ذراعه بعنف يقول بصوت خفيض : « يلعن أبو هالبدلة » .. ثم أطلقه فمضى يركض . عمه يريد أن يزوجه ابنته ولذلك يريده أن يبدأ .. اولا ذلك لما حصَّل الخمسين ديناراً كل حياته .

السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة . ويهدر محركها مثل فم جبار يزدرد الطريق ..

الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض . وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمــي العيون .. كانوا يقولون لهم إن فلاناً لم يعد من الكويت لأنه مات . قتلته ضربة شمس . كان يغرس معوله في الأرض حين سقط فوقه وفوقها . وماذا ؟ ضربة شمس قتلته . تريدون أن تدفنوه هنا أو هناك ؟ هذا كل شيء . ضربة شمس ! هذا

صحيح . من الذي سماها ضربة ؟ ألم يكن عبقرياً ؟ كأن هذا الخلاء عملاق خفي يجلد رؤوسهم بسياط من نار وقار مغلي . ولكن أيمكن للشمس أن تقتلهم وتقتل كل الزخم المطوي في صدورهم ؟ كأن الأفكار كانت تسيل من رأس إلى رأس وتخفق بهواجس واحدة . لقد التقت العيون فجأة : نظر أبو الخيزران الى مروان ثم الى ابي قيس فوجده يحدق به . حاول ان يبتسم ولكنه لم يستطع فمسح عرق جبينه بكمه وقال بصوت خفيض :

– هذه جهنم التي سمعت عنها .

– جهنم الله ؟

– نعم .

– مدّ أبو الخيزران يده فأطفأ المحرك . ثم نزل ببطء فتبعه مروان وأبو قيس بينما بقي أسعد معلقاً فوق .

جلس أبو الخيزران في ظل السيارة وأشعل لفافة ثم قال بصوت خفيض :

– لنسترح قليلاً قبل أن نبدأ التمثيلية مرة أخرى .

قال أبو قيس :

– لماذا لم تتحرك بنا مساء أمس فتوفر علينا برودة الليل كل هذه المشقة ؟

قال أبو الخيزران دون أن يرفع بصره عن الأرض :

– الطريق بين صفوان والمطلاع تمتليء بالدوريات في الليل .. في النهار لا يمكن لأية دورية أن تغامر بالاستطلاع في مثل هذا القيظ ..

قال مروان :

ـ إذا كانت سيارتك معصومة عن التفتيش .. فلماذا لا نبقى خارج ذلك السجن الرهيب ؟

قال أبو الخيزران بحدة :

ـ لا تكن سخيفاً .. هل أنت خائف إلى هـذا الحد من البقاء خمس أو ست دقائق في الداخل ؟ لقد اجتزنا أكثر من نصف الطريق ولم يبقَ إلا الأسهل ..

نهض أبو الخيزران واقفاً ثم اتجه إلى المطّارة المعلقة خارج الباب وفتحها :

ـ سوف أقيم لكم حفلة غداء رائعة حين نصل .. سأذبح دجاجتين ..

رفع المطّارة وصب في فمه الماء فبدأ يسيل من ركنيه مزرزباً إلى ذقنه ثم إلى قميصه المبتل . وحين ارتوى صب ما تبقى في المطّارة فوق رأسه وترك الماء يسيل على عنقه وصدره وجبينه وبدا شكله عجيباً . علق المطّارة من جديد خارج الباب وفرش كفيه الكبيرتين وصاح :

ـ هيا بنا .. لقد تعلمتم الصنعة جيداً .. كم الساعة الآن ؟ انها الحادية عشرة والنصف .. أحسبوا .. سبع دقائق على الأكثر وأفتح لكم الباب .. تذكروا ذلك جيداً .. الحادية عشرة والنصف ..

نظر مروان إلى ساعته وهز رأسه ، لقد حاول أن يقول شيئاً إلاّ أنه لم يستطع . فمشى خطوات قليلة إلى السلم

الحديدي وبدأ يتسلقه .

طوى أسعد قميصه وغاص في الفوهة .. تردد مـــروان قليلاً ثم تبعه متكئاً ببطنه فوق الحافة منزلقاً ببراعة وقسوة بينما هز أبو قيس رأسه وقال :

– سبع دقائق ؟

– على الأكثر !

ربت أبو الخيزران على كتف أبي قيس ونظر مباشرة في عينيه . كانا واقفين هناك معاً يتصببان عرقاً . ولكنهما لم يستطيعا الكلام .

تسلق أبو قيس السلم بثبات ثم أسقط ساقيه داخل الفوهة فأعانه الشابان على النزول .

أغلق أبو الخيزران الباب ودوّر الذراع المضلعة دورتين ثم قفز إلى الأرض متعجلاً وانطلق إلى مقعده .

بعد دقيقة ونصف فقط اجتاز أبو الخيزران بسيارته الباب الكبير المفتوح في الأسلاك الشائكة المشدودة حول مـــركز المطلاع وأوقف سيارته أمام السلم العريض الذي يرقى إلى البناء المقرمد ذي الطابق الواحد . والذي تمتد على جانبيه غرف صغيرة ذات شبابيك واطئة مغلقة . بينما تقوم بضعة عربات لبيع المأكولات قبالته . وكانت أصوات مكيفات الهواء تملأ الساحة بالضجيج .

لم يكن ثمة . غير سيارة أو سيارتين واقفتين في طرف الساحة الكبيرة بالانتظار . كان الصمت مطبقاً بكثافة إلا من

أصوات هدير مكيفات الهواء المثبتة على كل الشبابيك المطلة على الساحة . ولم يكن هناك سوى جندي واحد واقف في كوخ خشبي صغير يقع إلى جانب الدرج العريض .

ارتقى أبو الخيزران الدرج مسرعاً واتجه إلى الغرفة الثالثة إلى اليمين . وفور أن فتح الباب ودخل أحس ، نتيجة للنظرات التي انصبت عليه من قبل الموظفين ، أن شيئاً ما سوف يحدث . إلاّ أنه لم يتباطأ ودفع أوراقه أمام الموظف السمين الذي كان يجلس في صدر الغرفة .

ــ ها ! أبو خيزرانة ! !

قال الموظف وهو ينحي الأوراق من أمامه بلا مبالاة متعمدة ويكتف ذراعيه فوق الطاولة الحديدية ..

ــ أين كنت كل هذا الوقت ؟

قال أبو الخيزران لاهثاً :

ــ في البصرة .

ــ سأل عنك الحاج رضا أكثر من ست مرات .

ــ كانت السيارة معطلة .

ضج الموظفون الثلاثة الذين يشغلون الغرفة ضاحكين بصخب فالتفت أبو الخيزران حواليه حائراً ثم ثبت نظره على وجه الرجل السمين :

ــ ما الذي يضحككم في هذا الصباح ؟

تبادل الموظفون النظر ثم انفجروا ضاحكين من جديد ..

قال أبو الخيزران متوتراً وهو ينقل قدماً ويضعها مكان

الأخرى :

– والآن يا أبو باقر .. لا وقت لديَّ للمزاح .. أرجوك .

مدَّ يده فقرب الأوراق الى أمامه . إلاَّ أن أبا باقر عاد فنحى الأوراق إلى طرف الطاولة وكتف ذراعيه من جديد وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

– سأل عنك الحاج رضا ست مرات ..

– قلت لك : كانت السيارة معطلة .. ثم إنني والحج رضا نستطيع أن نتفاهم حين نلتقي .. وقع الأوراق رجاء . إنني على عجـــل ..

قرب الأوراق من جديد إلاَّ أن أبا باقر نحاها مرة أخرى.

– كانت سيارتك معطلة ؟

– نعم .. أرجوك إني مستعجل .

نظر الموظفون الثلاثة إلى بعضهم وضحكوا بخبث ـ ولكن بصوت خفيض ـ كانت طاولة أحدهم فارغة تماماً إلاَّ من كأس شاي زجاجي صغير . وكان الآخر قد كف عن عمله وأخذ يتابع ما يحدث .

قال الرجل السمين المسمى أبو باقر وهو يتجشأ :

– والآن .. كن عاقلاً يا أبو خيزرانة .. لماذا تتعجل السفر في مثل هذا الطقس الرهيب ؟ الغرفة هنا باردة وسوف أطلب لك استكانة شاي .. فتمتع بالنعم !

حمل أبو الخيزران الأوراق ثم تناول القلم من أمام أبي باقر ودار حول الطاولة حتى صار إلى جانبه فانحنى ودفع له

القلم وهو يدفع ، بذراعه ، كتف أبي باقر :

– في طريق عودتي سأجلس عندك ساعة . ولكن الآن دعني أمشي كرامة لباقر وأم باقر .. خذ .

إلا أن أبا باقر لم يمد يده وبقي يحدق إليه بعينين بلهاوين وهو على وشك أن ينفجر بالضحك .

– آه يا ملعون يا أبا خيزرانة ! لماذا لا تتذكر أنك على عجلة حين تكون في البصرة ؟ ها ؟

– قلت لك ان السيارة كانت في الكاراج .

دفع له القلم مرة أخرى إلاّ أن أبا باقر لم يتحرك :

– لا تكذب يا أبو خيزرانة .. لا تكذب .. الحج رضا حكى لنا القصة من الألف للياء ..

– أية قصة ؟

نظر الجميع إلى بعضهم فيما انقلب وجه أبي الخيزران الهزيل فصار مبيضاً من فرط الرعب وأخذ القلم يرتجف في يــده .

– قصة تلك الراقصة .. ما اسمها يا علي ؟

أجاب علي من وراء الطاولة الفارغة :

– كوكب .

ضرب أبو باقر طاولته بيده واتسعت ابتسامته :

– كوكب ! كوكب ! يا أبا خيزرانة يا ملعون .. لماذا لا تحكي لنا قصصك في البصرة ؟ تمثل أمامنا أنك رجل مهذب . ثم تمضي إلى البصرة فتمارس الشرور السبعة مع تلك الراقصة ..

كوكب .. آه .. كوكب هذا هو الإسم .

صاح أبو الخيزران محاولاً أن لا يتجاوز حد المزاح .

– أي كوكب وأي بطيخ ! دعني أمضي قبل أن يطردني الحج ..

قال أبو باقر :

– لا يمكن ! حدثنا عن تلك الراقصة .. الحج يعرف قصتك كلها وقد رواها لنا .. هيا .

– إذا رواها الحج لكم .. فلماذا تريدونني أن أرويها مرة أخــرى

وقف أبو باقر وصاح كالثور :

– إذن .. إنها قصة حقيقية !.. قصة حقيقية !

دار حول الطاولة حتى صار في منتصف الغرفة . كانت القصة الفاجرة قد هيجته .

لقد فكر بها ليل نهار ، ركّب فوقها كل المجون الذي خلقه حرمانه الطويل الممض ، كانت فكرة أن صديقاً له قد ضاجع عاهرة ما ، فكرة مهيّجة تستحق كل تلك الأحلام :

– تذهب إلى البصرة وتدعي أن السيارة قد تعطلت .. ثم تمضي مع كوكب أسعد ليالي العمر ! يا سلام يا أبو خيزرانة .. يا سلام يا ملعون ... ولكن قل لنا كيف أحبتك ؟ الحج رضا يقول انها من فرط حبها لك تصرف نقودها عليك وتعطيك شيكات .. آه يا أبو خيزرانة يا ملعون !

إقترب منه ، كان وجهه محمراً وكان من الواضح أنه

أمضى وقتاً طيباً وهو يتفكر في القصة كما رواها الحاج رضا له على الهاتف .. انحنى فوق أذنه وهمس بصوت مبحوح :

– أتراها فحولتك ؟ أم قلة الرجال ؟

ضحك أبو الخيزران ضحكة هستيرية ودفع الأوراق إلى صدر أبي باقر الذي تناول القلم دون وعي وأخذ يوقعها وهو يرتج بالضحك المكبوت ، ولكن حين مدّ أبو الخيزران يده ليتناولها خبأها أبو باقر وراء ظهره ومد ذراعه الأخرى بينه وبين أبي الخيزران .

– في المرة القادمة سأذهب معك إلى البصرة .. أتوافق ؟ تعرفني على كوكب هذه .. الحج رضا يقول إنها جميلة حقاً .

قال أبو الخيزران راجفاً وهو يمد ذراعه محاولاً أن يصل إلى الأوراق :

– مـــوافق ..

– بشرفك ؟

– بشرفي ..

ضج أبو باقر بالضحك من جديد وأخذ يهز رأسه المدوّر وهو يعود إلى مكتبه بينما اندفع أبو الخيزران بأوراقـــه إلى الخارج وصوت أبي باقر يلاحقه :

– يا ملعون يا أبا خيزرانة ! خدعنا أكثر من سنتين ، وانكشف الآن .. آه يا ملعون يا أبا خيزرانة .

اقتحم أبو الخيزران الغرفة الأخرى وهو يحدق إلى ساعته ، كانت تشير إلى الثانية عشرة إلاّ ربعاً .. توقيع الأوراق الأخرى

لم يستغرق أكثر من دقيقة .. وحين صفق وراءه الباب لسعه القيظ من جديد ولكنه لم يهتم بالأمر وقفز الدرج العريض مثنى مثنى حتى صار أمام سيارته ، حدق إلى الخزان لحظة وخيل إليه أن حديده على وشك أن ينصهر تحت تلك الشمس الرهيبة . استجاب المحرك لأول ضغطة ، وطوى الباب في لحظة دون أن يلوح للحارس .. الطريق الآن معبدة تماماً وأمامه دقيقة أو دقيقة ونصف ليتجاوز أول منعطف يحجبه عن مركز المطلاع . لقد اضطر إلى تخفيف السرعة قليلاً حين التقى سيارة شحن كبيرة ، ثم عاد فأطلق لسيارته كل العنان الممكن وحين وصل إلى المنعطف صفرت العجلات صفيراً متواصلاً كأنه النواح وكادت أن تمس الرصيف الرملي وهي تقوم بدورتها الشيطانية الواسعة .. لم يكن في رأسه أي شيء سوى الرعب وخيل إليه أنه على وشك أن يقع فوق مقوده مغمياً عليه .. كان المقود ساخناً وكان يحسه يحرق كفيه الخشنتين ولكنه لم يخفف من تمسكه به . كان المقعد الجلدي يلتهب تحته وكان زجاج الواجهة مغبراً يتوهج ببريق الشمس .

أزيز عريض ترسله العجلات كأنها تسلخ الإسفلت سلخاً من تحتها ، أكان من الضروري أن تتفلسف يا أبا باقر؟ أكان من الضروري أن تقيء كل قاذوراتك على وجهي وعلى وجوههم؟ يا لعنة الإله العلي القدير عليك ، يا لعنة الإله الذي لا يوجد قط في أي مكان تنصب عليك يا أبا باقر! وعليك يا حاج رضا يا كذاب ! راقصة ؟ كوكب ؟ يا لعنة الله عليكم كلكم ..

أوقف السيارة بعنف وتسلق فوق العجل إلى سطح الخزان .. وحين لامست كفاه السطح الحديدي أحس بهما تحترقان ولم يستطع أن يبقيهما هناك فسحبهما واتكأ بكميه – عند الكوعين – فوق حديد السطح ثم زحف إلى القفل المضلع . وأمسكه بطرف قميصه الأزرق ودوّره فانفتح مقرقعاً واستوى القرص الحديدي الصدىء مستقيماً فوق مفصله ..

حين ترك القرص لمح عقارب الساعة الملتفة على زنده: كانت تشير إلى الثانية عشرة إلاّ تسع دقائق . وكان زجاجها المدوّر قد تشقق شقوقاً مضاعة صغيرة .

الفوهة المفتوحة بقيت تخفق بالفراغ لحظة . كان وجه أبي الخيزران مشدوداً إليها متشنجاً وشفته السفلى ترتجف باللهاث والرعب . سقطت نقطة عرق عن جبينه إلى سطح الخزان الحديدي وما لبثت أن جفت .. وضع كفيه على ركبتيه وقوس ظهره المبتل حتى صار وجهه فوق الفوهة السوداء وصاح بصوت خشبي يابس :

– أسعد !

دوّى الصدى داخل الخزان فكاد أن يثقب أذنيه وهو يرتد إليه . وقبل أن تتلاشى دوامة الهدير التي خلقها نداؤه الأول صاح مرة أخرى :

– يا هوه ..

وضع كفين صلبتين فوق حافة الفوهة واعتمد على ذراعيه القويتين ثم انزلق إلى داخل الخزان .. كان الظلام شديداً في

الداخل حتى إنه لم يستطع أن يرى شيئاً بادىء الأمر . وحين نحى جسده بعيداً عن الفوهة سقطت دائرة ضوء صفراء إلى القاع وأضاءت صدراً يملؤه شعر رمادي كث أخذ يلتمع متوهجاً كأنه مطلي بالقصدير .. انحنى أبو الخيزران ووضع أذنه فوق الشعر الرمادي المبتل : كان الجسد بارداً وصامتاً. مد يده وتحسس طريقه إلى ركن الخزان ، كان الجسد الآخر ما زال متمسكاً بالعارضة الحديدية . حاول أن يهتدي إلى الرأس فلم يستطع أن يتحسس إلاّ الكتفين المبتلين ثم تبين الرأس منحدراً إلى الصدر . وحين لامست كفه الوجه سقطت في فم مفتوح على وسعه .

أحس أبو الخيزران أنه على وشك أن يختنق ، كان جسده قد بدأ ينزف عرقاً بشكل مريع حتى بات يشعر أنه مدهون بالزيت الثقيل ولم يدر . أهو يرتجف بسبب إطباق هذا الزيت على صدره وظهره ، أم بسبب الرعب ؟ تحسس طريقه منحنياً إلى الفوهة وحين أخرج رأسه منها لم يدر لماذا سقطت في ذهنه صورة وجه مروان دون أن تبرح . لقد أحس بالوجه يلبسه من الداخل مثل صورة ترتجف على حائط فأخذ يهز رأسه بعنف وهو ينسل من الفوهة فتحرق رأسه شمس لا ترحم .. ووقف هنيهة يتنشق هواء جديداً ، لم يكن ليستطيع أن يفكر بـأي شيء . كان وجه مروان يطغي في رأسه مثل نبعة انبثقت هادرة من الأرض شامخة إلى علو رهيب .. وحين وصل إلى كرسيه تذكر أبا قيس . كان قميصه ما زال موضوعاً على المقعد إلى

جانبه فتناوله بأصابعه الطويلة وقذف به بعيداً .. دوّر محرك سيارته فبدأ يهدر من جديد ، ومضت السيارة تدرج فـــوق المنحدر ببطء وجبروت .

التفت وراءه ، عبر النافذة المشبكة الصغيرة . فشاهد القرص الحديدي مفتوحاً مستوياً فوق مفصله يأكل باطنه الصدأ .. وفجأة غاب القرص الحديدي وراء نقاط من الماء المالح ملأت عينيه . كان الصداع يتاكله وكان يحس بالدوار إلى حد لم يعرف فيه .. هل كانت هذه النقاط المالحة دموعاً ؟ أم عرقاً نزفه جبينه الملتهب ؟

« القَبر »

قاد أبو الخيزران سيارته الكبيرة حين هبط الليل متجهاً إلى خارج المدينة النائمة .. كانت الأضواء الشاحبة ترتعش على طول الطريق . وكان يعرف أن هذه الأعمدة التي تنسحب أمام شباك سيارته سوف تنتهي بعد قليل حينما يغرق في البعد عن المدينة .. وسوف يعم الظلام .. فالليلة لا قمر فيها . وأطراف الصحراء ستكون صامتة كالموت .

إنحرف بسيارته عن الطريق الاسفلت ومضى يتدرج في طريق رملي إلى داخل الصحراء . لقد قر قراره منذ الظهيرة على أن يدفنهم . واحداً واحداً ، في ثلاثة قبور ... أما الآن فإنه يحس بالتعب يتاكله فكأن ذراعيه قد حقنتا بمخدر .. لا طاقة له على العمل .. ولن يكون بوسعه أن يحمل الرفش ساعات طويلة ليحفر ثلاثة قبور .. قبل أن يتجه إلى سيارته ويخرجها من كاراج الحاج رضا قال في ذات نفسه انه لن يدفنهم . بل سيلقي بالأجساد الثلاثة في الصحراء ويكر عائداً إلى بيته .. الآن ، لم تعجبه الفكرة ، لايروقه أن تذوب أجساد الرفاق في

الصحراء ثم تكون نهباً للجوارح والحيوانات .. ثم لا يبقى منها بعد أيام إلاّ هياكل بيضاء ملقاة فوق الرمل .

درجت السيارة بصوت هزيل فوق الطريق الرملي . ومضى هو يفكر .. لم يكن يفكر بالمعنى الصحيح . كانت أشرطة من مشاهد مقطعة تمر في جبينه بلا أي توقف أو ترابط أو تفسير .. وكان يشعر بإرهاق مر يتسرب في عظامه كقوافل مستقيمة من النمل .

هبت نسمة ريح فحملت إلى أنفه رائحة نتنة .. قال في ذات نفسه : « هنا تكوّم البلدية القمامة » ثم فكر : « لو ألقيت الاجساد هنا لاكتشفت في الصباح . ولدفنت باشراف الحكومة » دوّر مقود سيارته وتتبع آثار عجلات عديدة حفرت طريقها قبله في الرمل ثم أطفأ فانوسي سيارته الكبيرين وسار متمهلاً على ضوء الفانوسين الصغيرين . وحين لاحت أمامه اكوام القمامة سوداء عالية أطفأ الفانوسين الصغيرين .. كانت الرائحة النتنة قد ملأت الجو حواليه ولكنه ما لبث أن اعتادها .. ثم أوقف سيارته وهبط .

وقف أبو الخيزران إلى جانب سيارته لحيظات ليتأكد من أن أحداً لا يشاهده ثم صعد ظهر الخزان : كان بارداً رطباً .. دوَّر القفل المضلع ببطء ثم شد القرص الحديدي إلى فوق فقرقع بصوت متقطع .. اعتمد ذراعيه وانزلق إلى الداخل بخفة .. كانت الجثة الأولى باردة صلبة . ألقى بها فوق كتفيه . أخرج الرأس أولاً من الفوهة ثم رفع الجثة من الساقين وقذفها إلى

فوق وسمع صوتها الكثيف يتدحرج فوق حافـــة الخزان ثم صوت ارتطامها المخنوق على الرمل ، لقد لاقى صعوبة جمة في فك يدي الجثة الأخرى عن العارضة الحديدية . ثم سحبها من رجليها إلى الفوهة وقذفها من فوق كتفيه .. مستقيمة متشنجة وسمع صوت ارتطامها بالأرض .. أما الجثة الثالثة فقد كانت أسهل من أختيها ..

قفز إلى الخارج وأغلق الفوهة ببطء . ثم هبط السلم إلى الأرض . كان الظلام كثيفاً مطبقاً وأحس بالارتياح لأن ذلك سوف يوفر عليه رؤية الوجوه. جر الجثث — واحدة واحدة — من أقدامها وألقاها على رأس الطريق . حيث تقف سيارات البلدية عادة لإلقاء قمامتها كي تتيسر فرصة رؤيتها لأول سائق قادم في الصباح الباكر .

صعد إلى مقعده ودور المحرك ثم كرَّ عائداً إلى الوراء ببطء محاولاً قدر الإمكان أن يخلط آثار عجلات سيارته بالآثـــار الأخرى . كان قد اعتزم أن يعود إلى الشارع الرئيسي بذلك الشكل الخلفي حتى يشوش الأثر تماماً .. ولكنه ما لبث أن تنبه إلى أمر ما بعد أن قطع شوطاً فأطفأ محرك سيارته من جديد وعاد يسير إلى حيث ترك الجثث فأخرج النقود من جيوبها . وانتزع ساعة مروان وعـــاد أدراجه إلى السيارة ماشياً على حافتي حذائه .

حين وصل إلى باب السيارة ورفع ساقاً إلى فوق تفجرت فكرة مفاجئة في رأسه .. بقي واقفاً متشنجاً في مكانه محاولاً

أن يفعل شيئاً ، أو يقول شيئاً .. فكر أن يصيح إلاَّ أنه مـا لبث ان أحس بغباء الفكرة . حـاول أن يكمل صعوده إلى السيارة إلا أنه لم يشعر بالقوة الكافية ليفعل .. لقد شعر بأن رأسه على وشك أن تنفجر . وصعد كل التعب الذي كان يحسه فجأة . إلى رأسه وأخذ يطن فيه حتى انه احتواه بـين كفيه وبدأ يشد شعره ليزيح الفكرة .. ولكنها كانت ما تزال هناك .. كبيرة داوية ضخمة لا تتزعزع ولا تتوارى ، التفت إلى الوراء حيث ألقى بالجثث . إلا أنه لم ير شيئاً ، ولم تجد النظرة تلك إلا بأن أوقدت الفكرة ضراماً فبدأت تشتعل في رأسه .. وفجأة لم يعد بوسعه أن يكبحها داخل رأسه أكثر فأسقط يديه إلى جنبيه وحدق في العتمة وسع حدقتيه .

انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه :

— « لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ ... »

دار حول نفسه دورة ولكنه خشي أن يقع فصعد الدرجة إلى مقعده وأسند رأسه فوق المقود :

— لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقولوا ؟ لماذا ؟

وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى :

— لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

— انتهت —

مَا تَبَقّى لكم

١٩٦٦

مَا تبقّى لكم

الإهداء

إلى « خالد » ... العائد الأول

الذي ما يزال يسير .

غ. ك.

توضيح

الأبطال الخمسة في هذه الرواية ، حامد ومريم وزكريا والساعة والصحراء لا يتحركون في خطوط متوازية أو متعاكسة ، كما سيبدو للوهلة الأولى ، ولكن في خطوط متقاطعة تلتحم أحياناً إلى حد تبدو وكأنها تكون في مجموعها خطين فحسب . وهذا الالتحام يشمل أيضاً الزمان والمكان بحيث لا يبدو هناك أي فارق محدد بين الأمكنة المتباعدة أو بين الأزمنة المتباينة ، وأحياناً بين الأزمنة والأمكنة في وقت واحد .

إن الصعوبة الكامنة في ملاحقة عالم مختلط بهذا الشكل ، هي صعوبة معترف بها ، ولكن لامناص منها أيضاً إذا كان لا بد ان تقول الرواية ما اعتزمت قوله دفعة واحدة . ولذلك السبب لجأت إلى اقتراح مطروق لتعيين لحظات التقاطع والتمازج والانتقال ، والتي تحدث عادة دون تمهيد ، وذلك عن طريق تغيير حجم الحروف عند النقطة المعنية .

انه شيء لا بد من الاعتراف به . إن تغيير حجم الحروف ذاك يعرقل جزءاً هاماً من عملية الانتقال التي كان لا بد ان تحدث دون وعي ودون إشارة ، وستبدو كأنها ترتيب مقصود لعالم غير مرتب في الحقيقة ، ولكن تجارب سابقة من هذا النوع أثبتت أن مثل هذا العمل هو شيء لا مفر منه .

غ . ك .

صار بوسعه الآن ان ينظرَ مباشرةً إلى قُرصِ الشمس معلقاً على سطح الأفق . يذوبُ كشعلة ارجوانية تغطسُ في الماء . وفي اللحظة التالية غاصت الشمس كلها . وبدأت الخطوط المتوهجة التي خلفتها معلقة على حافة السماء ، تتراجع أمام جدار أشهب صعّدَ لامعاً بادىء الأمر ثم تحول الى مجرد طلاء أبيض .

وفجأة جاءت الصحراء .

رآها الآن لأول مرة مخلوقاً يتنفس على إمتداد البصر ، غامضاً ومريعاً وأليفاً في وقت واحد ، يتقلَّب في تموّج الضوء الذي أخذ يرمدّ منسحباً خطوة خطوة أمام نزول السماء السوداء من فوق .

واسعةً وغامضة . ولكنها أكبر من أن يحبها أو يكرهها . لم تكن صامتة تماماً . وقد أحس بها جسداً هائلاً يتنفس بصوت مسموع . وفجأة انتابه الدوار وهو يغوّص فيها : أطبقت السماء فوقه بلا ضجيج ، وتراجعت وراءه المدينة حتى

استحالت إلى نقطة سوداء في نهاية الافق .

وأمامه ، على مدّ البصر ، تنفس جسدُ الصحراء فأحس بدنه يعلو ، ويهبط فوق صدرها . وفي قلب الجدار الاسود الذي انتصب وراء الأفق أخذت المصاريعُ تنفتح واحداً وراء الآخر . فتنبثق وراءها نجومٌ ذاتُ لمعانٍ قاس .

عندها فقط عرف أنه لن يعود . وبعيداً وراءه غابت غزّة في ليلها العادي ، غابت مدرسته بادىء الأمر ثم غاب بيته ، وانطوى الشاطىءُ الفضيٌّ متراجعاً إلى قلب الظلام ، وبقيت أضواء الشوارع معلقةً هنيهة . متعبة وواهنة ، ثم انطفأت بدورها واحداً وراء الآخر . فخطا الى الامام تاركاً لخطواته أن تُصدرَ فحيحاً مخنوقاً . مستشعراً ذلك الإحساس الذي كان يملؤه دائماً حين كان يلقي بنفسه في أحضان الموج : قوياً وضخماً ويتدفق بصلابة لا تُصدق ولكنه مملوءٌ . أيضاً . بالعجـــز المهيض الكامل .

وأخذ يغوّص في الليـــل . مثل كرة من خيوط الصوف مربوط أولُها إلى بيته في غزة ، طوال ستة عشر عاماً لفوا فوقه خيطان الصوف حتى تحول إلى كرة ، وهو الآن يفكها تاركاً نفسه يتدحرج في الليل : «كرر ورائي : زوجتك أختي مريم — زوجتك أختي مريم — على صداق قدره — على صداق قدره — عشرة جنيهات — عشرة جنيهات — كله مؤجل — كله مؤجل». ثم أخذت العيون تأكل ظهرَه وهو جالس أمام الشيخ . كـــل الذين كانوا هناك كانوا يعرفون أنه لم يزوّجها وانها حامل ،

وان الكلب الذي سيصبح صهره يجلس إلى جانبه يضحك في أعماقه بصوت مسموع .

كله مؤجل ، طبعاً . فالمعجل هو جنين يخبط في رحمها . وخارج الغرفة أمسكها من ذراعيها : « لقد قررت أن أترك غزة » ، وابتسمت فبدا فمُها الملطّخ بالحمرة جرحاً دامياً انفتح فجأة تحت أنفها « أين ستذهب ؟ » قالتها وتركت فمها مفتوحاً كأنها تريد أن تقول له انه لا يستطيع – « سأذهب إلى الأردن ، عن طريق الصحراء » – تهرب مني ؟ وهز رأسه : « لقد كنت كلّ شيء . وأنت ملطخة وأنا مخدوع ... لو كانت أمك هنـــا » .

وغداً ستقول لابن الحرام الذي ستضعه في فراشها : « لو كانت جدتك هنا .. » ثم يكبر ويتزوج وينجب ويقول لابنه : « لو كانت جدتك الكبيرة هنا » .. لو .. لو .. منذ ستة عشر عاماً . وهو يقول لها : لو كانت أمك هنا . إذا تشاجرا قـــال لها : لو كانت أمك هنا ، إذا ضحكا . إذا انتابها الألم . إذا عجزت عن الطبخ . إذا طردوه من عمله . إذا وجد عملاً : لو كانت أمك هنا ، لو كانت أمك هنا .

وأمه لم تكن هناك أبداً . على بعد ساعات من المشي . في الأردن . لم يستطع أحد أن يمشيها في ستة عشر عاماً . وقد عقد عزمه على أن يفعل ذلك حين كان يقول ، دون أن يعي : « زوّجتك أختي مريم .. » .

كان يلتهب . مبتلعاً مرارة حادة حتى معدته . إلاّ أنها

رجعت خطوتين وهي لما تزل تبتسم تلك الابتسامة الدامية ، ومن ورائها نبح الكلب ، فقالت له : « صهرك حامد يريد أن يترك غزة » — ولكنه لم ينظر إليه وأجابها كأنه لا يعرفه ، كأنه لا يقف هناك : « حامد يقول أشياء كثيرة . اتركيه » .

وفي اللحظة ذاتها تساءل : « ترى أين حدث ذلك ؟ » ونظر إلى بطنها المكور برفق تحت الثوب وفكّر : « ذات يوم ترك مدرسته بلا شك ، أخذ اذناً من المدير . ربما قال له ان الصداع يحطّم رأسه . دائماً يقول : « الصداع يحطم رأسي » . وجاء إلى البيت أثناء غيابه عنه . وقد فتحت له ودخل . فكّ أزرار قميصها فيما تظاهرت بأنها لا تستشعر شيئاً . ولكن متى ؟ » .

واستدارت دون أن تقول شيئاً ، وأخذت تـــرد على الضيوف دون أن تعي : « عقبالك » وطارت كلمة عـــالية : مبروك — مبروك ، وامتدت اليه أكفٌ باردة فصافحها وهو ينظر إليها ، طوال شهرين علك وهماً كان يلجأ إليه كلمـــا اجتاحته حُمّى الغيظ : يحمل سكيناً طويلة ويندفع إلى سريرها يكشف عن وجهها فتفتح محجريها تاركة الجنون يطلّ منهما ، يمسكها من شعرها ويقول لها شيئاً موجزاً ولكنه قاطع وواضح ، وأحياناً لا يقول لها شيئاً ، ينظر إليها فقط فتفهم كل شيء ، ثم يطعنها طعنة واحدة في القلب تماماً . ويندفع إلى خارج الدار يبحث عنه . صهره . زوّجتك أختي مريم على صداق قدره عشرة جنيهات كله مؤجل . صهره .

لقد تركته يلوثها ، أعطته نفسها في ربعِ ساعةٍ مسروقة منه ، وحين زرع الطفلَ في رحمها كان قد أمسك به من عنقه : « أنت حر . زوجنيها أو لا تفعل ، فلست أنا الذي أخسر » .
— ولكن لِمَ لمْ تقل أنك تريدها ؟ هزَّ رأسه فيما كان يبتسم ابتسامة تاجر شريف : « هذا الذي حصل » . وأراد أن يقوم فيضربه ، إلاَّ أنه واصل الابتسام : « أنت لا تريد ضربي ، أليس كذلك ؟ سيقولون أنك ضربت الرجل الذي ... » .

كفـــى !

كان ضئيلاً بشعاً كالقرد ، إسمه زكريا وكان بوسعه أن يعتصره بين قبضتيه الكبيرتين ، وأن يخنقه بمجرد الاطباق حول خصره ، ولكنه كان عاجزاً وكانت أختـــه مريم تتسمع وراء الباب والجنين يضرب في أحشائها ، وحين غادر آخرُ الضيوف أغلق صهره الباب ، وعاد كأن البيت بيته : خلع حذاءه وتمدد على المقعد ، فبدا مجرد لطخة مصادفة في مكان غير مناسب . ثم تنهد ، وشبك كفيه وراء رأسه ، وأخذ ينظر بارتياح مقيت الى أشياء الغرفة . وأخيراً استقر بصره عليها فأخذ يتحدث فاتحاً فمه على وسعه : « إذن يريد أن يذهب ، يريد أن يعبر الصحراء.. لم يقل لي مبروك بعد ، فأنا الآن صهره ؛ ثم اني أكبر منه » . ثم نهض كأن المقعد قذفه وأخذ يتجول في الغرفة ناظراً إلى الأرض : « انه يهددنا يا مريم . فلماذا لا تقولي له اننا لا نكترث به ؟ » . لا انها بقيت صامتة متكئة على الجدار كزوجة قديمة تتزوج مرة أخرى . توقف ونظر إليها من جديد متخذاً

وضع خطيب مؤثر : « إن الصحراء تبتلع عشرة من أمثاله في ليلة واحدة » وأعطاه ظهرَه بحيث واجه مريم : « عليه أولاً أن يجتاز حدودنا ثم عليه أن يجتاز حدودهم ، ثم حدودهم ، ثم حدود الأردن ، وبين هذه الميتات الأربع توجد مئات من الميتات الأخرى في الصحراء .. ألسْتِ متأكدة من أنه يمزح مزاحاً سخيفاً ؟ » ولكنها لم تجب . وبدا جو الغرفة خانقاً ومشدوداً . وحول ياقته انبثق خطٌ من العرق وسمع نفسه يلهث . كان يعرف تماماً انه سيبدو سخيفاً إذا تكلم ، ولكنه لم يستطع أن لا يفعل . فقام عن كرسيّه واتجه إلى الباب بلا تردد ، وفي اللحظة المناسبة استدار : « سأغادر غداً مساء » .

وأراد وهو يهبط السلم ، أن يستمع إلى أي نداء ، أن يلحقه صوت مريم : « عد يا حامد ! » أن تصيح ، أن تقول شيئاً . ولكنه لم يسمع إلا أصوات خطواته وهي تخفق على السلم . وقبل أن يصل الرصيف صُفِقَ البابُ وراءه ، دون أية كلمة ، وساد الصمت .

سقط الظلام تماماً الآن وسقطت معه ريحٌ باردة صَفَرَتْ فوق صدر الصحراء . كأنها لهاث مخلوق ميت ، ولم يعد يدري ما إذا كان خائفاً . فثمة قلب واحد كان ينبض ملء السماء في ذلك الجسد المترامي على حافة الأفق . توقف هنيهة وحدّق إلى السماء خيمةً سوداء مثقّبة . وبدا له المدى غامضاً مثل هاوية . رفع ياقة معطفه وغرس كفيه في جيبيه الكبيرين . وفجأة ذاب الخوفُ وسقط . ولم يعد ثمة إلا هو والمخلوق

الموجود معه ، تحته . وفيه ، يتنفس بصفير مسموع ، ويسبح بجلال في بحر من العتمة المرصّعة . ومن بعيد ترامى إليه الهدير ، فبدا له شيئاً متوقعاً تماماً ، ليس بمقدور أي شيء في هذا المدى المبسوط أن يكون مفاجئاً ، ليس بوسع أي شيء أن يكون إلاّ إلاّ صغيراً وواضحاً وأليفاً في هذا العالم الواسع المفتوح على ومعه أمام كل شيء ، لقد بدا الهدير في البدء قادماً من الجهات الاربع ثم ما لبث أن اتضح . ومن بعيد مسح خطٌ مستقيم من الضوء حافةَ الأفق مثل عصا بيضاء تدور على طرفها نصف دورة ، وفي اللحظة التالية أطلت من بعيد عينان مضيئتان أخذتا تهتزان وهما تنثران حولهما ضوءاً دائرياً . ودون أن ينتابه خوف أو تردد استلقى على الأرض وأحس بها تحته ترتعش كعذراء ، فيما أخذ شريط الضوء يمسح ثنيّات الرمل بنعومة وصمت ، عندها فقط شد نفسه إلى التراب وأحسه دافئاً ناعماً ، وفجأة تعالى الهدير وصارت السيارة أمامه تماماً ، فغرَسَ أصابعَه في لحم الأرض وذاق حرارته تسيل الى جسده ، وبدا له أنهـــا تنفست في وجهه فلفح لهاثُها المستثارُ وجنتيه ، وشد إليها فمه وأنفه ، فاشتد الوجيب الغامض فيما استدارت السيارة فجأة ، فالتمع الضوء الأحمر في مؤخرتها وأخذ يذوب في الليـــل . زوجتك أختي مريم — أراح وجنته فوق صدرها الدافىء مرة أخرى فيما أخذت نسمات باردة تغسله ، تلاشى الآن الضوء الأحمر تماماً ، كأن يداً أطفأته عنوةً — لو كانت أمي هنا .. لو كانت أمي هنا — استدار ومرر شفتيه فوق التراب الدافي :

«ليس بمقدوري أن أكرهكِ . ولكن هل سأحبكِ ؟ أنت تبتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة – انني أختار حبك. انني مجبر على اختيار حبك. ليس ثمة من تبقى لي غيرك» .

ليس ثمة من تبقى لي غيرك .. وانت تبدو بعيداً ، رغم انك في فراشي .. تتركني وحدي احصي تلك الخطوات المعدنية الباردة تدق في الجدار . تدق . تدق . تدق . داخل النعش الخشبي المعلق امام السرير – لقد اشتراها هو وحملها من السوق في تموز ما ، وحين وصل الى الباب لم يستطع تناول المفتاح من جيبه ، كان يحملها بذراعيه وكانت ، كما قال لي ، ثقيلة جداً . فوقف امام الباب محتاراً وطفق يفكر ، ثم ما لبث ان نسي نفسه هناك وظل واقفاً حتى أتيت وحين نظر إليّ كان يتصبب عرقاً ولكنه لم يكن غاضباً ، وقال لي : لماذا تأخرت ؟

– لم أتأخر .. ما هذا ؟

ونظر إليها بين ذراعيه : «ساعة حائط . ولكنها تشبه نعشاً صغيراً . أليس كذلك ؟» ودخلنا فاتجه مباشرة الى الغرفة التي كنا ننام فيها . كان المسمار الكبير مثبتاً مباشرة أمام سريره فعلقها وأنا أسندُ له الكرسي . ثم نزل وابتعد وأخذ ينظر إليها برضى . إلا انها لم تتحرك . فكّر قليلاً فقلت له : «ربما تحتاج إلى تعبئة» فرفع رأسه نافياً وقال : «أعتقد انها ليست مستقيمة . إن ساعة الحائط ذات الرقاص لا تشتغل إذا كانت مائلة» . وصعد إلى الكرسي مرة أخرى وأخذ يحركها ببطء وكأنه يصوبها تصويباً . وفي اللحظة التالية بدأت تدق . ولاحظنا

معاً أن دقاتها المعدنية تشبه صوت عكاز مفرد . وحين أعـــاد الكرسي إلى مكانه سألته السؤال الذي كان يتوقعه : « بــكم اشتريتها ؟ » وأجابني الجواب الذي لم أكن أتوقعه : « لم أشترها ، سرقتها » . ومنذ ذلك اليوم وهي معلقة هناك ، تدق خطواتها الباردة كصوت عكاز مفرد بلا توقف . تدق . تدق . تدق يا زكريا. تدق . والآن ليس لي غيرك، وغيرها وقد تركناه يغادرنا كلنا دون كلمة واحدة ، وحين كنت أسمع أصوات خطواته تخفق ، مترددة ، فوق السلّم حسبت أنه سيعود وكنت ممزقة بينه ، هو الماضي كله ، وبينك ، أنت ما تبقى لي من المستقبل . ولكنني لم أتحرك وأنت لم تتحرك . وهو لم يعد . ثم خطوت وصفقتَ الباب فأغلقتَ كل شيء . ومضيت إلى الغرفة الأخرى . وحين لحقتُ بك أكدتَ لي أنه سيعود وأنه أصغر من أن يقتحم الصحراء وحده ، وأنه سيكتشف بنفسه تفاهة الموضوع الذي سمح له أن يتغلب على عقله .

لو كانت أمي هنا لكان لجأ إليها ، للجأتُ إليها أنا ، لقلنا كلمة واحدة عنه . لما تركنا لدفتيّ الباب الخشبيتين أن تمحواه محواً من هذا البيت بمجرد انغلاقهما .

مع صبيّ الخبّاز تسلمتُ منــه أولَ الكلماتِ وآخرها : « سأغادر مع غروب شمس اليوم وسأكتب لك من الأردن — إذا وصلت » . ثم جاء التوقيع الصغير : « حامد » مكتوباً بهدوء تماماً كما كان يكتبه عــلى قفا علبة تبغه حين كان يغــادر البيت لسبب من الأسباب : « سأعود بسرعة — حامد » ثم يترك العلبة

متكئة فوق الراديو . كان يعرف انني أتجه إلى الراديو أول ما ما أصل إلى البيت . ولكننا خدعناه يا زكريا . خدعناه . لنعترف بذلك . انه بعيد الآن ، يسير منذ ثلاث ساعات على الأقل ، وخطواته واحدة واحدة أحصيها مع الدقات المعدنية المخنوقة في الجدار ، أمامي . دقّات النعش . دقات محشودة بالحيـاة يقرعها بلا تردد فوق صدري حيث لا صدى، ثمة ، إلا الرعب . وهو يخطو فيبدو أمام الجدار الأسود المرتفع وراءه مباشرة حيواناً ضئيلاً يعقد العزم على رحلة دفء لا نهاية لها ، مشحونة بالغيظ والأسى والاختناق وربما الموت ، أغنية الليل الوحيدة في جسدي . منذ اللحظة التي أحسست فيها بخطوته الأولى على الحافة عرفت أنه رجل غريب . وحين رأيته تأكدت من ذلك . كان وحيداً تماماً ، بلا سلاح ، وربما بلا أمل أيضاً ، ورغم ذلك فعند لحظة الرعب الأولى ، قال أنه يطلب حبي لأنه ليس باستطاعته أن يكرهني . ليس باستطاعتك أن تكرهني يا زكريا ، ليس باستطاعتك أن تفعل ذلك ، فأنت كل ما تبقى لي ، أما هو فقد مضى وامّحى من هذه الغرفة ، ولم يبقَ منه إلا أصوات خطوات معدنية تدق على الجدار بلا نهاية مثل عكاز فقَدَ اتجاهه . ولم يتبق لي ما أفعله إلا عدها . وأنت مستغرق في النوم على بعد شبر واحد مني . بعيد .. كالموت .

أنت لا تعرفه رغم أنك عملت معه فترة صغيرة في الخيمة التي كنت تسميها مدرسة المعسكر ، وهو لم يعرفك أيضاً . وأنا فقط التي عرفتكما – كان رأيه بك دائماً موجزاً وواحداً قاله

لي بعد أول مرة قابلناك فيها معاً مصادفة بالطريق : ما اسمه ؟ زكريا .. من اين تعرفه ؟ زميلي في مدرسة المعسكر . صديقك؟ كلا . انه نتن .

وكان هذا كل شيء : « انه نتن ! » . لم يغير هــذا الاصطلاح إطلاقاً . وحتى حين عرف قال كلمة واحدة : «انه نتن !» ومضى . توقف العكاز فجأة ، هنيهة واحدة ، ثم دقت الساعة تسع دقات . مشى ثلاث ساعات اذن . ولكنه لم يعرف إطلاقاً أنك استوقفتني بعد ثلاثة أيام في الطريق وقلت لي : « سلّمي على حامد » ، وأنا لم أوصل له سلامك ، لأنني عرفت أنك استوقفتني لسبب آخر .. لقد وقف فجأة ، نظر إلى السماء أولاً ثم الى ساعته ، وعرفت أنه يفكّر مثلهم كلهم : إن عليه قطع أطول مسافة تستطيعها ساقاه الفتيتان قبل أن يبزغ الضوء المبكّر وكنت مبسوطة أمامه ، مستسلمة لشبابه بلا تردد ولخطواته وهي تدق في لحمي . ولكنه مثلهم كلهم ، خاف من الانبساط الذي لا نهاية له ، حيث لا تلة ولا علامة ولا طريق ، وظل واقفاً ينظر إلى سواد الأرض المتصل بسواد السماء في نقطة تقع مباشرة أمام قدميه . ثم سار فجأة ،شاباً كما كان دائماً مملوءاً بالغيظ والاختناق والحزن . ولم أستطع أن اقول له بأنه انحرف شبراً صغيراً إلى الجنوب سيصل به في الصباح الى قلب الصحراء والشمس — ولم أعرف قط لمــاذا مررت ذلك المساء إلى من أمام المقهى الذي تجلس فيه ، كأنما بالمصادفة . ولماذا أبطأت حتى يسّرتُ لك أن تراني وتلحق بي ، ولم أعرف قط أن تلك

اللحظة الصغيرة ستصل بي بعد أربعة أشهر الى سريرك أمام ذلك النعش المعلَّق الذي ظل يدق . يدق . الى سريره . هذا سريره هو . لقد نمنا معاً في هذه الغرفة حين كانت خالتنا تنام في الغرفة الأخرى قبل ان تموت . وكان سريري يمتد تحت النافذة ، وسريره في الجانب الآخر مقابل الساعة . ثم نقلتُ سريري إلى الغرفة الخارجية بعد أن ماتت خالتنا وبقي هو هنا ، مقابل الساعة ، على هذا السرير ، يستمع أغلب الظن الى دقاتها المعدنية المبتورة تخطو فوق الجدار حول نفسها دون لحظة توقّف واحدة ...

وحين ماتت خالتي ماتت على سريره .. ويخيل إليّ الآن أنه قصد الى ذلك قصداً ، فحين كانت طريحة مرضها الأخير قرر فجأة أن ينقلها من الغرفة الأخرى إلى سريره ، ولم يقل قط لماذا ، وقد ماتت هناك بعد أن دقت الساعة دقة واحدة ، في الليل . أحسّتْ بذلك تماماً ، فقد بدَتْ تلك الدقة الوحيدة ، المبتورة والقاسية ، بدت لنا جميعاً خطوة أخيرة . وقد نظرت إلى الساعة ثم إليّ فيما مضت تتحدث إليه « سلم على أختي ، الله كريم ، ذات يوم ستذهبان إليها أو تأتي إليكما » ونظرتْ إلى الساعة وقد بدأت تدق من جديد كأنها لم تدق أبداً ، وقالت وهي لم تزل تنظر إليها : « دير بالك على الصبيّة » . عندها خرجت من الغرفة . الصبيَّة . الصبيَّة . الصبيَّة .. كانت دائماً في ثيابي ، في جثتي المتوهجة ، في فراشي . غريبة كأنها الفراق .. الصبيَّة ، **لم أعرف أنها خرجت ولكن خالتي عرفت**

فأشارت نحوها وراء الباب باصبع واهن وقالت : « زوّجها يا حامد . زوجها . انها صبية وأنا أعرف ». ولكن الملعونة لم تنتظر . جاءتني بجنين يضرب في أحشائها . وأبوه ؟ ذلك النتن ، الكلب ، زكريا ، لقد خدعاني معاً ثم طرداني وأنا غارق في عارها – زوجتك أختي مريم ، زوجتك أختي مريم .. كله مؤجل .. مؤجـــل . جاءت وقالت : سأعترف لك بشيء خطير ، فخفق قلبي وقلت لها : « اجلسي اذن » . فجلست وطوت راحتيها فوق حضنها فسقط بصري فوقهما وعرفتُ فوراً . اجتاحني الرعب فأخذ جبيني ينضح عرقاً تساقط فوق عينيّ ، وخيّل إليّ أن صراخاً ينبعث من تحت راحتيها المطويتين فوق حضنها . صراخ مجروح ينبعث من بين فخذيها حيث طوت راحتيها كأنها تخفي شيئاً . وفجأة بدأت تبكي ، فقلت بصوت واهن : « يا إلهي ! عرفت ! » فأمسكتُ كفيّ بكلتي يديها ، وأخذت تمرغها فوق شفتيها ودموعها وسمعتها تهذي : « ولكننا سنتزوج يا حامد ، سنتزوج » . وسألت بلا وعي : « من هو ؟ زكريا ! – زكريا ؟ زكريا ؟ إنتظري لحظة ، زكريا ؟ يا إلهي ! كان الجدار عالياً وراء المعسكر . وقد اقتادونا جميعاً الى هناك ، وفيما كنا نتزاحم على الممر الضيق المؤدي إلى ذلك البناء المهدم كانوا يزجروننا تارة بالعبرية وتارة بالعربية المكسرة ، ثم أوقفونا صفاً واحداً وانصرفوا يدرسوننا بإمعان واضعين فوّهات رشاشاتهم تحت آباطهم ، موسعين ما بين أقدامهم . وفجأة أخذت السماء تندف رذاذها ببطء وكآبة ، فيما غاص المعسكر وراءنا بصمت أسود . وعند الظهيرة تقدم الضابط ونادى سالم ، إلا أن الصف بقي مستقيماً وصامتاً ومبللاً ، وحين

نادى مرة أخرى بصوته الرفيع العالي نقل رجل ما خطواته محتاراً فخشخش الحصى هنيهة ثم خيم صمت جديد. وبدا الضابط وقد نفذ صبره كتلة من الغضب المشلول. ووراءه مَضْغَت مغاليقُ البنادق أشداقها بصوتها الفولاذي المكتوم كأنها الموسيقى التي ترافق باتقان لا حد له مسرحية جيدة الأداء. وانسحب الضابط ببطء موسّعاً الطريق أمام الفوهات الدقيقة: «إذا كنتم تصرون على إخفاء هذا الفتى إلى ذلك الحد فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم، نحن نعرف أنه واقف بينكم» وخشخش الحصى مرة أخرى فيما أطبقتُ جفنيّ فانزاح العالم من أمامي وأضحى لا يعني شيئاً. وفي اللحظة التالية تماماً اندفع زكريا خارج الصف المستقيم وقذف بنفسه راكعاً وكفاه مضمومتان إلى صدره وأخذ يصيح، فتراجعت الفوهات الفولاذية مترددة بطيئة، ثم تقدم الضابط فركله وتولى جنديان إيقافه على قدميه الواهنتين: «أنا ادلكم على سالم». وقبل أن يفعل تقدم سالم من تلقاء نفسه ووقف أمامنا مباشرة. وقد رأيناه يغسلنا بنظرة الامتنان التي لا تنسى فيما كانوا يقتادونه امامهم. إلا أنه عاد فالتفت إلى زكريا وشيّعه بنظرات رجل ميت: باردة وقاسية وتعلن عن ولادة شَبَح. وغاب وراء الجدار هنيهة. ثم جاء صوتُ طلقةٍ واحدة فيما اخذنا ننظر الى زكريا وكأننا جميعاً متفقون على ذلك. زكريا. زكريا. كنتُ جثةً تتوهجُ داخل ثيابي. وكان الوهج يبقى فيها حتى حين كنت أخلعها وأعلقها على الجدار. وكانت الساعة تشيّع نفسها كل صباح في نعشها الصغير أمام عيني وأنا أبدل ثيابي، فينبثق فجأة ثدياي الأهوجان كأنهما كانا مطويين في

حقيبة حامد . وتنزلق كفـــاي دون أن أعي ــ والساعة تدق ــ فوق فخذيَ . لم يكن ثمة في البيت كله مرآة كبيرة واحـــدة لأرى جسدي فيها مرة واحـــدة . كنت أرى وجهي فقط . وحين أحرك المـــرآة فتمر صورة صدري وبطني وفخذيّ تبدو لي قطعاً غير موصولة ببعضها لجسد فتاة مقطعة تشيّعها دقات مبحوحة . قاطعة وساخرة . تدق في الجدار بلا رحمة . كنتَ أوّلَ من لمسَني فبدوتَ في تلك اللحظة قريباً حتى لكأنك عشتَ كلَّ عمرك معي في ثيـــاب واحدة. تحت تلك الدقات الرهيبة للعكاز الذي فقد إتجاهه. وبين أصابعك. يديك. شفتيك. وتحت عينيك. خلعتُ خمساً وثلاثين سنة من حياتي سنة سنة و قطعة قطعة . هل سأراك دائماً كاللص : أسرقُ النظرَ إليكِ وراء المنعطفات؟ « لنتزوج إذن .. » أخوكِ حامد سيطلب مهراً على عشرين جملاً . « إسأله »هذا الصغير لا يطيق سماع صوتي. أنا أعرفه. يفضل أن يقتلك على أن يراك مع أي رجل ، فكيف إذا كان زكريا هو ذلك الرجل ؟ « لا تريد أن تتزوجني إذن » أريد ولكن لماذا لا تريدين أن أراك ؟ .

لقد اعطيتُـــه من وحشيتي كل مـــا املك ، وهو يضرب دون ان يعي بعيداً عن طريقه . ولكن شيئاً واحـــداً لا أستطيع اعطاوْه : الوقت . كان يتسرب من بين خطواته ، ليس ذلك فقط كان ضده . لم يكن في سباق معه ، ولكن كـــان في سباق مع خسارته . ومن تلك الوحشية التي لم يعد يعرف من أين تعمل داخل جسده استمد شعوراً

بضرورة التوقف ، فوقف ، كان الافق اما مهيتوهج . ثمة انوار وطريق وأصوات بعيدة — لو انه يعرف لحسب انه استبق الوقت ولكنه لا يعرف. وقف وأخذ يفكر ، كانت حركته قد اعطته حرارة في وجـــه الريح الباردة القادمة من السماء في كل الاتجاهات . وفجأة بصق . ليس يهم ، فأنا لا اتعامل مع الاحساسات التي تعصف في اعماقه . اتعامل مع الاتجاهات فقط . وهو هنا في اتجاه خاطىء . ضده . ورغم ذلك فيبدو انه ما زال مغيظاً من امر لا علاقة لي به ، ولا علاقة له بوقفته تلك نصف ساعة بعيداً عن الطريق الصحيح . وقد حدث ما كنت اتوقعه تماماً ، فحين حاول ان يمر بعيداً بعض الشيء عن الاضواء أخطأ الاتجاه مرة اخرى ، وانصب بشكل يكاد يكون مستقيماً نحو الجنوب متخلياً نهائياً عن التفكير ، معتمداً على حواسه جميعاً دفعة واحدة مغلّفة بشيء من الرعب ، ولكنه رعب مستثار ايضاً . مزيج من المشاعر التي تملأ قبضتي مغامر شجاع وهما تدقان بوابة مجهولة . كنتُ أرتجفُ خائفة ومستثارة في وقت واحد حين رأيته أمام الباب . كان حامد قد غادر منذ خمس دقائق فقط ، وكان زكريا واقفاً أمام الباب واثقاً من نفسه وسأل « هل هو هنا ؟ » ودون أن ينتظر وضع قدمه في الباب . ودخلتَ واضعاً يدك على كتفي فأحسست بها ثقيلة تكبلني : « أريد أن أحدثه بشأن زواجنا » . وفي دوامة من النشوة لست أدري كيف قلت : « انه ليس هنا » . « هل سيتأخر ؟ أعني هل أستطيع انتظاره ؟ » لا أعرف . لا أعتقد . لقد ذهب ليأتي بالاعاشة . أنت تعرف ، أنه أول الشهر . وتحرك إلى الداخل ثم استدار فجأة : « خائفة مني ؟ » كلا . لماذا ؟ تقدمتَ

فوضعتَ شفتيكَ حارتين قاسيتين على عنقي وسقطنا معاً فوق الكرسي الطويل الذي كان سريري . وسمعت صوتك في ثيابي : « إذن سيتأخر » وأحسست كفّك فوق صدري تعتصر : « إذن سيتأخر ، كنتُ ماراً من هناك بالمصادفة » ثم التصق جسدك كله بي والتهبتُ : « كنت ماراً بالصدفة قرب المركز ورأيت ازدحاماً لا يُصدّق . صحيح ، أنه أول الشهر » . ولست أدري كيف أحسست بيديك الخشنتين على ظهري العاري : « إذن سيتأخر » سقطتْ الكلمة في أذنيّ وطافت هناك بلا معنى ، فلم يعد يهمني ، بعد ، أن يتأخر أولا يتأخر . ثم لبستَ ملابسك : « الأفضل أن أذهب» . وكان انهيارٌ صامت يجتاح بدني فيحطمه من الداخل . وحين صُفق الباب فقط سمعت الساعة تدق ثماني دقات كأنها تقرع الباب مرة أخرى ، لو كانت أمي هنا فقط ، يا زكريا ، لو كانت أمي هنا فقط . ولكن ليس غيرك . وحامد سيذبحني لو عرف ، وأعتقد أنني حامل ، وابتسمتَ ووضعتَ يدك على كتفي وأنت تنظر إلى بطني وكأنك ترى الجنين يلتفّ في أحشائي ضائعاً ، يطمر نفسه تحت شيء ما ، وينظر إلى العالم دون إذن بعينيه المجهولتين الصغيرتين . ثم قلتَ ونحن نمعن في أزقة صغيرة : « أنت أرض خصبة أيتهاالشيطانة. أرضٌ خصبة ، أقول لك » .

ارض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول تتكسّر كلّ انصال الفولاذ في العالم اذا مرّت فوق صدرك الاصفر العاري، صدرك الاجرد الممتد الى أبدي والى آبادهم ، والسابح بجلال في بحر من العتمة ، كل انصال

الفولاذ في العالم ليس بمقدورها ان تحصد من فوقك عرقاً واحداً . ولكنها تتكسر ، واحداً وراء الآخر ، امام حصادك الصلب النامي أكثر فأكثر كلما خطا الرجل الى اعماقك خطوة وراء الاخرى ، حتى ليتحول هو ذاته الى عرق مجهول مشرش يستقي منك انتصابه وخطواته . وليس بالوسع أن يحصد . لا تقل لي ذلك حتى لو فكرت به فأنا خائفة منه إلى درجة لا أجرؤ فيها على القضاء عليه . عاري. ولكنه يا زكريا . عاري الوحيد في خمس وثلاثين سنة طاهرة ومخزونة.

وها هي تدق عشر دقات . تدق تدق . كأن العكاز ينتزع نفسه بائساً وهو يدق خطوته الأبدية المفردة في نعش صغير مغلق بإحكام – أربع ساعات يسيرها دون لحظة توقف وأنت تتركني معه أتعقب خطواته على الجدار ملقى إلى جانبي تتنفس نومك ، ترى كم بقي له ؛ هل تستطيع أن تعرف . زكريا .. زكريا ..

– لم تنامي بعد ؟

– كلا . ولكن قل لي يا زكريا ، كم يحتاج المرء إلى قطع المسافة مشياً من غزة إلى الأردن ؟

– عشر مرات قلت لك .

– لا ، لم تقل لي .

– إثنتا عشرة ساعة ...

وانقلب على جنبه لحظة ، ثم رفع نفسه على مرفقه ومضت الساعة تدق ، وأكمل :

– .. إذا كان يعرف الطريق جيداً .

واقترب . وأخذت عيناه تبحثان في العتمة عن وجهي :

— .. وإذا لم يصادف دورية في الساعة الأولى .

جالس الآن تماماً ومرّر أصابعه في شعره ، ونظر إلى ساعته ثم عاد ونظر إليّ :

— كم الساعة الآن ؟

— دقّت العاشرة .

— وأنت تفكرين به ؟

— نعم .

— لقد حاولتُ جهدي ان أمنعَه على طريقتي الخاصة . أنت لست غاضبة مني ؟

— كــــلا .

— إذن حاولي أن تنامي .

— انني ما زلت أحاول ذلك منذ ساعتين على الأقل .

وانزلق ، مرة أخرى ، في السرير ودفن وجهه في الوسادة :

— على أي حال لن يفيده أن تمضي الليل تفكرين به . أفضل لك أن تقتلي الوقت نائمة .

— لا أستطيع .

وانقلب إلى الجانب الآخر وصمتْ ، فبدت الغرفــة مهجورة من جديد . يجول فيها ذلك الصوت الرتيب لدقات لا تتوقف . تحوّم حول أذنيّ . وتصدم رأسي من جوانبه كلها ثم استدار ومد يده إلى الطاولة ، فخشخشت علبة الثقاب وأشعل لفافته فأضاء وجهه المربع الخشن ، والتمعت عيناه الصغيرتان

نصف المغمضتين في حفرتين مظلمتين ، ورفع جسده متكئاً على الوسادة . وامتص لفافته فتوهجت نقطة ضوء تسبح في العتمة ثم خطت فوقها دقات العكاز فبهتت من جديد .

– سنغيّر قليلاً في أثاث البيت . على قدر ما يسمحُ الجيب . أعتقد أن السريرين لا بأس بهما . ولكن سنحاول استبدال مقاعد الجلوس في الغرفة الأخرى .

– يجب أن نفكّر بالصبيّ .

– أنت مجنونة . صدقيني ! تفتكين بشبابك من أجلـه . وغداً ستلعنينه وتلعنين أباه والساعة التي لم تستمعي فيها إلى النصيحة . ستتحولين إلى امرأة مترهلة ببطنٍ منقوش كأنه مصاب بالجدري . أنا أعرف . وقد رأيت ذلك بعينيّ . وطوال عام كامل لن تكوني امرأة . مجرد زجاجة حليب .

واقترب . واضعاً لفافته بين شفتيه . ومرر كفه فوق صدري وبطني . وتوقف هناك لحظة :

– لك جسد هائل لا تدركين جماله . وغداً حين تبيضين بيضتك الكبيرة ستنقلبين إلى جبل صغير من اللحم وتفقدين كل شيء عدا قطعة الصراخ تلك التي ستقلب حياتك إلى جحيم .

وفجأة جاءت . وقد كنت أحسب أنني لن أفكر بها . ولكنها جاءت مع صوته حاملة أطفالها . ووقفت هناك . على قدمي السرير . فيما كانت كفه الثقيلة الدافئة تضغط برفق فوق أحشائي . حتى أنني لم أسأله عن اسمها !

– لم تقل لي ما اسمها .

وسحب يده فجأة وامتص لفافته من جديد . وفي الصمت المفتوح على وسعه ، أخذ العكاز يقرع خطوته المفردة بإلحاح متسـارع :

ـ كنت أعرف أنك ستسألين هذا السؤال ذات يوم . لا مانع عندي طبعاً ، ولكن الآن ؟ ما الذي جعلها تمر في رأسك ؟

ـ يدك ، يدك وهي تمر فوق بدني ... هكذا تفعل معها أيضاً ؟

ـ لست أدري . ولكن استمعي إلى هذه النصيحة من أجل راحتك فقط : حاولي أن لا تفكري بها كثيراً .

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ لم تقل شيئاً ، كانت تعيّط طوال الوقت ، فلم تجد وقتاً للكلام .

وجرّ نفسه أكثر نحوي وأحرقني لهاثه ، فاشتعلتُ وعرفتُ أن ذلك سيحدث ولم أستطع مقاومته ، وانزلق ثوبي بين أصابعه فتدفق جسدي ، وأخذتْ العتمة تلهث حولي بفحيح مستثار ، وفاحت روائح الرجال دفعة واحدة فيما أخذتُ أهتز بلا هوادة صعوداً ونزولاً ، وأنا أنسحق بين الأكتاف ، أقذف وأُدفع وأُسحب وأُكوم ، وأُهمل ، ثم أُجر وأُعتصر وأبلل بالماء في مزيج راعب من البرد والقيظ في آن واحد ، حتى إذا ما طُوّفت فوق دوامة من الغيبوبة ، أخذ حامد يهزني بكلتا راحتيه معتصراً كتفي بين كفيه الصغيرتين المتشنجتين : « مريم هل أنت مريضة ؟ » كلا ولكن أين أمك ؟ « تُركت

على الشاطيء وستلحق بنا ، خالتك هنا معنا » . كان صغيراً وشجاعاً بصورة لا تصدق ، وقد ظل ينظر بعينيه الحادتين إلى كل الرجال نظرة الند ، وهو ملتصق فيّ كأنه درع صغير من الفولاذ يرصد سنّ الرمح . ووراء الشاطىء الأسود كانت يافا تحترق تحت شهب مذنبة من الضجيج الملتهب المتساقط في كل مكان . ونحن نطوّف فوق موج داكن من الصراخ والدعاء . « ولماذا تركتَ أمك على الشاطىء؟ » لم أتركها ، ولكن الزورق امتلأ وستأتي في زورق آخر . إن الرجال يعتنون بها هناك . وكان لا بد لي من أن آتي معك ، وخالتي أيضاً . كان عمره عشر سنوات فقط وكنت في العشرين وبدا أنه اكتشف كل شيء في لحظة مجنونة واحدة . وقد صرف الليل كله يحدق إليّ بعيني نسر صغير ، ونحن نطوّف في فراغ أسود بلا نهاية والمجاذيف تدق سطح الموج . تدق . تدق. ويافا تغطس كالشعلة في مياه الأفق البعيد ، وتنطفيء في عيوننا نقطة نقطة . **لقد حرصتُ عليك حرصي على حياتي ذاتها ايتها البقرة ، أمضيت كل ايامي وانا غارق في خدمتك الصغيرة ليلاً نهاراً بلا كلل . وكنت أريدك امرأة شريفة تتزوج ذات يوم رجلاً شريفاً . ولكنك فتحتِ فخذيك لأول رجل . لاول نتن . وجئتِ تحملينه في احشائك ، دون ان تكترثي لحظة واحدة بي . دون ان تكترثي حتى به . كنت ايتها البقرة كنت ، كنت . ولكنك ستسقطين في سرواله معها ، سيتقاسمكن جميعاً وستموتين هناك ، وسأقول لأمك انك متّ ، واني دفنتك في سروال رجل نتن ، مع امرأة اخرى لديها منه خمسة اطفال ، وقد تلد طفلاً سادساً في المساء .** فكيف سنعيش معاً ؟ ستقيم معي هنا وتتركها ؟

حتى أني لم أسألك هذا السؤال ! قد يمضي الليل كله دون أن تأتي . فتكون إذن في فراشها هي . وفي طريق عودتك من دارها إلى مدرستك تقرع بابي . أو لا تقرعه . كلما ذهبت إليها ستمر من أمام الباب . يا إلهي . لم أفكر قط أن بيتي يقع في منتصف الطريق بين بيتها ومدرستك . وقد أراك تمر أمام الباب وتمضي إليها دون أن تلتفت . هل تشدها دائماً من شعرها وأنتما تتسلقان هذه اللذة الأليمة ؟ « قلت لك كفّي عن التفكير بها وفكري بي أنا معك » . ورفعني بين ذراعيه الثقيلتين ، فصارت الساعة أمامي . وكان عقرباها غائبين في العتمة إلا أنهما ظلا يدقان . وغصنا معاً بما يشبه الإغماء . من أين يستطيع حامد أن يفهم ؟ لقد كان دائماً رجلاً رائعاً ولكنه لم يكن أبداً إلاّ أخي . ومرور الزمن لم يكن يعني لديه شيئاً فيما كان بالنسبة لي موتاً يعلن عن نفسه كل يوم مرتين على الأقل . بالنسبة له كنت أتحول كل يوم إلى مجرد أم . وكان يتحول كل يوم بالنسبة لي إلى رجل محرم . ولم يدرك قط طوال عمره أن لحظة ارتطام واحدة مع رجل حقيقي ستودي بنا معاً . وأيضاً بعالمنا الجميل الصغير التافه الذي أجبرنا أنفسنا على اختياره . عالم تافه غير مستعد لقبول عانس أخرى ، فما الذي كنت تتوقعه إذن ؟. انتزع نفسه واستلقى عارياً وأخذ يحدق الى السقف وهو يلهث : « لم تكوني هنا ، انا أعرف ! كنت مثل قطعة حطب . ولكن ذلك لن يستمر طويلاً . أنا الذي أعرف كيف أطوّعك » وصمت قليلاً ولهث بصفير مسموع : « كانت فتحية مثلك في

البدء » . إسمها إذن فتحية ؟ « أف ! لم تفهمي من كل ما قلته إلا فتحية .. فتحية .. ماذا تريدين أن أفعل ؟ أطلقها ؟ أنت لا تريدين ذلك ، أنت أكثر شباباً منها وأكثر جمالاً . فلماذا تخافين منها ؟ أنتظري قليلاً لتسمعي رأيها ! »

قمتُ فأخذ السرير يئزّ ، ومضيتُ إلى الغرفة الأخرى . كانت زميلةٌ صغيرةٌ في ثانوية الإنكليز بيافا لها عينان تغمزان دائماً كأنما حين تتحدث ، تتحدث دائماً عن الحب . وكان فمها الصغير يُدعك بانتظام ، فتبدو شفتاها ثقيلتين مضرجتين . وأثناء الدروس كانت تعلكهما بأسنانها لتحافظ على لونهما المتوقد ، كانت صغيرة ، وكان جسدها المشدود داخل الثوب الكحلي يبدو كجسد قطة مهتاجة . وكانت دائماً تكتب رسائل وتتلقى رسائل ، وتتحدث عن رجل تسميه دائماً « هو » وتغمز بعينيها . ترى أين انتهت الأيام بك يا فتحية ؟ كان أبوها يقول دائماً انه لن يغادر يافا حتى لو انقلبت إلى كهوف حجرية . وكان إذا تحدث يظل يقول أهلاً وسهلاً كأنه صاحبُ مضافة بدوية . وحين زرناها مرة أثناء الحوادث دخل الى الغرفة وتناول كتاباً والتفت فجأة إليّ : « ماذا قرر أبوك أن يفعل يا مريم؟ ».

– لست أدري ، ولكنه ينوي أن يبقى ، هكذا يقول .

– أهلاً وسهلاً ، وأنا أنوي ان أبقى .

وخطا إلى الخارج فيما أخذت فتحية تغمز وتبتسم ، وهي تنظر إلى قفاه المتهدل ؛ إلاّ أنه عاد والتفت إلينا :

– ولماذا أغادر ؟ إذا جاءت كارثة فأهلاً وسهلاً ، لن

يستطيع القدر أن يمسخ أكثر من القرد .

وحين غيبته نهاية الممر ، قالت فتحية فجأة :

– سأزوجك أخي فتحي ذات يوم .. إنه يبحث عن عروس . ما رأيك ؟

– قلت لك إنني أنوي إكمال دراستي .

وغمزت وابتسمت ، وعلكت شفتيها بأسنانها :

– قولي هذا الكلام لغيري .

وكانت أمي تتحدث باللهجة ذاتها : إذا خطبك فتحي فلن أقول : « طيب » . سأقول كما يقول أبوه : « أهلاً وسهلاً » . ووقف أبي أمام الباب ، كان غاضباً ، وكان يرتجف شأنه كلما تحيّر في غضبه ، وصاح بصوته العريض المبحوح : « لا تتحدثوا عن الزواج قبل انتهاء القضية » . وكان إذ يلفظ كلمة القضية يبدو الخطر محدقاً ودامياً . وكانت له طريقته الخاصة في ذلك . فهو يشد على الياء بعنف وينفض نهاية الكلمة نفضاً . وقد أخذ حامد هذه العادة منه ، أغلب الظن . لقد حملوه من طرف الطريق مضرجاً ، وكنت أقف على الباب الخارجي ، وسألني أحد الرجال : أنت حامد؟ وفجأة أخذت أبكي . ومن الشباك أطلت امي ثم مضت بنواح ممزق ، وانفتحت الشبابيك فجأة وأخذت الأصوات تندب . وتسلق الرجال السلم صامتين وهو ملفوف بمعطفين وذراعه العارية تتهدل بينهم ، وتتأرجح جيئة وذهاباً . ولم تكن مريم هناك ، ولو كانت وشهدته لأصيبت بالجنون . هكذا ظلت تقول أمي حتى اللحظة الأخيرة . وقد أرسلتني انتظرها في رأس الطريق لأقول لها

ان تمضي الليل في بيت خالتي ، ثم أرسلت الى هناك بدوري ، وظلت أمي وحدها محاطة بجيرانها الباكيات . وفي اليوم التالي تماماً اشتعلت يافا كلها ، وأضحت المنشية ركاماً مسوداً لا تكف فيه أصوات الرصاص ، فمضت خالتي وجاءت بأمي الى بيتها .

أضحت الأضواء الآن ورائي ملتصقة في نهاية الأفق باهتة وصامتة . وتصاعد الهدير متصلاً وراء الهضبة حيث مضت الشاحنات تشق طريقها الليلي ، إلا أنني كنت في مأمن . وكان التراب قد انطوى تحت سهلٍ صخري . فأضحت خطواتي أقل ثقلاً وأكثر اطمئناناً ، كانت الريـــح باردة ومنعشة ، وحاولت ان أنظر إلى الساعة ، إلاّ أن الظلمة كانت حالكة تماماً . وفجأة بدت لي الساعة غير ذات نفع ، حيث لا أهمية هنا إلا للعتمة والضوء . وفي هذا العالم الممتد إلى الأبد من السواد القاتم ، تبدو الساعة مجرد قيد حديدي يفرز رعباً وترقبا مشوباً ، وفي اللحظة التالية فككتها بهدوء واطّرحتها ، وسمعتها تخبط بصوت مخنوق على الأرض ، وأخذَتْ تتكّ في اعماقي بصوت حزين مهجور مثل قلبٍ معدني صغير في جسدٍ عملاق ، حتى إذا ما هجرتَها خطواته تماماً مضت تستغيث مسحوقة في الدوران الجهنمي للسماء السوداء المرصعة كأنهـــا تترقب انقضاضاً مجنوناً ، وشيئاً فشيئاً ضاعت ، هي التي كانت مهمتها الوحيدة في الكون ان ترشد ، امام الزمن الحقيقي الصامد بلا حركة وبلا صوت .

لقد شعرتُ ، من ثمّ ، براحة أكبر وأنا أنفرد بالليل دون وسيط . انهدم الجدار فجأة ، وأصبحنا ندّين في مواجهة مباشرة

لعراك حقيقي بسلاح متكافيء وبشرف . وأمامي انبسطتْ المسافة السوداء عالماً من الخطوات غير مربوطة بعقربين صغيرين لقد انطوى زمنُها الصغيرُ المتوتر الأحمق ، وبدت فوق الحصى البارد الشيء الوحيد في هذا الكون الخارج عن الزمن الحقيقي ، كزنبور يطنّ بلا هوادة ، دائراً بجنون حول نفسه ، فوق نهر لا تبدو ضفتاه ولا يُسبر غوره . وبعد خطوات انتابني شعور بأنني بترت جزءاً من معصمي ، ورغبتُ في أن أنصرف بالتفكير إلى هـــذا الأمر تاركاً لقدمي المضيّ بطلاقة فوق الأرض الصلبة ، وما لبثتُ أن تيقنتُ بـــأن ما حـــدث لم يكن بتراً ، وربما كان سبب هذا الاستنتاج إمعاني في الابتعاد عنها ، وهي ملقاة هناك في مكان أضحى مجهولاً ومستحيلاً . ما حدث كـــان فقط اني حككت من فوق معصمي قشرةً ناشفة لدمّل قديم ، حمل إليّ اللذة الأليمة التي تغمر جسد الإنسان حين يقشر من فوق الندب الغطاء الدموي الجاف بتمهل وتصلب ، فتسقط معه ذكرى الجرح ذاته ، كأنها كانت ملتصقة هناك داخل ذلك الغطاء المحكم ، ولا يتبقى ثمة إلا رقعة برصاء لا تمت مباشرة إلى أيما شيء . وما لبثت ان جُنّت فمضت غارقة في غربتها تلك لنفسها رافعة ذلك الجدار الذي لا يُخترق ، والذي يرفعه المجانين عادة بينهم وبين العالم .

وجاء بهدوء ، وأشعل الضوء ، وجلس في الكرسي المقابل وأخذ ينظر إليّ عازماً على الخوض في حديث طويل . إلا أنه ظل متردداً يمتص لفافته ، فيما أمعنَتْ دقات الساعة في الابتعاد

عني كأن العكاز المفرد عثر على ممر ما فمضى يجربه كدأبة كلما خرجت من الغرفة .

– هل ستنتظرين وصوله جالسة هنا ؟

– نعم كما يبدو

– ولكنه بالنسبة لك . لن يصل أبداً .

– كيف ؟

– لن تعلمي أبداً عن وصوله . كيف ستعرفين أنه وصل ؟

– سيكتب لي ، هكذا قال .

– ولـــو ..

– ولو ماذا ؟

– ولو كتب لك . فالرسالة ستصل بعد خمسة أيام .. هل فهمتِ ؟ سأشرح لك أكثر . أنت لن تطمئني تماماً إلى وصوله إلاّ إذا كتب لك . أليس كذلك ؟ حسناً . ستصلك رسالته لو كتب غداً صباحاً بعد خمسة أيام ، وهكذا فإنه بالنسبة لك ، سيظل يسير خمسة ايام ، وأنا أعتقد أنه لن يكتب لك . فهو حين غادر غزة ، أراد أن يهرب منك ، فلماذا يكتب لك إذن؟ وإذا لم يكتب لك إلى الأبد . فإنه ، بالنسبة لك ، لن يصل إلى الأبد .

– هـــراء .

– لو قرأت غداً صباحاً في الجريدة خبراً يقول ان أحد المتسللين قتل على الحدود ..

– كفـــى !

ـ اننا نتحدث . أليس كذلك ؟ لماذا تغضبين ؟ أعني إذا حدث له حادث . ونقلت الصحف الخبر غداً صباحاً فإن ذلك سيكون ..

ـ قلت لك كفى .

وصمت قليلاً . فيما اندفعت من بين دفتي الباب نصف المغلقتين الدقات المعدنية الحازمة والجوفاء للساعة فأخذت أعدّها واحدة وراء الأخرى . وأغلب الظن أنه عدها هو أيضاً فقد تنهد وفرش كفيه أمامه :

ـ الساعة الحادية عشرة ... أمامه أكثر من ضعفي المسافة التي قطعها ونحن نجلس هنا مثل التيوس . غير قادرين على منحه أية مساعدة أو أي ضرر .. ولكن بحق الإله . ما الذي يريد أن يفعله في الأردن ؟ يذهب عند أمه ! ها !

كانت تلك هي المرة الأولى التي عرفنا فيها أول أخبار أمي : في يوم شتائي قارص دق الباب بعد العشاء . وأطلّت عجوز متدثرة ببطانية كالحة تزرب من حواشيها خيوط المطر . وسألتني أين خالتك يا مريم ؟ فوسعت لها الطريق لتدخل . وهناك بسطت الخبر من بين فكيها الادردين : « أختك أم حامد جاء اسمها في الراديو . سألت عنك وعن حامد وعن مريم وطلبت أن تقولوا لها أين أنتم » . وانخرطتْ خالتي في البكاء فمضت دموعها تنحدر عبر شقوق وجهها الترابي داخل أخاديد اعتادت أن تنزلق فيها . وكي تفعل شيئاً أخذت تعتصر حامد بكلتي ذراعيها وهي متربعة في صدر الغرفة . وتضمه

إليها وتدعوه بكلمات مقطعة أن يبكي معها ، ولكننا قررنا أن نكتب رسالة للاذاعة بحثاً عن المزيد من المعلومات . وكان حامد يصر أن تكون الرسالة موجهة إلى أم حامد ، إلاّ أننا اتفقنا بعد ذلك على صيغة ما . وتلقينا الجواب بعد أربعة ايام . قام ومرّ من جانبي كالشبح ومضى إلى غرفته ، ومن هناك دعاني لأنام ولكنني لم أجب . ودعاني مرة أخرى ثم صمت تماماً . وسمعت تنفسه الثقيـــل المنتظم بعد لحظـــة فقمت وأطفأت الضوء ودخلت في سريري وأغمضت عينيّ ، إلا أنه مضى يدق بثبات أرضاً بعيدة ، وبدا تلك اللحظة واضحاً وصلباً وينظر إليّ مباشرة بعينيه الغاضبتين اليائستين وحيداً أبداً وربما ضائعاً أيضاً، ومهجوراً ، فأخذت من جديد أعد خطواته فيما غاص زكريا في نومه تماماً واضعاً وجهه المربع الخشن في الوسادة . ما الذي يريد أن يفعله بحق الاله في الأردن ؟ هل يريد أن يقطع الصحراء كلها ليلقي بنفسه في حضن أمه ويبكي ؟ ياله من طفل كبير مسكين ؟ لقد عاش كل عمره أمام ظل فرَشَـهُ لنفسه طوال خمسة عشر عاماً وأكثر . ولكنه لم يلجأ إليه ، بانتظار أن يصادف كارثة ما . لقد جعل من أمه البعيدة ملجأً يؤمه ذات يوم صعب ، وانصرف إلى تكبيره وإعداده إلى درجة نسي فيها أن يبني في نفسه رجلاً لا يحتاج في اليوم الصعب إلى ملجأ .. ما الذي كنت تعتقده يا حامد المسكين ؟ أن يظل المحراث محرماً على هذه الأرض الخصبة ؟ ان اصرفَ حياتي أمام سروالك المعلق ، استوحي فيه رجلاً من يافا اسمه فتحي كان يحضّر

بصمت وكبرياء مهراً يليق بابنة أبي حامد ؟ لقد ضاعت يافا أيها التعيس ، ضاعت . ضاعت . وضاع فتحي ، وضاع كل شيء . وأنت نفسك علّقتَ هذا النعش أمامي ليدق هذه الحقيقة الفاجعة على سمعي ليلَ نهار . وأنت الذي عرفتني بزكريا . وأنت الذي جعلت أمي تنقلب إلى مجرد وهم . **وما الذي تعتقد انها ستقوله لكَ ، هذه الأم التي لم تعرفها حقاً : « أيتها المسكينة الصغيرة يا مريم ! أي بؤس أمضيت حياتك فيه جعلك تقبلين بهذه النهاية ! أنت يا وردة المنشية بأكملها ، الطموحة المتعلمة ، ذات الأصل والفصل ، أي حياة تعيسة جعلتك تقبلين زكريا بأعوامه كلها وزوجته واولاده زوجاً ؟ يا حبيبتي الصغيرة يا حبيبتي .. » وإلا ماذا تصورت حين قررت في لحظة محروقة ان تترك كل شيء وتمضي الى أمك ؟ هل تصورت انها ستقوم معك ، تقطع الصحراء معك عائدة الى غزة ، تقتحم البيت ، فتلقي زكريا بالطريق ، وتعيد لمريم عفافها وطموحها وشبابها ؟** لقد اندقت ساقاه فجأة في سفح تلة صغيرة وأخذ يرتجف . هذه المرة بدت وقفته حازمة ونهائية . وخُيّل إليّ أن قدميه قد غرستا في صدري كجذعيْ شجرة لا تقتلع . لقد كنت على يقين لا يتزعزع بأنه لن يعود . ولكنني اعتقدت لوهلة أنه لن يستمر أيضاً ، وانه سيظل مغروساً هنا ينبض وحده في العراء إلى أن يموت واقفاً . مثل ساعته الصغيرة التي غادرها وحدها ، تدق لنفسها حتى تقف دون أن يكترث لها أحد . وفي اللحظة التالية ، وكأنما بسببه وتحت نظراته الجامدة وغربته ، انشقت السماء واندلعت منها حزمة ضوء أرجوانية .

صبت مثل شلال وهميّ وراء الأفق . وقد رأيته . ثمة . لأول مرة . كان وجهه خشناً ربما بسبب لحيته القصيرة التي أخذت لوناً مُغبرّاً ؛ وكان حاجباه يتصلان فوق عينيه السوداوين الضيقتين . وفوق جبينه المستقيم كان شعره الأسود القصير يلتف حول نفسه ممتزجاً بالغبار فيبدو فضياً لامعاً . كان معطفه بلون الخيش وضراوته . وكانت كفّاه كبيرتين صلبتين . وبـدا جسده الفتي تحت ثيابه الضيقة متيناً ومتحفزاً كجسد قط بريّ . كان شديد السمرة . تلك السمرة التي لا يكتسبها إلا الجسد الذي احترق بشمس حقيقية جيلاً وراء جيل . فتبدو وكأنها غسلت يوماً بعد يوم بالطين والدم معاً . حارةً ولها معنى . لقد ظل العمود الارجواني من الضوء . معلقاً بين السماء والأرض هنيهات . ثم أخذ ينقلب إلى الأخضر فتتحرك معه الكثبـان البعيدة مغيّرة لونها من البُنّي إلى الأصفر الكامد . فيما ترتد السماء السوداء مرة أخرى صاعدة من الأفق بسرعة هائلة ، وهي تزرع وراءها النجوم في أمكنتها الثابتة . لقد وقف هناك كأنه أمام بوابة مشرعة . فتحت كفيها عـلى حين فجأة .

من جحيم الى جحيم آخر . فما الذي فعلته ايها الأحمق غير انك قذفت نفسك بالهواء ؟ ما الذي تريد لأمك ان تقوله ؟ كان أحرى بك أن تذبحها فوق ركبتك . ان تقذف به الى جهنم وأن تمسح كفيك الداميتين بوجهك وجدران بيتك وتبقى هناك . ولكنك كنت أجبن من ان تفعل ذلك . كلا لم يكن جبناً . كان عبثاً . عبثاً . وهذا عبث ايضاً . تريد ان تضع امك بينك وبين مريم ؟ تريد أن تجعلها جداراً من النسيان ؟ ارتداداً

الى كارثة اخرى ؟ لقد كانت املك بالنسبة لك دائماً فارساً غائباً عـــلى استعداد ليشرع سيفه في وجه أي عقبة تقف أمامك . وعشتَ كلّ عمرك متكئاً عليها . فما الذي تريده الآن من هذا الفارس الوهمي الذي أعطيته من فشلك وعجزك حصانه الخشبي التافه ؟ اجلس هنا تحت هذه السماء المرتدّة الى اعماقها وفكر برويّة : غزة راحت الآن وامحت وراءك في الليل . خيوط الصوف كرت كلها ، ولم تعد أنت مجرد كرة لفوا عليها خيطان الصوف ستة عشر عاماً ، ولكن من أنت ؟

سقط فجأة على ركبتيه . كأن قبضة غير منظورة سحقته دون وعي . وغاصت حزمة الضوء الأخضر مرتدة إلى نقطة واحدة في السماء ، ساحبة معها لحظة النور التي غسلت كالومض السواد القاتم بأجمعه . وفي النفضة الأخيرة للضوء ، بدا وهو راكع هناك ، وكفّاه فوق فخذيه المطويتين مخلوقاً قذفته حزمة الضوء فوقي وهي ترتد كما جاءت ، بوقار وبـــلا ضجيج . هل أنت واثق انها لم تتزوج هي الاخرى ؟ وهز رأسه بعـــنف ، كأنه يريد أن يتخلص من صورة التصقت به من الداخل ، ما الذي ادراك انها لم تتزوج فور انضاعت عنكما؟ لقد كتبتْ دائماً تقول لك انها تعيش مع شقيقها وأولاده وتعنى بهم ، ولم يكن امامك ما تفعله إلا انتصدق . ولكن ماذا ستفعل لو دخلتَ الآن الى بيتها فقالت لك : هذا زوجي . كان لا بد من ان اتزوج حين حسبت انني فقدت كل شيء . ما الذي ستفعله ؟ ستعود مرة اخرى لغزة ؟ تصور ذلك جيداً . تصورها تقول لك : كنتُ أصغر من الأربعين وكنت وحيدة تماماً ، وكان علي ان

اختار بين ان أمضي حياتي خادمة عند خالك وأولاده ، وبين زوج يشتري لي – حين أموت – كفني وبلاطتي . يا حامد يا ولدي الصغير ! يا ولدي المسكين ! أكان من الضروري ان ترتطم بالعالم على هذه الصورة الفاجعة؟ لماذا لم تصطحب معك دليلاً واحداً . سلاحاً واحداً يرافقك هذه الخطوات الصعبة ؟ لقد بدا بائساً ومحطوماً ومثقلاً ، وكان بعيداً أيضاً عن الطريق . والليل يتسرب من حوله دون أن يدري . وددت لو أستطيع أن أقول له شيئاً إلا أن الصمت هو قـــدري ، وكان متعباً بلا شك ملقى في هذه الهوة من العتمة معذباً ومطعوناً دون كلمة واحدة . دون كلمة واحدة . وهي تدق . تدق . تدق . وليس ثمـــة إلا الانتظار المرّ الذي اعرف انه لن ينتهي ، إلا إذا قرأت اسمه في جريدة الصباح . وعندها فقط ينتهي كـــل شيء على الاطلاق . ولن يبقى ثمة إلا أنا وزكريـــا وهي تحمل اطفالها وتقف على قدمي السرير تنظر الي عارية ارتوي بين ذراعيه من بئرها وماؤها ، والعق صدره ككلبة . قل لي يا حامد : ألم تذهب ابداً مع امرأة ؟ ونظر إليّ فجأة وكأنني صفعته . ربما عرف تلك اللحظة أن تأملي لجسده العاري الملفوف في اسفله بمنشفة ، قد اطلق السؤال من بين أسناني بغيظ ، وسأل وهو يشد المنشفة حول وسطه : « مـــاذا تعنين ؟ » اعني : ألم تفكر بالزواج ؟ وأخذ يهز رأسه : سأتزوج حين اجمع العائلة من جديد في بيت افضل من هذا الجحر القميء . ودرت حوله وسألته : لم تجب على السؤال الأول ، ألا تعرف أية امرأة ؟ ونظر إلي من جديد بدهشة ، وقاسي بعينيه ربما لأول مرة في حياته ، ثم بدأ يمشط شعره . كان شعره خشناً ملتفاً حول نفسه صعباً قاتم السواد ، وكان

إذ يمشطه لا يحتاج الى مرآة ، فقد كان يقذفه الى الوراء ، وهو يعرف انه سيعود في اللحظة التالية الى الالتفاف حول نفسه من جديد ، وكان ذلك يغيظه في البدء ، إلا انه فقد اهتمامه به فيما بعد . وفي المساء جاء متأخراً ، وأخذ يحدث جلبة في كل مكان كي يوقظني ، وحين فتحت عينيّ كان ما يزال في ملابسه ، وعرفت فوراً انه يريد ان يرد على سؤال الصباح فقد كانت تلك هي طريقته الساذجة التي لم يستطع ابداً اتقان تمثيلها . أخذ يبحث في البدء عن شيء لا يريده ، ثم التفت إليّ ومضى كأنه يكمل حديثاً قوطع للحظة واحدة : « لقد رأيته ينزف حياته بعيني ، كانوا يحملونه ملفوفاً بمعطفين ملونين فوق الدرج ، واخذتْ ذراعهُ المتدلية بين الرجال عارية صفراء تهتز جيئة وذهاباً كأنها تدعوني الى اللحاق به ، فارتقيت الدرج وأنا أنشج ، بين خطوات الرجال الثقيلة الثابتة . قولي انني خيالي . ولكني لم انسَ ذلك ابداً ... وسأقول لك سراً لم أقله لانسان ، انني اذكر ذات يوم انني اندفعت الى غرفتهما هناك . لم أعد أذكر لماذا ، ولكن فور ان فتحت الباب واجتزت العتبة شهدتهما معاً في السرير ، اعتقد انهما كانا عاريين ، ولكنني لم أرَ الا ذراعه ، ذراعه العارية السمراء القوية حول خاصرتها البيضاء . درت على عقبي مغمضاً عيني وأخذت اعدو ، وجاءني في اليوم التالي وأجلسني امامه وأخذ يحكي . لست اذكر شيئاً الآن ، ولكن هذا هو كل ما اذكره من والدي . كل شيء . هذا هو والدي كله .. هذا هو .. مجرد ذراع : مرة تضاجع امي ومرة مضرجة بالموت .. هذا هو والدي كله . كله » .

صغير . كلهم يقولون ذلك . صغير . وها أنت ذا من فرط صغرك . مكب في هذا الفراغ المطلق كفقاعة هواء عائمة

حيث لا يراها أحد . وحيث لا تستطيع أن تختار طريقها . ربما كان أفضل لك أن تمضي عمرك راكعاً ها هنا ، مكبــاً . يكاد جبينك يمس الأرض بانتظار أن تركلك قدم ثقيلة . فتنتصب واقفاً والذل يتــاكلك في جسدك كالجَرَبْ . ولكنك هنــا ستفتقد حتّى نظرة سالم التي ما تزال تشتعل في أحشائك . حتّى هذا التشييع لذلك الأبــدي ستفتقده هنا . لن يتبقى ثمـــة سوط يجلدك مثلما فعل سوط سالم طوال أعوام من الفراغ والصمت خلّفهـــا وراءه حين ذهب . أوقفني ذات يوم بعد أن مضى أسبوع واحد فقط على دخولهم إلى غزة ، وسألني وهو يشبك ذراعه في ذراعي : « ألم تشته يوماً أن تطلق رصاصة في معركة فاتتك دون أن تطلق فيها أية رصاصة ؟ » . وفجأة أخذت أرتعد . فها هو ذا الرجل الخطر على بعد شبر واحد مني فقط . ولكنه مضى كأنه لم يشعر بجسدي يرتجف تحت ذراعه : « لقد قتلوا أباك . كما أعلم . وأغلب الظن أنك عشت تعلك أسنانك وتتوعد وتقول لو .. حسناً ! » . ووقف فجأة وغاصت الابتسامة في وجنتيــه المرتفعتين وضاقت عيناه : « لدينا كل شيء فهل تأتي ؟ » ولكنهم ساقونا في اليوم التالي إلى ما وراء المعسكر . وأوقفونا صفاً واحداً . زكريا . زكريا . زكريا . كنت أتوقع ذلك ولم يصدقني أحد . وفقط حين اقتادوه إلى ما وراء الجدار رأيته بعيني يشيع زكريا باحتقار جارح . لقد اكتسى وجهه فجأة وبلا تردد بتلك الملامح الراعبة الجامدة والمتكبرة التي تتخذها

عادة وجوه الذين يعرفون أنهم سيموتون في ساحة عامة . وتحت أنظار الناس جميعاً ، وفي سبيل شيء يحترمه الناس كلهم ، ثم كففنا عن النظر إليه ، وأخذنا ننظر إلى زكريا واقفاً أمامنا ، مشبكاً أصابعه ناظراً إلى الأرض ، وتحت زخ المطر انتظرنا بترقب صوت الطلقة اليتيمة التي أطلقت وراءنا عن كثب ، فاهتز زكريا كأنه تلقاها في بطنه وانحنى قليلاً . وتوقعنـــا أن يسقط . ثم سمعنا الطلقة الأخرى وعيوننا جميعاً كأنما بالاتفاق مصوبة إليه وهو واقف أمامنا تماماً . وخَشّت الأرض ، وعاد الضابط وعلى وجهه ابتسامة رضا صغيرة وصاح بنا : « انصرفوا إلى بيوتكم . لقد شهدتم ما فيه الكفاية » . فحمل كل منا ذله الخاص ، وانزلقنا إلى المعسكر من جديد . ودخل البيت هادئاً وجافاً وجلس وأخذ يعض شفته وهو ينظر إليّ ، ثم نهض ودخل الى المطبخ ، ومن هناك ابلغني « لقد قتلوا سالماً اليوم وغداً قد يجيء دور أي منا » . والتحقتُ به ورأيته يملأ الابريق ماء . كان لا يشرب إلا من الابريق . ولاحظت اصفرار وجهه . وبعد ان شرب التفت إلي : « قد يكون دوري انا غداً » فخرجت من المطبخ ومضيت الى الشباك ، وأحسست بخطواته ورائي فقلت : « دورك انت ؟ لماذا ؟ انت لم تفعل شيئاً ، لقد قتلوا سالماً لأنه ... انت تعرف سالماً على أي حال .. فلماذا يقتلونك انت ؟ » . وأغلب الظن انها كانت تريد ان تطمئنني ولم تعرف ابداً أنها حمّلتني ذلاً جديداً : لماذا يقتلونك أنت ؟ تافه آخر لا بأس من أن يكمل حياته تافها ويموت

تافهاً ، يموت رخيصاً ها هنا مكباً فوقي كأن الريح الباردة ذوّبت عظامه فجأة فسقط دون ان يعي . وسوف يضحي هيكلاً مقدّداً بالشمس والرمل الى الأبد . كأنه علامة طريق لاترشد إلا لضياع بلا قرار.

ومرة أخرى نقبت الظلام بعينيّ أبحث عن الساعة المعلقة أمامي ، لا بد انها تقترب من منتصف الليل ، وكنت قد اعتدت الظلمة كما يبدو ، فشهدتهما في الضوء الرمادي الكامد ، يقتربان من بعضهما بتحفز ولكن بثبات : دقيقين أسودين فوق التماع البياض الناصع المستدير ، وأخذت خطواتهما تدق بتسارع لاهث في انتظار لحظة اللقاء الصاخبة ، فيما انقلب زكريا إلى جنبه الآخر ، وأخذ يغط ببحة عميقة مغوّصاً في أحـــلامه . وركّزت بصري قدر ما استطعت على ذلك العقرب الأسود وهو يزحف فوق ميناء الساعة الأبيض وفكّرت : أي جهد يبذله طوال يومه من أجل لقاء عابر ، ولا وقوف فيه مع ذلك الرمح القصير الآخر الذي ينتظره ببرود معلقاً كالوتد على رأسه ؟ ورغم ذلك فلو أنهما التقيا وتعانقاً وتوقفا هناك لماتا فوراً ، مثل كل الرغبات التي يفسدها ويصغرها أن تتحقق ، وفي اللحظة التالية خشت الساعة وتوقفت هنيهة عن الدق . فبدت وقورة تعتزم إعلان خبر رهيب على مسمع من حشود تقف صامتة أمام جلالها ، وقفز العقرب الكبير فالتحم تماماً بالعقرب الصغير ، وغابا معاً في قرع معدني صاخب لاثنتي عشرة دقة ، وجاءت آخر الدقات كانتفاضة متعبة لدفقة المنيّ الأخيرة . وما لبث العقرب الكبير ان انسل ومضى يبتعـــد

قارعاً خطوته المفردة في الفراغ . منتصف الليل . وبعد أربع ساعات على الأكثر سيولد الضوء عدواً لدوداً وقاسياً للهاربين جميعاً . وفجأة أخذ ينبض في أحشائي . وشعرتُ بحركته الصغيرة تدفق في بدني . فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أحسه فيها يتحرك بعيداً في ظلام مجهول ولا نهائي . لقد بدت حركته صغيرة مثل انتفاضةعصفور مطبق عليه في كفين محكمتي الاغلاق . وفي اللحظة التالية شككتُ أن يكون ذلك حقيقياً . فوضعت كفي مفروشة فوقه تماماً . ولكنه ظل صامتاً وبعيداً وربما غاضباً . وسميته حامداً . إلا أنني تراجعت وأخذت أبكي فجأة . بلا سبب أو بسبب كل شيء دفعة واحدة .

وكنت أعرف ان ذلك سيحدث ، فقد انطلق شهاب ارجوانيّ صغير من وراء الهضبة ، وأخذ يتسلق العتمة مندفعاً بنطات عصبية جاراً وراءه ذيلاً مقطعاً من الشرر الأزرق ، حتى إذا ما استنفد جهده ، انفجر بصوت أجوف ، وتحول الى سحابة بنفسجية متوهجة ظلت معلقة بصورة ثابتة على علوّ منخفض في نهاية نصف قوس من الدخان الابيض ، رسمه انقذاف الشهب . ثم أخذت السحابة تغيم شيئاً فشيئاً وتمطر شرراً صغيراً . لقد أضيئت الأرض فجأة وبدَتْ غامضة اكثر مما كانت ، وغير حقيقية على الاطلاق . ولأول مرة منذ بدأتُ خطواتي في هذه الصحراء اجتاحني رعب لا مثيل له . وبدا لي أن الهضبة المسطحة أمامي مباشرة . والتي أرساها الضوء فجأة ولأول مرة قد تكون مطوية على عفريت أو رجل أو نبيّ . ليس بوسع أحد ان يخمن . لقد حاولت جهدي ان أكبح

أعصابي وعضلات فخذيّ التي أخذت ترتعش كأنها حيوان جموح . أمسكتُ نَفَسي وحاولت ان أفكر : لا شك أن جماعة أو رجلاً وراء الهضبة قد أطلق اشارة ضوء . وأورثني يقيني بوحدتي المطلقة مزيداً من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعاً وحشياً ، فسيطرت تماماً ودفعة واحدة على أنفاسي وحركاتي ورأسي ، واستلقيت على الأرض شاداً نفسي اليها قدر ما في جسدي بأجمعه أن يفعل . أن يطلق رجل ما إشارة ضوء من مسدسه ، يعني انه رجل من هنا همه أن يكتشفوه . وأورثتني هذه النقطة شعوراً بأنني أواجه ، بالضبط ، شيئاً معاكساً . فها أنذا أشد جسدي إلى الأرض ما وسعني ذلك كي لا أُكتشف. ووراء الهضبة، يوجد من يطلق إلى السماء ضوءاً ساطعاً كي يُكتشف . ورغم ذلك فقد يكون كلانا ضائع أيضاً .

كان جاهلاً تماماً ولكن الخطر الغامض الذي فجأه دون لحظة تفكر واحدة، وضع غرائزه كلها في مقدمة اصابعه ، فانبطح جامداً ملتصقاً تماماً بصدري ، أحس نبضه يسيل إليّ دافئاً وثابتاً فيما مضى الصمت المطبق ينقل اليه عبر مسافة لا تقدر ، اصوات خطوات ثقيلة تنسحب فوق الرمل الناعم وراء الهضبة تماماً. لقد أخذتْ حواسي جميعاً تعمل دفعة واحدة . ومضيتُ أقيس أصوات الخطوات البعيدة ، فتبدو وكأنها تتجه نحوي ببطء وحذر ، ولأول مرة في حياتي افتقدت السلاح فعلاً هنا ، حيث ليس بوسع المرء أن يحصل على حجر أو على عصا . وظهر رأس واحد بادىء الأمر . فوق الهضبة مباشرة ، وكان

بالوسع مشاهدته كرة أشد سواداً من سواد السماء وراءها . وبدا متردداً للحظة كأنه هو الآخر يستشعر خطراً غامضاً ، ثم أخذ يتسلق ببطء محنياً بعض الشيء . وفي اللحظة التالية وقف فوق قمة التل المسطحة ، فبدا خيالاً قاتماً لتمثال حجري دبت فيه روح شبحية . فأخذ ينزلق فوق السفح بحذر . كان يتجه نحوي تماماً ، فكتمت أنفاسي حيث يستطيع الصمت المحايد أن يحمل كل شيء . كنت مسلحاً بقدرتي على مفاجأته فقط . وأورثني هذا السلاح شعوراً بقوة مجهولة تعمل إلى جانبي . لقد أخذت أصوات خطواته تعلو بوضوح ، وخمنت انه لا بد أن يكون مسلحاً ، فرجل وحيد في الصحراء مثله ، يحمل مسدس اشارة ، لا ينسى أن يحمل سلاحاً آخر ، ربما كان جندياً مدرباً على فنون الصدام المباشر والجسدي . وخيّل إليّ أنه لو مر بعيداً عني مترين فقط ، لانتهى كل شيء بسلام . ولكن يبدو انه كان يتجه إليّ مباشرة وكأنه يقصدني قصداً . وفجأة صار أمامي تماماً فدفعتني الأرض دفعاً إلى فوق ووقعنا معاً . وفي اللحظة التي أمسكت فيه عضديه بكفيّ وأنا أضغط جسدي فوقه . تيقنت أنني أقوى منه . وبتصلب وحذر ، رفعت ركبتي ووضعتها بين فخذيه ، فأخذ يئن بصوت واهن ، ثم قال شيئاً . وقبل ان أترك له لحظة تفكير واحدة ، خليت إحدى يديه ونثرت حفنة رمل في وجهه . وهكذا تيسرت لي فرصة تفتيشه بدقة : لقد عثرت في البدء على رشاشه الحديدي الصغير معلقاً فوق كتفه فانتزعته وطوحت به بعيداً ، لست أدري لماذا ،

ولكنني احتفظت بالسكين الطويلة . وخلصته من مسدس الاشارة . وتنفس الصعداء . ولكن المفاجأة كانت قد شلّته نهائياً . فاحتفظ بجسده مطروحاً كما كان . فيما مضى يتحدث دون انقطاع . مكرراً جملة واحدة مرة وراء الأخرى. ثم جلس بهدوء ، وأخذ يمسح عينيه بأصابعه . ويبصق التراب من بين أسنانه . ومرة أخرى . قذف جملة مقطعة كأنها شتيمة ، فقلت له اخرس . عندها فقط وضع كفيه بتحفز فوق التراب ، وأخذ يحدق حواليه مذهولاً . وبسرعة لا تصدق انتصب واقفاً وتعلق بعنقي بكفيه الدقيقتين القاسيتين . ولكنه حين أحس بالسكين تضغط فوق بطنه تراجع وأخذ ينظر حواليه مرة أخـــرى محتاراً . وفجأة اكتشفت أنه لم يستسلم أمام قوتي ، ولكنه لم يقاوم على الاطلاق لاعتقاده بأنه صادف أصدقاء له . وكان غاضباً من المزاح أو من الخطأ ، ولكنه لم يحسب ابداً أنــــه سيستمع . فجأة الى كلمة عربية في هذا المكان البعيد . ويبدو أنه احتاج إلى وقت طويل صعب كي يصدق . فقد ظل واقفاً محتاراً يضرب كفيه على ساقيه . وأخيراً جلس محتويـــاً رأسه بين كفيه . فجلست إلى جانبه ومقبض السكين في يدي .

وكان الانتظار قد أضحى عادياً ومألوفاً ، فحسبتُ انه من الممكن ان أنام الآن ، ولكن ذلك كان عبثاً تماماً . واخذتأتصوره طفلاً يواجه عالماً غريباً ومتوحشاً وخشناً مثل لعبة صغيرة محطمة تتوزع شظاياها رقعة لا تستطيع ذراعاه الصغيرتان الوصول الى أطرافها . وفجأة قررت ان أراها . وعرفت تماماً ، تلك اللحظة ، ان هذا هو أول شيء سأفعله في الصباح ،

سأذهب اليها وأدق الباب وأقول لها : « انا ضرّتك » وسأتركها تنظر إليّ النظرة التي تشاء ، ولكنني سأعرفها ، وسأعرف كيف أتدبر أمري معه ومعها بعد ذلك . إنه من العبث الجلوس هنا والانتظار ، وسوف أحكم على نفسي بالموت لو سمحت له أن يعتبرني مجرد ممر في حياته بين مدرسته وبيتها يبصق َمنيّة فيّ ويمضي .. أي انتظار يا مريم ، أي انتظار طويل ينتهي بك الى مجرد ممر ! أي انتظار ! تدق خطواته فوق الجدار طوال الليل وهي تعبر فوقك في الطريق من .. والطريق الى .. تدق . تدق . تدق . وتتسرب من بين اصابعك كالرمل ، وتنتهي بك الرحلة الطويلة الى مجرد هذه التفاهة . ممر . فوقك تعبر كل الأشياء التي أردتها أن تكون لك ، ولكنها لن تكون أبداً لك .

كانا في ذلك الخلاء المترامي جالسين كشبحين لا يفصل بينهما إلاّ نصل ، وظهرا كشيئين غير حقيقيين تحوّم حولهما ريحُ الموت الباردة ، بانتظار لحظة الحقيقة الوحيدة التي بدت بعيدة عن كتفيهما القريبتين الى بعضهما قرباً لا يصدق . لقد بدا ارتطامهما ببعضهما في ذلك المدى اللانهائي قدراً غريباً وربما مصادفاً ، ولكن لا مفر منه ، وقد جلسا معاً يستوعبانه ليصدقاه ، وأخيراً سألته : **اين كنت ؟** فرفع رأسه وحـــاول أن يستشف الظلمة ليراه عن كثب ، إلا أن الظلام كان حالكاً تماماً . فأخذ يمضغ كلمة واحدة وبصق ، **فنعرته برأس السكين المثبت في خاصرته وسألته مرة اخرى : أين كنت ؟** فصمت قليلاً ، وهو يفكر بترو ، ثم فرش كفيه أمامه يائساً وهز رأسه . وقذف كلمة مقطوعة وحاول أن ينهض . **ولكنني**

أجلسته بعنف ، فاستسلم فارشاً كفيه أمامه ، محتاراً مرة أخرى. وحاولتُ ان اكون هادئاً ، فسألته من جديد «هل تبعد الظاهرية كثيراً عن هنـا ؟» ولكنه أخذ يهز كتفيه ويفرش يديه أمامـه. وفجأة تذكرت اشارة الضوء. لا شك انه يتوقع وجود دورية ما في مكان قريب ، وانتابني الندم لأنني اطرحت الرشاش ، ولكنني على أي حال لا أعرف كيف يستعمل ، وربما كان من الخير ان لا يستعمل ، فصوته جدير باحداث ما يشبه الرعد في هذا الصمت المطبق يصل الى اطراف الصحراء ، أما الآن فانا أمتلك رهينة لا أعرف اين أخذها ، ولا أعرف كيف استفيد منها ، ربما كان من الأفضل لو ذبحته فوراً أثناء صراعنا القصير. أما الآن فيبدو ذلك مستحيلاً وفوق طاقتي ولا جدوى منه على الاطلاق وكنت أحسه واتبع انفاسه الى جانبي ، فيبدو متعباً وضائعاً ومحتاراً ، ولكنه متحفز وبانتظار مفاجأة تنبع من بين قدميه. وفجأة بدت لي ساعات الليل كلها مجرد حلم بطيء رهيب لا يمكن ان يُصدّق ، ضياع بلا قرار ، وسقوط حافل بالكوابيس الوحشية. وها أنذا من جديد في وجه لحظة جديدة لا أعرف كيف اتدبرها ، فأخذت ابتسم بادىء الامر ثم انفجرت بالضحك فجأة. فانقلب زكريا على جنبه ونظر إليّ ، ثم عاد فنام مرة أخرى كأنه اعتقد أنه هو الآخر مستغرق في حلم جنوني. قد تكون لا تعرف غير العبرية فهذا لا يهم. فقط اسمع ، أليس من المثير حقاً أن نلتقي في هذا الخلاء ، مباشرة ، بالشكل الذي حصل ، ثم لا نستطيع ان نتحدث ؟ وظل وجهه متجهاً إليّ غامضاً ومترددا وشاكاً بعض الشيء ، ولكنه كان خائفاً بلا شك. أما أنا ، فكنت قد تجاوزت الخوف الى شعور غريب لا يفسّر.

وعلى اي حال فليس بوسعك ان تظل شبحاً بهذه الصورة ، يجب أن نجد لك اسماً وحياة ما ، لدينا متسع من الوقت لنفعل . وحتى يجدونك وراء انوف كشافاتهم وكلابهم ، سنكون قد انتهينا من خلقك ، وعندها يصبح ذبحك عملاً له قيمة ما . واحد فقط يجب أن يظل موجوداً : أنا أو هي ، وليس بوسع الشيطان نفسه أن يعيش معكما معاً ، كوهمين ، كدفتي مكبس أنسحق بينهما . فدعنا نبدأ بهدوء : ما اسمك ؟ عبث ، حتى لو كنت تفهم ما أقول ، فلن تقول الحقيقة . إننا ندور في حلقة مفرغة ، والوقت لا يمكن ان يكون ضدنا نحن الاثنين معاً ، بصورة متساوية ، فقد يكونون أقرب اليك مما اتصور ولكنك أقرب إليّ مما يتصورون ، والقصة كما ترى ، قصة مسافة ليس غير ، وربما زمن ايضاً . حسناً ، ولكنني لا اكترث كثيراً بالزمن كما ترى ، والمسافة لصالحي فأنت أقرب الى نصل سلاحي مما انا الى فوهات بنادقهم . وهناك قضية اخرى لها قيمتها ، ويجب ان تحسب حسابها : ان تقتل أنت هنا على بعد خطوات منهم ، على بعد خطوات من معسكرك ، ربما ، هو عمل اخطر من ان أقتل أنا ، مجرد عدو اقتحم عليكم قلعتكم وكان وحده تماماً ، بلا سلاح .. الأمور هنا نسبية تماماً ، وهي لصالحي ايضاً ، وهذا شيء غريب ، فقبل دقائق فقط كان كل شيء في هذا الكون ضدي تماماً ، وكانت الأمور كلها في غزة وفي الاردن تعمل في غير صالحي . وكنت أقف هنا ، هنا بالضبط ، في رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب . فتعالَ اقول لك شيئاً مهماً : ليس لدي ما اخسره الآن ، ولذلك فقد فاتت عليك فرصة

أن تجعلني ربحاً . لو استطعت فقط أن اجعلها تفهم بأنني لست ضدها . وان الأمور كلها سارت دون ان تكون فيها ، ولكن ما الذي سيهمها من الكلام . وقد أصبحتُ زوجة ثانية في حضن زوجها ؟ وتحت ألسنة الجيران والنساء سأُعلك ، صباح مساء : هذه هي التي سرقت زوج فتحية ، المسكينة لها منه خمسة أولاد يكرجون في الشارع أمام عيون الله والناس . وأنت ما الذي ستقوله ؟ أنت . أنت . أنت ، ما الذي سأعنيه لك ؟ وسيقولون : كاد أخوها يجن فهرب بعاره . لقد وضَعَتْ ولدها الأول منه بعد خمسة شهور من الزواج فقط ، يا للعار ! فليذهبوا جميعاً إلى جهنم . ولكن أنت ، أنت ، ماذا ستقول لهم ؟ وسيقولون : لقد تزوجها مجاناً ، كانت فتية ومهتاجة . ولها بيت فيه غرفتان وسريران ومقلاة ، وقد أفلح في طرد أخيها الصغير الذي اختفى واختفت أخباره ! كذابون . ولكن أنت ، أنت ماذا ستقول يا زكريا ؟ ماذا ستقول ؟ ليس لي الآن غيرك وقد انطفأ الجميع من حولي ، فماذا ستقول ؟.

لقد أخذت السماء ترتفع . وفي نهاية الأفق امتد خيط رفيع ثابت من الغبش الرمادي وتوقف هناك . وفي اللحظة التالية . بدت النجوم أقل توقداً وأكثر بعداً . واورثه الصمت الثقيل خوفاً جديداً فأخذ يتلفت حوله . لقد تحول انتظاره إلى مستنقع بلا قرار ، وأضحى الزمن خصماً فيما بدا حامد جامداً عاقداً العزم على البقاء ها هنا حتى النهاية ، وكان يتفوق على خصمه بأنه لم يكن ينتظر شيئاً ، مثلي . بالنسبة لي كان يعني

بقاء وليس عبوراً ، كان ضائعاً . هو الآخر . ولكن ذلك لم يكن يعني بالنسبة له شيئاً. ليس لأنه لا يعرف . ولكن لأنه لم يكن يريد ، بعد ، الذهاب إلى أي مكان . وقد حوصر بضراوة منذ أول الليل في هذه الرقعة التي تبقت فأضحت مملكته . **وفجأة تذكرته فاستدرت اليه وسألته : هل تعرف رجلاً من غزة اسمه سالم ؟ ولكنه لم يلتفت إليّ ؟ وظل ينظر الى التراب بين قدميه ، فقلت له : ليس ذلك فقط ، بل ربما انت الذي قتلته ايضاً ، وعلى أي حال ستترك ضوء الصباح يكشف لي ذلك . وعندها فقط التفت إليّ ومضى يحكي دون توقف ، غاضباً عصبياً ينفض ذراعيه حوله ، ويشير تارة وراءه وتارة امامه ، فدفعت رأس السكين الى خاصرته فسكت وقلت له : لا تستعمل صوتك بعد أن فقدت مسدس الضوء ، ثم انني لا افهم حرفاً واحداً مما تقول ، وليس هنا من يفهم حرفاً مما تقول ايضاً . فلماذا تضيّع وقتك ؟**

ودقّت دقتين وصمتت لحظة، ثم بدأت خطواته المفردة تقرع من جديد في رأسي وفوق الجدار: لقد منحتني هذا النعش ، علقته أمامي ، كي أدفنك فيه. ولكن خطواتك هي التي ستظل إلى الأبد تقرع حوله ، ولن يدفن فيه إلا أنا . وحتى بعد ان أدفن في أعماقه ستظل خطواتك تقرع فيه وحوله وفوقه إلى الأبد ، هذا النعش الصغير المعلق سيحتوينا جميعاً . وستعلكنا خطواتك ونحن فيه . وستظل أنت فقط خارجه تكمل رحلتك التي لا تنتهي . لا تنتهي ؟ يا إلهي ! ليس بوسع أحد غيرك أن يعرف .

لقد خطر له خاطر مفاجىء ، فانتزع حزامه ومضى يعقد كفيه وراء ظهره بحرص وعناية دون أن يواجه بأي نوع من المقاومة ، حتى اذا ما انتهى عاد الى مكانه وجلس واضعاً سكينه في حضنه ، محتوياً رأسه بين كفيه فيما أخذت الريح الباردة تنحدر من الهضبة صامتة وجارحة فشد فخذيه الى صدره ، ومن بعيد جاء صوت هدير مكتوم ، الا ان الظلام الذي كان بدأ يشف شيئاً فشيئاً كان ما زال مخيماً في كل مكان ، قام فوقف واخذ ينظر حوله منقباً في الظلمة عن اثر ثم عاد . ومضى ينقب في جيوبه حتى إذا ما لامسَتْ أصابعي محفظته الرقيقة سحبتها وفتشتها . كان من العسير معرفة أية قيمة لأية واحدة من الأوراق التي كانت فيها بسبب الظلمة فاحتفظتُ بها كلها في جيب قميصي فيما كان ينظر إليّ محتاراً مصرّاً على انتظار معجزة تنبع من بين قدميه ولكنني كنت واثقاً من انه سيكتشف في أية لحظة أن المعجزة التي ينتظرها ستعني، في اللحظة التي ستأتي فيها ، حتفه . ولست أدري كيف سيستقبل ذلك الاكتشاف الذي لا بد منه ، وفجأة يبدو أنه سمع الهدير البعيد فانتفض وحدق حواليه ثم إليّ ، وعندها فقط لوّحت بالسكين كي أساعده على اكتشاف معنى المعجزة التي ينتظرها فتكوّم من جديد في مكانه . وفي اللحظة التالية حدث شيء غريب : كنت واقفاً وكان مكوّماً تحت قدمي مباشرة . وفجأة خيل إليّ ان كل شيء في هذه الصحراء الصامتة . كل ذرة رمل . كل خفقة هواء ، كل نجمة ، كل نقطة ظلام تحدّق إلينا معاً مثلما كنا نحدق إلى زكريا ملقى تحت

قدميْ الضابط بانتظار لحظة الموت الرهيبة . وكان سالم يقف معنا في صف مستقيم ، ورأسه يعمل كعش نحل مهتاج ، وقبل ان يعرف أحد ماذا سيحدث أخذ زكريا يصيح : « انا أدلكم على سالم » . إلاّ أن سالم فوّت عليه ان يكون خائناً حقيقياً فتقدم ثلاث خطوات ثابتة ووقف . وتحت قدميه المتجهتين إلى الموت تفجّرت الصحراء الصامتة بلا هوادة . وأخذت سنوات الصمت المهلكة تمطر فوقي : لماذا يقتلونك ؟ وجاء سالم فأمسك بذراعي : « أغلب الظن أنك أمضيت عمرك تعلك أسنانك وتقول لو ! حسناً . تعال ! » وانزلقتْ يدهُ العارية تحت المعطفين المضرجين فيما كان يرفعه الرجال على السلم . ومضت تهتز جيئة وذهاباً وكأنها دعوة للحاق . وجاءت طلقة واحدة من وراء أنقاض الجدار فانحنى زكريا أمامنا كأنها صوبت إليه من عيوننا المتجهة إليه بصمت . ثم جاءت أم سالم إليّ : « ذهبتُ في الليل إلى هناك ولكنني لم أجده . لقد دفنوه خلسة ألا تعرف أين دفنوه ؟ ولدي . كبدي . حشاشتي . ما تبقى لي » وأخـــذ الزورق المثقل يهتز فوق سطح العالم الأسود المضطرم . أين دفنوه ؟ لقد حمَلَتْ أمي السر معها وتركتنا . ما تبقى لها . ما تبقى لكم . ما تبقى لي . حساب البقايا . حساب الخسارة . حساب الموت . ما تبقى لي في العالم كله : ممر من الرمال السوداء . عبّارة بين خسارتين . نفق مسدود من طرفيه . كله مؤجل . كله مؤجل . ثم صفق الباب وخلع

نعليه وجلس . كأن البيت بيته . ولو كنت أملك خشبة و شبر أرض لأعدمته . ولكنها لم تقل شيئاً . وتركتني أمضي دون كلمة نداء واحدة . واجتاحتني رعشة مفاجئة ، فأخذت انتفض: لقد حدث شيء ما له ، في هذه اللحظة بالذات .. سيقول عني مجنونة لو أيقظته وقلت له : « حدث شيء لحامد هذه اللحظة . لقد أحسست ذلك في اعماقي » . وفي اللحظة ذاتها دفعني الفراش ، فقمت وتحسست طريقي الى المطبخ ، كان الصمت ثقيلاً ، فأخذت خطوات الساعة تعبر الباب الى أذني موهنة ولكنها صامدة . شربت ، فقط لأقوم بعمل أي شيء ، ثم فتحت الباب ببطء وهدوء ، وحدقت الى السلم المعتم ، ومضيت الى الشبّاك ونظرت الى الشارع ، صامتاً يلتمع تحت الاضواء الباهتة المعلقة ، خالياً تماماً ، فعدت الى المطبخ . وهناك تحرك مرة اخرى تلك الحركة الصغيرة الغاضبة ، العابرة ولكن التي لا تنسى ، فتوقفت متكئة على الباب وسميته حامداً ، وأخذت أبكي . وكانت الريح الباردة قد بدأت تعبر من الشباك المفتوح فتهزني وتجرحني ، فخطوت مرة اخرى الى الغرفة كي احضر ما أتدثر به . وحين اقتربت من السرير ، تصاعد تنفسه الثقيل المنتظم الى اذني وتساءلت : « ترى ، هل يقبل ان أسميه حامداً ؟ » وحين أخذتُ البطانية تساءلتُ مرة اخرى : « ترى هل يقبل حامد ان أسمي ابن زكريا باسمه ؟ » إلا انني فضلت ان أعود الى المطبخ حيث اشعلت النار بهدوء لأشرب شاياً ساخناً يبعث في أوصالي وأوصاله الصغيره دفئاً ما ، وفيما كنت احدق الى اللهب الأزرق المتأجج عَبَرَت فكرة عاصفة في رأسي : « لماذا اسميه حامداً ؟ إنهما

لا يطيقان النظر الى بعضهما ؟ كان يسميه : النتن ، هذا كل شيء ، النتن ، ولم يقل كلمة واحدة اخرى عنه ، أما زكريا فقد كان يسميه الصغير ، وبالنسبة له ظل صغيراً دائماً لا يعرف كيف يواجه الحياة ؟ ولا كيف يتدبر امره فيها ، فهل بالوسع جمعهما مرة اخرى ؟ » . لقد بدا ذلك مستحيلاً تماماً وقاتلاً ايضاً . وتذكرتُ ان زكريا لم يرده ابداً ، وانه ما يزال يأمل ان اتخلص منه بطريقة أو بأخرى ، قطعة الصراخ الجهنمية التي ستجعلك زجاجة حليب بشرية ليس أكثر . أيمكن ان يكون القدر مرتباً على هذه الصورة الرهيبة يا إلهي ؟ أيمكن ؟ جاء حامد من ورائي هادئاً كعادته ، وجلس على الكرسي واضعاً مسندها بين فخذيه متكئاً عليها بذراعيه وقال : « انك تصنعين الشاي بصورة رائعة .. هل حسبت حسابي ؟ » وناولته كأسه فأخذ يرتشفه ويعذّب نفسه بحرارته اللاذعة ويتلمظ ، وكان قد جاء ليقول شيئاً بعد أيام من الصمت الغاضب فلم أنظر اليه مباشرة لأترك له المجال كما يحب ، وبلا مقدمات بدأ يقول فكرته : « حسناً ... ألا تستطيعين بطريقة أو بأخرى التخلص منه ؟ انه ابن حرام على أي حال » ، فلم أجب ، ويبدو أنه أحس بأن دخوله للموضوع كان دخولاً غاضباً ، فقام واتجه إليّ ثم واجهني تماماً : ليس بوسعي ان امنع الزواج فقد رتبتماه رغم ارادتي.. ولكن » وصمتَ مرة اخرى وتركني ، وجاء صوته من وراء ظهري : « لديّ اسباب لهذا الحديث الذي لا يعنيني . أتعتقدين حقاً أنه سيستحق الحياة ذلك الطفل الذي سينشأ في ظل رجل مثل زكريا ؟ » وتردد لحظة واحدة ، ثم قالها كما اعتاد وكما توقعت : « النتن » . وشددتُ على

اسناني ثم خرجت فلحق بي وشدني من ذراعي : « على أي حال ستتزوجينه بعد ساعات رغم كل شيء . فاذا كنت قد ارتضيت ان تخسري نفسك وتخسري زوجك فحاولي ان لا تخسري الطفل . ان الطريقة الوحيدة الباقية كي لا تخسريه هي التخلص منه .. » وتركني وانزلق فوق السلم ثم صفق الباب . ما تبقى . ما تبقى لكم جميعاً . فما الذي تبقى لنا وبيننا أيها الشبح الصامت الغاضب ؟ إن حياتي وموتك يلتحمان بصورة لا تستطيع أنت ، ولا أستطيع أنا فكهما . ورغم ذلك فلا يعرف أحد كيف يجري الحساب هاهنا.

ونبعت نسمة ريح حملت معها سوطاً من الرمل الناعم على علوّ منخفض جلد أقدامهما ، ومضت الريح فغطت كل شيء ؛ آثار الخطوات ، وقطعة الحديد البعيدة التي كانت سلاحاً . وانطلقت بصفير خافت تسابق نفسها نحو الجنوب ، فذكرتهما معاً انني هنا وانني الطرف الذي يُحسب حسابه الاول في هذا الانتظار المر ، وفيما كان الصفير يذوب في العتمة ، ملتفاً حول نفسه ، عنيفاً جافاً ومجهولاً ، أحسا معاً بالمدى الذي لا ينتهي ، البعيد والقويّ والصامد ، المحيط بهما من كل جانب والممتد الى أبعد مما يحسبان ، وأعمق مما يستطيعان التخمين. الرعب . الهواء الشفاف المحمل بكل المفاجآت جنباً الى جنب . الجسد اللانهائي الذي يحب ويكره ولا ينسى . المنتسب . المطويّ على زمن مشرش الى اعمق اعماقه . الحب والصمت . العنف والغضب . ثم ، وقبل كل شيء وفوقه : الخضوع . ووقفت أرشف الشاي الساخن أمام شباك المطبخ فيما مضت عربة خشبية محطمة يجرها

حمار صغير تتدحرج متعبة في اول الطريق . ويهتز فوقها رجل نائم ، وكان الحيوان المتعب يسير بطيئاً في خط متعرج ، ويشمشم الطريق ملتقطاً شيئاً بين الفينة والأخرى . وبدا مسيرهمـــا المستسلم في الليل طوافاً فوق تيار مخيف يسوقهما معاً ، وكان قرع الحوافر البعيدة يختلط بصورة مشوشة مع خطوات الساعة تدق في الجدار البعيد . دائرة حول نفسها ، هي الأخرى ، محمولة فوق سطح تيار لا يكبح ولا يُسبر غوره . وكان حامد يبتعد ويغوص ، وغابت عني ملامحه برهة . وعبثاً حاولت استرجاعه . فقد ذاب من رأسي كما ذاب ظله حين طواه الباب وغابت أصوات خطواته فوق السلم . وأضحى جزءاً من ذلك التيار الغامض الذي يسيل تحت حياتنا . ويحملنا دون أن نحس به دقيقة وراء دقيقة في يومنا الباهت . الطافي على سطحه المنساق بقوته الطاغية غير المحسوسة إلى حيث لا يعرف أحد . وتذكرت فجأة أنني ما زلت منذ أول الليل أحدق ملء عيني بالعتمة . محمولة دون ان أكتشف فوق ذراعيه الجبارتـــين . مطوّفة مثل بحار حطّم الموجُ دفة سفينته الثقيلة . فمضى يستكشف عوالم أجبره التيار على عبورها دونما وعي . لقد كان وهماً مخيفاً ان اعتقدتُ لحظة واحدة أنه سيذهب ، وان بوسعي ان أغمض عيني وخطواته تنغرس فيهما كل لحظات الليـــل والنهار . سأكتب لك ، إن وصلت . ولكنه إلى أمد لا يُعرف سيظل معلقاً بيني وبين أمه . وربما يظل معلقاً إلى الأبد . يخطو فوق جسدينا معاً في ذلك العالم الرهيب من المسافة والزمن الذي

يفصل بيننا كأنه المجهول . ورغم ذلك فسيظل هنا كلما كان زكريا هنا. وورائي جاءت أصوات خطواته يجرّها كأنه يلبس حذاءً من الفلين ، لقد توقف هنيهة بادىء الأمر في الغرفة الأخرى ، ثم جاء إلى المطبخ ووقف ورائي :

ــ حسبتُ انك تركت البيت ! ماذا حصل لك ؟ أنت لم تنامي للحظة واحدة ... ماذا حصل ؟ أما زلتِ تفكرين بالصغير ؟

ــ كم الساعة الآن ؟

ــ لست أدري ! ماذا ؟ أتحسبين انني أراقب الساعة وأنا نائم ؟

واقترب بطيئاً كمن يستكشف المكان . ثم وقف وأخذ يحدق من النافذة إلى الطريق ، ثم إلى السماء السوداء الجاثمة فوق سطوح البيوت الواطئة ، وأكواخ التنك وغرف الطين في الجهة المقابلة .

ــ أوشك أن يطلع الفجر ... ماذا حدث لك ؟

ــ لا أستطيع ، لا أستطيع .. خطواته تملأ رأسي وتدق .

ــ خطوات من ؟

ــ خطواته ، حامد ، لقد نسيته .

ــ مجنونة ! تستمعين إلى خطواته ؟

ــ خطواته .. مع كل دقة من دقات الساعة يخطو خطوة واحدة .. ألم يخطر على بالك أنه ..

وسكت فجأة وأنا انظر إليه ، فيبدو جامداً وبعيداً وربما

لم يرَ الساعة بعد ، وعدت أنظر عبر الشباك ، ولكنه وضع يده الثقيلة على كتفي وجذبني ، فاستدرت وواجهته تماماً ، فأخذ يتحدث برفق وبلهجة حانية كأنه يتحدث إلى طفل :

— « إسمعي يا مريم ، إذا كانت تلك الساعة اللعينة تسبب لك الأرق فلديّ الحل . أتعرفين يا مريم ، إذا أملناها قليلاً إلى الجانب توقف الرقاص ، أنا أعرف هذا النوع اللعين من ساعات الحائط ، لا يتحرك رقاصهـا إلاّ إذا كانت معلقة بصورة مستقيمة . كان عليك أن تقولي ذلك منذ أول الليل . تعالي » .

واستدار وخطا خارجاً ، إلا أنني لحقت به وسبقته إلى باب المطبخ وسددته بجسدي ، فتوقف مدهوشاً وأخذ يحدق إليّ .

— لا ، لا داعي لذلك . لم يعد بوسعي على أي حال ان أنام بعد أن مضى معظم الليل .. ثم انها ليست الساعة فقط التي تدق .. إنما ..

وتوقفتُ لحظة : كان ينظر إلي ، ما يزال ، مدهوشاً ، ولم أستطع التوقف فأشرت إلى بطني وأغمضت عيني ، ومضيتُ أكمل :

— إنما هو أيضاً ، يدق هنا .

— هـو ؟

وأخذت أراقبه ، أراقب كفيه تنقبض أصابعهما وتنبسط على جنبيه كأنه ، دون أن يصدق ، يتحفز لمواجهة ما : غامضة وفتاكة . فيما أخذَتْ الدوامةُ تنفتل مجنونة في حلقي :

– « هو.. ابنك. لقد تحرك قبل قليل للمرة الأولى ، تحرك مرتين . »

وارتد إلى الوراء فرفعت عينيّ إلى وجهه : لقد ضاق جبينه فجأة وتحدّر خطان عميقان كجرحين بين حاجبيه . ووراءه . عبر النافذة ، ارتفعت السماءُ فوق السطوح الواطئة لبيوت الطين والتنك تاركة خطاً رمادياً كثيفاً . ثم استدار وتركني أنظر إلى ظهره العريض محنياً قليلاً ، فيما مضى بخطوات بطيئة إلى الشباك . ووقف هناك عاقداً كفيه وراء ظهره . وجاء الصمت . ومعه دقت الساعة ثلاث دقات بعيدة وجوفاء ثم أخذت خطوة العكاز المفردة تدق من جديد دقاتها الصامدة العنيدة . وخيّل إليّ تلك اللحظة ، أن هذه الدقات هي صوت الصمت ، وان الصمت لا يكون بلا صوت ، وإلا لما كان . ولما صار بالوسع أن يُحَسَّ على هذه الصورة الفريده ، المفعمة بالغربة والوحشة والمجهول . ولم أكن قد فوجئت به يدير ظهره مكشراً ويغرق في المشكلة ، ولكنني استغربت أنه فوجىء بهذه الصورة رغم أنه كان يعرف. وكانت الدقات تحوّم بيننا كطلقات رصاص قاتل . ورغبت في أن أحطم ذلك الانتظار الرهيب . إنتظار أن يستدير ويقول شيئاً . وعجبت كيف جاء صوتي. كأن امرأة أخرى تحكي عبر حنجرتي . صوتاً هادئاً ذليلاً مذنباً :

– صار من الصعب أن نتخلص منه الآن .

وقذف من هناك جواباً كاملاً في كلمة واحدة :

ـ أعـــرف !

وصمت ، وعاد الانتظار ينمو من جديد ممتداً بيننا كقطعة حديد . ليست جسراً وليست جداراً . قطعة حديد باردة فقط تجثم هناك معلقة في الهواء . وكانت مخالب الليل قد خلت أسطحة المعسكر . فأخذت السماء ترتفع ببطء كأنها نسر ثقيـــل في لحظات انطلاقه . ونبع المستقبل كله في جبيني للحظة خاطفة كبرق يضيء أمدية من المجهول الراعب ؛ فأخذت أنتفض ، وأحسستُ بغيابه رهيباً ولا يصدق . وينمو بدلاً مـــن أن يذوب . وانتظرت . انتظرت . وبدا لي مخيفاً أن ننتظر معاً واقفين هناك ، كلمته . أنا وهو في أحشائي يلتف مختبئاً . وبدأ يحكي ، دون أن يلتفت ، بصوت خفيض بطيء . وكان عليّ ان أترصد صوته كي أسمعه يتموج فيما بيننا ، كأنه يتجه إليّ بنفس الدرجة التي يتجه فيها إلى الأشياء المحيطة بنا ، والمغسولة بالضوء الرمادي الثقيل :

ـ « طفل سادس ؟ سادس ! هل تتصورين ذلك ؟ هـــل تتوقعين ان أرقص فرحاً ؟ انه الولد السادس ! لقـــد نصحتك ألف مرة أن تتخلصي منه ، ولكنك تعتقدين انه شيء مثير ومهم » .

وصمتَ لحظة واحدة ، كأنه توقف عند فاصلة في كتاب كان يقرؤه ببطء :

ـ « والناس ! الناس ماذا سيقولون ؟ هذه فضيحـــة أخرى . طفل بعد خمسة أشهر من الزواج ! » .

وكان واقفاً ينقب في غضبه هنا وهناك ، عارضاً في جمل عصبية أسبابه . وخفت أن يمضي فيغطس في الشكوى ، إلا أنه لم يتردد كثيراً أمام هذا الحقل الخصب :

— « ستة أفواه عليّ أنا ان أطعمها . ثم أنت وهي أيضاً . إن هذا كله يحتاج إلى معجزة . آه منكنّ جميعاً ، تعتقدن أن هذا هو مربط الرجل ! هذه هي قطعة اللحم التي تشدّه إليكن ! ولكنك ، أنا أقول لك . على خطأ . فإن رجــلاً عنده خمسة أولاد لا يكترث » .

واستدار فواجهني . وكان الضوء الكامد المعلّق على حافة السماء وراءه ينحدر فوق كتفيه بوهن فيبدو وجهه معتماً ، وخطا خطوة واحدة ثم وقف :

— لو كان حامد . ذلك الصغير الملعون . ما يزال هنا ...

إلا أنني كأنما بقوة مجهولة كانت تقف ورائي ، رفعتُ يديّ إلى أذنيّ وأغلقتهما شادّة فوقهما ما وسعني ذلك ، فسقط صوته ولم يصل منه إلا حفيف غامض ، فيما كان ينتصب أمامي ملوّحاً بذراعيه غاضباً حزيناً ومطعوناً في وقت واحد ، ثم تقدم واجتازني . وشفتاه ما تزالان تتحركان بسرعة إلا أن صوته كان يرتطم بكل الأشياء المحيطة بنا ويرتدّ دونما ضجيج ويذوب في ذلك الضوء الرمادي الكريه الذي يشبه سطح مستنقع ظليل . وأمامه مباشرة كان صوت آخر ينبع من داخل جسدي ويُدوّي هناك مرتداً في رأسي إلى ألف صدى كأنه نباح كلب مجروح ، طُبَّ فوقه برميل معدني فارغ : ليس بوسعنـــا

التخلص منه بعد ، ليس بوسعنا التخلص منه . وفجأة تكشّف لي وأنا واقفة هناك ، أنه ليس بوسعي أيضاً التخلص من زكريا . وليس بوسعه أن يتخلص مني ، وانه لم يتبقّ لي ، ثمة ، إلا أن أمضي بقية شوطي ، وكفيّ فوق أذنيّ . وأسناني تعضّ شفتي . وكان حامد يبتعد . يدق فوق جباهنا خطواته العنيدة بلا رحمة ، فيبدو وقد ذوّبه المدى ، ولم يتبق منه إلا أصداء خطواته العنيدة التي لا تنتهي ، آخر قطار غادر المحطة المهجورة ، وتركنا على رصيفها المحطم . نستمع إلى صوت الصمت المفعم بالغربة والوحشة والمجهول يدق . يدق . يدق .

وانبثق الضوء فجأة ، فبدت الصحراء النائمة تحت الكثبان المسطحة ، التي لا نهاية لها ، أشدّ صمتاً وانتظاراً . ومن جديد ، عاد الدم ينساب في عروقي مرة اخرى . وكان هو قد استسلم الى جانبي مرهقاً ، ومضى يقاوم رأسه الثقيل الذي أخذ يسقط رغماً عنه، الى صدره . ثم فتح عينيه واستنشق نفساً عميقاً ، وحاول ان يقف ،إلا انه لم يستطع ، فأخذ ينظر إليّ ، لأول مرة ، محاولاً ان يقول شيئاً . وبادلته النظر ببرود ، وأخذت أمرر نصل السكين فوق حافة حذائي ، فيصدر صريراً متطاولاً . وفي لحظة خاطفة رأيته حقاً ، واستطعت ان التقط في اعماق عينيه اللامعتين اللتين بدتا سوداوين في حمام الضوء الرمادي الكامد الذي كان يغسلنا معاً ، خوفاً حقيقياً وانتظاراً مهيضاً بائساً . وكأنه احسّ بانتصاري الصغير المتوحد ، فأطبق جفنيه هنيهة ، وحين فتحهما مرة اخرى ، كان ينظر الى الارض ورائي . وبذل محاولة ليزحف على مؤخرته ، ثم مد عنقه وقال شيئاً ، مشيراً الى زجاجة معدنية كانت قد سقطت منه ، كما يبدو ، في غمار

العراك الليلي ، على بعد خطوتين من مكاني ، إلا انني لم اتحرك . وقلت له ببطء محاولاً كل جهدي ان يفهم : « لتمت عطشاً » . ولكنه مضى يشير بعنقه الى المطّارة المعدنية من جديد . وبدا ظامئاً حقاً . فتناولتها وهززتها قرب اذني ، فاصطفق داخلها ماء قليل ، إلا انني لم افتحها . وبعد لحظة قذفتُها الى حيث كانت مرة اخرى . ونظرت الى وجهه وشفتيه المفتوحتين تموجان بالغضب المشلول . وقلت له مرة اخرى ببطء : « لتمت عطشاً » وعندها كرر محاولته ، ليصل اليها زاحفاً على مؤخرته وكعبي حذائه الثقيل ، وحين دنا منها ، سحبته من ياقته وأعدته الى مكانه : « لتمت عطشاً » . ووراءه تماماً جاء قرص الشمس الأرجواني ، وتعلق فوق الأفق المسطح ، فاجتاحت الرمال موجة رعب مفاجئة ، ما لبثت ان عبرتنا بدورها ، فأخذنا ننظر من جديدالى المطارة . ثم تلاقت ابصارنا مرة اخرى ، فتبينت لون عينيه العسليتين ، كان وجهه المصبوغ بلطعات الشمس الحارقة يبدو كوجه مريض ، وكان شعر ناعم قد نبت في اسفل ذقنه وتحت سالفيه ، ومن فتحتيْ كمّيْ قميصه ، بدت ذراعاه قويتين يكسوهما زغب اشقر ناعم . وفيما كان ينظر إليّ بدوره ، تناولت اوراقه من جيبي ، إلا انني لم استفد منها شيئاً ، ثم أخذت انظر الى صورته في هويته الصغيرة حيث بدا أكثر شباباً مما هو عليه هنا : كان شعره مفروقاً من جانبه ، وكان يبتسم ابتسامة كبيرة ، فيبدو مضحكاً . وتحتها كتب اسمه ، كما يبدو بالعبرية . ودفعت الهوية امام عينيه ، وأشرت باصبعي الى حيث كُتب الاسم ، إلا انه هزّ رأسه بعنف ، ثم اطبق شفتيه فابتسمت ، وقلت له : « احتفظ لنفسك بهذا السر » . ونقبت بقية الأوراق ، إلا انني لم اجد

شيئاً . وأخيراً قرأتُ على ختم ليلكيّ صغير في اسفل الهوية ، حروفاً لاتينية ، جاءت واضحة ، الى جانب حروف عبرية ملتفة على بعضها : « يافا » .

طويت الأوراق بعناية ، ووضعتها في جيب سروالي ، وغيّرت مكاني ، فجلست امامه مباشرة ، كانت الشمس قد اخذت تتسلق السماء ببطء ووقار ، إلا انها لم تكن كريهة بعد . وكان ينظر إليّ بحذر وترقب ، محاولاً استكشاف خطتي ، ولكن الأكيد هو انه لم يكن ليستطيع . ذلك انني انا نفسي كنت اجهلها . وتركته يدرسني برهة كافية . وحين كانت حواسه مركزة عليّ تماماً ، بانتظار حركة او كلمة ، قلت له : « هيا ، كن رجلاً طيباً ودعنا نتحدث عن يافا . إن الانتظار الصامت لن يأتي إلا بالرعب » . ولكنه ظل يحدق إليّ بعينيه الضيقتين المتعبتين ، كأنه لم يفهم شيئاً . « هيا ! كيف انتهى الأمر بكل ذلك الحي ، الذي كان يمتد بين جامع الشيخ حسن وحمام اليهود المحروق في المنشية ؟ » . وفجأة ، لست ادري لماذا بالضبط ، أحسست انه يفهمني تماماً ، وانه يتابعني وينتظر نهاية لذلك كله . فمضيت : سيكون ذلك حديثاً مفيداً فأنا اعرف ذلك الحي تماماً ، كنا نعيش هناك » . ولكن ذلك كله بدا عبثاً في نظره على أي حال ، وكنت اود حقاً ان أبيّن له بأن ليس ثمة ما يستحق اهتمامه أكثر ، فأنا لا انوي اي شيء ، وسنبقى جالسين هنا حتى .. حتى ماذا ؟

ومن بعيد ، صفرت ريح صغيرة ، ومضت تكنس الرمل قادمة ، كأنما في سباق ، نحونا . وحين وصلتنا غسلتنا بموجة مبكرة من القيظ ، فأخذ يتحرك في مكانه قلقاً . وقفت واستكشفت الآفاق الأربعة التي كانت تحيطنا ، رغم المسافات ، كأنما بالجدران . إلا ان المدى وحده كان

مبسوطاً هناك ، مترامياً وصامتاً ، ويغتسل بالشمس والوحشة . وأمامنا مباشرة التصقت الشمس قرصاً ملتهباً في جدار اشهب شديد العلو ، فجلست مرة اخرى الى جانبه ، وفرشت امامه كفيّ ، لأقول له ان ليس ثمة ما بوسعنا فعله . ولكنه ، بدل ان ينظر الى كفي ، مضى يراقب السكين التي اخذ نصلها الفولاذي يتوهج في الضوء ملقاة بين قدميّ ، فتناولتها وسحبت نصلها من جديد فوق حافة حذائي ، فانطلق الصرير المحذّر كأنه عويل اخير . وعندها فقط نظر الى عينيّ . ولمحت في وجهه من جديد ، تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز ، فأدركت انه سيكون بوسعي ذات لحظة ان أجز عنقه دون رجفة واحدة ، وان هذه اللحظة ستأتي لا محالة ، تحت وقع البريق المرعوب في عينيه ، وصرير نصل السكين فوق حذائي ، والشمس اللاهبة التي كانت تجلد مؤخرة عنقي بلا هوادة . ووراءه تماماً كان افق من الرمال تحت سماء بيضاء عالية يبدو وكأنه مسرح ستندفع فيه ، حين يدق جرس ما ، سيارات وكلاب ورجال ، يسوقون امامهم رشاشات سوداء ، ذات فوهات دقيقة . ولكنهم جميعاً سيظلون ملتصقين قرب مؤخرة المسرح ، امام تلك الخلفية الفارغة ، إذ يكتشفون فجأة أن القصة انما تجري هنا ، وانهم هم المتفرجون.

وجاء مرة أخرى وأمسكني من كتفيّ وأدارني بعنف فواجهته . كان العالم وراء كفيّ المطبقتين فوق أذني صامتاً ، ورأيتُ شفتيه تتحركان بعنف وسط وجهه الغاضب المتعب ، إلا أنني لم أسمع شيئاً . ويبدو أنه أدرك ذلك ، فأمسك زنديّ بكفيه القويتين وأنزل ذراعيّ إلى جنبي ، فعاد ضجيج العالم يتدافع في أذني جديد . فوقه ومعه وفيه ، مضت الساعة البعيدة

المعلّقة أمام السرير تدق ، فتعبر الممر وتدخل إلى المطبخ حيث كنا نقف وجهاً لوجه صبيحة عرسنا . وفاتني أن أعد دقاتها المستغيثة التي كانت تندمج في صوته العالي ، وتتحول معه إلى اصطفاق صنوج معدنية جبارة ، تهز بدني هزاً .

– «هل حسبتِ أنني تزوجتك لتنجبي لي ولداً أيتها العاهرة؟»

وانفتحت فجأة ، تلك البوابات الرهيبة من اللحم الطري ، التي كانت تغلق عيني . وأحسست بالدمع يسيل متلاحقاً فوق وجنتيّ . وحاولت أن أسحب زنديّ من قبضتيه الحديديتين ، إلا أنه شدّهما من جديد . وفي اللحظة التالية ، دخل خط رفيع من الشمس عبر النافذة ورائي ، وشق وجهه من النصف ، فبدا أشد غضباً وأعنف تمزقاً :

– « إسمعيني ، وقولي غداً ان زكريا قال : إذا لم تستطيعي إسقاط ذلك القواد الصغير .. »

وأخذت ، فجأة ، أصرخ بكل ما في حنجرتي من قوة ، محاولة أن أطفىء صوته في صراخ مجنون يملأ كل شيء . إلا أن صوته كان ما يزال يتفجر من بين شفتيه الراجفتين ويصب في أذني صباً عبر الضجيج الكثيف : « إذا لم تستطيعي إسقاطه فأنت طالقة .. طالقة .. طالقة .. هل تسمعين ؟ طالقة » .

وانسد حلقي فجأة فخيم صمت ثقيل مشحون بانتظار مر ، وتعالى عواء كلب ، وما لبث ان ارتد من كل الاتجاهات ، عواء متلاحقاً لاهثاً ممطوطاً . وتناهى ، عبر ذلك كله ، هدير شيطاني من مكان ليس بالوسع تعيينه . وفجأة تحرك مرة ثالثة : انتفض

في أحشائي تلك الانتفاضة الصغيرة المزدوجة كالارتعـــاد . ثم هطل في فخذيّ وركبتي فأغمضت عينيّ برهة صغيرة . إلا أن الصوت انقضّ فوقي من جديد وبلا هوادة : « هل سمعت ما قلته لك ؟ » . وهزني بعنف هزات متتالية وكرر : « قولي أنك فهمت » وفي اللحظة التالية جذبني إليه ثم دفعني إلى الجدار وقبل أن يستدير ارتطمتُ بالحائط . ولَمَعت امامي بنصلها الطويل المتوقد ، فوق الطاولة . فردني الجدار إليها كأنني لعبة مطاط . واحتوتها قبضتاي معاً وانسدل ذراعاي فوق كفـــي المطبقتين على مقبضها حتى أسفل بطني متشنجتين قاسيتين . واندفعنا مرة واحدة ونحن ننظر في عينيْ بعضنا مباشرة . كان النصل مندفعاً من بين كفيّ المحكمتي الاغلاق . وأحسست به حين ارتطمنا يغوص فيه . فأنّ أنيناً طويلاً ، وحاول أن يرتدّ إلا أن النصل جذبه من جديد ، فأنزل كفيه ووضعهما فوق يديّ المتشنجتين فوق المقبض وأغمض عينيه . عندها تركت المقبض وارتددْت إلى الوراء ، كان النصل يغوص في عانته . فوق فخذيه مباشرة . وحاول أن ينتزعه ، إلا أن كفيه اللتين أخذتا تزرقان وترجفان عجزتا عن الإمساك بالمقبض . فانحنى واستند بذراعيه إلى الطاولة . فيما أخذ الدم يبلل سرواله . وينتشر قانياً لامعاً فوق ساقيه . وفي اللحظة التالية . فتح عينيه بوَهَن ونظر إليّ . فاستدرتُ وأمسكته من كتفيه ودفعته نحو الحائط . فالتصق جسده هناك محنياً بعض الشيء ، وقد سقط ذراعاه على جنبيه . فيما ألصق جبينه على الحائط محاولاً أن

يبعد المقبض عن الوصول إلى الجدار ، ولكنني ثبّت كتفيه بكفيّ ، ووضعت ركبتي على ظهره ، ودفعته نحو الحائط بكل ما فيّ من قوة . وسمعت صوت النصل يغوص في لحمه بطيئاً ولكن ثابتاً . مرتفقاً بصوت خشب المقبض وهو يحك الجدار بضراوة . فشخر كأنه يصحو من نومه . وتناهى إليّ صوت نزيز الدم يتدافع حول النصل ، ثم انتفض وتساقط وتكوّم بين قدمي الطاولة . **وأضاء شعــاع الشمس الضيق المتسرب من النافذة خطاً رفيعاً من الدم** كان يزحف برأس مدبب ، وسط بلاط المطبخ الناصع البياض . **ودوّى صوت الصمت فجأة** ، **حين أخذت الكلاب** خارج النافذة تنبح نباحاً مسعوراً لا ينقطع . ولم تصمت إلا حين جاءت خطواته . مثلما كانت دائماً خارج ذلك النعش المعلق فوق الجدار : **تدق في جبيني اصرارها القاسي الذي لا يرحم . تدق فوقه مكوّماً هناك قطعة من الموت . تدق . تدق . تدق .**

« انتهت »

أم سعد

١٩٦٩

أم سعيد

الإهـــداء

إلى أم سعد ، الشعب المدرسة .

غ . ك .

مدخل

[ام سعد إمرأة حقيقية . أعرفهـــا جيداً . وما زلت اراها دائماً ، وأحادثها ، وأتعلم منها . وتربطني بها قرابة ما . ومع ذلك فلم يكن هذا بالضبط . ما جعلها مدرسة يومية . فالقرابة التي تربطني بها واهية إذا ما هي قيست بالقرابة التي تربطها إلى تلك الطبقة الباسلة . المسحوقة والفقيرة والمرمية في مخيمات البؤس ، والتي عشت فيها ومعها ، ولست أدري كم عشت لهـــا .

« اننا نتعلم من الجماهير ، ونعلمها » ومع ذلك فأنه يبدو لي يقيناً أننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير . المعلـــم الحقيقي الدائم ، والذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض القلب .

لقد علمتني ام سعد كثيراً . وأكاد أقول ان كل حرف

جاء في السطور التالية إنما هو مقتنص من بين شفتيها اللتين ظلتا فلسطينيتين رغم كل شيء ، ومن كفيها الصلبتين اللتين ظلتا ، رغم كل شيء ، تنتظران السلاح عشرين سنة .

ومع ذلك فأم سعد ليست امرأة واحدة ، ولولا أنها ظلت جسداً وعقلاً وكدحاً ، في قلب الجماهير وفي محور همومها وجزءاً لا ينسلخ عن يومياتها . لما كان بوسعها أن تكون ما هي ، ولذلك فقد كان صوتها دائماً بالنسبة لي هو صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غالياً ثمن الهزيمة .

والتي تقف الآن تحت سقف البؤس الواطيء في الصف العالي من المعركة . وتدفع ، وتظل تدفع أكثر من الجميع] .

غسان كنفاني

- ١ -

أم سعد

والحرب التي انتهت

كان ذلك الصباح تعيساً . وبدت الشمس المتوهجة وراء النافذة وكأنها مجرد قرص من النار يلتهب تحت قبة من الفراغ المروع . كنا نطوي أنفسنا على بعضها كما تُطوى الرايات . وفجأة رأيتها قادمة من رأس الطريق المحاط بأشجار الزيتون . وبدت أمام تلك الخلفية من الفراغ والصمت والأسى مثل شيء ينبثق من رحم الأرض . قمت ووقفت أمام النافذة المشرعة وأخذت أنظر إليها تمشي بقامتها العالية كرمح يحمله قدر خفي.

وجاءت زوجتي ووقفت إلى جانبي ونظرت إلى الطريق . ثم قالت لي : « ها هي أم سعد . وقد جاءت » .

مثل دقات الساعة جاءت . هذه المرأة تجيء دائماً ، تصعد من قلب الأرض وكأنها ترتقي سلماً لا نهاية له . وقالت زوجتي فيما نحن نحصي خطواتها : « ترى .. كيف تشعر أم سعد الآن ؟ » .

وقلت لنفسي : « لست أدري » وكنت أنتظرها لا تعلم شيئاً . فوراء ظهورنا تراكمت دروع الجنود المحطومة فوق

الرمل المهجور ، وشقت طوابير النازحين مسافات جديدة . كنت أسمع هدير الحرب من الراديو ، ومنه سمعت صمت المقاتلين . وهو يتكيء على الطاولة ورائي ينوح مثل أرملة ، ويطلي بصوته المهزوم كل أشياء الغرفة بالتفاهة : المكتبة ، والمقعد ، والزوجة ، والأطفال ، وصحن الطعام ، وأحلام المستقبل ، ويجعل الحبر بلا لون .

وقالت زوجتي : لقد اختفت أم سعد منذ تفجر القتال . وها هي تعود وكأنما على إيقاع الهزيمة .. لقد قاتلوا من أجلها وحين خسروا خسرت هي مرتين ، تراها ماذا ستقول الآن ؟ لماذا تجيء وكأنها تريد أن تبصق في وجوهنا ؟ كيف تراها رأت المخيم حين غادرته هذا الصباح ؟.

وظلت الأسئلة معلقة في الهواء ، كما لو أنها الغبار الذي لا يرسو ، وكدت أراها ، مسننة ومدببة وذات رؤوس كالشفرات تسبح في تلك الحزمة الفضية التي كانت تصبها أشعة الشمس في قلب الغرفة ، فيما كانت أم سعد ترقى الطريق نحونا ، تحمل الصرّة الصغيرة التي تحتفظ بها دائماً ، وتسير عالية كما لو أنها علم ما ، تحمله زنود لا تُرى .

ودخلت أم سعد ، ففوحت في الغرفة رائحة الريف ، وبدت لي كما كانت قبل عشرة أيام . عشرة أيام فقط ! يا إلهي كم تتغير الأمور وكم تتهدم الصروح في عشرة أيام ! وضعت صرتها الفقيرة في الركن ، وسحبت من فتحتها عرقاً بدا يابساً ، ورمته نحوي :

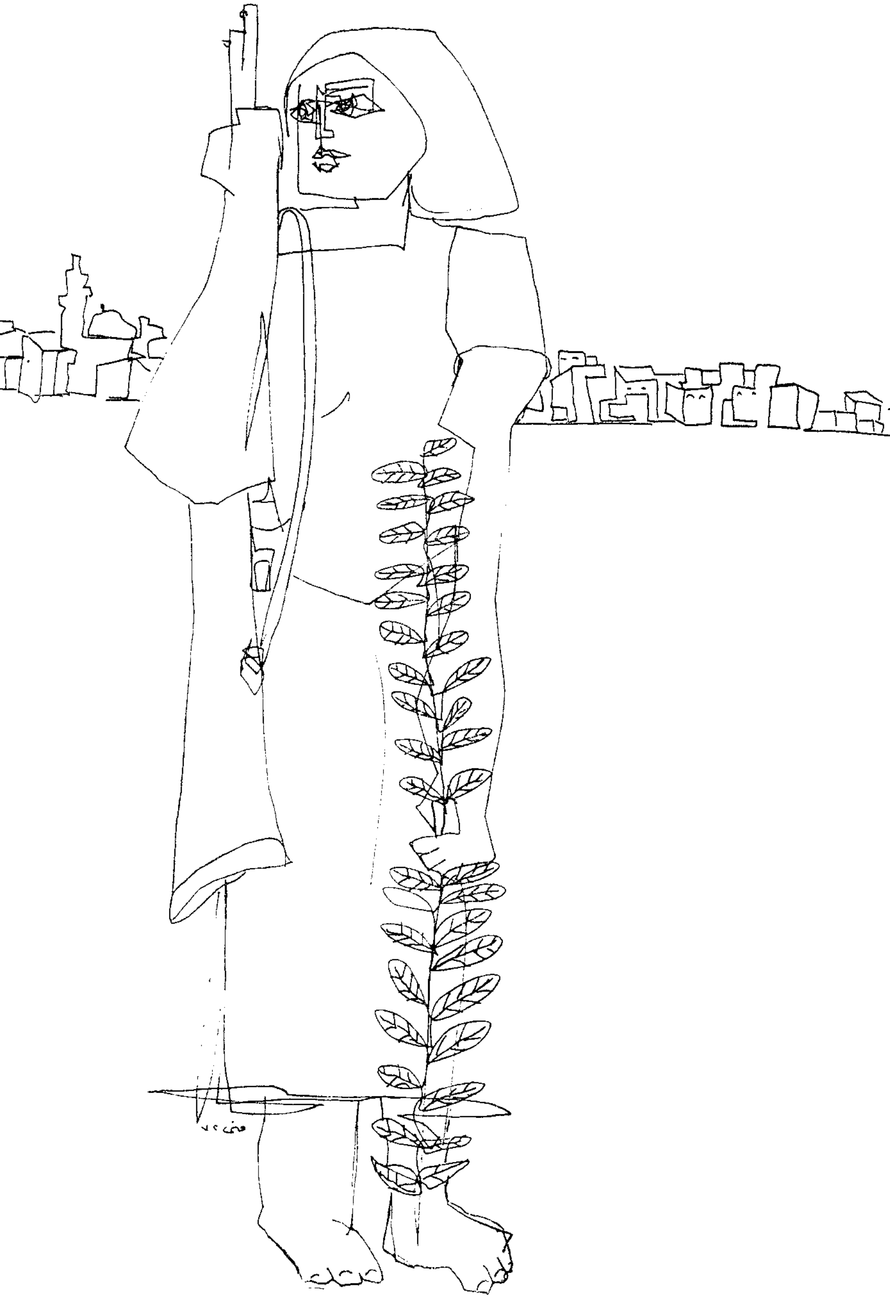

ـ « قطعته من دالية صادفتني في الطريق ، سأزرعه لك على الباب . وفي أعوام قليلة تأكل عنباً » .

ودورت العرق الذي بدا خشبة بنية داكنة لا تنفع شيئاً بين أصابعي ، وقلت لها :

ـ « أهذا وقته يا أم سعد ؟ » .

وأخذت تعيد ربط شالها الأبيض حول رأسها ، كما تفعل دائماً حين تكون منصرفة إلى التفكير بشيء آخر ، وقالت :

ـ « قد لا تعرف شيئاً عن الدالية ، ولكنها شجرة عطاءة لا تحتاج إلى كثير من الماء . الماء الكثير يفسدها .. تقول : كيف ؟

أنا أقول لك . انها تأخذ ماءها من رطوبة التّراب ورطوبة الهواء . ثم تعطي دون حساب .

قلت :

ـ « قضيب ناشف » .

ـ « انه يبدو كذلك ، ولكنه دالية » .

ـ « هذا ليس مهماً .. » .

قالت فجأة :

ـ « انتهى الأمر ، أليس كذلك ؟ »

ـ « بـــلى » .

ـ « أنت تقول ذلك » .

واستدارت ، ومضت إلى الشرفة فلحقت بها بخطوات بطيئة ، وسألتها :

– « كيف كان المخيم اليوم ؟ » .

وفجأة نظرت إليّ ، وبدت لي القصة كلها على جبينها الذي له لون التراب ، ثم فرشت كفيها أمامي :

– « بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو ، وحين إنتهت قمت لأكسره ، ولكن أبا سعد سحبه من تحت يدي . آه ياابن العم ! آه ! » .

واتكأت على حاجز الشرفة ، وأخذت تنظر إلى حقول الزيتون المطلة على مدارج التلة ، ثم سحبت يدها فوقها جميعها وقالت :

– « والزيتون لا يحتاج إلى ماء أيضاً ، انه يمتص مـــاءه عميقاً في بطن الأرض ، من رطوبة التراب » .

ثم نظرت إليّ :

– لقد ذهب سعد ولكنهم أمسكوه ، ومنذ يومين كنت أعتقد أنه يحارب . هذا الصباح عرفت أنه كان محبوساً ، يا للعـــار .

كنت أقول لنفسي : لو مات ...

وصمتت فجأة .

– كيف عرفت أنه محبوس ؟.

– صباح الإثنين سمعنا الراديو ، فحمل أغراضه وجمع رفاقه وطلعوا من المخيم كالعفاريت . أقول لك أنني لحقت به . أخذت طريقاً مختصراً وقابلته قرب مدخل المخيم وأسمعته كيف أزغرط . وقد ظل يضحك حتى اختفى عن أنظاري .. ولكن

يا حسرة ! لم يصل . حبسوه .

– والآن ؟ .

– ذهب المختار ليرى . مرّ عليّ في الصباح وقال لي : لا تخافي يا أم سعد . سأعود لك به . الأهبل ، يعتقد أن هذا ما أريده .. الأهبل ، يعتقد ان ذلك ما يريده سعد .أتعرف ؟ سيعود المختار في الليل ويقول لي : إبنك ولد شقي ، أخرجته من الحبس فهرب مني نحو الجبل وقطع الحدود ..

– يقطع الحدود إلى أين ؟ .

وبدا لي انها أشارت بذراعها إلى جهة مـــا . ثم ارتدت الذراع كأنما من تلقائها ، وأخذت تدور حول نفسها ، تشير إلى كل شيء ، وأخذت أحصي الأشياء التي أشارت إليهـــا الذراع السمراء : المكتبة والمقعد والأطفـــال والزوجة وصحن الطعام وأنا .

ولأول وهلة لم أصدق ، وبدت لي حركة ذراعها وكأنها رمز لشيء شديد التعقيد ، لا يمكن ان يرقى إليه عقلها البسيط وعدت أسأل :

– يقطع الحدود إلى أين ؟

وشهدت في ركن شفتيها تلك الابتسامة التي لم أرها قط على وجهها ، والتي صار يتعين علي منذ الآن ان أراها هناك دائماً ، منذ هذه اللحظة ، تشبه رمحاً مسدداً ، وهذه المرة لم تحرك ذراعها ، وقالت :

–كأنك لا تعرف ! كأنك لا تعرف ! نعم .. يقطع

الحدود إلى أين ؟ هكذا تسأل ، هكذا يسألون .. لمـــاذا لم تتناول فطورك ؟ .

وفاجأني السؤال ، فالتفت إلى حيث كان الطعام ينتظر منذ ساعتين شهية محكمة الرتاج ، كأنها باب أغلق إلى الأبد ولحم مصراعيه صدأ الهزيمة المرة التي لها طعم الذل .. وعادت أم سعد تقرع ذلك الباب مرة أخرى :

– لماذا لم تتناول فطورك ؟ أنا لم أتناول فطوري أيضاً . أنتظر شيئاً ما يفتح شهيتي ليس للأكل فحسب ، ولكن للحياة أيضاً .. أتصدق ؟ ليس ثمة من يستطيع أن يفعل ذلك إلاّ سعد .

وصمتت قليلاً ، ثم همست كأنما لنفسها :

– أتعرف ؟ إذا عاد سعد إلى البيت الليلة ، إذا عاد ، فلن أستطيع تناول الطعام .. أتدرك الآن لماذا يتوجب عليه أن يقطع الحـــدود ؟

وعاد ذراعها مرة أخرى يشير إلى تلك الحدود ، ويدور فوق المكتبة والمقعد والأطفال والزوجة وصحن الطعام وأنا ، ثم ظل مصوباً نحوي ، مشدوداً كأنه جسر أو حاجز ، وسألت :

– وأنت ؟ مادا ستفعل يا ابن العم ؟ عشرون سنة مضت وامس تذكرتك وأنا اسمع في الليل ان الحرب انتهت ، وقلت لنفسي ، يجب ان ازوره ، ولو كان سعد هنا لقال لي : هذه المرة دوره هو ان يزورنا .. فهل ستفعل ؟.

ولم تنتظر جوابي . عادت الى الغرفة فرفعت عرق الدالية عن الطاولة وأخذت تتأمله كأنها تراه تلك اللحظة للمرة الاولى.

وخطت ببطء نحو الباب الآخر وهي تقول :

ــ سأزرعه ، وسترى كيف يعطي عنباً ، هل قلت لك انه لا يحتاج إلى ماء ، وانه يعتصر حبات التراب في عمق الأرض ويشربها ؟

وبدت لي وهي تمشي عبر الممر شيئاً شامخاً عالياً ، كما كانت تبدو دائماً ، ولست ادري لماذا أخذت أفكر بالمختار الذي ذهب يسعى لإطلاق ابنها من الحبس ، فسألتها :

ــ هل قال لك المختار كيف سيفك سعد من الحبس ؟

ومن آخر الممر التفتت إلي ، وكانت تبدو أمام الباب المفتوح عملاقاً يدخل مع ضوء الشمس ، لم أكن لأستطيع أن أرى وجهها بوضوح ، ولكنني سمعتها تقول :

ــ أما زلت تفكر بالمختار ؟

* * *

ــ « ألم أقل لك ؟ » .

كان ذلك اول ما قالته ام سعد صباح اليوم التالي ، وقد جاءت مبكرة كالعادة ، وكنت قد نمت متأخراً ، ولكنها لم تنتظر ، ففاجأتني في الفراش ، ومضت تقول :

ــ « الم اقل لك ان لا تفكر بالمختار ؟ اتعرف ماذا حدث ؟ .

ذهب واراد ان يأخذ من كل واحد منهم توقيعاً على ورقة يتعهدون فيها ان يكونوا اوادم ، ولكنهم رفضوا وطردوه »

ــ من هم ؟

– سعد ورفاقه . قال لي المختار انهم ضحكوا عليه ، وان سعد سأله : « شو يعني اوادم ؟ » قال المختار انهـــم كانوا محشورين في زنزانة ، وانهم اخذوا يضحكون جميعاً ، وان شخصاً لا يعرفه كان بينهم قال له : « اوادم يعني قاعدين عاقلين ؟ » فقال رجـــل ثالث : « يعني ناكل كف ونقول شكراً ؟ » وان سعد قام وقال له : « يا حبيبي ، اوادم يعني بنحارب ، هيك يعني هيك » ..

كانت تتوهج بسعادة غامضة . وجلست على الكرسي وقالت :

– يخزي العين عليهم ! كان المختار يحكي لي القصة وكنت اضحك بعبي ، وقلت له اخيراً : « مليح اللي ما ضربوك ، احمد ربك عالسلامة ! » فزعل .

– ورفضوا توقيع التعهد ؟

– طبعاً رفضوا .. قالوا للمختار « راحت عليك » ، وقد زعل ، خصوصاً حين سألهم المختار ان كانوا يريدون شيئاً من المخيم فقال له سعد : « سلم عالأهل يا ابني » .

فزعل لأنه أكبر من سعد ، من جيل أبيه ، وقال لي ان سعد لم يحترمه ، وانه قال له « يا ابني » . كأنه ولد ..

– وماذا قلت أنت للمختار ؟

– قلت له ان سعد قلبه أبيض ، وانه حين قال له يا ابني فهو لم يقصد أهانته ، كل ما قصده ان الدور الآن دوره ..

– يا أم سعد ! أردت تكحيلها فعميتها . !

ـ أنا ؟ أنا قصدت ذلك قصداً ..

ـ والآن ماذا سيفعل سعد ؟ ألم يكن خروجه من السجن أفضل ؟

وقفت ، ونظرت إلي واضعة تلك الابتسامة على ركن شفتيها ، وقالت :

ـ طيب ! أنت غير محبوس ، فماذا تفعل ؟

وكانت الصحف ملقاة على الأرض ، والراديو الذي تركته في الليل مفتوحاً أخذ يتلو نشرة الأخبار . وكانت أم سعد تنظر إليّ تارة واليه تارة أخرى ، وبدت لي نظراتها ، وهي تنتقل مني اليه ، إنما تمد بيننا قضبان حديد تعجز كفاي عن هزها ، ثم قالت :

ـ أتحسب اننا لا نعيش في الحبس ؟ ماذا نفعل نحن في المخيم غير التمشي داخل ذلك الحبس العجيب ؟ الحبوس أنواع يا ابن العم ! أنواع ! المخيم حبس ، وبيتك حبس ، والجريدة حبس ، والراديو حبس ، والباص والشارع وعيون الناس .. أعمارنا حبس ، والعشرون سنـــة الماضية حبس ، والمختار حبس .. تتكلم أنت على الحبوس ؟ طول عمرك محبوس .. أنت توهم نفسك يا ابن العم بأن قضبان الحبس الذي تعيش فيه مزهريات ؟ حبس ، حبس ، حبس . أنت نفسك حبس .. فلماذا تعتقدون ان سعد هو المحبوس ؟ محبوس لأنه لم يوقع ورقة تقول انه آدمي .. آدمي ؟ من منكم آدمي ؟ كلكم وقعتم هذه الأوراق بطريقة أو بأخرى ومع ذلك فأنتم محبوسون ...

قمتُ . وكانت ترتجف . لا شك انها كانت المرة الأولى التي رأيتها فيها مجتاحة بمثل ذلك الغضب . وقلت لها :

– هدئي أعصابك يا أم سعد .. أنا لم أقصد شيئاً .

وبهدوء قالت :

– كل واحد يقول الآن « أنا لم أقصد شيئاً » .. فلماذا يحدث كل الذي يحدث ؟ لماذا ؟ لماذا لا تتركون الطريق للذين يقصدون ؟ لماذا أنت لا تقصد شيئاً ؟

ثم اقتربت مني .

– اسمع .. أنا أعرف ان سعد سيخرج من الحبس . الحبس كله ! أتفهم ؟

- ٢ -

خيمةٌ عن خيمةٍ تفرق

ام سعد . المرأة التي عاشت مع أهلي في « الغبسية » سنوات لا يحصيها العد ، والتي عاشت ، بعد ، في مخيمات التمزق سنوات لا قبل لاحد بحملها على كتفيه ، ما تزال تأتي لدارنا كل يوم ثلاثاء : تنظر الى الاشياء شاعرة حتى أعماقها بحصتها فيها ، تنظر الي كما لابنها ، تفتح امام اذني قصة تعاستها وقصة فرحها وقصة تعبها ، ولكنها أبداً لا تشكو .

انها سيدة في الأربعين ، كما يبدو لي ، قوية كما لا يستطيع الصخر ، صبورة كما لا يطيق الصبر ، تقطع ايام الاسبوع جيئة وذهاباً ، تعيش عمرها عشر مرات في التعب والعمل كي تنتزع لقمتها النظيفة ، ولقم اولادها .

اعرفها منذ سنوات . تشكل في مسيرة ايامي شيئاً لا غنى عنه ، حين تدق باب البيت وتضع اشياءها الفقيرة في المدخل تفوح في رأسي رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق ، وببؤسها وآمالها ، ترتد الى لساني غصة المرارة التي علكتها حتى الدوار سنة وراء سنة .

آخر ثلاثاء جاءت كعادتها ، وضعت اشياءها الفقيرة واستدارت نحوي :

– يا ابن عمي ، اريد أن أقول لك شيئاً . لقد ذهب سعد .

– الى أين ؟

– اليهم ؟

– مــــن ؟

– الى الفدائيين .

وسقط صمت متحفز فيما بيننا ، وفجأة رأيتها جالسة هناك ، عجوزاً قوية ، اهترأ عمرها في الكدح الشقي . كانت كفاها مطويتين على حضنها ، ورأيتهما هناك جافتين كقطعتي حطب ، مشققتين كجذع هرم ، وعبر الاخاديد التي حفرتها فيهما سنون لا تحصى من العمل الصعب ، رأيت رحلتها الشقية مع سعد ، مذ كان طفلاً الى أن شب رجلاً ، تعهدته هاتان الكفان الصلبتان مثلما تتعهد الارض ساق العشبة الطرية ، والآن انفتحتا فجأة فطار من بينهما العصفور الذي كان هناك عشرين سنة .

– لقد التحق بالفدائيين .

وكنت ما أزال أنظر إلى كفيها ، منكفئتين هناك كشيئين مصابين بالخيبة ، تصيحان من أعماقهما ، تطاردان المهاجر إلى الخطر والمجهول .. لماذا ، يا إلهي ، يتعين على الأمهات أن يفقدن أبناءهن ؟ لأول مرة أرى ذلك الشيء الذي يصدع القلب على مرمى كلمة واحدة مني ، كأننا على مسرح اغريقي نعيش

مشهداً من ذلك الحزن الذي لا يداوى .

قلت لها ، محاولاً أن أضيّعها وأضيّع نفسي :

ـ ماذا قال لك ؟

ـ لم يقل شيئاً . فقط ذهب . وقال لي رفيقه في الصباح انه ذهب اليهم .

ـ ألم يذكر لك قبلاً انه سيذهب ؟

ـ بلى . قال لي مرتين أو ثلاث مرات انه ينوي الالتحاق بهم .

ـ ولم تصدقي آنذاك ؟

ـ بلى . صدقت . أنا أعرف سعد . وقد عرفت انه سيذهب .

ـ فلماذا . إذن . فوجئت ؟

ـ أنا ؟ لم أفاجأ . إنما أعلمك بالأمر . قلت لنفسي : قد تكون ترغب في معرفة أخبار سعد .

ـ ولست حزينة أو غاضبة ؟

وتحركت كفاها المطويتان في حضنها . ورأيتهما جميلتين قويتين قادرتين دائماً على أن تصنعا شيئاً ، وشككت ان كانتا حقاً تنوحان . وقالت :

ـ لا . قلت لجارتي هذا الصباح. أود لو عندي مثله عشرة. أنا متعبة يا ابن عمي . اهترأ عمري في ذلك المخيم . كل مساء أقول يا رب ! وكل صباح أقول يا رب ! . وها قد مرت عشرون سنة . وإذا لم يذهب سعد . فمن سيذهب ؟

وقامت . ففاض في الغرفة مناخ من البساطة . بــدت الأشياء أكثر إلفة ، ورأيت فيها بيوت الغبسية مرة أخرى . ولكنني لحقت بها الى المطبخ . وهناك ضحكت وهي تنظر إليّ ، وأخبرتني :

— « قلت للمرأة التي جلست إلى جانبي في الباص أن ولدي أضحى مقاتلاً (آنذاك بدا صوتها ، بلا ريب ، مختلفاً ، ولذلك تذكرت الآن) قلت لها انني احبه وسأشتاق له ، ولكنه جاء ابن أمه .. أتعتقد أنهم سيعطونه رشاشاً ؟ »

— انهم يعطون رجالهم رشاشات دائماً .

— « والطعام ؟ »

— يأكلون كفاية ، وكذلك يعطونهم السجاير .

— « إن سعد لا يدخن ، ولكنني متأكدة انه سيتعلم ذلك هناك . يا نور عيني امه ! أود لوكان قريباً فأحمل له كل يوم طعامه من صنع يدي . »

— يأكل مثل رفاقه .

— « اسم الله عليهم جميعاً »

وصمتت لحظة . ثم دارت وواجهتني :

— « أتعتقد انه سينبسط لو ذهبت فزرته ؟ أستطيع أن أوفر أجرة الطريق . وأذهب يومين الى هناك »

وتذكرت شيئاً فأكملت :

— « أتدري ؟ إن الأطفال ذل ! لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به . لسكنت معه هناك . خيام ؟ خيمة عن

خيمة تفرق ! لعشت معهم ، طبخت لهم طعامهم . خدمتهم بعيني ولكن الأطفال ذل . »

قلت لهـــا :

ـ لا ضرورة لأن تزوريه هناك ، دعيه يتصرف وحده . ان الرجل الذي يلتحق بالفدائيين لا يحتاج ، بعد ، إلى رعاية أمـــه .

ونشفت كفيها بمريولها ، وعميقاً في عينيها رأيت شيئاً يشبه الخيبة : تلك اللحظة المروعة التي تشعر فيها أم ما انه صار بالوسع الاستغناء عنها ، انها اطرحت في جهة ما كشيء استهلكه الاستعمال .

ودنت مني تقول :

ـ « أتعتقد ذلك حقاً ؟ أتعتقد انه من غير المفيد أن أذهب الى رئيسه هناك وأوصيه به ؟ »

وتحيرت قليلاً ، مستشعرة التمزق ينهكها ، ثم سألت :

ـ « .. أم تراكَ تستطيع أنت ان توصي رئيسه به ؟تقول له : دير بالك على سعد . الله يخليلك ولادك »

وقلت لها :

كيف ؟ إن أحداً لا يستطيع أن يوصي بالفدائي .

ـ « لمـــاذا ؟ »

ـ لأنك انت تقصدين أن يتدبر رئيسه الأمر بحيث لا يعرضه للخطر . أما سعد نفسه ، ورفاقه ، فيعتقدون أن أحسن توصية بهم هي أن يرسلوا على الفور الى الحرب .

ومرة أخرى جلست هناك ، ولكنها بدت قوية أكثر مما رأيتها أبداً ، وراقبت في عينيها وكفيها الخشنتين حيرة الأم وتمزقها وأخيراً قرّ رأيها :

— « أقول لك ، لتكن توصيتك به الى رئيسه أن لا يغضبه. قل له : أم سعد تستحلفك بأمك أن تحقق لسعد ما يريد . انه شاب طيب ، وحين يريد شيئاً لا يتحقق يصاب بحزن كبير . قل له ، دخيلك ، أن يحقق له ما يريد .. يريد أن يذهب إلى الحرب ؟ لماذا لا يرسله ؟ »

- ٣ -

المطرُ والرجُلُ والوَحلُ

كان صباح الثلاثاء ماطراً ، ودخلت أم سعد وهي تقطر ماء . كان شعرها مبتلاً ، وينقط على وجهها ، فيبدو وكأنه تراب مسقي . تناولت معطفها ، فيما وضعت المظلة الكالحة في الزاوية كما يوضع السيف المتعب ، وقالت :

ـ هذا ليس مطراً ، السماء ، يا ابن عمي ، تكب سطولاً .

وابتسمت ، ولكنني رأيت شريطاً من الوحل الأحمر يطوق طرف ردائها وهي تستدير . قلت لها :

ماذا يا أم سعد ؟ هل وقعت ؟

وبسرعة التفتت إلي :

ـ وقعت ؟ أم سعد لا تقع . لماذا ؟

ـ ثمة وحل على تنورتك .

حكت الوحل بأصابعها الخشنة ، ثم تركته لشأنه حين أحست أنه ما زال طرياً ، وقالت :

ـ طاف المخيم في الليل .. الله يقطع هالعيشة .

واهتز الجبل أمامي ، ثمة دموع عميقة أخذت تشق طريقها

الى فوق ، لقد رأيت أناساً كثيرين يبكون . رأيت دموعاً في عيون لا حصر لها . دموع الخيبة واليأس والسقوط . الحزن والمأساة والتصدع . رأيت دموع الوجد والتوسل . الرفض الكسيح والغضب المهيض الجناح . دموع النـــدم والتعب . الاشتياق والجوع والحب . ولكنها أبداً أبداً لم تكن مثل دموع أم سعد : لقد جاءت مثلما تتفجر الأرض بالنبع المنتظر منذ أول الأبد ، مثلما يستل السيف من غمده الصامت ، ووقفت هناك على بعد لحظة واحدة من بريق العين الصامدة . عمري كله لم أرَ كيف يبكي الإنسان مثلما بكت أم سعد . تفجر البكاء من مسام جلدها كله . أخذت كفاها اليابستان تنشجان بصوت مسموع . كان شعرها يقطر دموعاً . شفتاها ، عنقها ، مزق ثوبها المنهك ، جبهتها العالية ، وتلك الشـــامة المعلقة على ذقنها كالراية ، ولكن ليس عينيها .

— ولو يا أم سعد ؟ أنت تبكين ؟

— أنا لا أبكي يا ابن عمي . أود لو أستطيع . لقد بكينا كثيراً . كثيراً .. كثيراً . أنت تعرف . بكينا أكثر مما طافت المياه في المخيم ليلة أمس ، وذات صباح كان سعد قد ذهب . انه يحمل مرتينة الآن ، وتشتي عليه ماء ورصاصاً . لا احد يبكي الآن ، ولكنني يا ابن عمي ، صرت امرأة عجوزاً . صرت أتعب . أمضيت كل الليل غارقة في الوحل والمـــاء . عشرون سنة ...

وصل النشيج إلى حلقها فاعترض الكلمة . فرشت راحتيها

أمامي وابتلعت الغصة التي كدت أسمع صوت سقوطها في صدرها المليء بحطام العذاب والأسى ..

ـ ماذا أقول يا ابن عمي ؟ في الليل أحسست بأنني قريبة من النهاية ... ما النفع ؟ أريد أن أعيش حتى أراها . لا أريد أن أموت هنا ، في الوحل ووسخ المطابخ .. هل تفهم ذلك يا ابن عمي ؟ أنت تعرف كيف تكتب الأشياء ، أنا لم أذهب إلى مدرسة في عمري ، ولكننا نحس مثل بعضنا . يا ربي ! ماذا أقول ؟ أمس في الليل فكرت بذلك جيداً ، ووجدت الكلمات المناسبة ، وفي الصباح نسيتها .. طيب ! أنت تكتب رأيك ، أنا لا أعرف الكتابة ، ولكنني أرسلت ابني الى هناك .. قلت بذلك ما تقوله أنت . أليس كذلك ؟ .

شعرت بذلك النصل الذي ينبثق فجأة من أحضان الكلمة البسيطة ، وينقذف في صدورنا بسرعة الرصاصة وتصويب الحقيقة ، ولوهلة رأيت شريط الوحل الداكن الذي كان يتدلى على طرف ثوبها شيئاً يشبه تاج الشوك .

ـ تعالي يا أم سعد . اجلسي هنا . أنت متعبة فقط ، وربما كان شوقك لسعد وقلقك عليه هما اللذان يصدعان رأسك . وكذلك الطقس أنت تشعرين بالتعاسة لأنك تعرفين بأن المطر سيستمر طوال النهار ، وستعملين في جرف الوحل طوال الليل . تعالي اجلسي ، لا تسمحي لذلك كله أن يهدمك . »

جلست . وتنفست الصعداء مثلما يفعل الإنسان حين يريد أن يهيل على الغيوم السوداء في صدره هواء نقياً :

– « لا ، يا ابن عمي . أتعرف ماذا كان يفعل سعد حين كان يطوف المخيم ؟ كان يقف ويتفرج على الرجال وهم يجرفون الوحل ، ثم يقول لهم : « ذات ليلة سيدفنكم هذا الوحل » . ومرة قال له أبوه : لماذا تقول ذلك ؟ ماذا تريدنا أن نفعل ؟ هل تعتقد أنه يوجد مزراب في السماء وان علينا أن نسده ؟ وضحكنا كلنا ، ولكنني حين نظرت اليه رأيت في وجهه شيئاً أرعبني ، كان منصرفاً الى التفكير وكأن الفكرة راقت له ، كأنه سيذهب في اليوم التالي ليسد ذلك المزراب .

– ثم ذهب ؟ .

– ثم ذهب .

ونظرت الي مباشرة ... كان ثمة ارتداد لا يصدق . تراجع طوفان الدموع الذي كانت تسبح فيه واشرقت كما يضاء الشيء من الداخل .

– اتعرف ، يا ابن عمي ؟ انا لست قلقة عليه . لا . هذا ليس صحيحاً . قلقة . قلقة وغير قلقة . ربما كان لديك ، انت الذي ذهبت الى المدرسة ، اسم لهذه الحالة ... فامس فقط جاء رفيقه وقال لي انه بخير .

– جاء عندك ؟

– لم ار وجهه . كان الليل ثقيلاً ، وكنا نشتغل بالوحل والماء حين جاء ووقف بجانبي . كان عملاقاً ، يخزي العين . وقال لي : « سعد يسلم عليك . انه بخير . وسيهديك غداً سيارة » ثم ذهب .

– يهديك سيارة ؟

– أجل . الا تعرف ؟ يعني انه سينسف سيارة .

– وهل فعل ؟

– ماذا ؟ سعد لا يقول شيئاً ثم لا يفعله . انا اعرفه جيداً .

وفي الخارج ، شقت الشمس طريقها وسط الغيوم الداكنة مثلما يشق المحراث ثلماً في الارض ، وقذفت حزمة دفء في الغرفة . اكانت الصدفة أن سقطت الشمس على وجهها وهي جالسة هناك ؟ لقد ابتسمت ، وبدت قوية وشابة كما كانت تبدو دائماً .

لقد انتظرت حتى المساء لاسمع نبأ سقوط سيارة اسرائيلية في كمين مقاتلين . وارتقبت بلهفة أن أسمع تلك التتمة الرائعة للخبر : « وعاد الفدائيون الى قواعدهم سالمين » . لست أدري لماذا مضيت من توي الى المخيم ، وفي مستنقع الوحل شهدت ام سعد واقفة مثل شارة الضوء في بحر لا نهاية له من الظلام ، وقد رأتني قادماً ، فلوحت بيديها ، كان صوتها أعلى من صوت الرعد المدوي في سقف السماء ، وانهمر الصدى من كل صوب كالشلال :

– ارأيت ؟ قلت لك ان سعد سيهدي امه سيارة .

وكان المطر ينهمر ، ولم يكن رذاذه الصاخب في تلك اللحظة الا تطاير الماء أمام زورق صامد يشق طريقه كالقدر ..

- ٤ -

في قَلبِ الدِّرع

كانت الضحكة تملأ وجهها كما لم أرها أبداً ، ووضعت ام سعد اشياءها الفقيرة في الزاوية ، وقالت :

ــ جاء سعد .

وحومت في الغرفة فيما كان الدوي في الخارج يستقبل مجيء العيد ، وجلست ، واضعة كعادتها كفيها في حضنها مطويتين الى بعضهما على تلك الصورة الفريدة التي تشبه عناقاً حميماً ، وأمامي برقت عينا سعد وراء مدفعه القصير . قادماً وهو مضرج بالتراب من وراء الليالي الطويلة التي غابها . وسألتها :

ــ لقد غاب سنة .

ــ كلا . تسعة شهور واسبوعان . جاء امس .

ــ سيظل .

ــ لا . قطبوا له ساعده . كانت رصاصة قد ...

وشمرت عن كمها ، وأرتني كيف شقت الرصاصة لحم الساعد من الرسغ الى الكوع . وفي ساعدها الاسمر القوي

الذي يشبه لونه لون الارض . رأيت كيف يمكن للامهات أن ينجبن المقاتلين . وخيل الي لوهلة انني أرى أثراً لجرح عتيق ، ملتحم ولكنه كامن . يمتد من رسغ ام سعد الى كوعهـــا ، وقلت :

— أنت أيضاً .

— انا ؟ آه . ذلك جرح عتيق ، من ايام فلسطين .. سرق الواوي دجاجة فسحبته من تحت سلك شائك وطقطقت له رقبته . جرحني السلك يومها .

— وسعد ؟

— يقول انه سيرجع حين يلتئم الجرح .

ولاحظت . لنفسي . كيف قالت أنه « سيرجع » ولم تقل انه « سيذهب » . ولكنني لم افكر كثيراً . كانت ام سعد قد علمتني طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض . وقالت :

— « أسم الله عليه . انه يحمل ساعده كما يحمل النيشان . قال انه صار قائد فرقته . وانهم يسألونه دائماً : لماذا . يا سعد توسع خطواتك ؟ انه في الامام . وقلت له : أين أبوك . »

— اشتاق لك كثيراً ؟

— « من ؟ سعد ؟ يخزي العين . عبطني لحظة واحـــدة وتركني . فقلت له : ولو يا سعد ؟ الا تعبط امك وتبوسها بعد هذا الغياب ؟ أتعرف ماذا قال ؟ قال : ولكنني رأيتك هناك . وضحك » .

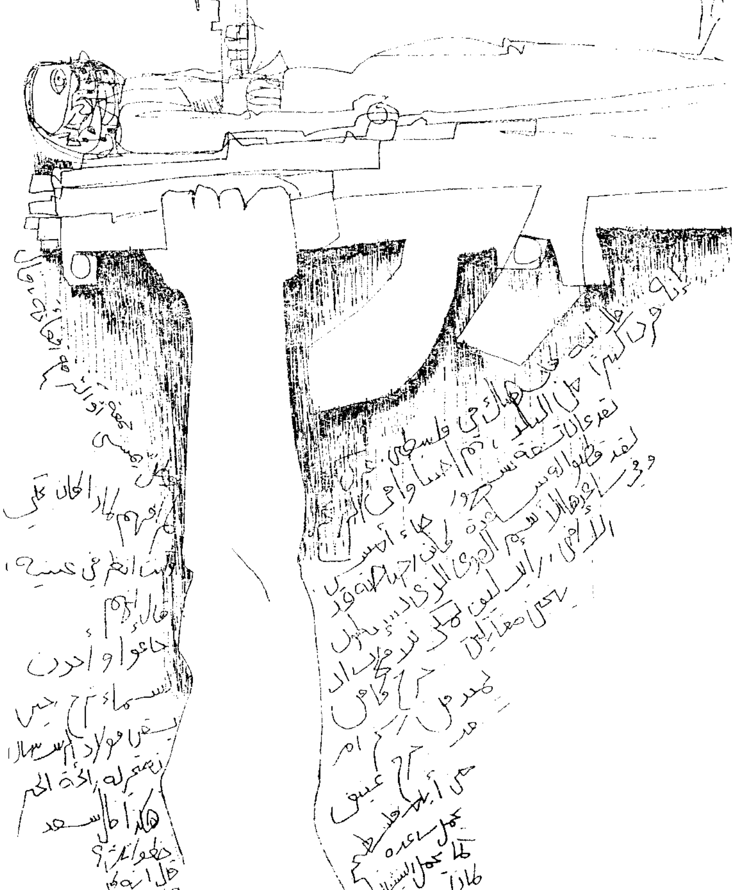

ـ كيف رآك هناك ؟

ـ قال انه كان في فلسطين . غرب كثيراً ، وظل يمشي جمعة أو اكثر مع أربعة من رفقائه . قال انه قرب كثيراً من البلد . ثم اختبأوا في الزرع ، لم أفهم لماذا . كان يحكي وكنت انظر في عينيه ، يا عيني عليه ، يا عيني عليهم كلهم . كان يحكي وكنت اقول لنفسي : كان هناك ، فلم افهم لماذا اختبأوا في الزرع .. قال انهم ..

* * *

جاعوا ، واخذت السماء تــزخ . حين يسقى فولاذ الرشاشات تضحي له رائحة الخبز ، هكذا قال سعد .

كانوا قد حوصروا ، الا انهم احتفظوا بمكمنهم هادئين . وقدروا ان الحصار سينفك بعد ساعات . امتد الحصار اياماً حتى انهكهم الجوع ، وأخيراً وصلوا الى باب خيارين : أن يظلوا كامنين . طاوين أنفسهم على عذاب أخذ يشتد ولا يعرفون متى يمضي ، أو أن يتركوا لاحدهم أن يجرب مغامرة الذهاب الى القرية القريبة .

كان الخيار صعباً ، قال سعد ، وقرروا الانتظار حتى المساء قبل أن يعقدوا العزم على قرار .

وعند الظهر قال سعد لرفاقه : ها قد جاءت أمي !

ونظر الرجال الى رأس الطريق الضيق المنحدر كالثعبان من التلة ، وهناك رأوا امرأة في ثوبها الريفي الطويل الأسود تنزل قادمة صوبهم . تحمل على رأسها بقجة ، وفي يدها رزمة

من العروق الخضراء .

وبدت لهم عجوزاً ، في عمر ام سعد وفي قامتها العالية الصلبة، ومن خلال الصمت المخيم كصمت الموت ، كان صليل الحصى تحت قدميها العاريتين يسمع كأنه الهمس .

وقال احد الاربعة :

ـ املك ؟ املك في المخيم يا اخوت ... ضربك الجوع بالعمى !

وقال سعد :

ـ انتم لا تعرفون امي ... انها تلحق بي دائماً ، وهذه امـــي .

وصارت المرأة في محاذاة مكمنهم ، وباتوا يسمعون حفيف ثوبها الطويل المطرز بالخيوط الحمراء ، ونظر اليها سعد ، من خلال اشجار العليق التي تسد مكمنه ، وفجأة ناداها :

ـ « يما يما » .

وتوقفت المرأة لحظة ، وأدارت بصرها في الحقول الصامتة حولها ، وظلوا يراقبونها صامتين فيما أمسك أحدهم بذراع سعد وضغط عليها محذراً ، لحظة . لحظة أخرى ، احتارت المرأة ، ثم عادت تسير .

خطوتان ، ثلاث خطوات ، وأعاد سعد نداءه :

ـ « يا يما ، ردي علي! »

مرة أخرى وقفت المرأة ، ونظرت حولها محتارة ، وحين لم ترَ شيئاً أنزلت الصرة عن رأسها ووضعتها على الأرض

وأراحت فوقها رزمة العروق الخضراء ، وحطت كفيها على خاصرتيها وأنشأت ، بعينيها ، تنقب في دغول العليق حولها .

وقال سعد :

– « أنا هون يما » !

والتقطت العجوز مصدر الصوت ، فتأملته برهة إلا أنها لم ترَ شيئاً ، وأخيراً انحنت فلمت قضيباً مشقت عنه أوراقه وخطت نحوهم خطوتين ، ثم وقفت ونادت :

– « لماذا لا تخرج وتريني نفسك ؟ »

ونظر الرجال نحو سعد الذي تردد برهة ، ثم علق رشاشه على كتفه ، وسار بهدوء نحو المرأة :

– « أنا سعد ، يا يما ، جوعان » !

وسقط القضيب من يد الفلاحة العجوز وهي تحدق الى الشاب الذي ولده الدغل الشائك ينحدر نحوها بالكاكي وبالرشاش على كتفه ، أما رفاقه فقد هيأوا بنادقهم ، فيما أخذ سعد يقترب من العجوز .

وقالت المرأة :

– « يجوع عدويك يا ابني .. تعال لعند أمك »

واقترب سعد أكثر ، كانت خطواته مطمئنة وكان رشاشه ما زال يتأرجح على كتفه من غير اكتراث . وحين صار على بعد خطوة منها فتحت ذراعين واحتضنته : « يا حبيبي .. يا ابني .. الله يحميك » .

وقال سعد :

— « يا يما ، بدنا أكل »

وانحنت المرأة فناولته الصرة ، وحين أخذها رأى عينيها تدمعان ، فقال لها :

— « حلفتك بالنبي لا تبكي يا يما ! »

قالت العجوز :

— « معك بقية الأولاد ؟ أطعمهم . في المغرب سأمرق من هنا وأضع الزوادة على الطريق ... الله يحميكم يا أولادي »

وعاد سعد بالزوادة ، ولم يلحظ رفاقه أية دهشة في ملامحه . أكلوا ، وقال أحد رفاقه :

— « لنغير مكاننا ، فقد تعود بالعسكر »

إلا أن سعد لم يرد ، وبعد قليل قال لهم :

— إنها أمي . وقد رأيتم ذلك بأنفسكم ، فكيف تعود بالعسكر ؟ »

وفي المساء جاءت العجوز فوضعت الزوادة ، ووضعتها هناك فجر اليوم التالي . وفي كل مرة كاد سعد يناديها من وراء الدغل :

— « يسلموا ايديكي يما »

ويسمعونها تقول :

— « الله يحميك يا ابني »

* * *

قالت أم سعد :

— تلك المرأة العجوز ظلت خمسة أيام تطعمهم .. قال لي

سعد انها لم تتأخر ساعة واحدة . حتى انفك الحصار . جاءت فوضعت الزوادة ونادت : « العسكر راحوا .. الله يوفقكم »..

وعادت أم سعد فطوت راحتيها على حضنها كما يتعانق مخلوقان لا فصام بينهما . وقالت : سعد يقول انه رآني هناك . وانه لولا ان أطعمته لمات جوعاً ، ولولا ان دعوت له لقتلته الرصاصة التي شطفت لحم ساعده .

وقامت ، ففاحت في الغرفة رائحة الريف الذي كمن فيه سعد ، محاطاً بذلك الدرع الذي لا يصدق ، وقالت :

— « سيرجع بعد أن يلحم جرحه ، قال لي الا أشتاق له كثيراً فهو يراني هناك دائماً .. ماذا تريدني أن أقول له ؟ قلت له : الله يكون معك ويحميك . »

واستدارت ، خطوة ، خطوتين ، وفجأة سمعت نفسي أنـــادي :

— « يا يما »

فوقفت .

- ٥ -

الذينَ هـرَبوا وَالذينَ تقـدَّمُوا

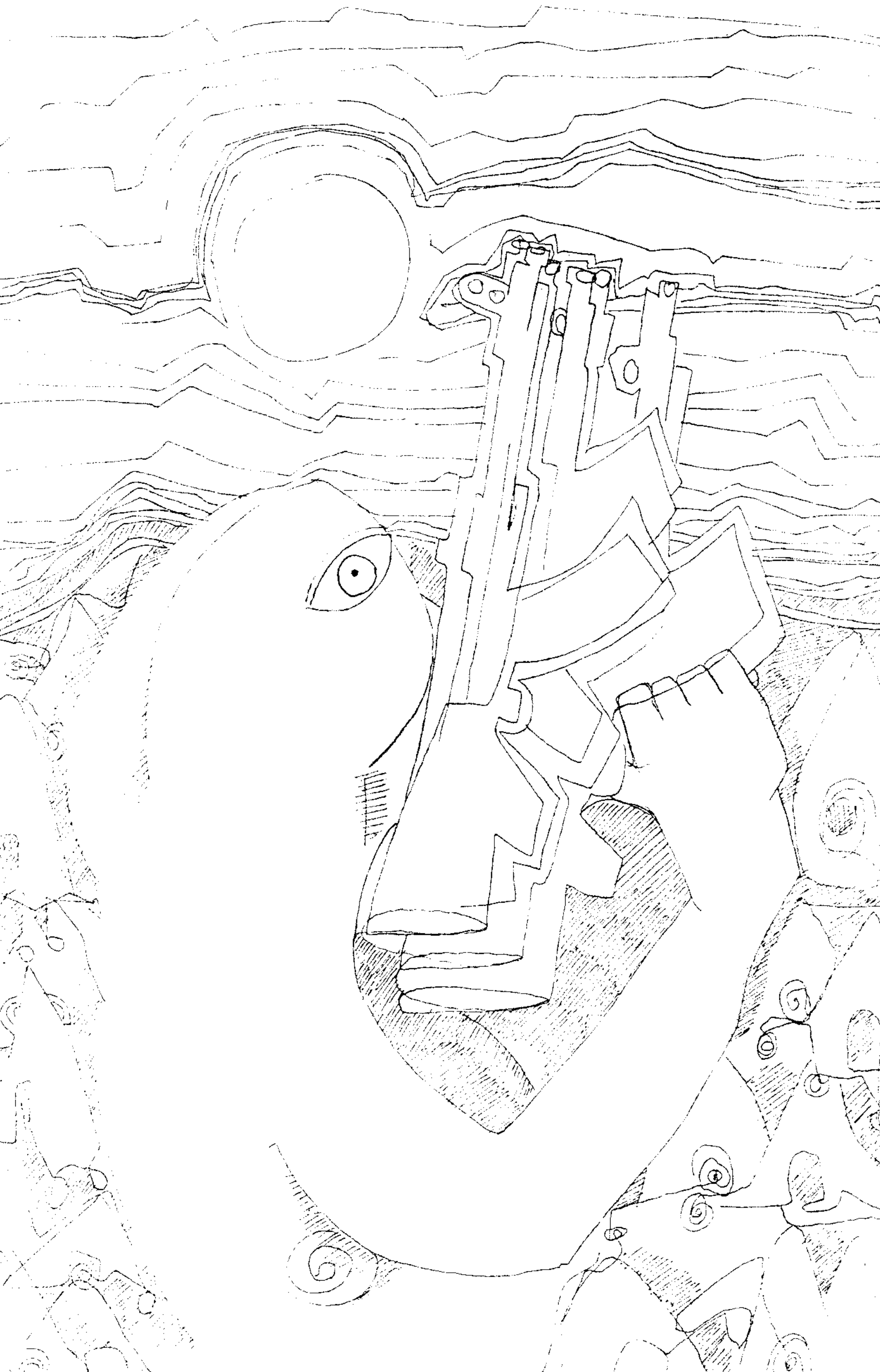

* فرشت أم سعد راحتيها أمامي . ورأيت بين شقوقهما التي اهترأت مع التعب والعذاب ، آثاراً حمراء لخيوط من الجروح لم تلتئم تماماً بعد ، فسألتها :

– ما الذي حدث يا أم سعد؟ هل اعتركت مع شجرة عليق؟

وعادت تدفع أمام وجهي راحتيها اللتين تشبهان جلد أرض يعذبها العطش ، ثم قالت :

– لا ، يا ابن عمي . لقد امضيت ليلة أمس الأول ألم عن الأرض قطعاً حادة من المعدن ..

– ليلة أمس الأول ؟

* *

.. كانت أم سعد تعشي ابنها الصغير حين سمعت دوي الانفجار الأول. مخيم البرج لا يبعد كثيراً عن المطار ، ولأول وهلة قالت لنفسها : هناك من بكر بالاحتفال بعيد رأس السنة . ثم أصاخت السمع ، فقد قالت لها أحاسيسها أن الجو يحبل بخطر أشد .

كان نهارها صحراء قاحلة من التعب المضني . منذ أبكر الصبح وهي تعتصر الملابس والمماسح . تنظف الشبابيك وتجلو الأرض وتنفض السجاجيد (في بيوت الآخرين . طبعاً ، فبيتها في المخيم غرفة مشطورة من النصف بحائط من التنك) . كانت متعبة . وقد أخذت تعشي ابنها الصغير لتضعه في فراشه وتنام ، حين سمعت دوي الانفجار الأول .

ولم تتردد لحظة حين سمعت الانفجار الثاني . فتركت صغيرها وعادت إلى الخارج . وفوق كثبان الرمل الأحمر مضت نحو الطريق . وهناك استطاعت أن ترى أذرعة النار تغوص في غيوم الدخان الماضي الى العتمة .

وقفت أم سعد هناك حائرة . كانت تسمع الدوي وتسمع أزيزاً غامضاً . ولكنها لم تكن تعلم بالضبط ماذا يتعين عليها ان تفعل .

* *

— هل كنت وحدك هناك ؟

— وحدي ؟ ماذا تعتقد يا ابن العم ؟ وحدي ؟ كنا كالنمل . كل نساء المخيم وأولاده وشبابه خرجوا كأنهم اتفقوا على ذلك سلفاً . ووقفنا جميعاً هناك . لا نعرف ماذا يتعين علينا أن نفعل . وفي الأفق كنا نرى الحرائق . ثم سمعنا محرك طائرة يجرش عن قرب . فرفعنا رؤوسنا الى فوق .

* *

جاءت الطائرة . مطلية باللون الأسود . وحلقت على علو

خفيض . وأخذت تزخ رصاصها على الشارع . وسمعت أم سعد صوتاً معدنياً كالرنين يملأ الطريق . وفي اللحظة التالية تقدمت نحو الاسفلت ، ورفعت بين أصابعها قطعة حديد ذات أربعة رؤوس مسننة .

قالت أم سعد لرفيقاتها :

ـ هذه الحدائد تفرقع دواليب السيارات .

ودورتها بين أصابعها ، ثم قالت :

ـ يا صبايا ، لنلمها ونقذف بها إلى الرمل ..

واندفعت النساء ، ومن ثم اندفع الأولاد ، الى الطريق المظلم وأخذوا يجمعون قطع الحديد بأيديهم العارية ويقذفون بها إلى الرمل ، وبسرعة انتشروا ، كالأشباح ، على طول الطريق ، ينظفونه من العراقيل . وفي كل مرة كانت الطائرة تعود كانوا يقذفون بأنفسهم الى الرمل ، ثم يعودون إلى الطريق مع ذهابها .

* *

قالت أم سعد :

ـ كانت الطائرة تحلق على علو منخفض جداً ، تكاد تمس رؤوسنا ، وفي مرة كانت قريبة منا الى حد اعتزمت أن اقذفها بحجر . ولكنها مضت مسرعة . بعد أن رمت حفنة جديدة من تلك الحدائد الشيطانية . ولكننا أسرعنا فلممناها .

ـ لقد نظفتم الطريق إذن ؟

ـ في اللحظة ذاتهـــا . كنا نعمل كالعفاريت . ولكن

السيارات التي تركها أصحابها مع الغارة في منتصف الطريق كانت في وضع غير مناسب . وقد حاولنا أن ندفشها الى اليمين ، أو الى اليسار ، إلا انها لم تتزحزح ، ثم خفنا أن يرانا أصحابها فيقولون اننا كنا نحاول سرقتها .

– ولو ! ولو يا أم سعد ؟

– أجل . أنت لا تعرف شيئاً ... ما الذي استطيع أن أفعله حين يؤشر صاحب سيارة عليّ ، وأنا في ملابسي الرثة وشعري الذي طير ريح الطائرة غطاءه . ووجهي الملطخ بالرمل والعرق .. ويقول : رأيتها تسرق سيارتي ؟

– غلطانة يا أم سعد . أنت كنت تقومين بعمل عظيم ..

– اعرف . ولكنني يا ابن العم لا أستطيع أن أثق برجل ترك سيارته في عرض الطريق ، تسد الدرب ، وهرب .. في لحظة مثل تلك اللحظة .. لا . لا أستطيع أن أثق ! .

* *

هدأت النار . وظل الدخان يطرش الأفق . ووقفت أم سعد على الرمل تنظر إلى كفيها المجرحتين . وبدأ الأطفال يعودون إلى بيوتهم .

وأخذت . لبرهة ، تفكر بسعد وأحسته في جسدها كما كان يوم أن ولد . يرجها بمشاعر لا تستطيع أن تعرف طبيعتها . يملؤها بنوع مذهل من الثقة بالمستقبل ومن الأمل فيه .

في مكان ما ، قالت لنفسها . يقف سعد الآن تحت سقف من الدخان . ثابت الساقين كما كان دائماً . كأنه شجرة ، كأنه

صخرة ، يقبض بسلاحه ثمن ذلك الدخان كله .

* *

عادت أم سعد ، ففرشت راحتيها أمامي ، كانت الجروح تمتد فوق خشونتهما انهراً حمراء جافة ، تفوح منهما رائحة فريدة ، رائحة المقاومة الباسلة حين تكون جزءاً من جسد الانسان ودمائه .

قلت لها : لا عليك ... انها جروح بسيطة ..

– هذه ؟ طبعاً ، ستمحى . ستمحوها الأيام . سيملؤها غبار التعب ، سيتراكم فوقها صدأ الأواني التي أغسلها ، وقذارات البلاط الذي أمسحه ، ورماد المنافض التي أنظفها ، وعكورة المياه التي أغسل بها .. أجل يا ابن العم ، أجل ... ستغرق هذه الجروح تحت سواقي التعب ، يجففها اللهاث ، وتغتسل طوال النهار بالعرق الساخن الذي أعجن فيها خبز أولادي .. نعم يا ابن العم ... ستضع الأيام الذليلة فوقها قشرة سميكة ، وسيضحى من المستحيل على أي كان أن يراها ، ولكنني أعرف ، أنا التي أعرف ، أنها ستظل تخزني تحت تلك القشرة . أعرف ! .

- ٦ -

الرسَالة التي وَصَلَت بَعْدَ ٣٢ سَنَة

أخذت أم سعد تتذكر ، يومها ، أياماً بدت بعيدة . وتحدثت عن رجل اسمه « فضل » . تراه قتل في ١٩٤٨ أم بعد ذلك ؟ انها لا تذكر بالضبط ، ولكن ذلك لم يكن مهماً تماماً ، فقد كان الأمر كله منذ البدء يتعلق برجل آخر .

جاءت يومها مهمومة . وأخذت تدور في أنحاء الدار غير عارفة ماذا يتعين عليها أن تفعل بالضبط ، وبدت لي ضائعة لا تسمع ما أقوله ، ثم غابت في الشرفة منصرفة إلى عمل ما لم يبد لها ، ولا لي ، ضرورياً أبداً . وقالت زوجتي : « ثمة شيء ما يجثم بالهم على كتفيّ أم سعد » .

وأنا الذي أعرف أن أم سعد صندوق مغلق على همه ، لا يبوح لأحد إذا ما ضجت داخله أصوات التعب والقلق والخوف من المجهول ، وكدت أمضي إلى شأني لو لم تسألني عما إذا كنت أعرف فلاحاً من الغبسية كان اسمه « فضل » . أو عما إذا كنت سمعت عنه .

وحين قلت لها انني لم أسمع عنه زمت شفتيها محتارة .

ثم سألتني إن كنت أعرف رجلاً اسمه « عبد المولى ... » . كان من قرية تقع إلى الشرق من الغبسية :

ـ أهو الرجل الذي يشتغل مع الاسرائيليين وقد صار عندهم نائباً في البرلمان ؟

ـ هو بعينه .

ـ وما الذي جعلك تتذكرينه ؟

وبدت محتارة ، والى حد غامض بائسة وتعسة وغير راغبة في الكلام ، وأخذت أستحثها يدفعني فضول لمعرفة معنى ذلك الانبثاق الغريب لأناس ظلوا غائبين عنها وعن ذاكرتها عشرين سنة ، وأخيراً اعترفت بصوت كالهمس ان « عبد المولى » قتل « فضل » .

قالتها باختصار مدهش ، ومع ذلك فقد صار الأمر أكثر غموضاً وتعقيداً ، ومضت تحوم مثل دوريّ يشعر بالبرد ويفتش عن ملجأ .

ـ أحدث مكروه لسعد ؟

ـ بعيد الشر ، وأمس فقط بعث لي خبراً ، والصحيح يا ابن العم انني محتاره ..

ـ ماذا حدث يا أم سعد ؟

ومن صدرها أخرجت ورقة مطوية معلوكة ودفعتها نحوي :

ـ قرأها لي حسن ، ومن ساعتها وأنا مهمومه .

كنت أعرف خط سعد ، وقد كان خطه ، بقلم رصاص سميك الرأس . يتحدث عن رفيق له اسمه « ليث » وقع في

الأسر . وعلم سعد ان أهله قد يبعثون الى « عبد المولى » طالبين منه بحكم علاقات عائلية قديمة تربطهم به ان يتوسط لابنهم الأسير ، وحاولت ان أمضي في قـــراءة تلك الرسالة الغريبة . إلا أن الخط بدا مشوشاً وغائباً في ثنيات الورقة واهترائها .

ــ وما الذي يقلقك أنت يا أم سعد ؟

ــ سعد يقول لي أن أذهب الى أمه ، وأن أقول لها لا .

ــ وهل ذهبت ؟

ــ مررت في الصباح قرب بيتهم في المخيم . وتحيرت أمام الباب . هذا شيء صعب . يا ابن العم ، صعب . أنت في هذه الحالة تقول لهؤلاء الناس ، مهما قلت « تفو عليكم » .

ــ وما علاقة سعد بهذه القصة ؟

ــ انه يعرف « ليث » منذ كانا صغيرين ، وأنا أظن أن ليث قد أوصى سعد . لماذا أكذب عليك ؟ ليث قال لسعد انه اذا حدث له شيء ، وحاول أهله الكتابة لابن عمهم عبد المولى ، فما على سعد الا أن يطخهم .

وجَلَستْ على المقعد مثلما يسقط الشيء من تلقائه . واضعة راحتيها فوق بعضهما في تلك الحركة الفريدة التي تشبه عناق طيرين ، وكان بالوسع رؤية رسالة سعد تطل بطرفها الأبيض من بين راحتيها ، ذات صوت نائح قادم من بعيد وليس بالوسع رده أو طيه ، وفجأة أحسست انها نقلت إليّ همها كله واسقطته على كتفي ، ثم قالت :

ــ انا أعرف سعد . وسيفعل .

– وهل تأكدت أن أهل ليث كتبوا الى عبد المولى ؟

– لا لم أتأكد . وعلي أن أفعل . هـــذا هو الشيء الصعب .. ماذا تعتقد ؟ لو كنت متأكدة من شيء لما ترددت في شيء . ولكن ان اذهب الى ام ليث ، وأقول لها : صباح الخير يا ام ليث . يا فتاح يا عليم . سعد يقول لكم ... لا . ذلك شيء لا يستطيع الانسان ان يفعله بسهولة . ومنذ ليلة أمس وانا كمن يحمل على ظهره كيس بـــلان ... اقول لك الصحيح ، منذ ان سمعت اسم عبد المولى يقرأه لي حسن تزرزع بدني كمن ركبته العفاريت .. هذا الرجل يا سبحان الله كنت اتوغوش منه منذ زمان ، من أيام فلسطين » .

سألت . بدافع الفضول الذي كان ما يزال يمتلكني :

– قبل ان يموت فضل ؟

– تذكرت فضل على الفور . انت لا تستطيع ان تتذكر عبد المولى مفصولاً عن فضل . وقد جاء الاثنان معاً على رسالة سعد .

– قلت ان عبد المولى قتل فضل ؟

– ليس تماماً . يعني انه لم يحمل بارودة ويطخه .

– كيف اذن ؟

– عبد المولى كان متزعماً حمولته . رجـــل عنده ارزاق ويشغل الفلاحين ويملك زيتوناً وتبغاً يبيعه لشركة قرمان .. انت لا تذكر تلك الايام ، وطبعاً انت لا تعرف فضل ، فضل فلاح من حالاتنا . لا ارض ولا ميّ . وفي الثورة سنة الـ ٣٦

طلع فضل الى الجبل . كان حافي القدمين ، وحمل مرتينة وغاب طويلاً .

* *

كانت ام سعد ما تزال صبية آنذاك في مطلع عمرها ، تسمع عن الامور ولا تدركها تماماً . تتحدث عن اضراب الـ ٦ اشهر وعن الفلاحين الذين حملوا السلاح وطلعوا الى الجبل :

– وبعدين جاء المكتوب من ملوك العرب . ونزل الرجال الى بيوتهم ، وانا لا اذكر الاشياء تماماً ، واذا سألتني الآن كيف .. لما عرفت . ولكنني اذكر تماماً حادثاً واحداً . فقد قالوا ان القرية الفلانية ستقيم احتفالاً . يا حسرة ! احتفال لماذا ؟ على كل حال يومها قالوا لنا ان نذهب الى هناك ، وكان الذهاب ببلاش . فرحنا نتفرج .

وعاد فضل ، مع من عاد ، إلى القرية : نزل من التلال حافي القدمين كما صعد اليها وكما عاش فيها . ويبدو أن الطريق كانت طويلة فوصل الى الساحة مع آخر من وصل من القرى المجاورة ، ممزق القدمين والثياب ومتعباً ومستنزفاً حتى آخر أنفاسه ، ولم يجد فضل مكاناً في الساحة المحتشدة بالناس غير عتبة دار تقع في آخرها . فجلس يهدىء أنفاسه ويتدبر أمر قدميه الممزقتين المحشوتين بالتراب والشوك والدماء .

– كنت واقفة مع النسوان غير بعيدة عنه ، وفي البدء لم أنتبه الى وجوده لولا أن سمعت امرأة تقول لأخرى انه فضل الذي يعمل في المعاصر والذي كان من أول الذين طلعوا الى

الجبل . ثم أخذ الناس يصفقون . ونظرنا الى الأمام فرأينا عبد المولى يصعد الى الطاولة ويبدأ بالحكي . وهات يا تصفيق . لست أذكر الآن عما تحدث يومها . ولكن لا شك انه حكى عن الثورة والانتصار والانكليز واليهود ، ولا أعرف لماذا في تلك اللحظة نظرت إلى فضل . فرأيته يمد ذراعه مشيراً إلى الناس ويقول شيئاً . لأول وهلة حسبت انه يطلب شربة ماء أو أكلاً . فذهبت نحوه علي أساعده . ولكنني عرفت حين صرت قربه انه كان كمن يحدث نفسه . ولم اعد أنسى ذلك أبداً. الصحيح يا ابن العم ان هذا كل شيء أعرفه عن فضل .

– وماذا كان يقول ؟

– سمعته يقول : « ولكو . إسّا أنا الذي تمزعت قدماه ، وهذا الذي تصفقون له » ؟ ولا أعرف لماذا ظلت هذه الجملة في رأسي طول الوقت . أنت تعرف . لم أكن أذكرها كل يوم ، ولكنها كانت في رأسي . وحين جاء مكتوب سعد جاء الاثنان معاً . عبد المولى وفضل ...

وعادت ففرشت الورقة البيضاء التي هرأها الطي أمام عيني . ورأيت فيها على صغرها واختصارها رواية طويلة لا تكاد تصدق . ومضت أم سعد تقول :

– والآن ، عبد المولى مرة أخرى بعد عشرين سنة . هل تتصور ذلك يا ابن العم ؟ كيف يمكن لذلك أن يحدث ؟ انني لا اتحدث عن « ليث » . ولكن عن فضل .. هل تفهم ماذا اقصد ؟ فضل مات بعد ذلك . بعضهم يقول انه مات

مسلولاً في المعصرة . وبعضهم يقول انه زلق ووقع في الوادي . وبعضهم يقول ، إنه قتل في حرب الـ ٤٨ . بل ان بعضهم يقول انه طلع من فلسطين في الـ ٤٩ وعاد اليها فقتلوه في الطريق . ولكن ذلك ليس هو الموضوع . أنا أتصوره دائماً جالساً على العتبة والدم ينزف ممزوجاً بالتراب والغبار من قدميه . ولا أتصوره ميتاً . وفي نفس الوقت اسمع أصوات التصفيق والتهاني والزغاريد .. وعبد المولى . مثلما قلت . صار مهماً هناك ، خاين ولذلك مهم عندهم . في البرلمان . كما قلت . يا حيف !

وقامت . وأخذت تحوم من جديد وكأنها مربوطة إلى تلك الورقة التي كتبها سعد في مكان مجهول ، (ربما اسندها إلى جذع شجرة . أو إلى ذراع سلاحه . لذلك بدت الخطوط خشنة سميكة مقطعة) وقلت لها :

ــ وما الذي ستفعلينه الآن يا أم سعد ؟

ومضت تهز رأسها محتارة ، ثم اهتدت إلى أول الخيط :

ــ لو ذهبت عند أم ليث وذكرتها بحكاية فضل وعبد المولى . أينفع ذلك شيئاً ؟

ــ ربما . ولكن لماذا تتحدثين وكأنك متأكدة من أن أهل ليث يفكرون في الكتابة لعبد المولى ؟

ــ لا . أنا لست متأكدة من شيء . ولكن لا بد من أن أفعل شيئاً ... آه يا ابن العم ! لو يومها قام فضل عن العتبة وطخ عبد المولى ، أما كانت هذه المشكلة قد انتهت ؟

التزمت الصمت . فقد كدت أقول لها انه لو حدث ذلك لما حدثت أشياء كثيرة . ولما امضت هي نفسها عشرين سنة في المخيم . ولكنني عدت فقلت :

– لو فعل ذلك لقتله الناس .

– صحيح ، يومها ، لقتله الناس .. كان أحسن له أن يظل في الجبل .. ولا يحضر تلك الحفلة .

– لو ظل في الجبل . يا أم سعد . لما استطاع عبد المولى أن يقيم الحفلة .

– صحيح ، لو ظلوا كلهم ، ولكن ماذا حدث ؟ المسكين فضل ركبوا على ظهره ، في المعصرة وفي الجبل ، ثم في المعصرة ، ولو جاء إلى المخيم لركبوا أيضاً على ظهره .

– لذلك يريد سعد أن يمنع ذلك ، هل عرفت الآن ، انه يريد الا يجعل من ليث « فضلاً » آخر ..

استدارت . ونظرت إليَّ مباشرة : ذلك الرمح الذي تسدده في لحظات النبوءة بسرعة الرصاصة وتصويب الحقيقة ، ومدت نحوي بذراع بطيئة ولكن صلبة تلك الورقة المهترئة البيضاء التي تشبه جناح طائر طريد قادم من مكان يعبق برائحة الموت والصمود . جاءت كلماتها مشدودة كأنها القصف :

– لم يقل أحد ذلك كله لفضل المسكين .. فلماذا لا تقوله أنت الآن ، أنت الذي تعلمت من الكتب والمدارس ، لماذا لا تقوله لأهل ليث ؟ .

- ٧ -

النـاطور.. ولـيرتان فقـط

حزمت أم سعد صرتها الصغيرة . وحملتها تحت إبطهـا وخرجت من الباب عائدة إلى المخيم . ولكنها ما لبثت أن عادت بعد دقائق قليلة فأمسكتني من زندي وأخذتني إلى الشرفة . ثم أشارت إلى رجل قصير يقف قرب دراجة عند المنعطف المنحدر من الزقاق إلى الطريق العام :

ـ أترى ذلك القرد ؟

ـ ذلك الذي يسند الحائط قرب البسكليت ؟

ـ هو بعينه . أرجوك أن تذهب اليه وتقول له أن يريك عرض أكتافه . ويكفيني شره ..

ـ ولماذا يا أم سعد ؟

ـ أقول لك . إن لم تفعل أنت فسأنزل أنا وأضربه .

ونزلت مع أم سعد فأخذتها من الطرف الآخر للزقاق . متجنباً المرور حيث يقف ذلك الرجل القصير الغامض . وفي الطريق قالت لي أم سعد أن الرجل الواقف بانتظارها إنما يريد حملها على العودة إلى العمل في إحدى العمارات الكبيرة وسط

المدينة ، حيث مضت لمدة شهر وثلاثة أيام تنظف الدرج والمدخل . وتأخذ في كل مرة خمس ليرات .

– ومن هو الرجل هذا ؟

– انه ناطور البناية ، وقد أرسله صاحبها ، ومنذ جمعة وهو يتعقبني ، وأنا يا ابن العم ، لا أريد العمل هناك ، ولا أريد أن أرى وجهه ، وجه القرد ، صاحب البناية تلك .

– ولكنه رزقك يا أم سعد .

– هكذا كنت أحسب . أتعرف ؟ جاءني الناطور ذات يوم وقال لي انه وجد لي عملاً في البناية التي يعمل فيها ، شطف الدرج والمدخل من فوق ، من الطابع السابع أو الثامن ، لست أدري ، إلى الطريق . وقال لي : تأخذين خمس ليرات كل مرة . كان الصعود صعباً فوعد أن يطلعني بالاسانسير ، خفية عن صاحب العمارة ، وذلك جعل العمل أكثر سهولة . ثلاث مرات بالاسبوع . قلت لنفسي أن ذلك شيء جيد . وأن الله يسرها .. ولكن بعد شهر وثلاثة أيام ...

* * *

كانت ام سعد قد وصلت ، نازلة ، الى الطابق الثالث ، لاهثة وراء الماء ورغوة الصابون وبرد الشتاء يقرص قدميها الحافيتين . بلحم كفيها المضرجتين بآثار احذية الصاعدين والهابطين كانت تفرك الارض الرخامية وسط ليل الناس النائمين عميقاً في دفء غرفهم المترامية وراء الابواب المغلقة . وفجأة احست بامرأة تقف وراءها ، مكتفة ذراعيها على

صدرها ناظرة اليها بامعان ، كأنها كانت تنتظرها هناك منذ دهر . وحين التقت نظراتهما ، قالت لها المرأة :

– يعطيك العافية .

– الله يعافيكي يختي ..

وانتصبت ام سعد بقامتها العالية ، شادة ظهرها الى الوراء وهي تستشعر الألم يطوي عظامها ، كانت المرأة الواقفة هناك تبدو ريفية ، وغريبة في انتظارها الغامض .

– خيـــر ؟

وقالت المرأة :

– جئت اليك لاقول شيئاً ، انا التي كنت انظف هـــذا الدرج ثلاث مرات في الجمعة ، وقبل شهر وثلاثة ايام جاء الخواجا فقال لي مع السلامة .. كم يعطونك ؟

– خمس ليرات يختي .

–كانوا يعطونني سبع ليرات . انا امرأة عندي اربعة اولاد ، وقالوا لي سبع ليرات كثير ...

– وجعلوني انا اقطع رزقك . الله يقطع رزقهم !

واقتربت المرأة خطوتين نحو ام سعد :

– وما ذنبك انت ؟ انت مثلي وعندك اولاد ، ولكنني قلت لنفسي وقد انقطع رزقي : آتي اليك ، فلعل المكان الذي كنت تعملين فيه قبل ان تأتي الى هنا ما زال شاغراً ، فتدليني عليه ..

وقالت أم سعد :

– ومنين الأخت . بلا صغرة ؟

– أنا من الجنوب .

– فلسطينية ؟

– لأ . لبنانية من الجنوب

ومسحت أم سعد راحتيها المبتلتين . بردائها . ثم أخذت تنزل كميها المشمرين . وتنظر حولها . ثم قالت :

– يختي . والله لم أكن أعرف . ولم يقولوا لي .. خذي اشطفي بقية الدرج . الله يقطع هالبناية وصحابها . أنا اشتغلت هنا شهراً وثلاثة أيام . واجرة الاسبوعين الاخيرين لم أقبضهما بعد . غداً صباحاً قولي للخواجا أن أمسعد سامحتني بالأجرة .

وأخذت المرأة تنشج . وكان الدرج مبتلاً . وهسيس الماء . وهو ينحدر درجة وراء الأخرى . يصعد إلى سمعيهما كهدير غامض لنهر عميق . ودون أن تلتفت أخذت أم سعد تنزل الدرج . وظلت لفترة طويلة تسمع نشيج المرأة الواقفة على مصطبة درج الطابق الثالث . وحين وصلت إلى المدخل وقفت هنيهة تصيخ السمع حتى سمعت صوء الماء يتدفق من جديد . وعندها فقط تنفست بعمق . ثم وجدت نفسها تبكي وهي تخرج إلى الطريق .

* * *

– وماذا يريد ذلك الرجل القصير منك ؟

– انه يريدني أن أعود . قال لي في المرة السابقة أن شغل

المرأة تلك لا يعجبهم ، وان شغلي أحسن ، ولكنهم كذابون ، وأنا أعرف ، انهم يريدون توفير ليرتين .

وكنا قد صرنا قرب الطريق العام ، فوقفت أم سعد وأخذت تشير بذراعها نحو المدينة الصاخبة المزدحمة المكومـــة في البعد :

– كلما أتذكر تلك القصة يهتز بدني كله ، وأكاد أبكي .. انني أصاب بالارتجاف حين أرى ذلك الناطور يتعقبني من قرنة إلى أخرى ، يريدون ضربنا ببعضنا ، نحن المشحرين ، كي يربحوا ليرتين .. تلك العمارة الكبيرة تسوى أكثر من ألف ليرة ، اكثر بكثير ، وهم لا يهمهم مع ذلك ان يدفعوا واحدة منا لتقطع رزق الاخرى ، وانظر ماذا يفعل ذلك الناطور ! ذلك الناطور الكريه ! انه يستجيب لهم ، ويظل طول النهار يكرج على البسكليت ليوفر لهم ليرتين ! يا حرام ..

وصرنا ، عند ذاك ، على الطريق العام ، فوقفنا ننتظر السيارة التي تقلها إلى المخيم ، وهناك خطر لها خاطر :

– لو أنا والناطور والحرمة قلنا للخواجا ...

ثم صمتت ، وأخذت تنظر صوب المدينة المكومة في غبار المساء الحزين .

- ٨ -

أم سَعْد
تحصل على حجَابٍ جَديد

قالت ام سعد ان الافندي غضب حين قالت له ذلك الصباح :

– « إذا أردت سعد . لماذا لا تذهب اليه في الاغوار وتمسكه ؟ » .

كان قد اعتاد ان يمر عليها كل يوم. في ابكر الصبح . ويسأل عن سعد : « هل عاد ؟ » « سمعنا انه جاء » « اكتبي له أن يعود » ، وفي كل مرة كانت ام سعد تنظر الى الأفندي صامتة ولا تقول شيئاً .

جاءها ذلك الصباح وكان قد قرر شيئاً ، وقف هنيهة ثم سأل :

– اهذا هو سعد ؟

واخذ يشير إلى صورة معلقة على الحائط بدبوس . كان سعد في تلك الصورة وجهاً ضاحكاً تحت شعر غزير مجعد وغير ممشوط . واحست ام سعد بخطر داهم. وتحت وطأة شعور غامض قفزت الى الجدار فانتزعت الصورة ودستها في

صدرها .

وقف الأفندي متحفزاً لحظة . ثم تقدم خطوة واحدة فحسب . ولكن ام سعد اوقفته بكلمة :

– ان كنت رجلاً . حاول ان تأخذها !

وقف الأفندي محتاراً . واخذ ينظر حوله . وعادت ام سعد تقول :

– اذا اردت سعد . لماذا لاتذهب اليه في الأغوار وتمسكه؟

وابتسم الأفندي واشار الى صدرها وهو يقول :

– ما هذا العقد يا ام سعد ؟

كانت الحلية التي تركها سعد لهـــا قد قفزت من تحت ردائها حين دست الصورة في صدرها . واخذت تهتز فوق ثوبها المبرقش . ذلك كان ما ابقاه لهـــا سعد حين زارها آخر مرة : سلسلة من المعدن، تنتهي برصاصة مدفع رشاش . مثقوبة قرب قاعدتها النحاسية ومفرغة من بارودها . وعـــاد الأفندي يقول :

– لقد غيرتن حليكن هذه الايام !

وكانت ام سعد ترمقـــه بحذر ، وبيدها أمسكت الرصاصة المعلقة بالسلسلة . ووجدت نفسها تقول له :

– هذا ليس عقداً .

– ماذا إذن ؟

– هذا حجاب ..

– حجاب ؟

ـ حجاب !

ـ حجاب جاء به سعد ؟

ـ نعم . جاء به سعد ..

ودار الأفندي في غرفة الصفيح دورة بطيئة ، يحدق إلى الأشياء ، ويرمق الأفرشة المكومة في الركن ، وصحون المعدن التي لم تُغسل بعد ، والسقف المعدني الذي بدأ يتوهج بحرارة الصيف ، وكومة الوحل على الباب ، ثم عاد يقول :

ـ وكيف قلت أن سعد لم يأت ؟

ـ بلى . أتى وراح ..

ـ ألم أقل لك أن تقولي لنا حين يجيء ؟

ـ خفت .

ـ خفت عليه ؟

ـ خفت عليك .

كانت أصابعها متمسكة ، لا تزال ، بالرصاصة المتدلية من السلسلة على صدرها . وتحت ثوبها أحست بالدفء ينبعث من صورة سعد . وصار الأفندي الآن في جهة الباب . ولكنه توقف عند النافذة الصغيرة المفتوحة في الجدار ، ورفع من على رفها الخشبي حزمة قماش صغيرة مثلثة وملونة ومربوطة إلى خيط سميك ، وأخذ يلوح بها بين أصابعه :

ـ أهذا هو حجابك القديم ؟

ـ هو كذلك .

ـ ولمـــاذا ..

ولكنه لم يكمل . فقد قرأ الجواب ، كما يبدو ، واضحاً في عينيها وفي أصابعها التي كانت ما تزال تدوّر الرصاصة المربوطة إلى صدرها بسلسلة معدنية . نظر اليها بإمعان ، وخرج .

قلت لها :

– ولكن يا أم سعد . متى بعث سعد لك تلك الرصاصة ؟

– انه لم يبعثها . تركها في البيت حين زارنا لآخر مرة . وكنت أراها كل يوم في ثنيات الفراش ، ثم قررت أن أضعها في صدري ، وجاء ابن جارنا ذات يوم فثقبها وأخرج بارودها وربط فيها سلسلة .

– والحجاب القديم ؟

– صنعه لي شيخ عتيق منذ كنا في فلسطين ، وذات يوم قلت لنفسي : ذلك رجل دجال بلا شك . حجاب ؟ إنني أعلقه منذ كان عمري عشر سنين ، ظللنا فقراء ، وظللنا نهترىء بالشغل ، وتشردنا ، وعشنا هنا عشرين سنة . حجاب ؟ هنالك أناس ينتفعون بالضحك على لحى الناس ! ذلك الصباح قلت لنفسي : إذا مع الحجاب هيك ، فكيف بدونه ؟ أيمكن أن يكون هنالك ما هو أسوأ ؟ ثم قلت لنفسي : هذا سعد ... أنت تعرف . لماذا تريدني أن أحكي لك كل شيء ؟

– ولكنك تسببت في مشكلة لسعد ، الآن ، إذا ما عاد ، فإنهم سيعاقبونه .

(وكان شيء يشبه السخرية في نظرتها تلك ، وهي تحدق بي واقفة على عتبة جواب فهمته قبل أن تقوله) .

- ٩ -

البَنادق في المخَيّم

(فجأة تغير كل شيء : كف أبو سعد عن الذهاب للقهوة وصار حديثه لأم سعد أكثر ليونة . بل انه . ذلك الصباح . سألها ان كانت ما تزال تتعب . وابتسم طويلاً حين رمقته متسائلة عن السبب . فقد كان يأتي دائماً منهكاً . ويطلب طعامه بسؤال فظ . ويكاد ينام وهو يعلك لقمته الأخيرة .

وحين كان يتعطل عن العمل كان يزداد فظاظة . ويأخذ في الذهاب الى القهوة حيث يشرب شاياً ويلعب الطاولة وينهر على كل الناس . واذ يعود الى البيت كان لا يطاق . وكان ينام واضعاً كفيه الكبيرتين الخشنتين . اللتين تملؤهما آثار الاسمنت والتراب . تحت رأسه . ويأخذ بالشخير عالياً . وفي الصباح يشاجر خياله . ويترك ام سعد تحضر اشياءها الفقيرة لتمضي الى شغلها تحت سياط نظرات حانقة لا تفسر . وذات يوم شمت ام سعد . مع لهاثه . رائحة الخمر) .

اما الآن فقد تغير كل شيء فجأة . وصار اذ يسمع خطوات تمر من امام شباك كوخه الواطىء . في ذلك الممر

الموحل الضيق الذي لا يتسع لمرور اكثر من شخص واحد . يطل برأسه ويشرع بالحديث مع الرجل العابر ، موجهاً شتى الاسئلة ، متحدثاً عن « الكلاشينكوف » الذي كان يفضل ان يشير اليه بمجرد كلمة «كلاشن»، مثلما يفعل سعد حين كان يزورهم .

لقد ذهب تلك الظهيرة الى حيث كان مكبر الصوت يعلو بحديث لم يكن يسمع مثله من قبل ، ووقف هناك فوق الجدار يرقب ، مثلما المصاب بالذهول ، اطفال المخيم وبناته ورجاله يقفزون عبر النار ويزحفون تحت الاسلاك ويلوحون باسلحتهم وقد شهد « سعيد » ابنه الاصغر ، يقدم امام حشود الناس عرضاً عما يتعين على المقاتل ان يفعل حين يتعرض لطعنة حربة كي يتجنب الاذى .

(وحين نزل سعيد الى حلقة العرض اخذ الناس يصفقون ، ووصلت ام سعد فوقفت الى جانب زوجها على سطح واطيء واخذت تطل نحو الساحة ، وحين ميزت سعيد هناك ، اطلقت زغردة طويلة تجاوبت بزغاريد نبعت على طول المكان وعرضه ، وقال لها أبو سعد : « انظري... أترينه ؟ انه سعيد.. أترينه؟ راقبيه جيداً » ... كأنها لم تكن تراه ! وكأنها لم تكن معه ، في قلب تلك الحلقة ، تحصي حبات العرق المتدفقة فوق جبهته السمراء الصغيرة !

وأخذ سعيد يتقدم خطوة خطوة نحو خصمه . وهو يشد على قبضتي يديه الصغيرتين وينحني قليلاً ، وعندها وضع أبو

سعد كفه على كتف زوجته وأخذ يضغط بود غير متوقع . وتدفقت الدموع في عيني أم سعد وهي منصرفة كلياً إلى سعيد .

ودوى تصفيق كالرعد في ساحة المخيم حين تجنب سعيد ضربة الحربة وانتزع البندقية بلمح البصر من بين يدي غريمه الطفل ، واستدار ثم رفعها بساعده الصغير عالياً تحت العلم الذي أخذت رفاته تصدر صوتاً كاصطفاق الأكف .

وصفق أبو سعد كثيراً ، وكان قد وقف ملء قامته وأخذ ينظر حوله بكبرياء ، ثم التقت نظراته بنظرات أم سعد ، فعاد ينحني ويقول لها :

— هل رأيته ؟ انه سعيد !

وأشار إلى الطفل وهو يقرب رأسه من رأسها كي ترى جيداً إلى حيث يشير ، ومضى يشدد على كلماته :

— هو هناك ، ذلك الذي يرفع المرتينة . هل ترينه جيداً ؟

وكي لا تضحك انطلقت أم سعد تزغرد مرة أخرى ، وكان التصفيق ما زال يدوي ، والطفل يهز البندقية في وجه الرجال المحتشدين هناك ، وتلتمع جبهته مع ضوء الشمس الغاربة ، وفجأة التفت رجل عجوز كان يجلس على حافة الجدار إلى أبي سعد ، وقال له :

— « لو هيك من الأول ، ماكان صار لنا شي »

ووافق أبو سعد ، مدهوشاً من الدموع التي رآها في عيني جاره العجوز :

— « يا ريت من الأول هيك »

وعاد . فأمسك العجوز من كتفه وأشار بذراعه الممدودة إلى وسط الساحة . وقال له :

– « ترى ذلك الولد الذي يرفع المرتينة؟ انه ابني سعيد . أتـــراه ؟ »

وقال العجوز . دون أن يرى جيداً أغلب الظن :

– « الله يخليلك اياه . ولد جدع »

ورفع أبو سعد رأسه قليلاً . ومضى يقول للعجوز :

– « وأخوه الكبير سعد مع الفدائيين في الأغوار »

فقال العجوز :

– « ما شاء الله » .

وشد أبو سعد زوجته نحوه وأشار لها قائلاً للرجل العجوز الذي كان ما يزال ينظر إلى الساحة :

– « هذه المرأة تلد الاولاد فيصيروا فدائيين . هي تخلف وفلسطين تأخذ ! »

عندها فقط نظر العجوز إلى أم سعد . وكانت تضحك . دون أن تزيح بصرها عن سعيد الذي أعاد البندقية إلى رفيقه وأخذ يعدو ليلتحق بالصف الطويل للاطفال الواقفين بملابسهم الخاكية في طرف الساحة) .

وتغير أبو سعد منذ تلك الظهيرة . هكذا قالت لي أم سعد . « طبعاً » قالت « الحالة صارت غير ... الزلمة قال لي أنه صار للعيشة طعم الآن . الآن فقط » .

وقالت أم سعد : « عينك عالشباب في المخيم . كل واحد

منهم يحمل مرتينة أو رشاشاً . والكاكي في كل بيت . هل رأيت أفعال سعد ؟ »

– وما دخل سعد في الأمر ؟

– كيف لا ؟ هل تعتقد ان ذلك يحدث بالصدفة ؟ آه لو تعرف يا ابن العم ! البارودة مثل الحصبة . تعدي . وعندنا بالفلح كانوا يقولون أن الحصبة إذا أصابت الولد فهذا يعني انه بدأ العيش ، وانه صار مضموناً، ومنذ ذلك اليوم الذي شهدت فيه سعد يحمل رشاشاً قلت للأفندي الذي مرّ علي ذلك الصباح : « اللي حوّش حوش ! » ويوم الأربعاء كان الأفندي أول من بدأ المشي خارج المخيم ، وولع المخيم مثلما يضع الانسان عود كبريت في كوم تبن ، وعينك عالشباب لو رأيت ! »

– وأبو سعد ؟

وضربت أم سعد كفاً بكف . وكدت أسمع في اصطفاقهما صوت قطعتي خشب :

– « الفقر يا ابن العم الفقر .. الفقر يجعل الملاك شيطاناً ويجعل الشيطان ملاكاً ، ما كان بوسع أبو سعد أن يفعل غير أن يترك خلقه يطلع ويفشه بالناس وبي وبخياله ؟ كان أبو سعد مدعوساً ، مدعوساً بالفقر ومدعوساً بالمقاهرة ومدعوساً بكرت الاعاشة ومدعوساً تحت سقف الزينكو ومدعوساً تحت بسطار الدولة .. فماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ ذهاب سعد رد له شيئاً من روحه وتحسن يومها قليلاً ، وحين رأى

سعيد تحسن أكثر . أكثر بكثير . رأى المخيم غير شكل . رفع راسه . صار يشوف . صار يشوفني ويشوف أولاده غير . فهمت ؟ لو تراه الآن يمشي مثل الديك ، لا يترك بارودة على كتف شاب يمرق من جانبه إلا ويطبطب عليها . كأن بارودته القديمة كانت مسروقة ولاقاها . »

وتوقفت قليلاً . تفكر فيما قالت . وكمن تذكر شيئاً قالت فجأة :

– وصباح اليوم صحا باكراً جداً ، وحين لحقت به إلى الخارج رأيته واقفاً في الطريق يدخن سيجارته وهو يتكىء على الحائط . وقبل أن يصبّح علي قال لي : « والله يا أم سعد عشنا وشفنا » .

وفوّحت الغرفة برائحة الريف العريق حين أخذت أم سعد صرتها الصغيرة وتوجهت إلى الباب . ولوهلة اعتقدت انها مضت . الا انني سمعت صوتها يعبر من بين المصراعين المفتوحين على وسعهما :

– برعمت الدالية يا ابن العم برعمت !

وخطوت نحو الباب حيث كانت أم سعد مكبة فوق التراب . حيث غرست – منذ زمن بدا لي في تلك اللحظة سحيق البعد – تلك العودة البنية اليابسة التي حملتها إليّ ذات صباح . تنظر إلى رأس أخضر كان يشق التراب بعنفوان له صوت .

عَائدٌ إلى حَيفَا

١٩٦٩

عائد الى حيفا

١

حين وصل « سعيد س . » الى مشارف حيفا . قادماً اليها بسيارته عن طريق القدس ، أحس ان شيئاً ما ربط لسانه . فالتزم الصمت ، وشعر بالأسى يتسلقه من الداخل . وللحظة واحدة راودته فكرة ان يرجع . ودون ان ينظر اليها كان يعرف انها آخذة بالبكاء الصامت . وفجأة جاء صوت البحر . تماماً كما كان . كلا . لم تعد اليه الذاكرة شيئاً فشيئاً . بل انهالت في داخل رأسه . كما يتساقط جدار من الحجارة ويتراكم بعضه فوق بعض . لقد جاءت الأمور والأحداث فجأة . واخذت تتساقط فوق بعضها وتملأ جسده . وقال لنفسه ان « صفية » ، زوجته ، تحس الشيء ذاته ، وانها لذلك تبكي .

منذ ان غادر رام الله في الصباح لم يكف عن الكلام . ولا هي كفت ، كانت الحقول تتسرب تحت نظره عبر زجاج سيارته ، وكان الحر لا يطاق . فقد أحس بجبهته

تلتهب . تماماً كما كان الاسفلت يشتعل تحت عجلات سيارته . وفوقه كانت الشمس . شمس حزيران الرهيب . تصب قار غضبها على الارض .

طوال الطريق كان يتكلم ويتكلم ويتكلم ، تحدث الى زوجته عن كل شيء . عن الحرب وعن الهزيمة وعن بوابة مندلبوم التي هدمتها الجرارات . وعن العدو الذي وصل الى النهر والقناة ومشارف دمشق خلال ساعات . وعن وقف اطلاق النار ، والراديو ، ونهب الجنود للاشياء والأثاث ، ومنع التجول ، وابن العم الذي في الكويت يأكله القلق ، والجار الذي لمّ أغراضه وهرب ، والجنود العرب الثلاثة الذين قاتلوا وحدهم يومين على تلة تقع قرب مستشفى اوغستا فكتوريا ، والرجال الذين خلعوا بزاتهم وقاتلوا في شوارع القدس ، والفلاح الذي اعدموه لحظة رأوه قرب أكبر فنادق رام الله . وتحدثت زوجته عن امور كثيرة اخرى ، طوال الطريق لم يكفا عن الحديث . والآن ، حين وصلا الى مدخل حيفا ، صمتا معاً ، واكتشفا في تلك اللحظة انهما لم يتحدثا حرفاً واحداً عن الامر الذي جاءا من اجله !

هذه هي حيفا اذن ، بعد عشرين سنة .

ظهر يوم الثلاثين من حزيران ، ١٩٦٧ ، كانت سيارة « الفيات » الرمادية التي تحمل رقماً أردنياً أبيض تشق طريقها نحو الشمال . عبر المرج الذي كان اسمه مرج بن عامر قبل عشرين سنة ، وتتسلق الطريق الساحلي نحو مدخل حيفا

الجنوبي . وحين عبر الشارع ودخل الى الطريق الرئيسي انهار الجدار كله ، وضاعت الطريق وراء ستار من الدموع ، ووجد نفسه يقول لزوجته « صفية » :

— « هذه هي حيفا يا صفية ! »

وأحس المقود ثقيلاً بين قبضتيه اللتين اخذتا تنضحان العرق اكثر من ذي قبل ، وخطر له ان يقول لزوجته : « انني اعرفها ، حيفا هذه . ولكنها تنكرني » ولكنه غير رأيه . فقبل قليل فقط كانت فكرة قد خطرت له وقالها لزوجته :

— « اتعرفين ؟ طوال عشرين سنة كنت اتصور ان بوابة مندلبوم ستُفتح ذات يوم ... ولكن ابداً ابداً لم اتصور انها ستُفتح من الناحية الاخرى . لم يكن ذلك يخطر لي على بال . ولذلك فحين فتحوها هم بدا لي الأمر مرعباً وسخيفاً والى حد كبير مهيناً تماماً .. قد اكون مجنوناً لو قلت لك ان كل الابواب يجب ألا تفتح الا من جهة واحدة . وانها اذا فتحت من الجهة الاخرى فيجب اعتبارها مغلقة لا تزال ، ولكن تلك هي الحقيقة ».

والتفت الى زوجته . الا انها لم تكن تسمع . كانت منصرفة الى التحديق نحو الطريق : تارة الى اليمين حيث كانت المزارع تمتد على مدى البصر وتارة الى اليسار حيث كان البحر . الذي ظل بعيداً اكثر من عشرين سنة . يهدر على القرب . وقالت فجأة :

— « لم اكن اتصور ابداً انني سأراها مرة اخرى » .

وقال :

— « انت لا ترينها . انهم يرونها لك » .

وعندها فقط فقدت اعصابها . كان ذلك يحدث للمرة الأولى . وصاحت فجأة :

— « ما هذه الفلسفة التي لم تكف عنها طوال النهار ؟ الابواب والرؤيا وأمور أخرى . ماذا حدث لك ؟ » .

— « ماذا حدث لي ؟ » .

قالها لنفسه وهو يرتجف . ولكنه تحكم بأعصابه وعاد يقول لها بهدوء :

— « لقد فتحوا الحدود فور أن أنهوا الاحتلال فجـأة وفوراً ، لم يحدث ذلك في اي حرب في التاريخ ، اتعرفين الشيء الفاجع الذي حدث في نيسان ١٩٤٨ ، والآن ، بعد لماذا ؟ لسواد عينيك وعيني ؟ لا . ذلك جزء من الحرب . انهم يقولون لنا : تفضلوا انظـروا كيف اننا احسن منكم واكثر رقياً . عليكم ان تقبلوا ان تكونوا خدماً لنا ، معجبين بنا .. ولكن رأيت بنفسك : لم يتغير شيء .. كان بوسعنا ان نجعلها احسن بكثير .. » .

— « اذن لماذا اتيت ؟ » .

ونظر اليها بحنق ، فصمتت .

كانت تعرف . فلماذا تسأل ؟ وهي التي قالت له ان يذهب ، فطوال عشرين سنة تجنبت الحديث عن ذلك ، عشرين سنة ، ثم ينبثق الماضي كما يندفع البركان ..

وحين كان يقود سيارته وسط شوارع حيفا كانت رائحة الحرب ما تزال هناك ، بصورة ما ، غامضة ومثيرة ومستفزة .

وبدت له الوجوه قاسية ووحشية . وبعد قليل اكتشف انـــه يسوق سيارته في حيفا دون ان يشعر بأن شيئاً في الشوارع قد تغير . كان يعرفها حجراً حجراً ومفرقاً وراء مفرق ، فلطالما شق تلك الطرق بسيارته الفورد الخضراء موديل ١٩٤٦ . انه يعرفها جيداً ، والآن يشعر بأنه لم يتغيب عنها عشرين سنة . وهو يقود سيارته كما كان يفعل . كما لو انه لم يكن غائباً طوال تلك السنوات المريرة !.

واخذت الاسماء تنهال في رأسه كما لو انها تنفض عنها طبقة كثيفة من الغبار : وادي النسناس . شارع الملك فيصل . ساحة الحناطير . الحليصة . الهادار . واختلطت عليه الأمور فجأة ، ولكنه تماسك . وسأل زوجته بصوت خافت :

— « حسناً . من أين نبدأ ؟ » .

ولكنها ظلت صامتة . وسمع صوتها الخافت يبكي بمـــا يشبه الصمت . وقدر لنفسه العذاب الذي تعانيه . وعرف انه لا يستطيع معرفة العذاب على وجه الدقة . ولكنه يعرف انه عذاب كبير . ظل هناك عشرين سنة . وانه الآن ينتصب عملاقاً لا يصدق في احشائها . ورأسها . وقلبها . وذاكرتها . وتصوراتها . ويهيمن على كل مستقبلها . واستغرب كيف انه لم يفكر ابداً بما يمكن ان يعنيه ذلك العذاب ، وبمدى ما هو غارق في تجاعيد وجهها وعينيها وعقلها . وكم كان معها في كل لقمة اكلتها ، وفي كل كوخ عاشت فيه ، وفي كل نظرة رمتها على اولادها وعليه وعلى نفسها . والآن ينبثق ذلك كله

من بين الحطام والنسيان والأسى ، ويأتي على ركام الهزيمة المريرة التي ذاقها مرتين، على الاقل في حياته .

وفجأة جاء الماضي ، حاداً مثل سكين : كان ينعطف بسيارته عند نهاية شارع الملك فيصل (فالشوارع بالنسبة له لم تغير اسماءها بعد) متجهاً نحو التقاطع الذي ينزل يساراً الى الميناء ، ويتجه يميناً نحو الطريق المؤدي الى وادي النسناس ، حين لمح مجموعة من الجنود المسلحين يقفون على المفترق امام حاجز حديدي . وحين كان يرمقهم بطرف عينيه ، صدر صوت انفجار ما من بعيد ، واعقبته طلقات رصاص وفجأة اخذ المقود يرتجف بين يديه ، وكاد ان يرطم الرصيف ، وتماسك في اللحظة الاخيرة ، وشهد صبياً يعدو عبر الطريق ، وعندها جاء الماضي الراعب بكل ضجيجه . ولأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفاصيل، وكأنه يعيشه مرة أخرى.

صباح الاربعاء ، ٢١ نيسان ، عام ١٩٤٨ .

كانت حيفا مدينة لا تتوقع شيئاً ، رغم انها كانت محكومة بتوتر غامض .

وفجأة جاء القصف من الشرق ، من تلال الكرمل العالية . ومضت قذائف المورتر تطير عبر وسط المدينة لتصب في الاحياء العربية .

وانقلبت شوارع حيفا الى فوضى ، واكتسح الرعب المدينة التي اغلقت حوانيتها ونوافذ بيوتها .

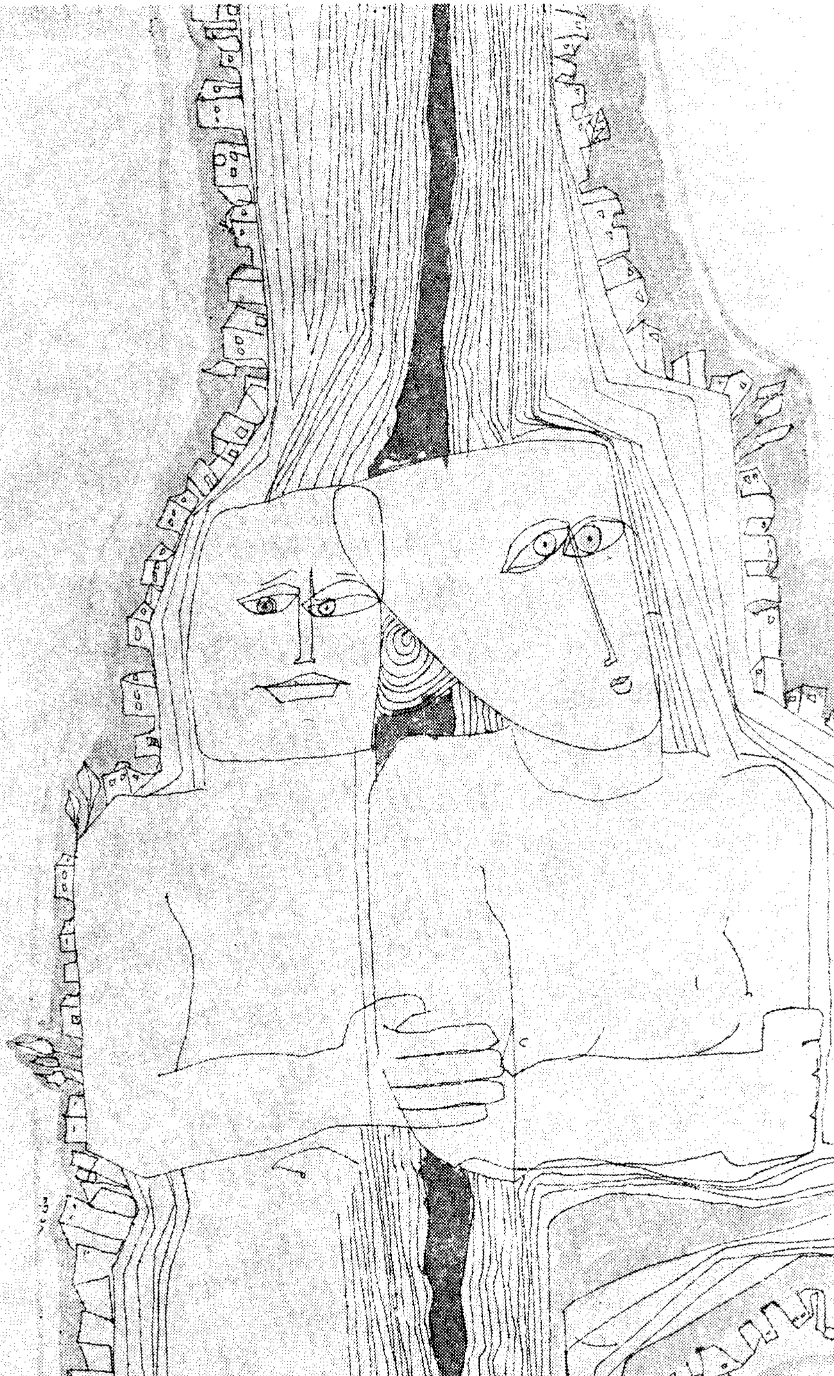

كان (سعيد . س) في قلب المدينة ، حين بدأت اصوات الرصاص والمتفجرات تملأ سماء حيفا ، كان قد ظل حتى الظهر غير متوقع ان يكون ذلك هو الهجوم الشامل وعندها فقط حاول للوهلة الاولى ان يعود الى البيت بسيارته ، الا انه ما لبث ان اكتشف استحالة ذلك ، فمضى عبر شوارع فرعية محاولاً اجتياز الطريق الى « الحليصة » حيث يقع منزله ، الا ان القتال كان قد اتسع ، وصار يرى الرجال المسلحين يندفعون من الشوارع الفرعية الى الرئيسية وبالعكس، وكانت تحركاتهم تسير وفق توجيهات بمكبرات الصوت تنبثق هنا وهناك . وبعد لحظات شعر سعيد انه يندفع دونما اتجاه ، وان الازقة المغلقة بالمتاريس او بالرصاص او بالجنود انما تدفعه دون ان يحس . نحو اتجاه وحيد ، وفي كل مرة كان يحاول العودة الى وجهته الرئيسية ، منتقياً احد الازقة ، كان يجد نفسه كأنما بقوة غير مرئية يرتد الى طريق واحد ، ذلك هو المتجه نحو الساحل .

كان قد تزوج قبل عام واربعة اشهر من صفية ، واستأجر بيته الصغير في تلك المنطقة التي حسب انها ستكون أوفر أمناً ، وفجأة يشعر الآن بأنه لا يستطيع الوصول اليه .. كان يعرف ان زوجته الصغيرة لا تستطيع ان تتدبر امرها ، فمنذ ان جاء بها من الريف لم تعتد ان تقبل العيش في المدينة الكبيرة ، او ان تكيف نفسها مع ذلك التعقيد الذي كان يبدو راعباً لها ، وغير قابل للحل ، تُـرى ما الذي يمكن ان يحدث لها الآن ؟.

كان ضائعاً ، تقريباً ، ولم يكن يعرف على وجه التعيين

اين يحدث القتال وكيف . وفي كل حدود علمه ان الانكليز كانوا ما زالوا يسيطرون على المدينة ، وان الاحداث في شكلها النهائي كان مقدراً لها ان تقع بعد ثلاثة اسابيع تقريباً . حين يشرع البريطانيون في الانسحاب حسب الموعد الذي حددوه .

ولكنه فيما كان يسارع الخطو كان يعرف تماماً ان عليه ان يتجنب المناطق المرتفعة المتصلة بشارع هرتزل ، حيث كان اليهود يتمركزون منذ البدء . ومن ناحية أخرى كان عليه ان يبتعد عن المركز التجاري الذي يقع بين حارة الحليصا وبين شارع اللنبي ، فقد كان ذلك المركز نقطة القوة في السلاح اليهودي .

وهكذا اندفع محاولاً الدوران حول المركز التجاري كي يصل الى الحليصا . وكانت امامه طريق تنتهي بوادي النسناس ، وتمر عبر المدينة القديمة .

وفجأة اختلطت عليه الامور وتشابكت الاسماء : الحليصا . وادي رشميا ، البرج ، المدينة القديمة ، وادي النسناس . شعر انه ضائع تماماً ، وانه فقد وجهة سيره . كان القصف قد اشتد . ورغم انه كان بعيداً بعض الشيء عن مراكز الاطلاق الا انه استطاع ان يميز جنوداً بريطانيين يسدون بعض المنافذ ويفتحون منافذ اخرى .

ويبدو انه . بصورة ما . وجد نفسه في المدينة القديمة . ومنها اندفع كأنما بقوة لا يعرفها . نحو جنوب شارع ستانتون ، وكان يعرف الآن انه يبعد اقل من مئتي متر عن

شارع الحلول . وبدأ يشم رائحة البحر .

وعندها فقط تذكر « خلدون » الصغير ، ابنــه الذي اتم في ذلك اليوم بالذات شهره الخامس ، وانتابه فجأة قلق غامض . ذلك هو الشيء الوحيد الذي ما زال يحس طعمه تحت لسانه ، حتى في هذه اللحظات التي تبعد عشرين سنة عن المرة الاولى التي حدث فيها ذلك .

هل كان يتوقع تلك الفجيعة ؟ الامور هنا تختلط . الماضي يتداخل مع الحاضر . وهما يتداخلان مع افكار واوهــام وتخيلات ومشاعر عشرين سنة لاحقة ، هل كان يعرف ؟ هل أحس ذلك الشيء الفاجع قبل ان يحدث ؟ احياناً يقول لنفسه : « بلى ، عرفت ذلك قبل ان يحدث » ، واحياناً اخرى يقول لنفسه : « لا . انــا اتصور ذلك بعد ان حدث ، لم يكن من الممكن ان اتوقع شيئاً مروعاً من ذلك النوع » .

كان المساء قد بدأ يخيم على المدينة ، ليس يدري كم من الساعات امضى وهو يركض في شوارعها ، مرتداً عن شارع الى شارع . اما الآن فقد بات واضحاً انهم يدفعونه نحو الميناء ، فقد كانت الازقة المتفرعة عن الشارع الرئيسي مغلقة تماماً ، وكان اذ يحاول الاندفاع في احدها ليتدبر امر عودته الى بيته ، يزجرونه بعنف ، احياناً بفوهات البنادق واحياناً بحرابها .

كانت السماء ناراً تتدفق بأصوات رصاص وقنابــل وقصف بعيد وقريب ، وكأنما هذه الاصوات نفسها كانت تدفعهم نحو الميناء . ورغم انه كان غير قادر على التركيز على

ايما امر معين . الا انه رأى كيف بدأ الزحام يتكاثف مع كل خطوة . كان الناس يتدفقون من الشوارع الفرعية نحو ذلك الشارع الرئيسي المتجه الى الميناء . رجالاً ونساء واطفالاً . يحملون اشياء صغيرة أو لا يحملون . يبكون او يسبحون داخل ذلك الذهـــول الصارخ بصمت كسيح . وضاع بـــين أمواج البشر المتدفقة وفقد القدرة على التحكم بخطواته . انه ما يزال يذكر كيف انه كان يتجه نحو البحر وكأنه محمول وسط الزحام الباكي . المذهول . غير قادر على التفكير في اي شيء . وفي رأسه كان ثمة صورة واحدة معلقة كأنما على جدار : زوجته صفية وابنه خلدون .

لقد مضت اللحظات بطيئة وقاسية وتبدو الآن مجرد كابوس ثقيل لا يصدق . اجتاز البوابة الحديدية للميناء حيث كان جنود بريطانيون يزجرون الناس . ومن هناك رأى اكوام البشر تتساقط فوق الزوارق الصغيرة المنتظرة في الماء قرب الرصيف . ودون ان يعرف ماذا يجب عليه ان يفعل ، قرر ألا يصل الى الزوارق وفجأة — كمن اصيب بالجنون . او كمن عاد اليه عقله دفعة واحدة بعد جنون طويل — استدار وسط الزحام . واخذ يدافعه محاولاً بكل ما فيه من قوة مستنزفة ان يشق طريقه وسطه . عكسه . نحو البوابة الحديدية .

مثل من يسبح ضد سيل هادر ينحدر من جبل شديد العلو اخذ سعيد يشق طريقه بكتفيه وذراعيه وساقيه ورأسه . يجره التيار خطوات الى الوراء . فيعود ويتقدم مندفعاً بشيء من

الوحشية مثل حيوان طريد يشق طريقاً مستحيلاً في دغل كثيف متشابك . وفوقه كان الدخان والعويل ودوي القنابل وزخات الرصاص تمتزج اصواتها بالصراخ وهدير البحر وزحف الخطوات الضائعة وضرب المجاذيف سطح الموج ..

هل حقاً مضى على ذلك كله عشرون سنة ؟.

كان العرق يتصبب بارداً على جبين سعيد وهو يقود سيارته صاعداً المنحدر . لقد حسب ان تلك الذاكرة لن تعود بهذا الصخب المجنون الذي لم يكن لها الا لحظات حدوثها . ومن طرفيّ عينيه نظر الى زوجته : كان وجهها مشدوداً أميل الى الاصفرار وكانت عيناها تتدفقان بالدموع . لا ريب انها – قال لنفسه – تستعيد خطواتها ذلك اليوم ذاته ، حين كان هو اقرب ما يكون الى البحر . وكانت هي اقرب ما تكون الى الجبل . وبينهما يمد الرعب والضياع خيوطهما غير المرئية ، فوق مستنقع من الصراخ والخوف والمجهول .

كانت – كما قالت له اكثر من مرة في السنوات الماضية – تفكر به . وحين دوى الرصاص وانطلق الناس يقولون ان الانكليز واليهود اخـذوا يكتسحون حيفا ، راودها خوف يائس .

كانت تفكر به ، عندما جاءت اصوات الحـرب من وسط المدينة حيث تعرف انه هناك . وكانت تشعر انها اكثر امناً ، فالتزمت البيت فترة ، وحين طال غيابه ، هرعت الى الطريق دون ان تدري على وجه التحديد ما الذي كانت تريده .

في البدء كانت تطل من الشباك ، ومن الشرفة . وكأنها شعرت الآن ان الامر قد تغير تماماً ، اذ بدأت النار تنهمر بغزارة ، بدءاً من الظهر ، من التلال الواقعة فوق الحليصا . واحست انها محاصرة كلياً ، وعندها فقط اخذت تعــدو نازلة الدرج ، واندفعت على طول الطريق نحو الشارع الرئيسي ، وكــان استعجالها لرؤيته قادماً يختصر خوفها عليه ، وقلقها من المصير المجهول الذي كان يحمل الف احتمال مع كل رصاصة تطلق . وحين وصلت الى اول الطريق اخذت ترقب السيارات المندفعة بسرعة ، وقادتها خطواتها من سيارة الى أخرى ، ومن رجل الى آخر . تسأل دون ان تحصل على جواب . وفجأة رأت نفسها في موج الناس ، يدفعونها ، وهم يندفعون من شتى ارجاء المدينة ، في سيلهم العرم الجبار الذي لا يمكن رده . كأنها محمولة على نهر متدفق مثل عود من القش .

كم مضى من الوقت قبل ان تتذكر ان خلدون الطفل ما زال في سريره في الحليصا ؟.

ليست تتذكر تماماً ، ولكنها تعرف ان قوة لا تصدق سمرتها في الارض . فيما اخذ السيل الذي لا ينتهي من الناس يمر حولها ويتدافع على جانبي كتفيها وكأنها شجرة انبثقت فجأة في مجرى سيل هائل من الماء . وارتدت هي الاخرى تدافع ذلك السيل بكل قوتها . وامام عجزها وتعبها اخذت تصرخ بكل ما في حنجرتها من قوة . ولم تكن كلماتها الطائرة

فوق ذلك الزحام الذي لا ينتهي لتصل الى اي اذن . لقد رددت كلمة « خلدون » الف مرة ، مليون مرة ، وظلت شهوراً بعد ذلك تحمل في فمها صوتاً مبحوحاً مجرحاً لا يكاد يسمع . وظلت كلمة « خلدون » نقطة واحدة لا غير . تعوم ضائعة وسط ذلك التدافق اللانهائي من الاصوات والاسماء .

وكانت على وشك السقوط وسط الاقدام حين سمعت كمن يحلم صوتاً ينبثق من الارض ، ويناديها باسمها . وحين رأت وجهه وراءها يتفصد بالعرق والغضب والارهاق احست هول الفاجعة اكثر من اي وقت مضى ، واكتسحها حزن يشبه الطعنة التي ملأتها بطاقة من العزم لا حدود لها ، وقررت ان تعود بأي ثمن . ولربما احست بأنها لن تستطيع الى الابد النظر الى عيني سعيد ، او تركه يلمسها . وفي اعماقها شعرت انها على وشك ان تفقد الاثنين معاً : سعيد وخلدون .. فمضت تشق طريقها بكل ما في ذراعيها من قوة وسط الغاب الذي كان يسد في وجهها طريق العودة ، محاولة في الوقت نفسه ان تضيع سعيد ، الذي اخذ – دون ان يعي – ينادي صفية تارة ، وينادي خلدون تارة اخرى ..

هل مضت اجيال وازمنة قبل ان تحس بكفيه القويتين المتيبستين تشدان على ذراعيها ؟.

وفجأة نظرت في عينيه ، واحست بشيء يشبه الشلل يسقطها على كتفه كخرقة بالية لا قيمة لها ، وحولهما مضت

سيول البشر تتقاذفهما من جهة الى أخرى . وتدفعهما أمامها نحو الشاطىء . ولكنهما لم يكونا . بعد . قادرين عـلى الاحساس بأي شيء ، وفقط حين عومهما الزذاذ المتطاير من تحت خشب المجاذيف . ونظرا الى الشاطىء حيث كانت حيفا تغيم وراء غبش المساء وغبش الدموع ..

٢

طوال الطريق . من رام الله الى القدس الى حيفا ظل يتحدث عن كل شيء . لم يكف قط عن الحديث . ولكنه حين وصل الى اول « بيت غاليم » ربط الصمت لسانه . وها هو الآن في « الحليصة » . يسمع اصوات عجلات سيارته تسير مثلما كانت دائماً . وكان النبض الصعب لقلبه المتوثب يضيعه بين الفينة والاخرى . لقد تضاءلت عشرون سنة من الغياب . وها هي الامور تعود فجأة عودة لا تصدق . ووراء ظهر العقل والمنطق .. تراه عما يبحث ؟.

قبل اسبوع قالت له صفية . وهما في منزلهما في رام الله :

— « انهم يذهبون الى كل مكان . الا نذهب الى حيفا ؟ » .

وكان . عندها . يتناول عشاءه . ورأى يده تقف تلقائياً بين الصحن وبين فمه . ونظر نحوها بعد برهة فرآها تستدير .

كي لا يقرأ شيئاً في عينيها . ثم قال لها :

– « نذهب الى حيفا .. لماذا ؟ » .

وجاءه صوتها خافتاً :

– « نرى بيتنا هناك . فقط نراه » .

واعاد لقمته الى الصحن وقام فوقف امامها . كان رأسها يتكىء على صدرها كمن يريد ان يعترف بذنب غير متوقع . فوضع اصابعه تحت ذقنها ورفع رأسها فاذا بعينيها تنضحان بدموع غزيرة . فسألها بحنو :

– « صفية .. بماذا تفكرين ؟ » .

وهزت رأسها موافقة دون ان تقول شيئاً ، فقد عرفت انه يعرف . وربما كان هو الآخر يفكر طول الوقت بذلك وينتظرها ان تبادىء كي لا تشعر بأنها – كما كانت تشعر دائماً – هي التي ارتكبت تلك الفجيعة التي شجرت في قلبيهما معاً ، فهمس بصوت مبحوح :

– « خـلـدون ؟ » .

واكتشف على التو ان ذلك الاسم ، لم يلفظ قط في تلك الغرفة منذ زمن طويل . وانهما في المرات القليلة التي تحدثا عنه كانا يقولان « هو » . بل انهما تجنبا تسمية اي من اولادهما الثلاثة ذلك الاسم ، وان كانا قد اطلقا على اكبرهما اسم «خالد» ، وعلى البنت التي انجباها بعد ذلك بعام ونصف « خالدة » . بل ان اولادهما لم يعرفا قط ان لهما اخاً اسمه خلدون . وهو نفسه ينادونه « ابا خالد » ، واصدقاؤه القدامى اتفقوا على القول

بأن خلدون قد مات . فكيف يمكن للامور ان تندفع من الباب الخلفي على هذه الصورة الفريدة ؟.

وظل سعيد واقفاً هناك وكأنه نائم في مكان بعيد . الا انه التقط نفسه بعد هنيهة . واخذ يخطو عائداً الى طاولته . وقبل ان يجلس قال لها :

— « اوهام يا صفية اوهام ! لا تتركي لنفسك ان تخدعك على هذه الصورة المحزنة . انت تعرفين كم سألنا وكم حققنا . وتعرفين قصص الصليب الاحمر . ورجال الهدنة . والاصدقاء الاجانب الذين بعثناهم الى هناك . لا . لا اريد الذهاب الى حيفا . ان ذلك ذل . وهو ان كان ذلاً واحداً لاهل حيفا فبالنسبة لي ولك هو ذلاّن . لماذا نعذب انفسنا ؟ » .

واخذ صوت نشيجها يعلو شيئاً فشيئاً . ولكنها التزمت الصمت . وامضيا تلك الليلة دونما كلمة . يستمعان معاً الى اصوات الاحذية العسكرية تقرع الطرق . والى الراديو يظل يعطي الاوامر .

وحين مضى الى فراشه كان يعرف — في اعماقه — ان لا فرار . وان الفكرة التي كانت هناك طوال عشرين سنة قد ولدت . ولا سبيل الى دفنها من جديد . ورغم انه كان يعرف ان زوجته لم تنم . وانها امضت كل ذلك الليل تفكر في الامر نفسه ، الا انه لم يبادلها ايـــة كلمة . وفي الصباح قالت له بهدوء :

— « اذا اردت ان تذهب فخذني معك . لا تحاول يا سعيد

ان تذهب وحدك » .

انه يعرف صفية جيداً . ويعرف انها تدرك تماماً كل فكرة تعبر رأسه . وهذه المرة ايضاً قاطعته وهو في منتصف الطريق . فقد قرر في الليل ان يذهب وحده . وها هي تكتشف قراره من تلقائها . وتمنعه .

وظل الامر كله معلقاً في سقف ايامهما ولياليهما طوال اسبوع . يأكلانه مع طعامهما ويعلكانه وينامان معه ولكنهما لم يتكلما حوله ابداً . وليلة امس فقط قال لها :

– « لنذهب غداً الى حيفا . نتفرج عليها على الاقل . وقد نمر قرب بيتنا هناك . انا اعرف انهم سيصدرون قريباً قراراً يمنع ذلك كله . فحساباتهم لم تكن صحيحة » .

وصمت قليلاً . وليس يدري ان كان راغباً حقاً في تغيير الموضوع . اذ سمع نفسه يمضي في كلام آخر :

– « في القدس ونابلس وهنا يتحدث الناس كل يوم عن نتائج زياراتهم الى يافا وعكا وتل ابيب وحيفا وصفد وقرى الجليل والمثلث. كلهم يقولون كلاماً متشابهاً ويبدو ان افكار كل منهم كانت احسن مما رأوا بأم اعينهم . جميعهم عادوا يحملون خيبة كبيرة . ان المعجزة التي يتحدث عنها اليهود لم تكن الا وهماً . في البلد هنا ردة فعل سيئة جداً . وهو عكس ما ارادوه حين فتحوا حدودهم امامنا . لذلك فأنا اتوقــع يا صفية ان يلغوا ذلك القرار قريباً جداً . وهكذا قلت لنفسي . لماذا لا نقتنص الفرصة ونذهب ؟ » .

وحين نظر الى صفية رآها ترتجف . وشهد وجهها يميل بوضوح للاصفرار . فخرج من الغرفة . اذ احس هو الآخر بدموع حارقة تسد حلقه . ومنذ تلك اللحظة لم يكف اسم « خلدون » عن الدق في رأسه، تماماً مثلما كان قبل عشرين سنة حين سمعه يدق المرة تلو الاخرى فوق الزحام المتدفق امام مياه الميناء الباكية . ولا شك انه كان كذلك بالنسبة لصفية . وقد تحدثا طوال الطريق عن كل شيء . الا عن خلدون . وقرب « بيت غاليم » فقط التزما الصمت . وها هما الآن ينظران صامتين الى الطرق التي يعرفانها جيداً . والملتصقة في رأسيهما كقطع من لحمهما وعظامهما .

ومثلما كان يفعل قبل عشرين سنة تماماً ، خفف سرعة سيارته الى حدها الادنى قبل ان يصل الى ذلك المنعطف . الذي يعرف ان سفحاً صعباً يكمن وراءه . وانعطف بسيارته كما كان يفعل دائماً وتسلق السفح محتفظاً بالموقع الصحيح في الطريق الذي اخذ يضيق . وكانت اشجار السرو الثلاث التي تنحني قليلاً فوق الشارع قد مدت اغصاناً جديدة ، ورغب ان يتوقف لحظة كي يقرأ على جذوعها اسماء محفورة منذ زمن ، ويكاد يتذكرها واحداً واحداً . ولكنه لم يفعل . وليس يدري كيف حدث الامر . ولكنه بصورة ما تذكر ، حين مر قرب باب يعرفه ، شخصاً من بيت الحوري كان يسكن هناك . وكانت عائلته تمتلك بناية كبيرة جنوب طريق ستانتون ، قرب شارع الملوك . وفي تلك البناية — يوم الفرار — تمترس المقاتلون

العرب وقاتلوا حتى آخر رصاصة ، وربما آخر رجل . وقد مر قرب تلك البناية حين كان يندفع نحو الميناء بقوة تفوقه مقدرة ، وتذكر الآن بالضبط انه هناك ، وهناك فقط ، سقطت عليه الذاكرة كما لو انه ضرب بحجر ، وهناك بالضبط تذكر خلدون وانقبض قلبه يومها ، قبل عشرين سنة ، وما زال ، والآن يزداد نبضه قوة حتى كاد ان يسمعه .

وفجأة اطل المنزل ، المنزل ذاته ، ذلك الذي عاش فيه ، ثم عيشه في ذاكرته طويلاً ، وها هو الآن يطل بمقدمة شرفاته المطلية باللون الاصفر .

ولوهلة خيل اليه ان صفية ، شابة وذات شعر مجدل طويل ، ستطل عليه من هناك . كان حبلاً جديداً للغسيل قد دق على وتدين خارج الشرفة ، وتدلت منه قطع بيضاء وحمراء لغسيل جديد . وفجأة اخذت صفية تبكي بصوت مسموع ، اما هو فقد انحرف الى اليمين ، وترك عجلات سيارته تصعد الرصيف الواطىء . ثم اوقف السيارة في المكان الذي لها ، كما كان يفعل – تماماً – منذ عشرين سنة ! .

تردد « سعيد س . » هنيهة صغيرة فقط وهو يطفىء محرك سيارته ، ولكنه كان يعرف في اعماقه انه لو ترك نفسه يتردد فترة اطول لانتهى الامر ، ولعاد فحرك سيارته عائداً ادراجه . وهكذا جعل الامر ، لنفسه ولزوجته ، يبدو طبيعياً للغاية ، كما لو ان العشرين سنة الماضية وضعت بين مكبسين جبارين وسحقت حتى صارت ورقة شفافة لا تكاد ترى .

نزل من السيارة وصفق وراءه بابها ، واخذ يرفع حزامه وهو ينظر نحو الشرفة تاركاً المفاتيح تخشخش في راحته دونما اكتراث .

ودارت زوجته حول السيارة ووقفت الى جانبه ، الا انها لم تكن بارعة مثله . امسك بذراعها ، واخذ يقطع بها الشارع : الرصيف ، البوابة الحديدية الخضراء ، الدرج .

وبدآ يصعدان ، دون ان يترك لنفسه او لها فرصة النظر الى الاشياء الصغيرة التي كان يعرف انها ستخضه وتفقده اتزانه : الجرس . ولاقطة الباب النحاسية . وخربشات اقلام الرصاص على الحائط . وصندوق الكهرباء . والدرجة الرابعة المكسورة من وسطها . وحاجز السلم المقوس الناعم الذي تنزلق عليه الكف . وشبابيك المصاطب ذات الحديد المتصالب . والطابق الاول حيث كان يعيش محجوب السعدي ، وحيث كان الباب يظل مواربا دائماً ، والاطفال يلعبون امام الدار دائماً ، ويملأون الدرج صراخاً . الى الباب الخشبي المغلق . المدهون حديثاً ، والمغلق باحكام .

وضع اصبعه على الجرس وهو يقول بصوت خافت لصفية :

— « غيروا الجرس » .

وسكت قليلاً ثم تابع :

— « والاسم طبعاً » !

واغتصب ابتسامة غبية . وشد يده فوق يدها وأحس

بها باردة ترتجف ، ووراء الباب سمعا صوت خطوات تجر نفسها ببطء ، وقال لنفسه : « شخص عجوز بلا شك » . وقرقع المزلاج بصوت مكتوم ، وببطء انفتح الباب .

« ها هي ذي » ، ليس يـــدري ان قال ذلك بصوت مسموع ، او قاله لنفسه كمن يتنفس الصعداء . ولكنه ظل واقفاً مكانه لا يعرف ماذا يتوجب عليه ان يقول . ولام نفسه لكونه لم يحضر جملة يبدأ بها رغم انه فكر طويلاً في ان لحظة كهذه لا بد آتية ، وتحرك في مكانه ناظراً الى صفية كمن يستنجد. فتقدمت ام خالد خطوة الى الامام وقالت :

— « هل نستطيع ان ندخل ؟ ».

ولم تفهم المرأة العجـــوز ، السمينة بعض الشيء ، والقصيرة ، والتي كانت تلبس ثوباً ازرق منقطاً بكريات بيضاء . فأخذ سعيد يترجم الى الانكليزية ، وعندها انفرجت اسارير العجوز المتسائلة ، ووسعت من الطريق حتى دخلا . ثم اخذت تسير امامهما نحو غرفة الجلوس .

وتبعها سعيد ، وبجانبـــه صفية ، بخطوات مترددة بطيئة ، واخذا يميزان الاشياء بشيء من الدهشة . لقد بدا له المدخل اصغر قليلاً مما تصوره واكثر رطوبة واستطاع ان يرى اشياء كثيرة اعتبرها ذات يوم ، وما يزال ، اشياءه الحميمة الخاصة التي تصورها دائماً ملكية غامضة مقدسة لم يستطع اي كان ان يتعرف عليها أو أن يلمسها أو أن يراها حقاً. ثمة صورة للقدس يتذكرها جيداً ما تزال معلقة حيث كانت ، حين كان

يعيش هنا . وعلى الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة كانت دائماً هناك ايضاً .

واخذ يخطو ناظراً حواليه ، مكتشفاً الامور شيئاً فشيئاً ، او دفعة واحدة ، كمن يصحو من اغماء طويل . وحين صارا في غرفة الجلوس ، استطاع ان يرى ان مقعدين من اصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له . اما المقاعد الثلاثة الاخرى فقد كانت جديدة ، وبدت هناك فظة وغير متسقة مع الاثاث . وفي الوسط كانت الطاولة المرصعة بالصدف هي نفسها ، وان كان لونها قد صار باهتاً، وفوقها استبدلت المزهرية الزجاجية بأخرى مصنوعة من الخشب ، وفيها تكومت اعواد من ريش الطاووس ، كان يعرف انها سبعة اعواد . وحاول ان يعدها وهو جالس مكانه الا انه لم يستطع ، فقام واقترب من المزهرية واخذ يعدها واحدة واحدة ، كانت خمسة فقط .

وحين استدار عائداً الى مكانه ، رأى ان الستائر قد تغيرت . وان تلك التي اشتغلتها صفية ، قبل عشرين سنة ، بالصنارة ، من الخيوط السكرية اللون ، قد اختفت من هناك ، واستبدلت بستائر ذات خطوط زرقاء متطاولة .

ثم وقع بصره على صفية ، فرآها محتارة ، تنقب بعينيها في زوايا الغرفة وكأنها تعد الاشياء التي تفتقدها ، وكانت المرأة السمينة العجوز تجلس امامهما على ذراع احد المقاعد ، تنظر اليهما وهي تبتسم ابتسامة لا معنى لها ، واخيراً قالت دون ان تجعل تلك الابتسامة تفتر :

— « منذ زمن طويل وانا اتوقعكما » .

كانت لغتها الانكليزية بطيئة ، وذات لكنة اقرب الى الالمانية ، وتبدو ، اذ تتلفظ بها ، كما لو انها تنتشل كلماتها من بئر غبار سحيقة الغور .

وانحنى سعيد الى الامام وسألها :

— « هل تعرفين من نحن ؟ » .

وهزت رأسها بالايجاب عدة مرات لتزيد الامر تأكيداً ، وفكرت قليلاً كي تنتقي كلماتها ، ثم قالت ببطء :

— « انتما اصحاب هذا البيت ، وانا اعرف ذلك » .

— « كيف تعرفين ؟ » .

جاء السؤال من سعيد وصفية في وقت واحد .

وزادت العجوز في ابتسامتها . ثم قالت :

— « من كل شيء . من الصور ، من الطريقة التي وقفتما بها امام الباب . والصحيح انه منذ انتهت الحرب جاء الكثيرون الى هنا واخذوا ينظرون الى البيوت ويدخلونها ، وكنت اقول كل يوم انكما ستأتيان لا شك » .

وفجأة بدت محتارة ، واخذت تنظر حواليها ، الى الاشياء الموزعة في الغرفة وكأنها تراها لاول مرة . ودون ان يقصد ، اخذ سعيد ينظر الى حيث تنظر ، وينقل بصره حيث تنقل بصرها ، وفعلت « صفية » الشيء ذاته ، وقال سعيد لنفسه : « يا للغرابة ! ثلاثة ازواج من العيون تنظر الى شيء واحد .. ثم كم تراه مختلفاً ! » .

وسمع صوت العجوز ، وقد صار الآن خافتاً واشد بطئاً :

– « انا آسفة ، ولكن ذلك كان ما حدث. لم افكر قط بالامر كما هو الآن » .

وابتسم سعيد بمرارة ، ولم يعرف كيف يقول لها انه لم يأت من اجل هذا ، وانه لن يشرع في نقاش سياسي ، وانه يعرف ان لا ذنب لها .

« لا ذنب لها ؟ » .

لا ، ليس بالضبط ! كيف يشرح لها ذلك ؟.

الا ان صفية وفرت عليه همه ، اذ سألت بصوت بدا بريئاً بصورة مريبة ، فيما اخذ هو يترجم :

– « من اين جئت ؟ » .

– « من بولونيا » .

– « متى ؟ » .

– « في سنة ١٩٤٨ » .

– « متى بالضبط ؟ » .

– « اول آذار ، ١٩٤٨ » .

وخيم صمت ثقيل ، واخذوا جميعاً ينظرون الى حيث لم يكن من المهم لهم ان ينظروا ، وقطع سعيد الصمت قائلاً بهدوء :

– « طبعاً نحن لم نجيء لنقول لك اخرجي من هنا . ذلك يحتاج الى حرب ... » ..

وشدت « صفية » على يده . كي لا يمضي في الحديث فانتبه . وعاد يحاول الكلام مقترباً من الموضوع :

— « اقصد ان وجودك هنا ، في هذا البيت ، بيتنا نحن ، بيتنا انا وصفية . هو موضـــوع آخر ، جئنا فقط ننظر الى الاشياء ، هذه الاشياء لنا . ربما كان بوسعك ان تفهمي ذلك ».

فقالت بسرعة :

— « افهم ، ولكن .. » .

وفجأة فقد اعصابه :

— « نعم . ولكن !. هذه الـ « لكن » الرهيبة ، المميتة ، الدامية .. » .

وسكت ، تحت وطأة نظرات زوجته ، وشعر بأنه لن ينجح ابداً في الوصول الى مقصده . ثمة ارتطام قدري لا يصدق . وغير قابل للتجاهل ، وهذا الذي يجري هو مجرد حوار مستحيل .

وللحظة رغب في ان يقوم ويمضي . فلم يعـــد يهمه ايما شيء . ليكن خلدون ميتاً ، او حياً ، لا فرق ، فحين تصل الامور الى هنا فليس ثمة ما يمكن ان يقال . وانتابـــه غضب مهيض ومر . واحس انه على وشك ان يتفجر من الداخل . وليس يدري كيف سقط نظره على تلك الريشات الخمس من ذيل الطاووس التي كانت مزروعة في الانـــاء الخشبي وسط الغرفة ، ورآها تتحرك بألوانها الفذة الرائعة ، التي لا تصدق مع هبوب نسمة من الهواء دخلت من النافذة

المفتوحة . وفجأة سأل بفظاظة وهو يشير الى المزهرية :

– «كان هنا سبع ريشات . ماذا حدث للريشتين المفقودتين ؟ » .

ونظرت العجوز الى حيث اشار . وعادت فنظرت اليه متسائلة ، وكان ما يزال يمد ذراعه باتجاه المزهرية ويحدق فيها مطالباً بالجواب . وكان الكون كله يقف على رأس لسانها . نهضت من مكانها واقتربت نحو المزهرية وامسكتها كما لو انها تفعل ذلك لاول مرة . ثم قالت ببطء :

– « لست ادري اين ذهبت الريشتان اللتان تتحدث عنهما . ذلك شيء لا استطيع ان اتذكره . ربما كان « دوف » قد لعب بهما وضيعهما بعد ذلك ، حين كان صغيرا » .

– « دوف » ؟.

قالاها معاً ، سعيد وصفية ، ووقفا وكأن الارض قذفتهما الى فوق ، واخذا متوترين ، ينظران نحوها ، فمضت تقول :

– « اجل . « دوف » ، ولست ادري ماذا كان اسمه ، وان كان يهمك الامر . فهو يشبهك كثيراً ... » .

٣

الآن . بعد ساعتين من حديث متقطع . يمكن اعادة ترتيب الامور من جديد : اذ ماذا حدث في تلك الايام القليلة التي امتدت بين ليل الاربعاء . ٢١ نيسان ١٩٤٨ حين غادر « سعيد س . » حيفا على متن زورق بريطاني دفع اليه دفعاً مع زوجته . وقذفه بعد ساعة على شاطىء عكا الفضي . وبين يوم الخميس ٢٩ نيسان ١٩٤٨ . حين فتح رجل من الهاغاناه ، معه رجل عجوز له وجه يشبه الدجاجة . باب منزل « سعيد س . » في الحليصة . ووسع الطريق امام «افرات كوشن» وزوجته . القادمين من بولونيا . ليدخلا الى ما صار منذ ذلك اليوم منزلهما المستأجر من دائرة املاك الغائبين في حيفا .

لقد وصل « افرات كوشن » الى حيفا ، برعاية الوكالة اليهودية . قادماً اليها مع زوجته من ميناء « ميلانو » الايطالي في وقت مبكر من شهر آذار . كان قد غادر وارسو مع قافلة

صغيرة في اوائل تشرين الثاني من عام ١٩٤٧ ، واسكن في منزل مؤقت يقع في ضواحي ذلك المرفأ الايطالي الذي كان آنذاك يضج بحركة غير عادية . وفي اوائل آذار نقل بحراً مع عدد من الرجال والنساء الى حيفا .

كانت اوراقه معدة تماماً . وحملته شاحنة صغيرة مع اشيائه القليلة عبر الميناء الصاخب . المليء بالجنود البريطانيين والعمال العرب والبضائع . عبر شوارع حيفا المتوترة . والتي كانت تدوي فيها طلقات نارية متقطعة بين الفينة والاخرى . الى الهادار . حيث اسكن في غرفة صغيرة من بناء مزدحم بالسكان .

وتبين لـ « افرات كوشن » بعد فترة ، ان جميع الغرف في البناء يشغلها مهاجرون جدد . ينتظرون هناك نقلهم الى امكنة اخرى فيما بعد . وليس يدري ان كانوا قد اطلقوا عليه اسم « نزل المهاجرين » وهم يلتقون كل ليلة لتناول العشاء . ام ان ذلك الاسم كان معروفاً قبلهم ، وانهم استعملوه فقط .

وربما كان قد نظر عدة مرات ، من شرفته الى « الحليصة » . الا انه لم يكن يعرف على الاطلاق ، او حتى يخمن . انه سيجري اسكانه هناك . وفي الواقع فانه كان يعتقد انه حينما تسوى الأمور فسينتقل الى بيت ريفي هادىء على سفح تلة ما في الجليل : كان قد قرأ قصة « لصوص في الليل » لارثر كوستلر حين كان في ميلان . اعاره اياها رجل قادم من بريطانيا ليشرف على عملية التهجير . وعاش فترة من الزمن في تلك

التلال الجليلية التي جعلها «كوستلر» مسرحاً لروايته . وفي الحقيقة فانه لم يكن ليعرف الكثير آنذاك عن فلسطين . وبالنسبة له كانت مجرد مسرح ملائم لأسطورة قديمة . ما يزال يحتفظ بنفس الديكور الذي كان يراه مرسوماً في الكتب الدينيــة المسيحية الملونة المخصصة لقراءات الاطفال في اوروبا . الا انه بالطبع لم يكن يصدق تماماً ان تلك الارض كانت مجرد صحراء اعادت الوكالة اليهودية اكتشافها بعد الفي سنة . ومع ذلك فلم يكن هذا هو اكثر ماكان يهمه آنذاك . وقد وضع في ذلك النزل . وكان هناك شيء اسمه الانتظار . وقد اعتنقه هماً يومياً مثلما فعل بقية أولئك الذين كانوا معه .

وربما لأنه سمع اصوات الرصاص منذ ان خرج من ميناء حيفا في نهاية اول اسبوع من آذار ١٩٤٨ . فانه لم يفكر كثيراً في ان شيئاً مرعباً كان يحدث آنذاك . وهو – على كل حال – لم يقابل شخصاً عربياً في حياته كلها . بل انــه صادف اول عربي في حيفا نفسها بعد احتلالها بحوالي عام ونصف العام . وقد جعله ذلك الامر يحتفظ طوال الايــام الحرجة بصورة فريدة وغامضة عما كان يجري حقاً . صورة اسطورية جاءت ملائمة تماماً لما كان يتصوره في وارسو وفي ميلان طوال ٢٥ سنة من عمره . ولذلك كانت المعارك التي يسمع اصواتها ثم يقرأ اخبارها في «بالستاين بوست» كل صباح . انما تجري بين بشر وبين اشباح . ليس إلا .

اين كان بالضبط يوم الاربعاء ٢١ نيسان ١٩٤٨ . في

الوقت الذي كان « سعيد س . » ضائعاً بين « شارع اللنبي » و « حارة حلول » وكانت زوجته « صفية » تندفع مـــن « الحليصة » نزولاً على حافة المركز التجاري باتجاه شارع ستانتون ؟.

لم يعد من الممكن الآن تذكر الأمر تماماً ، بتفاصيله . ومع ذلك فانه يذكر ان الهجوم الذي بدأ صباح الاربعاء ظل مستمراً حتى ليل الخميس ، وصباح الجمعة فقط ، **٢٣** نيسان ١٩٤٨ ، تأكد تماماً ان الأمر في حيفا قد انتهى ، وأن الهاغاناه سيطرت على الموقف كلياً . وهو لم يعرف بالضبط مـــاذا حدث على وجه الدقة : لقد بدا القصق من الهادار ، وتكومت التفاصيل لديه من الراديو ومن اخبار القادمين بين الفينة والأخرى ممتزجة بصورة تستعصي على الاستيعاب . إلا أنه كان يعلم ان الهجوم الشامل الذي بدأ صباح الاربعاء قد انطلق من ثلاثة مراكز وان الكولونيل « موشيه كارماتيل » كان يضع يده في تلك اللحظة على ثلاث كتائب يحركها من هادار هاكرمل ومن المركز التجاري ، وان واحدة من هذه الكتائب كان عليها ان تكتسح الحليصة ، فالجسر ، فوادي رشميا نحو المرفأ . في حين تضغط كتيبة اخرى من المركز التجاري لحصر الهاربين في ممر ضيق ينتهي الى البحر . ولم يكن « ايفرات » يعرف على وجـــه التحديد مواقع هذه الامكنة التي حفظ اسماءها من فرط التكرار . وقد كان ثمة ارتباط ما بين كلمة « ارغون » وكلمة « وادي النسناس » ، مما جعله يفهم ان العصابة تلك كانت

مكلفة بالهجوم هناك .

ولم يكن « افرات كوشن » بحاجة الى من يؤكد له ان الانكليز مهتمون بتسليم حيفا للهاغاناه . فقد كان بوسعة معرفة انهم كانوا وما زالوا يقومون بدوريات مشتركة . وقد رأى ذلك بنفسه مرتين أو ثلاث مرات . ولا يذكر الآن كيف حصل على معلوماته عن دور البريجادير ستوكويل . الا ان ذلك بالنسبة له كان مؤكداً . وكان الهمس يدور في كل زاوية من « نزل المهاجرين » ان البريجادير ستوكويل انما يرمي بثقله مع الهاغاناه . وانه في الحقيقة كتم الخبر عن موعد انسحابه ولم يسر به الا للهاغاناه . فأعطاهم بذلك عنصر المفاجأة في اللحظة المناسبة . وذلك في وقت كان يحسب فيه العرب ان تخلي الجيش البريطاني عن السلطة انما سيتم في وقت لاحق .

وظل طوال يومي الاربعاء والخميس في « النزل » . وكانوا كلهم قد تلقوا التعليمات بألا يغادروا المكان . ويوم الجمعة بدأ بعضهم يخرجون . الا انه لم يخرج من النزل حتى صباح السبت . وادهشه للوهلة الاولى انه لم يجد سيارة . لقد كان سبتاً يهودياً حقيقياً . وابتعث ذلك شيئاً من الدموع في عينيه لسبب لا يستطيع تفسيره . وحين رأته زوجته كذلك فوجيء بها تقول له — والدموع في عينيها — :

— « انني أبكي لشيء آخر . انه سبت حقيقي . ولكن لم يعد ثمة جمعة حقيقية هنا . ولا احد حقيقي » .

ذلك كان مجرد البداية . فللمرة الاولى منذ جاء ، وضعت زوجته امامه باختصار شيئاً مقلقاً لم يكن يحسب حسابه ولم يفكر فيه . وفجأة اخذت آثار الدمار ، التي بدأ يلاحظها ، شكلاً جديداً ومعنى آخر ، ولكنه رفض بينه وبين نفسه ان يجعل من ذلك مبعثاً جاداً للقلق ، او حتى للتفكير .

على ان الامر لم يكن كذلك بالنسبة لميريام ، زوجته ، اذ انها تغيرت تماماً ذلك اليوم ، وجاء التغير حين شهدت . وهي تدور قرب كنيسة بيت لحم في الهادار . شابان من الهاغناه يحملان شيئاً ويضعانه في شاحنة صغيرة كانت واقفة هناك ، واستطاعت في لحظة كانخطاف البصر ان ترى ما يحملانه ، فأمسكت بذراع زوجها وصاحت وهي ترتجف :

— « انظـــر ! » .

الا أن زوجها ، حين نظر حيث كانت تشير ، لم يرَ شيئاً. كان الشابان يمسحان كفيهما على طرفي قميصيهما الخاكيين ، وقالت زوجته : — « كان ذلك طفلاً عربياً ميتاً ، وقد رأيته مكسوا بالدم » .

واخذها زوجها الى الرصيف الآخر وسألها :

— « كيف عرفت انه طفل عربي ؟ » .

— « ألم ترَ كيف ألقوه في الشاحنة كأنه حطبة ؟ لو كان يهودياً لما فعلوا ذلك » .

وأراد ان يسألها لماذا ، الا انه لحظ وجهها وصمت .

كانت « ميريام » قد فقدت والدها في « اوشفيتز » قبل ذلك بثماني سنوات. وقبل ذلك، حين دهموا المنزل الذي كانت تعيش فيه مع زوجها ، ولم يكن عند ذاك فيه ، التجأت الى جيران كانوا يسكنون فوق منزلها . ولم يجد الجنود الالمان احداً ، الا انهم في طريق نزولهم على السلم صادفوا أخاها الصغير قادماً اليها ، كان عمره عشر سنوات ، وقد جاء آنذاك ليخبرها – اغلب الظن – ان والدها قد سيق الى المعتقل وانه الآن صار وحده . الا انه حين رأى الجنود الالمان استدار واخذ يعدو هارباً . وقد استطاعت ان ترى ذلك عبر تلك الكوة الضيقة التي تتيحها المسافة الصغيرة المتروكة بين مجموعة السلالم ومن هناك شهدت كيف أطلق عليه الرصاص .

*

وحين عاد « ايفرات كوشن » مع ميريام الى نزل المهاجرين كانت « ميريام » قد قررت العودة الى ايطاليا . ولكنها لم تفلح طوال تلك الليلة ، ولا في الايام القليلة التي اعقبت ذلك اليوم ، في اقناع زوجها بذلك ، وكانت دائماً تخسر النقاش بسرعة ، ولا تستطيع ايجاد الكلمات التي تعبر عن رأيها ، وتشرح حقيقة دوافعها .

الا ان الامور عادت فتغيرت بعد ذلك باسبوع واحد ، فقد عاد زوجها من زيارة لمكتب الوكالة اليهودية في حيفا بخبرين مفرحين : لقد اعطي بيتاً في حيفا نفسها ، واعطي مع

البيت طفلاً عمره خمسة شهور !.

*

مساء يوم الخميس ، ٢٢ نيسان ١٩٤٨ ، سمعت « تورا زونشتاين » المرأة التي كانت تسكن مع ابنها الصغير بعد ان طلقها زوجها ، في الطابق الثالث ، بالضبط فوق بيت « سعيد س . » ، صوت بكاء طفل واهن منطلق من الطابق الثاني .

ورغم انها لم تصدق في باديء الامر ما ذهبت اليه افكارها ، الا انها تحركت من مكانها بعد ان استطال البكاء الواهن ، ونزلت الى الطابق الثاني واخذت تقرع الباب .

واخيراً اضطرت الى تحطيم الباب ، وكان الطفل في سريره منهكاً تماماً ، فحملته الى بيتها .

كانت تورا تحسب ان الامور ستعود الى ما كانت عليه بعد فترة وجيزة . الا ان ذلك الحسبان ما لبث ان سقط بعد يومين اثنين ، حين اكتشفت ان الامر يختلف تماماً عما كانت تحسب . ولم يكن من المعقول الاستمرار بالاحتفاظ بالصبي ، فحملته الى مكتب الوكالة اليهودية في حيفا وهي تتصور ان شيئاً ما يمكن ان يقام به لحل تلك المشكلة .

وهكذا فقد كان من حظ « ايفرات كوشن » ان جاء بعد ذلك بفترة وجيزة الى مكتب الوكالة اليهودية ، وحين تبين

المسؤولون هناك من أوراقه انه لم ينجب اولاد ، عرضوا عليه بيتاً في حيفا نفسها ، كامتياز خاص ، ان هو قبل بتبني الطفل.

ولم يكن هذا العرض الا مفاجأة مدهشة لايفرات ، الذي كان يتحرق لتبني طفل بعد ان تأكد كلياً من ان ميريام غير قادرة على الانجاب . بل انه مضى الى حد اعتبار الامر كله بمثابة هبة الهية لا تكاد تصدق تأتي بخيراتها دفعة واحدة . اذ لا شك ان طفلاً يعطى لميريام سيجعلها تتغير تماماً ، وتكف عن ذلك الشيء الغريب الذي بات ينتاب افكارها منذ رأت ذلك الطفل العربي القتيل يلقى في شاحنة الموت كقطعة خشب رخيصة .

وكان ذلك اليوم يوم خميس ، الثلاثين من نيسان ١٩٤٨ ، عندما دخل أفرات كوشن وزوجته ميريام برفقة موظف من الوكالة اليهودية له وجه يشبه الدجاجة ، ويحمل طفلاً عمره خمسة شهور ، الى بيت سعيد س . في الحليصة .

اما سعيد س . وصفية فقد كانا في ذلك اليوم بالضبط يبكيان معاً ، بعد ان عاد سعيد للمرة المئة فاشلاً ، عاجزاً عن الدخول الى حيفا ، لينام بعد قليل مرهقاً ممزقاً شبه غائب عن الوعي من فرط التعب ، في الغرفة التي كانت صفاً سادساً بمدرسة المعارف الثانوية ، مقابل جدار السور الذي يحمي سجن عكا الشهير ، على شاطىء البحر الغربي .

ولم يتناول سعيد س. قهوة ميريام. واكتفت صفية برشفة واحدة، تناولت معها قطعة من البسكوت المعلب كانت ميريام قد وضعته. دون ان تكف عن الابتسام. امامهما.

وظل سعيد س. ينظر حواليه وقد تضاعفت حيرته بعد ان استمع الى قصة ميريام نتفة وراء الاخرى، طوال زمن بدا له طويلاً، ولفترة ما ظلا ، صفية وهو. جالسين على مقعديهما كأنهما سمرا هناك. ينتظران شيئاً مجهولاً لا قدرة لهما على تصوره.

ومضت ميريام تذهب وتجيء. وحين كانت تغيب وراء الباب كانا يواصلان الاستماع الى خطواتها البطيئة تجر نفسها جراً على البلاط، بل كان بوسع صفية حين تغمض عينيها قليلاً ان تتصور بالضبط كيف كانت ميريام تعبر الممر المؤدي الى المطبخ. وعن يمينها كانت غرفة النوم. ومرة واحدة فقط سمعت اصطفاق الباب، فنظرت نحو زوجها وقالت له بمرارة:

— «كأنها في بيتها! تتصرف وكأنه بيتها!».

وابتسما بصمت. وعاد يشد راحتيه على بعضهما بين ركبتيه دون ان يستطيع التوصل الى قرار. واخيراً جاءت ميريام. فسألها:

— «ومتى سيحضر؟».

— «وقت اوبته الآن. ولكنه قد يتأخر قليلاً. لم يلتزم طوال عمره بموعد لعودته الى البيت. انه مثل ابيه تماماً.. كان..».

وصمتت وهي تعض قليلاً على شفتها وتنظر نحو سعيد الذي أحس ببدنه يرتجف للحظة وكأن تياراً كهربائياً مسه . « مثل ابيه ! » وفجأة سأل نفسه : « ما هي الابوة ؟ » وكان مثل من فتح مصراعي شباك امام اعصار غير متوقع . فأخذ رأسه بين راحتيه وحاول ان يوقف ذلك الدوران المجنون للسؤال الذي كان كامناً في مكان ما من عقله طوال عشرين سنة ، دون ان يجرؤ على مواجهته ، اما صفية فقد اخذت تربت على كتفه ، لقد فهمت بصورة غريبة ذلك الارتطام الذي لا يصدق ، والذي يمكن للكلمات أحياناً ان تفعله على حين فجأة ، ثم قالت :

— «انظر من الذي يتحدث ! انها تقول « مثل ابيه ! » وكأن لخلدون اباً غيرك ! » .

الا ان ميريام تقدمت الى الامام ، ووقفت معدة نفسها لتقول شيئاً صعباً . ثم ببطء اخذت تنتزع تلك الكلمات التي تبدو وكأن يداً ما تنتشلها من اعماق بئر محشو بالغبار :

— « اسمع يا سيد سعيد . اريد ان اقول لك شيئاً مهماً ، ولذلك اردتك ان تنتظر دوف ، او خلدون ان شئت ، كي تتحدثا . وكي ينتهي الامر كما تريد له الطبيعة ان ينتهي ، اتعتقد ان الامر لم يكن مشكلة لي كما كان مشكلة لك ؟ طوال السنوات العشرين الماضية وانا محتارة ، والآن دعنا ننتهي من كل شيء . انا اعرف ابوه ، وأعرف ايضاً انه ابننا ، ومع ذلك لندعه يقرر بنفسه ، لندعه يختار . لقد اصبح شاباً راشداً ، وعلينا نحن

الاثنين ان نعترف بأنه هو وحده صاحب الحق في ان يختار .. أتوافق ؟ » .

وقام سعيد عن مقعده وأخذ يدور في أنحاء الغرفة ثم وقف امام الطاولة المنقوشة بالصدف وسط الغرفة واخذ ، مـــرة اخرى ، يعد ريشات الطاووس في المزهرية الخشبية الجاثمة هناك ، الا انه لم يقل شيئاً . وظل صامتاً كأنه لم يسمع حرفاً . وكانت ميريام تنظر اليه متحفزة ، وأخيراً التفت الى صفية وشرح لها ما قالته ميريام ، فقامت من مكانها ووقفت الى جانبه ، ثم قالت له بصوت مرتجف :

— « ذلك خيار عادل .. وانا واثقة ان خلدون سيختار والديه الحقيقيين .. لا يمكن ان يتنكر لنداء الدم واللحم » ..

وفجأة اخذ سعيد يضحك بكل قوته . وكانت ضحكته تعبق بمرارة عميقة تشبه الخيبة :

— « اي خلدون يا صفية ؟ اي خلدون ؟ اي لحم ودم تتحدثين عنهما ؟ وانت تقولين انه خيار عادل ! لقد علموه عشرين سنة كيف يكون . يوماً يوماً ، ساعة ساعة ، مع الاكل والشرب والفراش .. ثم تقولين : خيار عادل ! ان خلدون ، او دوف ، او الشيطان ان شئت ، لا يعرفنا ! أتريدين رأيي ؟ لنخرج من هنا ولنعد الى الماضي . انتهى الامر . سرقوه » .

ونظر نحو صفية التي تهاوت في مقعدها وقد تلقت للمرة الاولى حقيقة الامر دفعة واحدة ، وبدا لها كلام زوجها صحيحاً تماماً ، إلا أنها ظلت تحاول التعلق بخيوط غير مرئية لآمال بنتها

في وهمها عشرين سنة كنوع من الرشوة . وعاد زوجها يقول لهـــا :

– « ربما كان لا يعرف على الاطلاق انه ولد من ابوين عربيين .. ربما عرف ذلك قبل شهر ، او اسبوع ، او سنة .. فماذا تعتقدين ؟ انه مخدوع . وقد يكون اكثر حماساً لهـــا منهم .. لقد بدأت الجريمة قبل عشرين سنة ، ولا بد من دفع الثمن .. بدأت يوم تركناه هنا » .

– « ولكننا لم نتركه . انت تعرف » .

– « بلى . كان علينا الا نترك شيئاً . خلدون ، والمنزل . وحيفا ! ألم ينتابك ذلك الشعور الرهيب الذي انتابني وانـــا اسوق سيارتي في شوارع حيفا ؟ كنت اشعر انني اعرفها وانها تنكرني . وجاءني الشعور ذاته وانا في البيت ، هنا . هذا بيتنا ! هل تتصورين ذلك ؟ انه ينكرنا !. ألا ينتابك هذا الشعور ! انني اعتقد ان الامر نفسه سيحدث مع خلدون .. وسترين ! » .

واخذت صفية تنشج ببؤس ، فيما مضت ميريام الى الخارج تاركة الغرفة التي ملأها فجأة توتر محسوس . وشعر سعيد بأن جميع الجدران التي عيش نفسه طوال عشرين سنة داخلها قد تكسرت وصار بوسعه ان يرى الاشياء اكثر وضوحاً وانتظر لحظات حتى خف نشيج صفية ، فاستدار نحوها وسألها :

– « أتعرفين ما حدث لفارس اللبدة ؟ » .

– « ابن اللبدة اياه ؟ جارنا ؟ » .

– « اجل . جارنا في رام الله الذي سافر الى الكويت . اتعرفين مـــاذا حدث له حين زار قبل اسبوع واحد منزلـــه في يافا ؟ » .

– « هل ذهب الى يافا ؟ » .

– « اجل . قبل اسبوع كما اعتمد . وقد استأجر سيارة من القدس اخذته الى يافا . توجه فوراً الى العجمي . كان يسكن قبل عشرين سنة في بيت من طابقين وراء المدرســـة الارثوذكسية في العجمي . تذكرين المدرسة ؟ انها وراء مدرسة الفرير . وانت ذاهبة الى الجبلية . الى اليسار وبعدها بمئتي متر مدرسة الارثوذكس على اليمين . ولها ملعب كبير . وبعد الملعب يوجد مفرق . وفي منتصف الزقاق كان فارس اللبدة يسكن مع عائلته . كان يغلي غضباً يومها . فأمر السائق بالوقوف امام المنزل وصعد السلم درجتين ودق على باب منزله » ..

٤

كان الوقت عصراً . وكانت يافا – فيما عدا المنشية – ما زالت على حالها ، كما كان فارس اللبدة يعرفها قبل عشرين سنة. وشعر ان اللحظات القليلة التي مضت بين قرع الباب وبين سماعه لخطوات رجل قادم ليفتحه قد امتدت دهوراً من الغضب والحزن العاجز الكسيح . واخيراً انفتح الباب . ومد الرجل الطويل القامة . الاسمر والذي كان يلبس قميصاً ابيض مفتوح الازرار . مد يده ليصافح القادم الذي لا يعرفه . الا ان فارس تجاهل الراحة الممدودة . وقال بالهدوء الذي يحمل كل معنى الغضب :

– « جئت القي نظرة على بيتي . هذا المكان الذي تسكنه هو بيتي انا ، ووجودك فيه مهزلة محزنة ستنتهي ذات يوم بقوة السلاح . تستطيع ان شئت . ان تطلق عليّ الرصاص هذه اللحظة ، ولكنه بيتي . وقد انتظرت عشرين سنة لأعود اليه ..

واذا .. » .

واخذ الرجل الواقف على عتبة الباب . والذي كان ما يزال يمد راحته . يضحك بقوة مقترباً من فارس اللبدة حتى صار امامه مباشرة . وعندها تقدم بذراعين مفتوحتين نحوه واحتضنه..

— « لا حاجة لتصب غضبك علي . فأنا عربي أيضاً . ويافاوي مثلك . واعرفك . فأنت ابن اللبدة ... ادخل لنشرب قهوة ! » .

ودخل فارس مشدوهاً . يكاد لا يصدق . وقد كان البيت هو نفسه . بأثاثه وترتيبه والوان جدرانه واشيائه التي يذكرها جيداً . واقتاده الرجل نحو غرفة الجلوس دون ان يقدر على اخفاء ابتسامته العريضة وحين فتح بابها وطلب منه الدخول . وقف فارس مسمراً . ثم أخذت الدموع — فجأة — تطفر من عينيه!

كانت غرفة الجلوس على حالها . كأنه تركها ذلك الصباح . تعبق فيها نفس الرائحة التي كانت لها . رائحة البحر التي كانت دائماً تثير في رأسه دوامات من عوالم مجهولة معدة للاقتحام والتحدي . ولكن ذلك لم يكن الشيء الذي سمره في مكانه . فعلى الجدار المقابل . المطلي بلون ابيض متوهج ، كانت صورة اخيه بدر ما تزال معلقة . وحدها في الغرفة كلها . وكان الشريط الاسود العريض الذي يمتد في زاويتها اليمنى ما زال كما كان .

وفجأة تدفق في الغرفة جو الحداد الذي كان . واخذت

الدموع تكر على وجنتي فارس وهو واقف هناك . تلك ايام قديمة . الا انها تدفقت الآن كأن البوابات التي كانت تحبسها قد انفتحت على مصاريعها :

كان اخوه بدر أول من حمل السلاح في منطقة العجمي في الاسبوع الاول من كانون الاول عام ١٩٤٧ . ومنذ ذاك تحول المنزل الى ملتقى للشبان الذين كانوا يملؤون ملعب الارثوذكسية آنذاك بعد ظهر كل يوم . اما الآن فقد تغير كل شيء ، وانخرط بدر في القتال . كأنه كان ينتظر ذلك اليوم منذ طفولته . وفي السادس من نيسان عام ١٩٤٨ جيء ببدر الى الدار محمولاً على اكتاف رفاقه . كان مسدسه ما زال في وسطه . اما بندقيته فقد تمزقت مع جسده بقذيفة تلقاها وهو على طريق تل الريش . وشيعت العجمي جثمان بدر كما يتوجب على الرفاق ان يشيعوا الشهيد . ثم جيء بصورته مكبرة . وذهب رفيق من رفاقه الى شارع اسكندر عوض حيث كتب خطاط هناك كان اسمه « قطب » يافطة صغيرة تقول ان بدر اللبدة استشهد في سبيل تحرير الوطن . وحمل طفل ما تلك اليافطة في مقدمة الجنازة وحمل طفلان صورته . وفي المساء اعيدت الصورة الى البيت . وربط شريط الحداد الاسود على زاويتها اليمنى .

انه ما زال يذكر كيف رفعت امه كل الصور التي كانت معلقة على جدران غرفة الجلوس . وعلقت صورة بدر على

الجدار الذي يقابل الباب . ومنذ تلك اللحظة فاحت في الغرفة رائحة الحداد الحزين . وظل الناس يأتون فيجلسون في الغرفة وينظرون الى الصورة ويقدمون التعازي .

كان فارس . من المكان الذي يقف فيه . يستطيع ان يرى المسامير التي كانت تحمل صوراً اخرى قبل عشرين سنة تطل برؤوسها من الجدران العارية . وبدت له كأنها رجال يقفون بالانتظار . امام تلك الصورة الكبيرة لأخيه الشهيد . بدر اللبدة . معلقة وحدها . متشحة بالسواد . في صدر الغرفة .

وقال الرجل لفارس :

— « ادخل . اجلس في الداخل . دعنا نتحدث قليلاً . لقد انتظرناكم طويلاً . وكنا نريد ان نراكم في مناسبة غير هذه » .

ودخل فارس . كأنه يمشي عبر حلم لا يصدق ، وجلس في مقعد يواجه صورة شقيقه . تلك هي المرة الاولى التي يرى فيها صورة اخيه بدر منذ عشرين سنة . فحين خرجوا من يافا (حملتهم الزوارق من منطقة تقع الى الشمال من شط الشباب ، واتجهت نحو غزة . الا أن أباه عاد فهاجر الى الاردن) لم يحملوا شيئاً معهم . ولا حتى صورة صغيرة لبدر الذي ظل هناك .

ولم يستطع فارس ان ينطق الا بعد ان دخل طفلان الى الغرفة . واخذا يركضان بين المقاعد . ثم خرجا صاخبين كما دخلا ، وقال الرجل :

— « انهما سعد وبدر . ابناي » .

— « بــــدر ؟ » .

— « اجل سميناه على اسم اخيك الشهيد » ..

— « والصورة ؟ » .

ووقف الرجل وقد تغير وجهه . ثم قال :

— « انا من يافا . من سكان المنشية . وفي حرب ١٩٤٨ هدمت قنابل المورتر بيتي . لست اريد ان اروي لك الآن كيف سقطت يافا . وكيف انسحبوا . اولئك الذين جاؤوا لينجدونا . لحظة المأزق . ذلك شيء راح الآن ... المهم انني حين عدت مع المقاتلين الى المدينة المهجورة اعتقلونا . وامضيت فترة طويلة في المعتقل . ثم حين اطلقوني رفضت ان اغادر يافا . وقد عثرت على هذا البيت . واستأجرته من الحكومة .

— « والصورة ؟ » .

— « حين جئت الى البيت كانت الصورة اول شيء شاهدته وربما كنت قد استأجرت البيت بسببها . ذلك شيء معقد ولا استطيع ان اشرحه لك . ولكن حين احتلوا يافا كانت مدينة شبه فارغة . وبعد ان خرجت من السجن شعرت بأنني محاصر . لم اشهد عربياً واحداً هنا . كنت وحدي جزيرة صغيرة معزولة في بحر مصطخب من العداء . ذلك العذاب لم تجربه انت . ولكن انا عشته .

وحين شهدت الصورة وجــــدت فيها سلوى . وجدت فيها رفيقاً يخاطبني ويتحادث الي ويذكرني بأمور اعتز بهـــا

واعتبرها اروع ما في حياتنا . قررت عندها استئجار البيت . ففي ذلك الوقت – تماماً كما هو الامر الآن – يبدو لي ان يكون الانسان مع رفيق له حمل السلاح ومات في سبيل الوطن شيئاً ثميناً لا يمكن الاستغناء عنه . ربما كان نوعاً من الوفاء لاولئك الذين قاتلوا. كنت اشعر انني لو تركته لكنت ارتكبت خيانة لا اغتفرها لنفسي . لقد ساعدني ذلك ليس على الرفض فقط . ولكن البقاء .. هكذا ظلت الصورة هنا . ظلت جزءاً من حياتنا ، انا وزوجتي لمياء وابني بدر وابني سعد وهو ، اخوك بدر ، عائلة واحدة ، عشنا عشرين سنة معاً . كان ذلك شيئاً مهماً بالنسبة لنا ... » .

وظل فارس حتى منتصف الليل جالساً هناك ، ينظر الى شقيقه بدر يبتسم في الصورة ، مليئاً بالشباب والعنفوان ، تحت ذلك الوشاح الاسود ، كما كان يفعل طوال عشرين سنة ، وحين قام ليعود سأل ان كان يستطيع استرداد الصورة ، وقال الرجل :

– « طبعاً تستطيع . انه شقيقك بعد كل شيء وقبل اي شيء آخر » .

وقام فأنزل الصورة عن الجدار ، وبدا المكان الذي خلفته وراءها مستطيلاً باهتاً من البياض الذي لا معنى له ، والذي يشبه فراغاً مقلقاً .

وحمل فارس الصورة معه الى السيارة ، وعاد الى رام الله

وكان طوال الطريق ينظر اليها متكئة الى جانبه على المقعد . ويطل منها بدر وهو يبتسم تلك الابتسامة الشابة المشرقة ، وقد ظل يفعل ذلك حتى اجتاز القدس . وصار على الطريق المتجه نحو رام الله ، وعندها فقط انتابه شعور مفاجىء بأنه لا يملك الحق في الاحتفاظ بتلك الصورة ، ولم يستطع ان يفسر الامر لنفسه . الا انه طلب من السائق العودة الى يافا ، ووصلها في الصباح .

صعد السلم مرة اخرى بخطى بطيئة وقرع الباب وقال له الرجل وهو يتناول الصورة منه :

– شعرت بفراغ مروع حين نظرت الى ذلك المستطيل الذي خلفته على الحائط . وقد بكت زوجتي . واصيب طفلاي بذهول ادهشني . لقد ندمت لانني سمحت لك باسترداد الصورة . ففي نهاية المطاف هذا الرجل لنا نحن . عشنا معه وعاش معنا وصار جزءاً منا . وفي الليل قلت لزوجتي انه كان يتعين عليكم ، ان أردتم استرداده ، ان تستردوا البيت ، ويافا . ونحن ... الصورة لا تحل مشكلتكم . ولكنها بالنسبة لنا جسركم الينا وجسرنا اليكم » .

وعاد فارس وحده الى رام الله . وقال سعيد س . لزوجتـــه :

– « فارس اللبدة . لو تعرفين .. »

وهمس بصوت لا يكاد يسمع :

– « انه يحمل السلاح الآن » .

٥

وعلى الطريق هدر صوت محرك . ودخلت ميريام الى الغرفة ووجهها يعلوه اصفرار مفاجيء . كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل . وتقدمت العجوز القصيرة بخطى بطيئة نحو النافذة . فازاحت الستائر برفق ، ثم اعلنت بصوت مرتجف :

— « ها هو دوف . لقد جاء ! » .

جاءت الخطوات على الدرج شابة . ولكنها متعبة ، وتتبعها « سعيد س . » واحدة بعد الاخرى وهي تصعد السلم منذ ان استمع ، واعصابه مشدودة ، الى صوت البوابة الحديدية تصطفق ثم تنغلق بالمزلاج .

وامتدت اللحظات طويلة يكاد صمتها يضج بطنين جنوني لا يحتمل . ثم سمع صوت المفتاح يعالج الباب ، وعندها فقط نظر نحو ميريام ورأى — للمرة الاولى — انها جالسة هناك ،

مصفرة الوجه وترتجف . ولم يكن لديه مقدار من الشجاعة يكفي للنظر الى صفية ، فثبت عينيه ناحية الباب مستشعراً العرق يتفصد بقوة من جميع خلايا جسده دفعة واحدة .

وكانت اصوات الخطوات في الممر مكتومة ومحتارة بعض الشيء ، ثم جاء صوت متردد ، نصف عال . ينادي : « ماما » .

وارتجفت ميريام قليلاً ، وأخذت تفرك راحتيها ، فيما استمع سعيد س . الى زوجته ، تشرق بدمعها بصوت يكاد لا يسمع . وفي الخارج توقفت الخطوات قليلاً وكأنها تنتظر شيئاً ، ثم جاء الصوت نفسه مرة أخرى ، وحين صمت أخذت ميريام تترجم بصوت مرتجف هامس :

ــ « انه يسأل لماذا انا في الصالون حتى هذه الساعة المتأخرة ؟ » .

وعادت الخطوات تتجه نحو الغرفة ، وكان الباب مواربا . وقالت ميريام بالانكليزية :

ــ « تعال هنا يا دوف ، يوجد ضيوف يرغبون برؤيتك »

وانفتح الباب بشيء من البطء ، ولأول وهلة لم يصدق . فقد كان الضوء عند الباب باهتاً ، ولكن الرجل الطويل القامة خطا الى الامام . كان يلبس بزة عسكرية ، ويحمل قبعته بيده .

وقفز سعيد واقفاً كأن تياراً كهربائياً قذفه عن المقعد ، ونظر نحو ميريام وهو يقول بصوت متوتر :

ـ « اهذه هي المفاجأة ؟ أهذه هي المفاجأة التي اردت منا انتظارها ؟ » .

واستدارت صفية نحو النافذة ، تخفي وجهها براحتيها وتنشج بصوت مسموع .

اما الرجل الطويل القامة فقد ظل مسمراً امام الباب . ينقل بصره بين الثلاثة محتاراً ، وعندها فقط قامت « ميريام » ، وقالت للشاب بهدوء مفتعل وبطيء :

ـ « اريد ان اقدم لك والديك ... والديك الاصليين » .

وخطا الشاب الطويل القامة خطوة بطيئة الى الامام ، وتغير لونه فجأة وبدا انه فقد ثقته بنفسه دفعة واحدة . ثم نظر الى بزته وعاد ينظر الى سعيد ، الذي كان واقفاً ما يزال امامه يحدق اليه . واخيراً قال الشاب بصوت خفيض :

ـ « انا لا اعرف أماً غيرك ، اما ابي فقد قتل في سيناء قبل ١١ سنة ، ولا اعرف غيركما » .

وعاد سعيد الى الوراء خطوتين ، ثم جلس مكانه وأخذ راحة صفية بين يديه ، وادهشه ـ بينه وبين نفسه ـ كيف استطاع ان يسترد هدوءه بهذه السرعة . ولو قال له اي انسان قبل خمس دقائق فقط انه سيكون جالساً هناك بمثل هذا الهدوء لما صدقه ، اما الآن فقد تغير كل شيء .

ومضت لحظات بطيئة ، كان كل شيء فيها ساكناً تماماً . ثم اخذ الشاب الطويل القامة يخطو ببطء : ثلاث خطوات نحو وسط الغرفة وثلاث اخرى نحو الباب ثم عودة نحو وسط الغرفة.

وضع قبعته على الطاولة . وبدت قرب المزهرية الخشبية وريش الطاووس فيها شيئاً غير مناسب ، والى حد ما مضحكاً . وفجأة انتاب سعيد شعور غريب بأنه انما يشاهد مسرحية معدة سلفاً بدقة ، وتذكر مشاهد درامية مفتعلة في افلام رخيصة تستدر توتراً تافهاً .

وتقدم الشاب من ميريام . واخذ يقول لها بصوت اراد منه ان يكون قاطعاً ونهائياً ومسموعاً تماماً :

— « وماذا جاءا يفعلان ؟ لا تقولي انهما يريدان استرجاعي ! » .

وقالت ميريام بصوت مماثل :

— « اسألهما » .

واستدار كقطعة خشب ، كأنه ينفذ امراً ، وسأل سعيد :

— « ماذا تريد يا سيدي ؟ » .

وظل سعيد محتفظاً بهدوئه الذي بدا له لحظتذاك مجرد قشرة رقيقة تخفي لهباً كامناً ، وبصوت خفيض قال :

— « لا شيء . لا شيء .. انه مجرد فضول . كما تعلم » .

وخيم صمت مفاجىء ، فيما ارتفع صوت صفية بالنشيج وكأنه صادر من مقاعد متفرج هش التأثر . ونقل الشاب بصره مرة اخرى : من سعيد الى ميريام ثم الى قبعته المتكئة على المزهرية ، وارتد الى الوراء كأن شيئاً دفعه بقوة نحو المقعد المجاور لميريام ، وجلس فيه وهو يقول :

— « لا . ذلك شيء مستحيل ، لا يصدق .. » .

وسأل سعيد ، بهدوئه المفاجيء :

— « انت في الجيش ؟ من تحارب ؟ لماذا ؟ » .

وانتفض الشاب واقفاً فجأة :

— « ليس من حقك ان تسأل هذه الاسئلة . انت على الجانب الآخر » .

— « انا ؟ انا على الجانب الآخر ؟ » .

وضحك بقوة ، وشعر بأنه عبر تلك القهقهة العالية كان يدفع بكل ما في صدره من اسى وتوتر وخوف وفجيعة الى الخارج ، ورغب فجأة في ان يظل يقهقه ويقهقه حتى ينقلب العالم كله ، او ينام ، او يموت ، او يندفع خارجاً الى سيارته. الا ان الشاب قاطعه بحدة :

— « لست ارى سبباً للضحك » .

— « انا ارى » .

وضحك لفترة قصيرة فحسب ، ثم صمت ، كما تفجر ، واتكأ في مقعده مستشعراً تجدد الهدوء ، واخذ يبحث في جيبه عن سيكارة .

وامتد الصمت طويلاً ، الا ان صفية ، التي عادت فهدأت نفسها ، سألت بصوت خفيض :

— « الا تشعر بأننا والداك ؟ » .

ولم يعرف احد لمن كان السؤال . فلا شك ان ميريام لم تفهم ، ولا الشاب الطويل القامة . اما سعيد فلم يرد : كان قد انهى سيكارته في تلك اللحظة فقام الى الطاولة ليطفئها ، واضطر

– كي يفعل ذلك – ان يزحزح القبعة من مكانها . وفعل ذلك وهو يبتسم بسخرية . ثم عاد الى مكانه وجلس .

وعندها قال الشاب . وقد تغير صوته تماماً :

– « دعونا نتحدث كأناس متحضرين » .

واخذ سعيد يضحك مرة اخرى . ثم قال :

– « انت لا تريد ان تفاوض .. اليس كذلك ؟ كنت تقول انك . او انني . في الجهة الاخرى .. ماذا حدث ؟ هل تريد ان تفاوض ام ماذا ؟ ».

وسألته صفية مستثارة :

– « ماذا قال ؟ » .

– « لا شيء » .

وعاد الشاب فوقف . واخذ يتحدث وكأنه حضر تلك الجمل منذ فترة طويلة :

– « انا لم اعرف ان ميريام وايفرات ليسا والدي الا قبل ثلاث او اربع سنوات . منذ صغري وانا يهودي . اذهب الى الكنيس والى المدرسة اليهودية وآكل الكوشير وادرس العبرية . وحين قالا لي انني لست من صلبهما لم يتغير اي شيء . وكذلك حين قالا لي – بعد ذلك – ان والدي الاصليين هما عربيان . لم يتغير اي شيء . لا . لم يتغير . ذلك شيء مؤكد.. ان الانسان هو في نهاية الأمر قضية » .

– « من قال ذلك ؟ » .

– « قال ماذا ؟ » .

— « من الذي قال ان الانسان هو قضية ؟ » .

— « لا اعرف ، لا اذكر .. لماذا تسأل ؟ »

— لمجرد الفضول . الصحيح لمجرد ان ذلك هو بالضبط ماكان يدور في بالي هذه اللحظة .

— « ان الانسان هو قضية ؟ » .

— « بالضبط » .

— « اذن لماذا جئت تبحث عني ؟ » .

— « لست ادري . ربما لانني لم اكن اعرف ذلك . او كي اتأكد منه اكثر . لست ادري ، على أي حال لماذا لا تكمل ؟ » .

وعاد الشاب الطويل القامة يمشي وهو يعقد كفيه وراء ظهره : ثلاث خطوات نحو الباب وثلاث خطوات نحو الطاولة . لقد بدا تلك اللحظة وكأنه حفظ عن ظهر قلب درساً طويلاً ، وانه حين قوطع في وسطه . لم يعد يعرف كيف يكمله . وهو يسترجع صامتاً . في رأسه ، الجزء الاول كي يصير بوسعه المتابعة ، وفجأة قال :

— « بعد ان عرفت انكما عربيان كنت دائماً اتساءل بيني وبين نفسي : كيف يستطيع الاب والام ان يتركا ابنهما وهو في شهره الخامس ويهربان ؟ وكيف يستطيع من هو ليس امه وليس اباه ان يحتضناه ويربياه عشرين سنة ؟ عشرين سنة ؟ اتريد ان تقول شيئاً يا سيدي ؟ » .

— « لا » .

قال سعيد باختصار حاسم . واشار له بيده كي يتابع :

– « انني في قوات الاحتياط الآن . لم يقدر لي خوض معركة مباشرة الى الآن لاصف لك شعوري . ولكن ربما في المستقبل استطيع ان اؤكد لك مجدداً ما سأقوله الآن : انني انتمي الى هنا . وهذه السيدة هي امي . وانتما لا اعرفكما ولا اشعر ازاءكما بأي شعور خاص » .

– « لا حاجة لتصف لي شعورك فيما بعد . فقد تكون معركتك الاولى مع فدائي اسمه خالد . وخالد هو ابني . ارجو ان تلاحظ انني لم اقل انه اخوك . فالانسان كما قلت قضية ، وفي الاسبوع الماضي التحق خالد بالفدائيين ... اتعرف لماذا اسميناه خالد ولم نسمه خلدون ؟ لاننا كنا نتوقع العثور عليك ، ولو بعد عشرين سنة . ولكن ذلك لم يحدث . لم نعثر عليك .. ولا اعتقد اننا سنعثر عليك » .

ونهض سعيد س. متثاقلاً . الآن فقط شعر انه متعب . وانه هدر عمره بصورة عابثة . وساقه هذا الشعور الى كآبة لم يكن يتوقعها ، واحس بأنه على وشك ان يبكي ، فقد كان يعرف انه كذب . وان خالداً لم يلتحق بالفدائيين . وفي الواقع كان هو الذي منعه . بل مضى ذات يوم الى حد تهديده بالتبرؤ منه ان هو عصا ارادته والتحق بالمقاومة . وبدت له الايام القليلة الماضية مجرد كابوس انتهى على صورة مفزعة . اهو نفسه الذي كان قبل ايام يهدد ابنه خالد بالتبرؤ من ابوته له ؟ اي عالم عجيب

لا يصدق . الآن لا يجد شيئاً ليدافع به عن نفسه امام تبرؤ هذا الشاب الطويل القامة من بنوته له الا افتخاره بابوته لخالد . خالد نفسه الذي حال دونه ودون الالتحاق بالفدائيين بذلك السوط التافه الذي كان يسميه الابوة ! من يدري . فربما اقتنص خالد الفرصة اثناء وجوده هو في حيفا فهرب ... آه لو فعل ! كم سيكون من المخيب لكل قيم هذا الوجود ان هو عاد الى البيت فوجد خالد بانتظاره !.

مشى سعيد خطوتين واخذ . مرة اخرى . يعد ريشات الطاووس الخمس التي كانت في المزهرية الخشبية . ولاول مرة منذ دخل الشاب الطويل القامة الى الغرفة . نظر الى ميريام . وببطء قال لها :

— « انه يتساءل كيف يترك الاب والام ابنهما الرضيع في السرير ويهربان ... انت يا سيدتي لم تقولي له الحقيقة ، وحين رويتها له كان الوقت قد مضى . انحن الذين تركناه ؟ انحن الذين قتلنا ذلك الطفل قرب كنيسة بيت لحم في الهادار ؟ الطفل الذي كانت جثته ، كما قلت لنا ، اول شيء صدمك في هذا العالم الذي يسحق العدل بحقارة كل يوم .. ربما كان ذلك الطفل هو خلدون ! ربما كان ذلك الشيء الصغير الذي مات ذلك اليوم التعيس هو خلدون .. بل انه خلدون ، وانت كذبت علينا انه خلدون ، وقد مات . وهذا ليس الا طفلاً يتيماً عثرت عليه في بولونيا ، او انكلترا » .

كان الشاب الطويل القامة ينكفىء على نفسه كشيء محطوم

في كرسيه . وقال سعيد لنفسه : « لقد فقدناه . ولكنه بـــلا ريب فقد نفسه بعد هذا كله . ولن يكون ابداً كما كان قبل ساعة » واعطاه هذا الاعتقاد شعوراً غامضاً بارتياح لا يفسر . وذلك كان ما دفعه نحو الكرسي الذي كان الشاب الطويل القامة جالساً فيه . ووقف امامه وقال له :

— « الانسان في نهاية المطاف قضية . هكذا قلت . وهذا هو الصحيح . ولكن اية قضية؟ هذا هو السؤال! فكر جيداً . خالد هو ايضاً قضية . ليس لانه ابني . ففي الواقع ... دع تلك التفاصيل . على اي حال . جانباً .. اننا حين نقف مع الانسان فذلك شيء لا علاقة له بالدم واللحم وتذاكر الهوية وجوازات السفر .. هل تستطيع ان تفهم ذلك ؟ حسناً ، دعنا نتصور انك استقبلتنا — كما حلمنا وهماً عشرين سنة — بالعناق والقبل والدموع .. اكان ذلك قد غير شيئاً ؟ اذا قبلتنا انت . فهل نقبلك نحن ؟ ليكن اسمك خلدون او دوف او اسماعيل او اي شيء آخر ... فما الذي يتغير ؟ ومع ذلك فأنا لا اشعر بالاحتقار ازاءك . والذنب ليس ذنبك وحدك . ربما سيبدأ الذنب منذ هذه اللحظة ليصبح مصيرك . ولكن قبل ذلك ماذا ؟ أليس الانسان هو ما يحقن فيه ساعة وراء ساعة ويوماً وراء يوم وسنة وراء سنة ؟ اذا كنت انا نادماً على شيء فهو انني اعتقدت عكس ذلك طوال عشرين سنة » !

وعاد يجر خطواته . محاولاً ان يبدو اهدأ ما يكون .

عائداً الى مقعده . الا انه في تلك الخطوات القليلة التي كانت تمر عبر الطاولة المصدفة . بريش الطاووس الذي يتمايل في المزهرية الخشبية وسطها . بدت له الاشياء مختلفة تماماً عما كانت عليه حين دخل هذه الغرفة للمرة الاولى قبل ساعات . وسأل نفسه فجأة : ما هو الوطن؟ وابتسم بمرارة . واسقط نفسه، كما يسقط الشيء، في مقعده . وكانت صفية تنظر اليه قلقة . وتفتح في وجهه عينين متسائلتين . وعندها فقط خطر له ان يشركها في الامر . فسألها :

— « ما هو الوطن ؟ »

وارتدت الى الوراء مندهشة وهي تنظر اليه كمن لا يصدق ما سمع . ثم سألته برقة يكتنفها الشك :

— « ماذا قلت ؟ » .

— « سألت : ما هو الوطن ؟ وكنت اسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة . اجل . ما هو الوطن ؟ اهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة ؟ الطاولة ؟ ريش الطاووس ؟ صورة القدس على الجدار ؟ المزلاج النحاسي ؟ شجرة البلوط ؟ الشرفة ؟ ما هو الوطن ؟ خلدون ؟ اوهامنا عنه ؟ الابوة ؟ البنوة ؟ ما هو الوطن ؟ بالنسبة لبدر اللبدة . ما هو الوطن ؟ اهو صورة اخيه معلقة على الجدار ؟ انني اسأل فقط » .

ومرة جديدة . ومفاجئة . اخذت صفية تبكي . وتجفف

دموعها بمنديلها الابيض الصغير . وقال سعيد لنفسه وهو ينظر اليها : « لقد شاخت هذه المرأة حقاً . واستنزفت شبابها وهي تنتظر هذه اللحظة . دون ان تعرف انها لحظة مروعة » .

وعاد فنظر الى « دوف » . وبدا له مستحيلاً تماماً ان يكون هذا الشاب من صلب تلك المرأة . وحاول ان يستشف شبهاً ما بينه وبين خالد . الا انه لم يعثر على ايما شبه بين الرجلين . بل رأى بصورة ما تضادا بينهما يكاد يكون متعاكساً تماماً . واستغرب ان يكون قدفقد ايما عاطفة ازاءه ، وتصور ان مجموع ذاكرته عن « خلدون » كانت قبضة من الثلج اشرقت عليها فجأة شمس ملتهبة فذوبتها .

وكان ما يزال ينظر الى «دوف » حين قام هذا الاخير فجأة . ووقف امام سعيد منتصباً كأنه يتصدر طابوراً من الجنود المختبئين . وبذل جهده ليكون هادئاً :

– «كان يمكن لذلك كله ألا يحدث لو تصرفتم كما يتعين على الرجل المتحضر الواعي ان يتصرف » .

– « كيف ؟ » .

– « كان عليكم الا تخرجوا من حيفا . واذا لم يكن ذلك ممكناً فقد كان عليكم بأي ثمن الا تتركوا طفلاً رضيعاً في السرير . واذا كان هذا ايضاً مستحيلاً فقد كان عليكم الا تكفوا عن محاولة العودة ... اتقولون ان ذلك ايضاً كان مستحيلاً ؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي ! عشرون سنة ! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك ؟ لو كنت مكانك لحملت

السلاح من اجل هذا . أيوجد سبب اكثر قوة ؟ عاجزون ! عاجزون ! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل ! لا تقل لي انكم امضيتم عشرين سنة تبكون !. الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات ! كل دموع الارض لا تستطيع ان تحمل زورقاً صغيراً يتسع لابوين يبحثان عن طفلهما المفقود .. ولقد امضيت عشرين سنة تبكي ... اهذا ما تقوله لي الآن ؟ اهذا هو سلاحك التافه المفلول ؟ » .

وارتد سعيد الى الوراء . مدهوشاً ومطعوناً . واحس بدوار مفاجىء يعصف به . ايمكن ان يكون ذلك كله حقيقياً ؟ الا يمكن ان يكون مجرد حلم طويل وممطوط وكابوس لزج يفرش نفسه فوقه كأخطبوط هائل ؟ واخذ ينظر الى صفية التي كانت دهشتها قد اتخذت شكل الانهيار المهيض الجناح . وشعر بحزن عميق من اجلها . ولمجرد ان لا يبدو غبياً . اتجه نحوها . وقال لها بصوت مرتجف :

— « لست اريد ان اناقشه » .

— « ماذا قال ؟ » .

— « لا شيء . بلى . قال اننا جبناء » ..

وسألت صفية . ببراءة :

— « ولاننا جبناء يصير هو كذلك ؟ » .

عندها فقط استدار نحوه . كان ما يزال واقفاً منتصب القامة . وبدت ريشات الطاووس المطلة وراءه وكأنها تشكل ذيلاً لديك كبير خاكي اللون يقف هناك . وابتعث فيه المنظر

انتعاشاً غير متوقع ، فقال :

— « زوجتي تسأل ان كان جبننا يعطيك الحق في ان تكون هكذا ، وهي ، كما ترى ، تعترف ببراءة بأننا كنا جبناء ، ومن هنا فأنت على حق ، ولكن ذلك لا يبرر لك شيئاً ، ان خطأ زائد خطأ لا يساويان صحاً ، ولو كان الامر كذلك لكان ما حدث لايفرات ولميريام في اوشفيتز صواباً ، ولكن متى تكفون عن اعتبار ضعف الآخرين واخطائهم مجيرة لحساب ميزاتكم ؟ لقد اهترأت هذه الاقوال العتيقة، هذه المعادلات الحسابية المترعة بالاخاديع .. مرة تقولون ان اخطاءنا تبرر اخطاءكم ، ومرة تقولون ان الظلم لا يصحح بظلم آخر .. تستخدمون المنطق الاول لتبرير وجودكم هنا ، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه ، ويخيل الي انكم تتمتعون الى اقصى حد بهذه اللعبة الطريفة ، وها انت تحاول مـــرة جديدة ان تجعل من ضعفنا حصان الطراد الذي تعتلي صهوته .. لا ، انا لا اتحدث اليك مفترضاً انك عربي ، والآن انا اكثر من يعرف ان الانسان هو قضية ، وليس لحماً ودماً يتوارثه جيل وراء جيل مثلما يتبادل البائع والزبون معلبات اللحـــم المقدد ، انما اتحدث اليك مفترضاً انك في نهاية الامر انسان . يهودي . او فلتكن ما تشاء . ولكن عليك ان تدرك الاشياء كما ينبغي .. وانا اعرف انك ذات يوم ستدرك هذه الاشياء ، وتدرك ان اكبر جريمة يمكن لاي انسان ان يرتكبها ، كائناً

من كان ، هي ان يعتقـــد ولو للحظة ان ضعف الآخرين واخطاءهم هي التي تشكل حقه في الوجود على حسابهم ، وهي التي تبرر له اخطاءه وجرائمه ...

وصمت لحظة ، ثم نظر مباشرة في عيني « دوف » :

— « وانت ، اتعتقد اننا سنظل نخطيء ؟ واذا كففنا ذات يوم عن الخطأ ، فما الذي يتبقى لديك ؟ » .

وشعر ، ثمة ، ان عليهما ان ينهضاوينصرفا ، فقدانتهى الامر كله . ولم يعد هناك ما يقال بعد . واحس تلك اللحظة بشوق غامض لخالد ، وود لو يستطيع ان يطير اليه ويحتويه ويقبله ويبكي على كتفه . مستبدلاً ادوار الاب والابن على صورة فريدة لا يستطيع تفسيرها . « هذا هو الوطن » ، قالها لنفسه وهو يبتسم ، ثم التفت نحو زوجته :

— « اتعرفين ما هو الوطن يا صفية ؟ الوطن هو الا يحدث ذلك كله » .

وسألته زوجته ، متوترة بعض الشيء :

— « ماذا حدث لك يا سعيد ؟ » .

— « لا شيء . لا شيء ابداً . كنت اتساءل فقط . افتش عن فلسطين الحقيقية . فلسطين التي هي اكثر من ذاكرة ، اكثر من ريشة طاووس ، اكثر من ولد ، اكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم . وكنت اقول لنفسي : ما هي فلسطين بالنسبة لخالد ؟ انه لا يعرف المزهرية ، ولا الصورة ،

ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون ، ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرة بأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها ، وبالنسبة لنا ، انت وانا ، مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة . وانظري ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار ... غباراً جديداً ايضاً ! لقد اخطأنا حين اعتبرنا ان الوطن هو الماضي فقط . اما خالد فالوطن عنده هو المستقبل ، وهكذا كان الافتراق ، وهكذا اراد خالد ان يحمل السلاح . عشرات الالوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في اغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور ، وهم انما ينظرون للمستقبل . ولذلك هم يصححون اخطاءنا ، واخطاء العالم كله .. ان دوف هو عارنا . ولكن خالد هو شرفنا الباقي .. الم اقل لك منذ البدء انه كان يتوجب علينا الا نأتي... وان ذلك يحتاج الى حرب؟ هيا بنا ! » .

لقد عرف خالد ذلك قبلنا .. آه يا صفية .. آه ..

ووقف فجأة ، ووقفت صفية الى جانبه وهي تفرك منديلها محتارة ، وظل دوف جالساً ، منكفئاً على نفسه ، وكانت قبعته متكئة على المزهرية وتبدو هناك ، لسبب ما ، مضحكة تماماً ، وقالت ميريام ببطء :

– « لا تستطيعان ان تغادرا هكذا ، لم نتحدث كفاية عن الموضوع .

وقال سعيد :

– « ليس ثمة ما يقال . بالنسبة لك ربما كان الأمر كله حدثا سيء الحظ ، ولكن التاريخ ليس كذلك ، ونحن حين جئنا هنا كنا نعاكسه ، وكذلك ، اعترف لك ، حين تركنا حيفا ، الا ان ذلك كله شيء مؤقت. اتعرفين شيئاً يا سيدتي؟ يبدو لي ان كل فلسطيني سيدفع ثمناً ، اعرف الكثيرين دفعوا ابناءهم . واعرف الآن انني انا الآخر دفعت ابناً بصورة غريبة ، ولكنني دفعته ثمناً ... ذلك كان حصتي الاولى ، وهذا شيء سيصعب شرحه » .

واستدار ، وكان دوف لا يزال منكفئاً في مقعده محتوياً رأسه بين راحتيه ، وحين وصل سعيد الى الباب قال :

– « تستطيعان البقاء مؤقتاً في بيتنا ، فذلك شيء تحتاج تسويته الى حرب » .

وبدأ ينزل السلم ، محدقاً بدقة الى كل الاشياء وقد بدت له اقل اهمية مما كانت قبل ساعات وغير قادرة على اثارة ايما شيء في اعماقه ، ووراءه كان يسمع اصوات خطى صفية اكثر وثوقاً من قبل . وكان الطريق في الخارج خالياً

تقريباً . اتجه الى سيارته وتركها تنزلق على السفح دونما صوت . وعند المنعطف فقط ادار محركها واتجه نحو شارع الملك فيصل.

وقد ظل صامتاً طوال الطريق ، ولم يتلفظ بايما شيء الا حين وصل الى مشارف رام الله . عندها فقط نظر الى زوجته وقـــال :

— « ارجو ان يكون خالد قد ذهب .. اثناء غيابنا » ! .

تمت

توضيح

تجدر الاشارة هنا الى ان الجزء التالي هو مطالع روايات كان غسان قد بدأ كتابتها في فترات متفاوتة ، ولكن ظروفاً مختلفة حالت دون اتمامها .

« فالعاشق » — وهو الاسم الذي اختاره بنفسه — رواية بدأ كتابتها عام ١٩٦٦ ، ثم توقف عند الجزء المنشور هنا ، وقد تكون هذه القصة هي الملحمة التي كانت دوماً في ضمير غسان لتأريخ الثورة الفلسطينية ، منذ مطالع القرن وعبر السنين اللاحقة ، والتي استمع من اجلها الى عشرات القصص من افواه ابطالها ... وليس بعيداً ان يكون عنوان « بنادق في الجليل » الذي تردد على لسان غسان وفي اوراقه ، ذا علاقة بهذه القصة ...

اما قصة « الاعمى والاطرش » وهو العنوان الذي اطلق — موضوعياً — على هذه الرواية فقد كتبت في فترة ليست بعيدة .

وبالتأكيد فان « برقوق نيسان » هي آخر قصة كتبها . وكان ذلك حديثاً . وكان قلمه قد توقف فيها عند لحظة من لحظات أوجها . ولم يكن بعد قد اختار لها عنواناً حين عاد ..

« لجنة التخليد »

العاشق

العاشق

\- ١ -

في البدء لم يعرف أحد في الغبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها ، دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئاً من أشيائها الصغيرة ولكنه أبداً لم يستطع ان يكون من ناسها ، ويبدو انه هو ذاته لم يكن راغباً في أن يصبح كذلك . لقد تسلل اليها بلا صوت وبقي صامتاً طوال الوقت تقريباً وهكذا فقد حرم الناس حتى من أن يجدوا فيه قصة يحكونها بعد أن حرمهم من أية علاقة معه .

وفي الحقيقة فهم لم يروه تماماً الا بعد مضي زمن طويل على قدومه . حتى انهم تعرفوا اليه عبر حكاية رواها لهم الشيخ سلمان ، كبير الغبسية ، الذي يملكها بأرضها وناسها ودوابها وزيتونها . « لو تعرفون ما حدث لقاسم هذا الصباح » وهكذا عرفوا اسمه لأول مرة ، ولكن قلة منهم استطاعت في تلك الوهلة انتذكر ملامحه ، المهم انه . لاول مره ، صار موجوداً فجأة ، ويبدو ان حضوره بهذا الشكل على لسان الشيخ سلمان

ربطه به الى الابد . ولم يعرف قاسم نفسه في حياته كلها رجلاً استوقفه الا وسأله عن حال الشيخ سلمان .

لقد جاء قاسم في ديوانية الشيخ سلمان ذلك الصباح فجأة ، ودون توقع ، دخل الى الناس مع ايقاع صوت الشيخ سلمان المهيب وسط الصمت الذي كان يخيم عادة كلما تحدث . والحقيقة ان قاسم نفسه كان في تلك اللحظة جالساً بهدوء على كوم من التبن في الاسطبل ينظر بحيرة الى قدميه وقد رفعهما قليلاً الى فوق ، وكان الشيخ سلمان يقول لزواره انه صحا في الفجر فصلى وكان المنزل صامتاً ومستغرقاً في النوم . أخذت كرسياً وخرجت ، كانت السماء جداراً عالياً من البللور النقي بارداً وبعيداً وكان الفضاء يشبه الدخان ، وراء البيت سمعت صهيلاً صغيراً وصوتاً زاجراً ثم رأيت رجلاً يطل من وراء الجدار مع الفرس .

كنت قد غسلت الفرس وسقيتها وجعلتها تخب في الساحة الخلفية للدار كي تنفض النوم عن عضلاتها ، وعرفت حين وقفت فجأة وصهلت ان الشيخ سلمان قد خرج من البيت ، وحين صرت مع الفرس على زاوية البيت رآنا ، فأشار لي أن أتقدم .

سألته ان كان معجباً بالفرس فهز رأسه وربت على كتفها ونظر في عينيها وابتسم . عندها سألته عن اسمه فقال « أنا قاسم » ثم سألته ان كان يستطيع أن يحضر لي فنجاناً من القهوة فهز رأسه ونظر في عيني الفرس ورأيتهما يبسمان لبعضهما

ثم يسيران معاً دون ان يقود اي منهما الآخر .

وضعت الفرس في مربطها وأخذت بناً من داخل البيت وجمعت حطباً ومضيت ، في دورة واسعة حول الساحة الامامية للبيت كي أتجنب المرور من أمام الشيخ سلمان ، الى أول الحقل . كانت ناراً جيدة .

وأخذت أراقبه من بعيد ، عبر الساحة الامامية ، ينفخ النار ويهز فيها وفوقها ابريق النحاس هزة العارف . كان رجلاً صلباً وقد رأيت عضلاته تحت قمبازه الرقيق تتكور مشدودة وهو يحني قامته الطويلة فوق النار . وبدا لي لوهلة ، وهو محني فوق الوهج أمام صفحة السماء الشهباء ، يشبه الحصان الفتي . وتساءلت : من ترى وجده واعطاه عملاً هنا ؟

وفي اللحظة التالية انتصب واقفاً فبدا أطول مما توقعت ولوح بالابريق ثم بدأ يتجه نحوي ، عبر الساحة .. وكدت أنتصب واقفاً وأصرخ الا انني ، قبل ان اتزحزح ، كان الاوان قد فات ، ورأيته بأم عيني يدوس على الرماد الذي تخلف من نار ليلة امس الكبيرة التي أشعلناها في الساحة ، وقلت لنفسي « اذن ، فالرماد قد برد » وتنفست الصعداء ، الا أنني فجأة رأيت الشرر يتطاير من تحت قدميه الحافيتين وهو يغوص في حقل الرماد الواسع ، ولا شك انني بدوت له مجنوناً وأنا أحدق فيه فاغر الفم يسير بهدوء وثبات فوق النار .

لم انتبه الا حين خطوت الخطوة الاولى فوق الرماد . لقد بدا لي بارداً في ذلك الفجر المسالم ، لم يخطر في بالي على الاطلاق

انه كان مجرد فخ ملعون . وأحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي وكدت اسمع نزيز الدم ينطفىء بصوت مسموع تحت بدني ، وفجأة رأيته ينظر الي بعينين مفتوحتين على وسعهما ، كان ابريق القهوة المستلىء حتى حلقه يرجف في يدي رجفات صغيرة . انه من سوء الطالع ان تسقط الركوة من يدي وتندلق القهوة في ذلك الفجر وجهاً لوجه انا والشيخ سلمان وحدنا في هذا العالم .

وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب وسمعت نبض قلبي جنباً الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين وقلت بيني وبين نفسي « نبي أو مجنون » . ان ضوء الفجر جدير بأن يحبل بالاعاجيب ، ولكنه وصل ، ووقف أمامي بالهدوء ذاته فيما أخذت أحدق الى قدميه ، كان الابهامان فقط يرتفعان عن التراب بحركة راجفة . سكب القهوة بثبات ، ووضعها على الحجر المستدير الى جانبي وتحرك مبتعداً دون ان يوليني ظهره وصرخت : « قاسم ! » فوقف دون أن يقول شيئاً ، وعدت أقول : « ماذا فعلت بنفسك يا فتاح يا عليم ؟ » فنظر وراءه الى حقل النار ، ورأينا معاً دخاناً صغيراً يتعالى من الحفر التي خلفتها خطواته ، ثم عاد فنظر الى قدميه ثابتتين فوق التراب . ثم الي . وانتظرت ان يقول شيئاً الا انه فرش راحتيه محتاراً ، وعاد ينظر الى ابريق القهوة .

وكنت أريد أن يتركني أمضي الا أنه ظل ينظر الي مستثاراً ،

ولم يكن لدي ما أقوله . فهو يعلم انني لو تركت ابريق القهوة يسقط من يدي في ذلك الصباح الساكن ، وأنا وهو وجهاً لوجه وحدنا في هذا العالم ، لما تيسر لي أن أظل هنا لحظة اخرى . ولما تيسر لي أبداً ان أرى « سمرا » مرة أخرى ولكانت قدماي ، على أي حال ، قد احترقتا ايضاً . مضيت الى الأسطبل وأسقطت قدمي في بركة شرب الخيل . في البدء انداحت حولهما غيوم رمادية أخذت تحمر رويداً رويـــداً وأحسست بلسع البرد يمتزج بأنين الجروح ، ثم جاءت «سمرا» فشمت الماء ونظرت الي برهة ثم تقدمت فحكت أنفها الوردي فوق كتفي وقالت لي ان القروح لن تلبث ان تلتحم ، فقمت معها الى كوم التبن حيث جففت قدمي ، وهناك تركتني أتمدد ريثما تجف القروح .

في تلك الظهيرة ، وبعد أن ترك الزائرون ديوانية الشيخ سلمان ، ولد قاسم فجأة ، وصار يرى في الغبسية هنا وهناك . ولم يكن بوسع الناس ان يحكوا عنه الا قصة مشيه الهادىء على النار ، لقد تحدثوا ايضاً عن قدميه الملفوفتين بكوم كبير من القماش المتسخ ، ولكن فيما عدا ذلك ظل قاسم خارج حياتهم ، واذا كان قد دخلها لفترة قصيرة فقد خسر مقابل ذلك شيئاً عزيزاً عليه هو اسمه .. ذلك انه حين رويت القصة لاستاذ المدرسة في مساء اليوم ذاته ضرب كفاً فوق كف وهو يضحك ضحكته الشهيرة التي تشبه غرغرة الابريق وقال : « هذا شيء لا يحدث الا لعاشق » وجامله الشيخ سلمان بضحكة مقتضبة

عرف منها الأستاذ انه مطالب بتوضيح ، فمضى يقول : « ان نار العشق التي تكويه من الداخل أشد حرارة من النار التي داس عليها ، ولذلك لم يحس بها . انه عاشق » ، وهكذا فقد قاسم اسمه دفعة واحدة ، وفجأة .. وفي الواقع كان حضوره ذلك اليوم قصيراً جداً، ففور ان اكتشف الناس وجوده جردوه من اسمه فغاب مرة اخرى ولكن بطريقة جديدة .

ولم أعرف ما حدث الا في المساء ، كنت واقفاً خارج الباب حين بدأ ضيوف الشيخ سلمان يغادرون ، وفجأة قال لي صوت ما : « ليلة سعيدة يا عاشق » وضحك صوت آخر وراءه ، ثم سمعت صوتاً ثالثاً يقول لي يا عاشق وعرفت فوراً انني فقدت الشيء الاخير الذي حملته معي من تلال ترشيحا .

- ٢ -

لا احد ، على أي حال ، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها . . أحياناً يحسب المرء ان قصة ما انتهت فاذا بها تبدأ . ان مستقبل انسان كامل تراه فجأة متعلقاً بحادث صغير لا قيمة له ، ان عقدة المسبحة اصغر من حباتها ولكنها اذا انفكت كرت ثلاث وثلاثون حبة واحدة اثر الاخرى ، واحياناً ينحرف الماعز الاكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله ، وقد يجتاز سياجاً فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويموت ناس وتفقد دواب وتعقد ولائم الصلح فيأكل فقراء القرية ومجانينها وأطفالها العراة وخيلها وبقرها ، ويرى مدعو ما فتاة ما هناك فيخطبها ويتزوجها وتنجب له أولاداً وبناتاً يعيشون ويموتون ويمشي في جنازاتهم رجال لا يعرفونهم خطوات السنّة العشر ويتحدثون وقد يتفقون على شيء او يتشاجرون .

والذي لا شك فيه انه كان مقدراً لقاسم أن يمضي حياته كلها وراء بيت الشيخ سلمان يحادث سمرا وينام الى جوارها

فوق هسيس التبن لو لم يدس ذلك الصباح على الرماد الملتهب ويدخل ، بخطواته الثابتة الجريئة ، الى رأس الشيخ سلمان وذاكرته ، فحين كان الشيخ سلمان يستوي بمهابة في الحنطور صباح اليوم التالي مستعداً للعودة الى بيته في عكا سأله القيم على مزارعه أن يعين موظفاً جديداً يحمل الخضار على ظهور الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد ان ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حماراً وهرب بحمولته الى مكان مجهول تاركاً الحمير الثلاثة الاخرى واقفة على عرض الطريق قرب مقبرة عكا الى أن وجدهم رجل بالصدفة .

وكان الشيخ سلمان على عجلة ، شأنه كلما كان على وشك العودة الى عكا ، ولم يكن في ذهنه ايما شيء ، فقال للرجل الذي كان يقف الى جوار العربة : « دع العاشق يتسلم الحمير . » وخب الحصان يجر العربـــة فوق الطريق المتعرج الموحل ، وصهلت « سمرا » في الساحة الخلفية مدركة انـــه يتعين عليها الانتظار حتى بعد ظهر الخميس القادم كي ترى الشيخ سلمان مرة اخرى ، وأطل قاسم من وراء البيت ورأى الرئيس واقفاً ما يزال في حلق الطريق الضيق فأحس فوراً بأن شيئاً رهيباً سوف يحدث . وفي اللحظة التالية تلاقت أبصارهما :

رأيت في عيني العاشق وميضاً مخيفاً ، ولاول مرة أحسست بأن هذا الرجل المتين الصامت الذي جاءني منذ اسبوعين يستجدي ان أعينه حراثاً يخفي وراء جلدته شيئاً مخيفاً لا سبيل الى نكثه ، انه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فاذا بك غير

قادر على نسيانه ، وبدل ان يتجه مثل كل الناس الى الاشياء تتجه اليه الاشياء من تلقائها . كانت قدماه ما تز الان ملفوفتين بكومين من القماش المتسخ وكان اذ يسير يباعد فيما بينهما وينفضهما نفضاً ، الا انه لم يكن مضحكاً ، كانت سمرا تسير الى جانبه ، وأنا لا أذكر انني رأيت أياً منهما وحده منذ جاء الى هنـــا . لقد وقف ينظر الي من بعيد متوقعاً ان أستدعيه ، وحين أومأت له بيدي تقدم نحوي بثبات ، وقلت له : « فجر غد ستأخذ الخضار الى الحسبة » .

وكان ذلك ما كنت اتوقعه وأخشاه ولكنني حين سمعته ظللت صامتاً كأن الامر لا يعنيني فيما أخذت سمرا تنفض رأسها المتكبر بغضب ، وأخذ الرئيس ينظر الي منتظراً جوابي فيما ظللت واقفاً انظر اليه .

وبدا لي انه لا يريد ، فأفهمته ان كل الحراثين يتمنون أن تكون لهم مثل هذه المهمة ، فهي مريحة ومربحة وتحمل صاحبها مرة كل يوم الى المدينة ، وان الشيخ سلمان اختاره من بين الجميع لهذا العمل وعليه أن لا يخيب أمل الرجل فيه .

واستدار ومضى وتركني مع سمرا عاجزين عن قول ايما شيء . كان يبدو انه يحب وظيفته بلا حدود ، ويسعده ان ينقل الاوامر والطلبات التي يعرف انها لا ترد ، كان معروفاً هنا بسلطته القوية وعناده المستمد من دقته في تنفيذ اوامر الشيخ سلمان وحرصه عليها ، والواقع انه لم يكن يحس بأنه انسان آخر غير الشيخ سلمان ولذلك فحين يكون الشيخ هنا فانه يختفي ، وحين يغيب الشيخ يبدو في كل مكان في كل الاوقات .

وكانت سمرا تنظر اليه محتارة وهو يدق بحذائه الثقيل الساحة الامامية لبيت الشيخ سلمان متجهاً نحو الحقول . وحين غاب استدرنا وذهبنا الى الاسطبل لنلقي نظرة اخرى على الحمير .

لقد كرت المسبحة فجأة بالطريقة التي كان يتوقعها قاسم في أعماق نفسه دون ان يقدر على تحديدها بالضبط : وصل الى عكا في الصباح ، وقبل أن يدور حول الساحة متجهاً الى الحسبة في آخر حديقة البلدية التي تصفر فيها أوراق الكينا زعقت قربه سيارة ، وقرقعت اصوات الاحذية الثقيلة وأصوات أعقاب البنادق المكتومة ، وخشخشت القيود ، ووجد نفسه محاصراً فيما اخذت الحمير ، وقد فوجئت ، ترتد نافضة اعناقها الثخينة وتصدم بعضها بعضاً . وأطبقت الايدي على جسده من كل ناحية ودفع دونما اتجاه مرتين او ثلاث مرات .. الا أن ذلك حدث وكأنه كان يتوقعه بالتفصيل تماماً ، فلم يقاوم ، والواقع انه كان يساعدهم بطريقة ما ، فقد سهل على العسكري الذي كان اكثرهم حماساً ربط القيود حول معصميه ، وتقدم نحو السيارة من تلقائه وصعد اليها دون الاستعانة بأيما شيء ، وألقى نظرة كسيحة على الحمير وقد ظلت واقفة تنفض رؤوسها باحثة عن اتجاه ما .

وحين شقت السيارة طريقها بين الناس الذين تجمعوا نظرت قبالتي . وكنت اتوقع ان أراه هو ذاته كأن ذلك كان شيئاً مرسوماً منذ ولدت . وتلاقت نظراتنا .

كان يبتسم ابتسامة الرجل الذي انتصر اخيراً على غير توقع منه . اسمه الكابتن بلاك . وقد عطلت أنا بلا شك صعود رتبته

ثلاث سنوات كبيرة ، بالاضافة الى المرارة التي سببتها له طوال ذلك الوقت الطويل . نظر الى قدمي أولاً وهو ما زال يبتسم خارجاً من كابوس لا يتصوره العقل ، ثم الى صدري ، ثم الى عيني مرة اخرى ، ثم وجد الكلمة المناسبة فقالها من بين اسنانه :
« وأخيراً يا عبد الكريم ! »

وفي ذلك المساء قالوا في الغبسية : لقد كان العاشق مجرماً خطيراً اختفى هنا فترة من الوقت وخدع الرئيس والشيخ سلمان وكل شيء والحمد لله الذي جعلهم يمسكونه قبل أن يرتكب جريمة اخرى .

وفي الصباح الباكر وصل الشيخ سلمان الى الغبسية على غير توقع من احد ، كان وجهه مضرجاً بالغضب وكان ينتفض . وحين امسك الرئيس بلجام الحصان قفز الشيخ سلمان بفتوة شاب من مقعده وأخذ يركله ، وعرف الرئيس فوراً انه سيدفع غالياً ثمن اهماله في التقصي قبل أن يقبل الموظف الجديد ، فترك المكان مسرعاً وأخذ يعدو .

وأكمل الشيخ سلمان خطواته الغاضبة الى البيت فيما شبت سمرا على قائمتيها الخلفيتين وأخذت تصهل صهيلاً ممطوطاً كأنه النواح . مجرم في منزلي . محكوم بالاعدام . وقال له ضيوفه مهدئين : « ولكنه وقع أخيراً في جزاء أعماله » .. وضحك الشيخ سلمان بمرارة واخذ يهز رأسه . كلا . لم تنته قصته . العاشق هذا ، قاسم . عبد الكريم . الشيطان ذاته . سيعتقد الانكليز انني كنت اخبئه هنا .. من يصدق ان الشيخ

سلمان لم يكن يعرف ؟ لعنة الله عليك يا رئيس يا مجنون .

ثم حلف الشيخ سلمان يميناً بالطلاق ان يرمي الرئيس بالرصاص اذا رآه في الغبسية ، من هنا الى الابد .

اما قاسم فقد وضع في سجن عكا ، في الغرفة رقم ٣٦٢ ، وصار اسمه منذ ذاك : السجين رقم ٣٦٢ .

- ٣ -

العتبة ترتفع ثلاثة أشبار ، وفوقها يلامس كعب الباب الحديدي الاسود البلاط الرمادي الداكن ، طول الغرفة عشرة اشبار وعرضها عشرة أشبار اما سقفها فيرتفع دون حساب ، وفي أعلاه تنفتح كوة صغيرة ينبثق منها قش غاضب . انه موسم الاخصاب عند السنونو ولكنه لا يدخل قط . رأسه فقط يبدو لوهلة مغطى قمّاه بالضوء وحين يرف منطلقاً ، بين الفينة والاخرى ، تسمع الزنزانة صوت الفرح لحظتين خارجتين عن العقل . الجدران من الحجر الوحشي ، منقور وملطخ ومحطم ولكنه لا يعبر عن شيء . انه تاريخ الاظافر واطراف الصحون والملاعق حين تضحي عند الحبيس كل أدوات فراره المهيض . رجال جاؤوا وحاولوا ومضوا أو أصيبوا بالجنون ، وكان السقف دائماً ، أمام عيونهم ، يعلو يوماً وراء الآخر وكانت الارض تنخفض تحت العتبة لحظة وراء الاخرى .

في اليوم الاول أخذت أعوّد نفسي على ذلك الشيء الرهيب :

أن لا أحسب انني في قاع بئر سحيق . كلما نظرت الى السقف ارتددت لتوي الى اللحظة الاولى التي وطئت فيها هذا المكان . جاؤوا بي من الساحة . وصعدت ثلاث درجات ومشيت في ممر طويل ضيق ومنبسط تماماً . لم أنزل درجة واحدة . الغرفة اذن في مستوى الارض وليست بئرا . ولكنني كنت أهوي من جديد كلما نظرت الى السقف والجدران والعتبة ، ومن جديد أعود الى البدء في انتفاضة الفرار التي لا تعوض . حين جيء بي الى هنا لم أنزل درجة واحدة .

ظللت واقفاً فترة مديدة من الزمن كانني جدار خامس . ان الانسان لا يمكن ان يكون الا محصلة تجاربه وهو يفترض دائماً ان الامور ستعبر ، ورغم ذلك يعتبر ان اعتيادها واجب لا فرار منه . جربت وضعين او ثلاثة اوضاع لنوع مريح من الاستلقاء ، واخيراً وجدت الطريقة التي صار يتعين علي منذ الآن أن أقبلها وحدها حالة للنوم . وحين استلقيت على ظهري واضعاً رأسي في الزاوية كي اكسب شبراً جديداً داهمني ذلك الشعور الذي كنت اعرف انه ذات يوم سيقتحمني كالسيف : انتهى الامر . اخيراً يا عبد الكريم . دارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمها الجدار فسقطت كالخريف . انتهى الامر ، كل دروب الهروب لا تؤدي الا الى العقاب ، بطريقة أو بأخرى .

كانت الجريمة في ذاتها عقاباً . كان الاختباء عقابـــاً . كان الانتقال من عبد الكريم الى قاسم عقاباً ، كانت صهوات

الخيل في تلك الليالي الجليدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقاباً ، كان الرعب عقاباً ، كان الصمت عقاباً ، كان المسير على النار عقاباً ، وهذا هو نهاية المطاف . عقاب آخر لو كان اعتاده منذ ثلاث سنوات لما كان ، الآن على الاقل ، يكترث به مثلما يفعل هذه اللحظة . ان الجريمة لا منطق لها وكذلك العقاب . وحين يعتقد المرء انه كان هارباً من العقاب يكتشف فجأة انه كان معاقباً بطريقة خاصة . كنت مطلوباً ، وكي لا أقع صرت مجرماً ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى .

وفجأة يـــأتي العقاب وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت وراء كتفي ويترصد اللحظة المناسبة .

اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد في طول الجليل وعرضه بعد غياب طويل . كالمد عاد فجأة فاذا به يملأ الجرود مرة اخرى ، من الجرمق الى ترشيحا الى جدين الى عكا . طار الغبار عن خيوط غير مرئية وربطها الناس باعتناء شبكة من الاساطير كانت مجرد احداث لا يكترث بها احد ، وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب الحديدي في سجن عكا على قاسم ، او عبد الكريم ، او العاشق ، او السجين رقم ٣٦٢ انفتحت المصاريع عنه في كل القرى التي كانت تتواصل كالشريط البائس الحجول من صفد الى عكا ، صار فجأة موجوداً لحماً ودماً حين غاب ، وحين لم يكن يوجد منه في الحقيقة الا أسماء لا رابطة فيما بينها مثل مزق راية مهترئة جرجرت من ميدان

هزيم الى ميدان هزيم آخر . وحين كان هو ذاته وراء قلعة الحجار . تحت العتبة . في غرفة اضيق من رئتيه اللتين تنفستا الدم والرعب والجرود ثلاث سنين كالدهر .

الشيخ سلمان تحدث عنه تلك الليلة في الديوانية ، كان غاضباً في البدء ولكنه كان يهدأ كلما كان الفضول يغلب على التوقع القلق . الغبسية كلها حاولت تلك الليلة ان تذكره بالتفاصيل ، ومضت سمرا تصهل طوال الليل وتضرب أكوام التبن بحافريها الدقيقين .

الكابتن بلاك تحدث عنه وفي صوته رنة الثأر الدفين الذي انتعش . وفي مركز البوليس في عكا فتحت الاضبارات من جديد ونفض عنها الغبار ، وفي ترشيحا تذكره الناس فجأة وارتجف احمد القاضي حين سمع قصصه ومسح على وجهه كمن ينسرب من كابوس جارح . وتذكر الحج سالم يوم تصدى له رجل طويل ملثم بين الزيتون وسلبه فرسه وتركه مقيداً في الوحل . وتذكر رجال كثيرون قصصاً حدثت لهم ولجيرانهم او كادت تحدث لهم أو لم تحدث لهم ، وتنفس رجال عائلة الرخيّ ونساؤها الصعداء ، وثمة قرى بعيدة عرفت الاخبار ، وقبور سقيت بالماء من جديد وقد تذكرها الناس فجأة ووضعت في مزهرياتها جرود النخيل مرة أخرى .

- ٤ -

قال الكابتن بلاك للميجور ماكلود فيما كان ينفض الغبار عن سترته : سأحتفظ به في سجن عكا من دون كل الناس . اعرف انه صار ينبغي ان يفتح ملفه من جديد ولكنني سأبقيه هنا ، أتفرج عليه كل يوم ، حتى أراه معلقاً . انا لا أصدق انه ظل ساكناً طوال ذلك الوقت الذي اختفى فيه عن ابصارنا . لا بد انه سلب شيئاً هنا وقتل شخصاً هناك وغداً سترى كيف ستتدفق الشكاوى .

وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف : لم أرك في حياتي سعيداً كما تبدو الآن . يخيل الي انك تزوجت .

– تزوجت ؟ أوف ؟ اكثر من ذلك بكثير . انت لا تعرف شيئاً . لست تدري ماذا يعني أن يسقط عبد الكريم أخيراً .

– اعرف . كنت تقول ان ذلك يشابه ان تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش .

ــ انا قلت ذلك ؟ متى ؟

وطوى سترته ووضعها على الكرسي فيما ترك أذنيه مفتوحتين على وسعهما ، وقال الميجور ماكلود :

ــ بعد ان هرب منك آخر مرة ، أعتقد ان ذلك حدث منذ نحو ستة شهور ..

ــ آه . أكثر قليلاً . كان يوماً مرعباً ذلك اليوم خلت فيه انني لن أفقد مستقبلي فقط ولكن حاضري أيضاً .

ــ كنت مغتاظاً جداً يومها ، ويبدو انهم أنبوك بلا هوادة الى حد رفضت ان تروي لنا كيف حدث الحادث .

ــ كان في الواقع سلسلة من المصادفات . كنا يومها في كوكبة من ثلاثة رجال خرجنا لنرافق جابي الضرائب الذي كان قد استعد للعودة من ترشيحا الى عكا ، كنت قد نسيت كل شيء عن عبد الكريم تقريباً ، وعلى أي حال فقد كنت ما زلت اعتقد يومها انه مختبيء في مكان ما حول طيرة دندن قرب يافا حيث شوهد هناك آخر مرة ، وحين كنا على وشك الخروج من البلدة خيل الي أنني لمحت رجلاً أعرفه ، مر من جواري على ظهر حصان مثلما يمر بك اي رجل في أية لحظة في أي مكان من تلال الجليل ، لم ألحظ وجهه الا لبرهة أقل من اللحظة ذاتها ، وحين مر بنا بدأ وجهه يتشكل في رأسي قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة اخرى ، مثلما يحدث حين تمسح بقماشة مبتلة وجهاً عتيقاً مغبراً متآكلاً في لوحة ما ؛ وفيما كانت أصوات حوافر حصانه تدق نازلة رويداً رويداً

ورائي كان وجهه يتكابر صاعداً في داخل رأسي ، مرعباً ووهمياً وعلى بعد ذراع . مثل كابوس فاجأك مرة اخرى ، بعد ان استيقظت ، وراء المنعطف .

ان الزمن خديعة . اصطلاح واحتيال والا لما كانت تلك اللحظة الواحدة اطول من أية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر ، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد ، ان تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته ، للآخرين ، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها . دور الحصان عنقه فيما اخذت تخش على جسده المشدود أجراس الفضة الصغيرة ، ورفعت بصري فاذا به ، الكابتن بلاك ، أمامي .

كان مشغولاً باحصاء رجاله وترتيب مسيرتهم الصغيرة فتقاطعت نظراتنا تقاطعاً خاطفاً دون ان تتصادم ، ومن ساقيّ اللتين كانتا تشدان حول ظهر الحصان العاري انتقلت الى جسده رنة القشعريرة فانتفض ، ولكني لجمته ومضيت هادئاً مثلما كنت ، احصي دقات الحوافر تحتي وورائي متوقعاً ان تنقض السماء أو تتراجع في وهلة واحدة .

وتكوّن في رأسي مثل زوبعة صغيرة . انه عبد الكريم بلا شك وانا الذي اعرف ، وقبل ان أستدير اسمعته صوت البندقية تتأهب ومغلاقها يتراجع ويرتد ، وصحت : عبد الكريم ! قف والا أطلقت النار !

ووقف الحصان من تلقائه ثابتاً ولكنه ، مثلما أردت ، لم

يستدر ، كان الفرار موتاً ، وبدأت شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الاخرى وتسقط في صدري فأسمع أصوات تقوضها كالعويل . مرة اخرى ، اذن ، يا كابتن بلاك .

وعرفت لتوي انه يدبر لعبة أخرى ، ويقف هناك يفكر في تنفيذها ، فغيرت مكاني بهدوء كي افشل افتراضه دون ان أزيح عيني عنه وهو مستو هناك على ظهر حصانه يعطيني ظهره ببرود ، كان حصانه عارياً ولكنني لم أكن متأكداً من انه لا يحمل ، في مكان ما تحت قميصه الفضي ، سلاحاً .. وقلت بهدوء وقد استعدت رباطة جأشي : انزل عن الحصان وتقدم رافعاً ذراعيك .

وبدأت أنــزل عن ظهر الحصان دون ان يكــون في رأسي شيء معــين ، ولكنني قبل أن المس الارض سمعت صوت الكابتن بلاك ترن فيه الشماتة : « عبد الكريم ... هنا ثلاث بنادق مصوبة اليك تماماً ، لا ترتكب أية حماقة » .

ونزل بهدوء ، مثلما رأيته دائماً ، واستدار كأن الامر لا يعنيه ، رافعاً ذراعيه ولكنه لم يتقدم ، وتبادلنا النظر وفهم كل منا ما حدث ويحدث وسيحدث دون كلمة واحدة ، وأغلب الظن انه رأى نجمة جديدة تلمع على كتفي حين رأيت في اللحظة ذاتها سواداً قاتماً يحيط بعينيه ، وقبل أن أطلب منه التقدم خطا جابي الضرائب الى الامام وهو يتنفس الصعداء :

– اي عبد الكريم هذا يا كابتن بلاك ؟ نحمد الله انك لم تطلق الرصاص على ظهر هذا الرجل البريء .. انه حسنين . أحد جامعي التبغ عند الحاج عباس ، كل ترشيحا تعرفه .

وكنت أشعر تماماً ان الكابتن بلاك ظل طوال الشهور الستة الماضية فوق هذه الحديعة وخارجها ، وان الامر لن يغير شيئاً ولكن ربما يعطيني لحظة أخرى أفكر فيها ، ومثلما توقعت ضحك الكابتن بلاك تلك الضحكة العصبية التي تبصقها اسنان رجل يعرف انه لن يستطيع ان يكسب النقاش الا فيما بعد ، وهز بندقيته وهو يشير نحوي صائحاً :

ـ انه عبد الكريم ، وانا الذي أعرف.. تقدم ببطء الى هنـــا .

وحدث الشيء الرهيب قبل ان اتم جملتي . كنا نقف وراء المنعطف مباشرة حيث لمحت عبد الكريم لاول مرة ، وكان يبعد عنا حوالي خمسة امتار ولكن وجهه كان متجهاً نحو المنعطف ، وهكذا فقد شاهد تلك الشاحنة اللعينة قبلنا حين أطلت بأنفها الاحمر منزلقة بلا صوت تقريباً حول الطريق الموحل ، وفجأة انقلب كل شيء رأساً على عقب ، وفيما كان السائق يكبح شاحنته تطايرنا من امامه ناجين بأنفسنا ، وهكذا طار عبد الكريم مثل حلم .

كنت قد بدأت أخطو حين رأيت الشاحنة فجأة تسد الطريق فتفتح امامي ابواباً لا حصر لها ، لقد دارت اللحظة الراعبة دورتها الجنونية ، ووقف الكون كله على صهوة جواد . كانت الجياد جميعاً تقف على طرف الطريق تتلهى بالتهـــام العشب ، وقد لمحت الكابتن بلاك يدور حول نفسه مذعوراً حين كنت اعتلي صهوة اقرب جواد الي ، وحماني المنعطف

عن ابصار الجميع ، وضربت كالريح في الوعر الذي يستعصي على الماعز .

لم يهرب عبد الكريم فقط ولكنه هرب ايضاً بحصان الجابي ، وفي سرجه ضرائب منطقة ترشيحا كلها ... آلاف من الجنيهات مرتبة ومربوطة وكان من المفترض ان أكون مسؤولاً عنها وحامياً لها ... انت لا تستطيع يا ميجور ماكلويد ان تعرف كيف اسودت الدنيا في عيني : فهاءنذا أقف هناك ليس مهزوماً فقط أمام عبد الكريم ولكن أمام كل الجليل ، ومن حيث اعتقدت انني سأنتصر زججت نفسي في معركة خسرت فيها شيئاً جديداً ، لقد فجأتنا الحادثة جميعاً ، ولكن جابي الضرائب كان اول من استرد وعيه فقفز كالضفدع المذعور الى حصان عبد الكريم العاري وحين استوى على صهوته نقّل الجواد الابيض خطواته مكانها كي يحفظ توازنه ثم وقف كتمثال ، وعبثاً راحت جهود الجابي وأزيز مهمازيه وسلخ سوطه ، فقد ظل الحصان واقفاً كأن الامر لا يعنيه ، وكان علي ان اتصرف بسرعة فأرسلت جندياً الى ترشيحا كي يبلـغ ويستنجد ، وأرسلت الجندي الآخر في اعقاب الشاحنة خشية ان يكون سائقها متواطئاً ، وعدوت انا ، على ظهر حصاني ، في اثر صدى عبد الكريم ...

ولكن ذلك كله كان عبثاً : فلا سائق الشاحنة كان شريكاً في الحدث ، ولا النجدة وصلت في وقتها ، ولا انا عثرت على عبد الكريم ... أتدري ؟ كنت أقول لنفسي وانا عائد مع

الخيبة والمرارة والتعب ان الارض ذاتها هي المتواطئة والشريكة ، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك أولاً ان تلقي القبض على الارض ... انك تبتسم ، ولكن لو كنت مكاني لفعلت مثلي ، وقفتُ فجأة واخذت اطلق الرصاص على الشجر ، على الصخر ، على البلان ، على شقوق السيول ، على الطرق الرفيعة التي تطل وتختبىء ... وكان صدى الطلقات يمضي في ذلك العراء ويرتد الي كالقهقهات ، وكان عبد الكريم ذاته وراء كل شيء في ذلك الجرد ، يقيسني بعينيه اللامعتين الخبيثتين ويضحك ، مع الارض ، على غضبي ...

كانت حوافره ثابتة كأربعة مسامير وهو يضرب فوق الشوك والصخور ويلتزم المنحنى مثل من تعلم ان يهرب ، وسميته « ريح » فاستجاب دون تردد ومضى ينفض عرفه معتزاً وقابلاً لشراكة الفرار ... وبعد نصف ساعة عرفت انني ضيعتهم مرة اخرى فابطأت ، وعندها فقط شعرت بالخرجين تحت فخذي ينطان برفق على ظهر « ريح » ، لوهلة حسبتهما محشوين بالطعام ، ولكن الملامسة خيبت املي .

نزلت وانزلت السرج وفتحت الكيسين فاذا بالمكان الاجرد يزهر بتلك الاوراق الخضراء ، واذا باللحظات الخارجة عن العقل تدور دورتها الجنونية من جديد ، فهأنذا رجل غني ، اغنى مما كنت أحلم وانا طفل ، ورغم ذلك فانا لا استطيع أن اشتري شيئاً ، ولا حتى كسرة خبز وليس لي في هذا الكون كله ، من أوله الى آخره ، انسان أستطيع أن أعطيه شيئاً ...

وفي الوقت نفسه فقد اضفت من حيث لا اعي صفحات سوداء جديدة ، مثيرة للغضب والهياج ، في سجلي الموجود في مكان ما ينتظر ان ينفض عنه الغبار ذات يوم ...

والكابتن بلاك المسكين أيضاً ! يا لغرابة هذا الكون الرهيب. فحين حسب انه استرد اسمه على ذلك المنعطف الجنوني خسر ، في لحظة كالبرق ، كل ما تبقى له من ذلك الاسم العريق الذي كان مرهوباً ذات يوم ... ان شفقتي عليه تزداد في الوقت الذي تزداد فيه رغبته بقتلي ...

رفعت الاوراق الخضراء جاعلاً من اصابع كفي مشطاً كبيراً واخذت اقلبها مثلما الفلاحون يفعلون بأكوام السنابل ، وكان يكتسحني شعور أعرفه ينتابني حين احمل بندقية غير محشوة في لحظة تحبل بالخطر . وهمهم ريح وهو يرصد بأذنيه أية حركة يمكن ان تنأم حوالي فنظرت اليه مخلوقاً قادراً على ان يعطي دون حدود ودون مقابل ودون كلمة واحدة ، وفي عينيه الواسعتين برق الحل :

ليس بوسعنا ان نفعل شيئاً الا ان ننتظر نهاية هذه اللعبة . اخذت أحفر بهدوء وهو ينظر الي ، ثم أعدت النقود دون ان أعدها الى كيسها الجلدي . حفرت عميقاً في الارض حتى عجزت ، وضعت الكيسين فوق بعضهما ورصفت الحجارة فوقهما وحولهما ثم أعدت التراب ، وفي التراب زرعت من جديد شجيرات الشوك التي اقتلعتها في البدء بعناية ومن جذورها وقست المكان بعيني وخطواتي وتذكرته جيداً ، وعدت الى

صهوة ريح فأخذ ينحدر وحده على السفح هادئاً ، فيما أخذت العتمة تتسلق السماء وراء الجبال البعيدة .

وسميت نفسي « قاسم » ، وكان « ريح » اول من عرف ، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلاً ونتحادث ونغني بصوت خفيض ونبحث عما يتعين علينا ان نفعل ، وفي الصباح التالي اتفقنا ان نودع بعضنا ، فليس من الصالح بعد ان نظل معاً ، نزلت عن صهوته حين كانت الشمس تشرق ومشطت عرفه باصابعي فنوّح دون ان يفتح فمه وأخذ يهز رأسه وينفض عنقه وينقل حوافره وهو على باب قرار صعب . ثم استدار فخبطت راحتي على مؤخرته ، مضى بطيئاً اول الامر وهو يطأطىء رأسه ، ثم انطلق فجأة دون ان يلتفت واخذ يرفّ في ريح الصباح كالراية حتى غاب في الغبش .

- ٥ -

نام الكابتن بلاك ملء عينيه تلك الليلة . كان يصحو احياناً وهو يخشى ان يكون ما حدث مجرد حلم ثم يعود فيغفو دون ان تذوب الابتسامة عن شفتيه الحمراوين ، وكان الميجور ماكلويد يراقبه وهو يخرج من كابوسه الطويل ... ان الميجور ماكلويد يعرف تماماً بأن الكابتن بلاك سيكون اول من يبكي على عبد الكريم اذا ما شنق ... فقد كانا ، رغم كل شيء ، عائلة واحدة .

وطوال شهور مديدة كان عبد الكريم كل شيء في حياة الكابتن بلاك ، يمثل امامه ، ليل نهار ، اليأس والامل والخيبة والانتصار والدين والسداد في آن واحد . كان جزءاً من مشاعره واضحى دون ارادته مقياسه للامور والاشياء . وحتى عيد الميلاد كان بالنسبة للكابتن بلاك مناسبة يقيسها على عبد الكريم ، وهو لن ينسى يوم قال له كئيباً : « بودي لو استطيع ان اتمتع باجازة

الميلاد » وصمت قليلاً ثم أكمل : « ان اقبض على عبد الكريم قبل العيد » .

ولكن العيد مر . ذلك العام ، دون ان يقبض عليه ... كان قريباً منه الى حد كان يشمه مثلما تفعل كلاب الاثر . ورغم ذلك فقد استطاع ان يفر من اصابعه . وشغل الكابتن بلاك شهوراً بعد ذلك الحادث وهو يتعقب عبد الكريم ، شهوراً ضائعة بلا ادنى ريب ... فها هي الاحداث تقول انه في الوقت الذي كان فيه الكابتن بلاك مشغولاً بالبحث عن عبد الكريم في الجنوب كان عبد الكريم يختبىء خلف اسم حسنين ويقطف التبغ بسلام في حقول الحاج عباس في ترشيحا !

ولكن الحاج عباس . حين استدعي للتحقيق اثر حادث حسنين مع الكابتن بلاك وجابي الضرائب ، لم يكن يعرف شيئاً... كان مثلنا جميعاً ضحية رخيصة لذلك الرجل الصامت . فقد جاء حسنين الى بيته في ترشيحا مشعثاً ممزقاً منهكاً ، قبل نحو عام من الحادث وطلب مثل عشرات من الفلاحين في الموسم . ان يلتحق بحقول التبغ يقطف وينضد ويحرس وينقل ويحصي . كان يصطحب فرساً سوداء وصرة صغيرة واوجاعاً في معدته ولكنه كان رجلاً قوياً وفي ملامحه ما يطمئن .

كانت زينب قد كبرت فجأة في بيتي . انبثق جسدها على حين غرة تحت ثوبها كأن الامر قد تم بين العشية والصباح ... كنا قد نسيناها تقريباً ، واعتاد الناس ان يقولوا : زينب ابنة الحاج عباس . وكانت تعيش في بيتي منذ كانت في الثالثة

وكانت تقول عني والدها وعن زوجتي امها ولكنها كانت بلا شك تعرف الحقيقة ولا ترى لزوماً لتعريفها أو التذكير بها ، ان الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين رأيت حسنين للمرة الاولى واقفاً امامي يطلب عملاً دون ان يلح ودون ان يتكلم كثيراً ودون ان تبدو في صوته رنة استجداء صغيرة . نظرت فوراً الى اصابع يديه . وحين لم ار أي خاتم فيها قلت لنفسي : هذا هو زوج زينب .

ولكنني سألته ان كان متزوجاً فاجاب بالنفي . وسألته عن اهله فقال انه يعرف فقط ان امه عادت الى حوران حين ارسل لها اخواله نعي والدها وتركته وحده يتدبر امره او يلتحق بأخواله . وانه يعمل الآن ليجمع قليلاً من المال يعيده الى بلدة امه التي لم يرها في حياته . وقلت لنفسي : « هذا هو الرجل » وكان كل ما احتاجه قليلاً من الاصطبار .

ان الأقدار تتساقط على رؤوسنا كالمطر من حيث لا ندري ولا نتوقع . وها هي حكاية زينب تدور دورتها الواسعة ثم تصل الى نهايتها اللائقة ... الم تكن امها . هي الاخرى . من حوران ؟ يا رحمة الله عليك يا زيد ! .. أكنت تدري حين فعلت فعلتك ان السماء لا تنام ؟ يومها نقم الناس جميعاً على تلك الزيجة وقالوا : ذهب زيد الى يافا وعاد بعروس من

حوران ...

وصعقت قرى ترشيحا كلها حين عرف ناسها ان العروس كانت خادمة عند بيت الرخيّ . ولكن لو فكروا يومها هكذا : ومن هو زيد ؟ انه فلاح منفرد لا يعرف أبعد من ابيه ولا يعرف احد من أين جاء ، التحق بزراعة التبغ اجيراً وحين صار في جيبه خمس جنيهات سافر بها الى يافا فاذا به يتزوج هناك ويعود بها ... فماذا كان سيحدث ؟

ولكن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركاً في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون ان يترك لهما شيئاً ... وقلنا يعود زيد اليوم ، ويعود زيد غداً ويعود بعد اسبوع ويعود بعد شهر ... ولكنه لم يعد الا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار . وقال الناس : هذا زيد وهذا بيته . وساق الأنكليز الحمار الى البيت ، واطلت زوجته ونظرت اليه وقالت للعسكر : « انا لا اعرف هذا الرجل » ... مسكينة ، حسبت ان ذلك سوف يحميها من العقاب ولكنها كانت امرأة بلا ظهر ، وحيدة اكثر من فأرة الحقل زمن القحل ... وحين اخذوها جاؤوا بزينب الصغيرة الى بيتي . وقلنا : تعود امها اليوم ، وتعود غداً وتعود بعد شهر ، ولكنها

لم تعد ، ولم يعرف احد ماذا حدث .

لقد التحق زيد بالشيخ القسام في تلال يعبد مجذوباً بالكلمة القصيرة الكافية التي كان يقولها ذلك الرجل : موتوا شهداء . فمات زيد وضاعت اخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا . وقالت زوجتي : نتركها هنا ، وغداً تكبر فتخدم وتنفع ويأتي نصيبها فتتزوج ونكسب ثوابها ... فأي ثواب اكثر من ان نزوجها لرجل لا يعرف عنها الا أنها من داري ؟

طويت الفكرة في رأسي بانتظار الوقت المناسب وقلت لحسنين : « اذهب الى الحقول ، وستجد العمل هنا مريحاً ومربحاً اذا كنت انت مريحاً ، وعلى أي حال فان سلوكك وحده هو الذي سيحكم عليك ، واذا كنت طيباً فسترضى » .

- ٦ -

وأخذت أنظر الى الحاج عباس جالساً وراء سبحته المصنوعة من بزر الزيتون وقد لمعت حباتها بين اصابعه الثخينة . ورأيت في عينيه الباسمتين ما يشبه الفخ . أتراه يعلم ؟ انه يريدني لصفقة صغيرة مجهولة . الايام وحدها ستظهرها . أتراه يعلم ؟ أيريدني ان اقتل رجلاً واتركه يمسح اصابعه في قميصي الملطخ ؟

ولكنني كنت اريد العمل بأي ثمن فقد كان العمل بالنسبة لي اكثر من طعامي وشرابي . كان مخبأي بعد ذلك الحادث التعيس وكنت لا أملك في هذا العالم الا مرتينة جيدة مدفونة في مكان لا يعرفه أحد . وحقداً أحمر يطل من حدقتي الكابتن بلاك اثر النزال الاخير بيننا أمام شجرات الصبار الوحشي في الطيرة .

كان حسنين يرتجف . ولكن بكبرياء .. وأحسست وأنا انظر اليه واقفاً هناك ينقب في كلماتي القصيرة انني أمام رجل

خاص . أجل . هذه هي الكلمة . رجل خاص لست تستطيع ان تعرف عنه اكثر من احساسك به ، وسيظل يطوي سره بعناية مثلما يتوجب علي ايضاً . لقد عبرت الصفقة بيننا في ذلك الصمت الصاخب فبت في اللحظة ذاتها التي عرف فيها انني أخبيء له سراً اعرف انه يخبيء هو الآخر سراً آخر في المقابل ، وحين جاءت هذه الفكرة الى رأسي نظرت اليه فأخذ يبتسم ابتسامة صغيرة ، كالمصافحة ، ودون ان يقول شيئاً استدار ومضى .

ذهبت الى الاسطبل فوضعت « الهيجا » في مربطها وعلقت لها واستلقيت على كوم التبن جاعلاً من صرتي وسادتي واخذت أنظر اليها واقفة هناك تضرب حوافرها برضى ، فهي الاخرى وجدت سقفها ومربطها بعد طول طراد ، ان الخيل تشبه الشجر وبوسعي التيقن من هذا حين ارى هيجا بالذات تقف على قائمتيها الخلفيتين وتخبط ذراعيها في الهواء رافعة عنقها الطويل الى الاعلى مصدرة صهيلاً راجفاً مثل صوت الريح حين تتسرب عبر أغصان شجرة متوحدة ، في أي أرض كنت يا هيجا ؟

ان اقدار الخيل مثل اقدار الرجال ، أفي ذلك ايما شك ؟ ومثل اقدار الرجال تتلاقى اقدار الخيل في البراري وتحت جبال الليل ، ولولا ذلك لما لاقيت الهيجا ، ولما كان بوسعي ان أكمل فراري من الطيرة ، لقد هربت بعد اللقاء الاخير مع الكابتن بلاك راجلاً وفي يدي بندقية جديدة ، وبعد ليلتين

سلبت فرساً أصيلة من رجل كان يغني وحده في الليل وكنت اعرف ان علي التخلص من هذه الفرس في أول فرصة ، فأنت لا تستطيع ألا تكون معروفاً حين تكون مع فرس أصيلة معروفة ، ولكن أقدار الخيل تتلاقى مثل أقدار الرجال ، وفي الليل ، بعيداً وراء تلال طولكرم وعلى مدارج كفرعناب سمعت أصوات حوافر تسترق الخطو ، فقلت : أستبدل فرسي . رفعت كوفيتي حتى جفني وتيبست مع الحصان وراء المنحنى ، ورأيت شبحهما يندمج كتلة من السواد ، ولكنه رآني في اللحظة ذاتها وسمعت فولاذ بندقيته يمضغ الطلقة ، وقال صوت بدوي : أهذه فرس أصيلة ؟ ولم أجب فتقدم على ظهر فرسه خطوة ، وتبينت جزءاً من وجهه النبيل المتكبر وقال لنفسه : انها فرس اصيلة . ودار حولي واثقاً من فرسه ثم دفع فوهة بندقيته في خاصرتي وقال : وأنت أيضاً سرقت هذه الفرس .

وهززت بندقيتي برفق وحركت فرسي حوافرها وشمت بصوت مسموع ، وكانت الصفقة تتم ببساطة بيننا نحن الاربعة ، انزل بندقيته وقال : اعطني فرسك وخذ فرسي ، ونزلت عن صهوتها في اللحظة التي نزل فيها ، ونظر اليها وهو يعطيني اللجام وقال ، كأنه يحادثها : انهم يسمونني ابو الهيجا ، سرقت هذه الفرس في البادية وجئت أستبدلها هنا ، وسأعود بفرس لا يعرفونها .. ونظر الي :

وهذه فرس لا يعرفونها هنا .. وبهذه البساطة تداخلت أقدارنا نحن الاربعة في بعضها ، امتطى فرسي وامتطيت فرسه

واسميتها « هيجا » ومضينا دون أية كلمة . عاد هو الى باديته وراء الحدود وضربت انا مع هيجا شمالاً ..

من أي أرض جئت يا أصيلة ، يا امرأة ، يا شجرة ؟ كانت تغطس رأسها في التبن وتمضغ بدعة ، وجاء الرئيس فنظر اليها ودار حولها فبادلته النظر . ومشط عرفها بأصابعه ثم جاء نحوي دون أن ينظر الي وجلس الى جانبي وهو يفتح علبة من المعدن الصدىء ثم دفعها نحوي وهو يقول : لف سيجارة ، انه تبغ ممتاز . وأخذنا نلف سيجارتين صامتين ، وبلعت الدخان حتى قرارة رئتي فاغتسلت أعماقي بشهوة لا مثيل لها وكان ينظر الي فاحصاً دون ان يقول شيئاً . .

لقد شاهدت في حياتي عدداً قليلاً من الرجال يجترعون الدخان بهذه اللذة ، وكان حسنين منهم . لا شك انه اشتهى هذه اللفافة منذ ولد . وربما جاء الى هنا كي يضع دخانها في صدره ويمضي ، لم يبد في تلك اللحظة راغباً في اي شيء آخر من الحياة كلها ، وكان كل شيء في هذا الرجل يقول لي انه سيكون فلاحاً صعباً . وقد تعلمت دائماً ان الرجال الذين يمتلكون فرساً أصيلة يصعب التعامل معهم من فوق ولذلك . فهم لا يبيعونها حتى لو فتك بهم الجوع ، انها — لهم — أكثر من صهوةأمينة ، انها ملاذ وصديق وشقيق في وجه العالم .

وقال لي : « أنا الرئيس هنا ، قال لي الحاج عباس عنك . وغداً سنبدأ معاً » . ولكنني كنت أعرف انه يريد ان يقول شيئاً آخر ، وخذله صمتي فقام بطيئاً ، وعاد الى الهيجا فخبط

يده برفق على ظهرها العاري ونظر الي :

— « انها فرس لا تقدر بثمن » وهزت هيجا رأسها برضى وحكت أنفها على ظاهر يده وعادت الى علفها ، وقال الرئيس قبل ان يترك المكان « سيكون لنا حديث طويل غداً » ، واذ خرج جاء رجل آخر وقف على الباب وهتف : الحاج عباس يريدك يا حسنين ، وقمت ، وكان الحاج عباس واقفاً امام الاسطبل ينظر الى ثلاثة اكياس من الطحين ملقاة فوق بعضها ، واشار نحوها دون ان ينظر الي ، وتطوع الرجل الآخر فحكى : « يريدك أن تدخلها الى البيت » ، وسحبت كيساً فوق بلاط المدخل الخشن ، ثم استدرت وعطفته على ظهري ودخلت ، وورائي جاء صوت امرأة يقول « الى الامام قليلاً » ، وحين وضعته نظرت اليها فقالت وهي تبتسم : أنا زينب .

ولم اكن على استعداد لأرى ذلك الوجه حين استدار الظهر المغبر بالطحين ، ولكنني حين فوجئت بعينيه السوداوين تنظران الي لم اجد شيئاً اقوله غير اسمي ، كان شاباً في أواسط العشرين ان كنت أحسن تقدير الاعمار ، صلباً طويلاً وله كفان كبيرتان تلفتان الانظار . انهما تذكران بالحائط . وكان قميصه الفضي ممزقاً ومفتوحاً عن صدر أسمر مشدود العضلات ، وكانت عنقه مشعرة وقوية تحت ذقن تكاد تكون مربعة كحجر محطم سقط هناك بالصدفة ونبت عليه طحلب أسود شرس وقصير .. وحين نظرت الى كتفه لاحظت ذلك الخط الداكن الذي خلفه هناك ، بلا ريب ، حزام بندقية . واستدار دون

ان يقول شيئاً وخرج . ومن شق الباب رأيته يعالج الكيس الآخر بقدمين ثابتتين كجذعي شجرة . وسمعت « عبود » يقول له : « قول الله يا حسنين » فقلت لنفسي : اسمه حسنين.

ودخلت بالكيس الآخر وتركته ينزلق عن ظهري الى جوار الكيس الاول ، ومرة اخرى سمعت صوتها يقول : « الله يخليلك هالهمة يا حسنين » فهززت رأسي مشغولاً بتسوية الكيس واقفاً ، ولكنها قالت : من أين أنت ؟ وحاولت أن أجيب حقاً ، ولكنني سمعت صوتاً ورائي ، وجاءت خطوات الحاج عباس هادئة كأنها تسترق شيئاً فعدت أدراجي الى الخارج لاحمل الكيس الثالث وظل الحاج عباس واقفاً الى جوار زينب . وحين رجعت بالكيس كان ثمة شيء جديد في جو الغرفة الرطب استشعرته في نظراتها الي .

ووقف وأخذ ينظر الينا واقفين معاً ، زينب وأنا ، كأننا أب مع ابنته حقاً ، وعندها طلبت منه أن يسوي الكيس الى جانب الكيسين الآخرين ففعل دون تردد ، لقد بدا الكيس أصغر من المعتاد وأخف وزناً حين شاله من أذنيه بين ذراعيه القويتين وحطه دون عنف في المكان المناسب ، وفجأة وجدتني أقول له ما كنت أنوي أن أقوله له بعد شهر أو شهرين :

ــ سأعطيك زينب يا حسنين ان نويت على الخير .

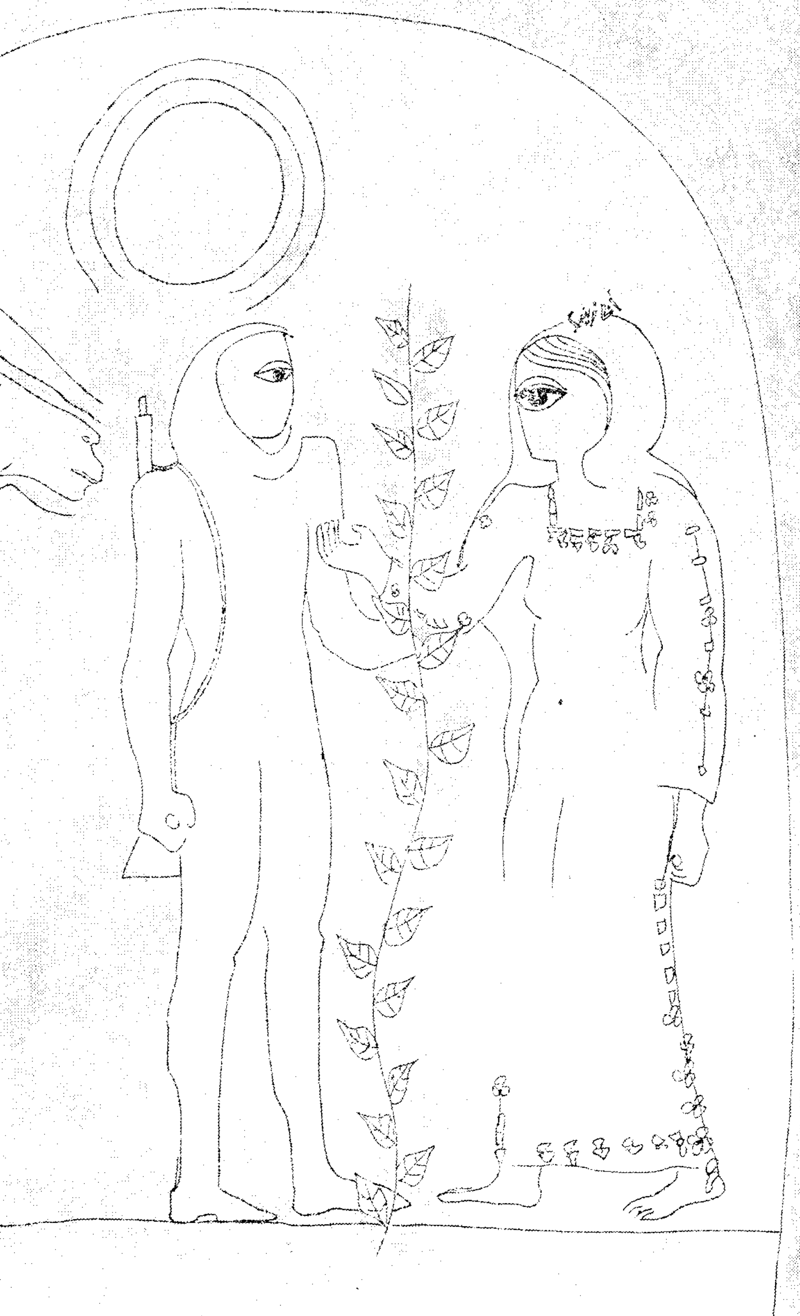

- ٧ -

وكنت أتوقع أن يحدث كل شيء . تلك اللحظة ، الا أن أسمع الحاج عباس يلفظ تلك الجملة بهذه البساطة ، وكأنما من وقع اللطمة المفاجئة طار بصري الى زينب دون ارادة مني فاستدارت منتفضة وهرولت صوب الباب . ولكنني ، في أقل من اللحظة ، شهدت وجهها ورأيته جميلاً حقاً ، وضحك الحاج عباس بما يشبه الغرغرة ، مثلما يضحك الرجل الذي يرغب في ترقيع موقف مليء بالثقوب وتقدم نحوي خطوة واخذ يضرب كفه العجوز على كتفي وهو يقول :

انها بنت طيبة ، ضع عقلك في أسك .

الأعمى والأطرش

الأعمى والأطرش

- ١ -

سيقال فيما بعد ان ما حدث كان مستحيلاً ، أما الآن فالأبعدون يقولون انها مغامرة ، وانا أقول انها الولادة . ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، والمسألة مسألة وقت ليس غير . كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتهي . ان المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس ، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحي جزءاً من الاشياء ، تبدو ، ثمة ، ناقصة دونه .

وقد كنت أسمع دائماً عن قبر الولي عبد العاطي وعن شجرته ، ولكنني لم أكترث قط . لقد حجت أمي ، حين كنت لا اعرف الى أين تحملني وتمضي ، الى قبور كل الاولياء الصالحين ، المزروعة في كل حي وعلى درب كل قرية ، وسكبوا هناك على عيني من الزيت والدعاء ما يذوب جبلاً من الصمت والعناد ، ولكن شيئاً لم يحدث ، كأن العمى كان

شيئاً مكتوباً علي منذ البدء ، والى النهاية .

ومضت الآن سنوات لا حصر لها على تلك الايام ، حين كانت تضعني أمي على كتفها وتمضي ماشية كأنها تغوص في بحر لاقرار له، وكنت أحس المسافة على جبهتها حين تنزلق اليها كفي الصغيرة فألمس فوقها طوفاناً من تفصد العرق التعيس . ولكننا كنا نعود دائماً من قبور الاولياء كما كنا نذهب ، تضيء أمي طريقنا بعينيها الباكيتين الراجيتين ، وأتعرف أنا الى مسافة الرحلة من العرق المتفصد على جبهتها ...

ولقد يئست . أقول لك يا حمدان انني يئست . ولو كنت جذع شجرة زيتون لتعبت ، عصرت على عيني كل أعشاب الارض ، وتركت أكف الآلاف من الاتقياء والدجالين تمر فوقهما فلا تزحزح راقة واحدة من راقات العتم الابدي الذي كان يوصد بين جفني بوابات ليل ضار ، لا نهاية له ، وذات يوم اكتشفت العبث كما تكتشف انت المبصر شروق الشمس . انت تعرف تلك اللحظات العجيبة التي تساوي العمر كله . كانت لحظة من ذلك الطراز الذي لا يقهر والتي تجيء وهي عازمة على عدم الارتداد . ومذ ذاك وانا جالس ، كما تراني ، ارشو الظلام بالصوت ، وأنسى . انت يا حمدان ما زلت صغيراً ، تتصور القدر ضربة صدفة لا تزحزحه الا ضربة صدفة اخرى ، وبعد أن مضى كل هذا العمر تقول لي أن

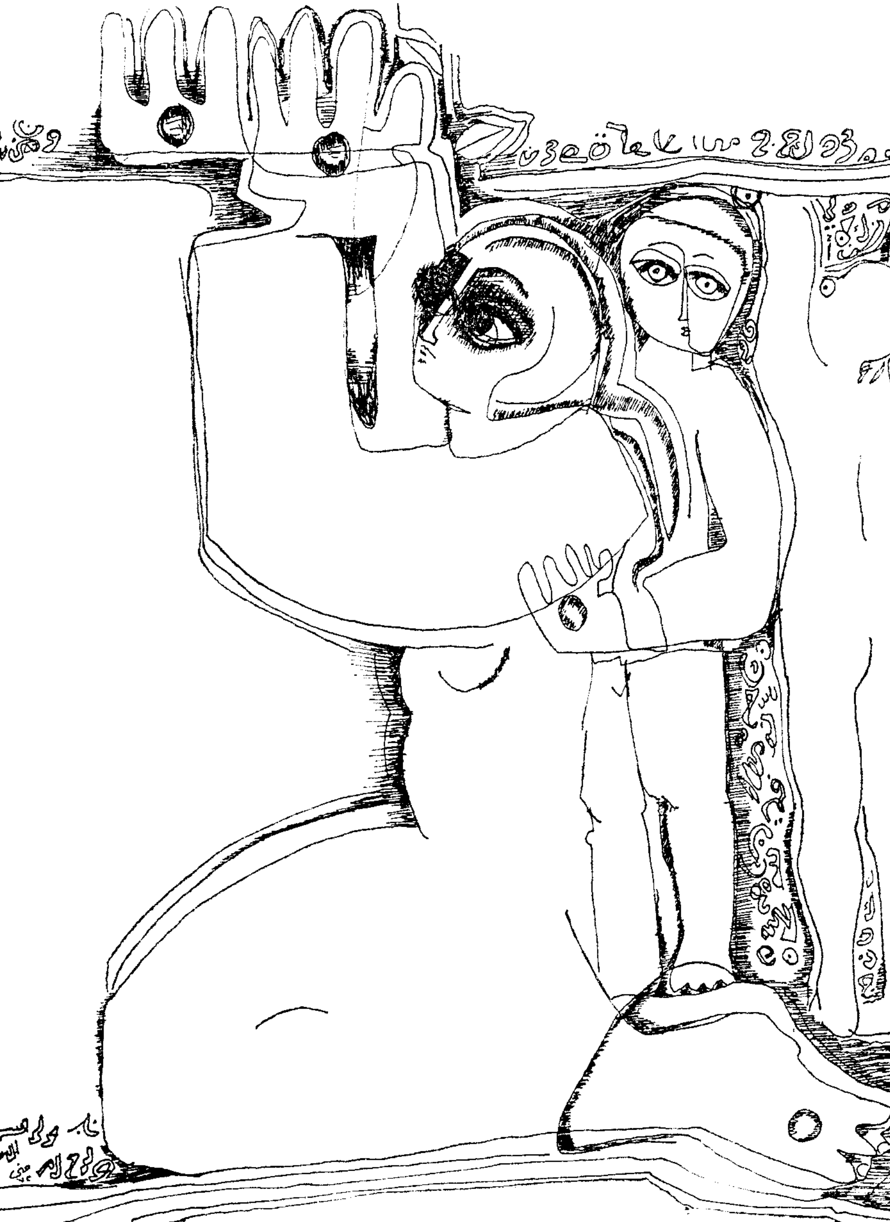

أمضي الى قبر الولي عبد العاطي ، حيث قام الكسحاء يركضون ، والخرس ينطقون ، والعواقر يلدن ؟ أتريد أن اركب تلك الارجوحة مرة أخرى في عمر واحد يا حمدان ؟ اتريدني مرة أخرى أسير ذلك الامل التافه المروع ؟

قبر الولي وشجرته ! واليوم تقول انهم رأوا رأسه الوقور يتجه بالدعاء الصامت الى السماء ، معلقاً بين فرعي الشجرة . تقول انه يبدو وكأنه نما هناك كما ينمو الثمر ، وانه يكاد يخاطب الناس . لقد سمعت هذه القصة في مكان آخر ، ذات يوم ، وذهبت الى هناك . لا ، ليس مرة اخرى يا حمدان ، ليس مرة اخرى ، ان العمر الواحد لا يتسع لاكذوبتين كبيرتين .

ولا بد ان حمدان ابتسم ، فأنا أحس ذلك بصورة غريبة اعتدتها منذ زمن لا ترقى له ذاكرتي ، أكان يعرف انني سأذهب ؟ أكان يعرف عمق تلك اللعبة الهائلة التي نسميها الامل المهيض الجناح ؟ سمعت خطواته تمضي بعيداً عني الى بوابة بيت النار ، ليخبز دفعة جديدة من الخبز ، ولكن مهما كان يحسب ، فانني أعرف ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، وان القصص تبدأ هكذا ، وهكذا تنتهي . لقد قذفتني أقدار تعمل من وراء ظهورنا الى هذا المكان ، وانا أتساءل بين الفينة والاخرى عما يستطيع الاعمى أن يفعل غير أن يبيع خبزاً ؟ ان الرغيف وحده هو الشيء الوحيد الذي يمكن ان يرى بالاصابع ، تماماً مثلما يرى بالعين . وحين يصل الامر

الى الرغيف فان أحداً لا يستطيع أن يخطىء . حتى الرجل الضرير الذي ولد ، لسبب ما ، دون بصر . فمنذ عشرين سنة وأنا جالس على هذا الكرسي أبيع خبزاً ، ولا أذكر قط أنني أخطأت . ان اصابعي تتذوق الرغيف وتزنه وتتعرف الى عمره وتثمن جودته ، وهي تفعل ذلك كله كالعين والميزان معاً . فمما لا ريب فيه ان حياتنا مركبة على صورة فريدة ، ولو لم يكن الامر كذلك لما وجدت في هذا الكون كله متسعاً لي . أنزل فيه مثلما تنزل النبتة في الحوض ، وأنمو هناك ، مع الارغفة الساخنة وأصوات الناس ، يوماً بعد يوم .

ولكن أما آن لذلك كله أن يمضي الى غير رجعة ؟ أليس ثمة في هذا الكون كله ، كله كله ، رجل واحد ، ميت واحد ، شيء واحد ، يعيد لهاتين العينين ضوءاً مرمياً على الطريق ، وليس من حق واحد دون الآخر ؟ كان الصخب يملؤني وانا أسمع حمدان يقذف الأرغفة الى بلاط الفرن فتصدر عنها أصوات صفعات مكتومة ، وعرفت ، كما تعرف الارض ان عشبة ما ستنمو هنا ، انني سأذهب .

وكنت في أعماقي أكره ذلك ، ولكنني كنت أحس نفسي مربوطاً اليه بلا فكاك ، وربما لذلك بالذات اعتزمت ان أمضي الى هناك في الليل . ففي نهاية الامر ليس ثمة فارق عندي . وكذلك يتعين على الاولياء ألا يناموا .

وانتظرت مضي الساعات وانا أحس التوقد يملأني . لقد اعتدت أن أنام في الفرن ، وتركت الوقت يمضي حتى عم الصمت تماماً ، فقمت .

- ٢ -

لم يكن هناك ما هو غير عادي ، ذلك اليوم . كان يوماً من تلك الايام التي عشتها سنوات لا حصر لها ، ولكن الحقائق الكبيرة ، كما يبدو ، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات . كنت أناول رجلاً ما كيس الاعاشة ، وكنت أقول : « عيشة النكد هذه ، أود لو ... » وفجأة جاء ذلك الشيء الغامض ، وانقلب العالم رأساً على عقب ، وقلت لنفسي : « يا ولد ! انت منذ عشرين سنة تقول ذلك ألف مرة في اليوم » وللتو ، شعرت بشيء من الخجل ، واقتحمني ذلك مثل شيء لا يرتد ..

كنت أرى شفاههم تتحرك ، ولكن الصوت كان يتكسر أمام جدار رهيب يسد اذني ، ولذلك فان أقوالهم لم تكن لتعنيني . اعتدت ذلك ؟ لا شك . فجسور الصوت التي تمتد بين الانسان والانسان كانت عندي مقوضة تماماً ، ولكن الانسان يتعلم . وكما يعتاد الميت الموت فان الاطرش يتعود

الصمم . أحياناً أقول : كما يعتاد الانسان العيش ، فان الأصم يعتاد الصمت . ولكن المسألة الاكيدة هي ان الاشياء أكثر تعقيداً .

ذات يوم لا بد لي من التفكير بهدوء . أقول لنفسي دائماً ان فرصة ان افكر بهدوء لم تتح لي قط في العشرين سنة الماضية ، فقد كانت عيشتي عيشة نكد حقاً .

اننا ، حين نفقد واحدة من حواسنا ، فانها لا تضيع . كيف أشرح ذلك الاحساس الغامض ؟ ان الصمم نوع من نوم الصوت . الحاسة ذاتها تظل في داخل الجسد كهدير طاقة حبيسة ، ويكاد صوت استغاثتها أن يسمع ، وهذا بالذات هو الشيء الذي اعتزمت ، طوال عمري ، أن أفكر فيه بهدوء .

اما الآن فليس ثمة الا الطواف على سطوح الاشياء الساكنة . الدوران الصامت في قاع الساعات الرتيبة لحياة لا يعرف احد كيف تسير ولا الى اين . ومنذ عشرين سنة وانا اجلس هنا ، اناول الاكياس لصفوف لا تنتهي من اللاجئين . منذ عشرين سنة يمتد امام بصري هذا الصف الطويل من الرجال والنساء والاطفال ، يتحركون امامي كالاشباح . يتدافعون بلا صوت ؛ وترتطم الصفائح التي يحملونها ببعضها دون ان يصدر عن ذلك الارتطام اي رنين . كأن العالم كله يغطس في حوض ماء زجاجي امام عيني .

وشيئاً فشيئاً اخذت ادرك ان وجودي هنا لم يكن مصادفة . فمما لا ريب فيه ان هذه الارتال التي لا تنتهي من البشر البائسين

كانوا يكيلون لي سباباً لا يحتمل ، فانا – أمامهم – يد وكالة الغوث التي تمتد لهم بالطحين والسمن والفول . وقد يكون الطحين قليلاً او فاسداً ، وقد تكون حبوب الفول اقل من قشوره . ولكنني لم اكن لاسمع . كانت يداي تمتـــدان بالاكياس ، وكنت ارى شفاههم تتحرك ، ولكنني لم اكن لاسمع .

وعرفت . يوماً بعد يوم ، انهم وضعوني هنا قصداً . فلم يكن من الممكن لاي رجل آخر ان يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة . يوماً وراء يوم ، ويداً ممدودة وراء يد ممدودة . لقد كنت البوابة الحديدية لقصـــر المحسنين ، على اقدامها يتكسر صوت الغضب . وامامي كان ملايين اللاجئين يعومون داخل حوض زجاجي كالاسماك الصغيرة العاجزة . دون صوت .

اقول ملايين ، لانني ، ربما لكوني لا اسمع الاصوات . قد تعودت ان أرى ارتال اللاجئين امامي رتلاً واحداً مستمراً مثل نهر متجدد . لقد فقدت القدرة على التأكد من ان ما اراه ليس الا تكراراً شهرياً لمشهد واحد عمره عشرون سنة . واكتسبت بالتدريج شعوراً بانني اقف امام صف لا نهاية له من البشر ، يعبر افراده واحداً واحداً من تحت ذراعي وبصري . ولكنه لا ينتهي ، لا ينتهي ، لا ينتهي .

ولست ادري كيف تسلقت نغمة « عيشة النكد » الى لساني من اعماق سحيقة ، ربما لانني كنت بصورة ما مسحوقاً . في

مكان لا يكاد يرى ، بين جدار البوابة الحديدية لقصر المحسنين وبين الامواج المتكسرة للاصوات الغاضبة القادمة من الخارج . او ربما لانني بصورة ما كنت فرداً في ذلك الرتل البائس من البشر . سقط بالصدفة امامه . وصار بالصدفة ايضاً يتلقى امواجه الصامتة ويمتصها دون ان يعي . وظللت هناك، شيئاً معلقاً في الهواء مثل غيمة .

وهكذا تبدأ القصص . ثم لا يعرف احد كيف تنتهي : قرأت في الصباح ان الولي عبد العاطي ، المدفون في الحقول القريبة من المدينة ، قد بدأ يجترح المعجزات . وان ثمة كسحاء عادوا من عنده يمشون . والى جانب ذلك الكلام نشروا صورة للقبر الطيني الواطىء ، الذي لا يحوطه اي حاجز . والمنخفض اكثر مما اعتادت القبور ان تكون خفيضة . ووراء كومة الطين تلك كانت ترتفع شجرة ذات جذع ثخين ، عارية تماماً من اية ورقة . وبين فرعين في اعاليها نبتت ، مباشرة من الجذع ، كتلة تشبه رأس الانسان . مرفوعة قليلاً الى الاعلى ، كأنها تنظر الى السماء ، في وقت لا تكف فيه عن سماع اصوات الناس الذين يركعون الى جانب القبر الواطىء ...

واعتزمت ، على التو ، ان امضي الى الشيخ عبد العاطي . ورغم انني لم افكر قط طوال عمري بتصديق مثل هذه الاشياء . فلست أدري ما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات . الآن استطيع ان اقول ان الامرين جاءا معاً ان اكتشف نفسي . واكتشف عبد العاطي . ولو جاء احدهما قبل الآخر او بعده .

لمرت الامور فوق سطح ايامي مثلما انزلق آلاف من الاولياء الى النسيان . ولكنهما جاءا معاً . مثل القفل والمفتاح . كنت أهوي بصخب من ذلك الكرسي الذي قعدت عليه عشرين سنة ، وهاءنذا أرى نتوءاً في جدار تلك الهوة المروعة .

وعبر عالمي الذي كان دائماً يسبح صامتاً في حوض ماء زجاجي ، مضيت الى قبر الولي عبد العاطي .

- ٣ -

اني امد لك يدي ، ايها الشيخ التقي الميت . من قاع هذا الصمت (وقاع تلك العتمة) التي لا يسبر غورها ، يا حبيب الله ، المعاد الى هذه الأرض ثمرة متفجرة على الخشب . اخاطبك من وراء ظهر الحواس التي يخاطب بها الانسان قدره المكتوب له . مد لي يدك يا عبد العاطي ، يا عاطي . وانتشلني من هذا الصمت (والظلام) . انني اطلب منك الشفقة . ايها الولي . بعد ان رفضتها سنوات لا اذكر عددها . اركع قرب طينك المبتل ، ايها الولي ، واقول : انني تعبت . اصيح بين الجدران التي لا ترى ، في عالمي المعتم (الاصم) . واهز بكفي الاعمدة التي ترفع السماء ، حيث تجلس مخبئاً اجوبتك . وأرجوك . أتوسك اليك ، أبكي كل الدموع التي منحتها لي ، واعتصر ايماني حتى قراره المسكين . اطلب الفكاك من أسر الصمت (والظلام) . اسألك يا ملك الصمت (والظلام) ان ترمي

صولجانك على وجهي ، وتمنحني حصتي من هذا العالم . أسألك ان تكف عن منحي للعالم امثولة على سطوة الغيب التي لا تفسر . او خذني اليك يا عبد العاطي ، علقني معك على ذلك الجذع العالي ، لنسخر معاً من ذل هذا العالم المنكفىء على نفسه ، العاجز المكبل المبصوق على وجهه . أخاطبك وحدي ، وجهاً لوجه ، من أعماق هذه البرية المتوحشة المهجورة ، وأتحداك ان تجترح معجزتك ، ان تقول لي بأن كوم الطين القديم يستطيع ان يكون اكثر جدوى من الحياة النابضة داخل صدري ، وفي عروق كفي المشرعتين أمام وجهك . أول مرة أجيء وامضي الى آخر مرة . واذا كان ثمة في هذه الحياة من لا يستحق رؤيتها (ولا سماعها) فلتقل لي ذلك ، هنا والآن ، أيها الشيء الخرافي الذي يتدلى من السماء كخطاف . انني اعلق عليك عمري كما يعلق القميص . واعلق عليك ايماني وكل المعاني التي تعودت ان استبدل بها الضوء (والصوت) ، وانتظر تحت سقف العتمة مثلما تنتظر انت تحت بلاطة الموت شموع المخدوعين .

— « هل قلت شيئاً ؟ انني لا اسمع » .

— « لم اسمعك تأتي ، فأنا رجل ضرير ، كما ترى ، جئت للولي اطلب البصر ، وما زلت انتظر » .

— « لا تتعب نفسك . انني رجل اصم ، لا اسمع ، ربما استطيع ان افهم حركة من يديك أكثر » .

فسألت : « لماذا انت هنا ؟ »

وجاء الصمت ، الذي صار علي ان اعتاده منذ هذه اللحظة . وفجأة يصير همي وعبئي ودائرتي الفولاذية الاحكام . ولكنه الاختبار الذي لا يخطيء ، فها نحن ذا غريبان مخلوعان عن العالم مثلما يخلع المارد قضيباً عن شجرة ، يطل علينا عبد العاطي من فوق ، وسيطنا الوحيد المجهول القدرة .

وقلت له : « انني رجل ضرير » . وأشرت بأصابعي نحو عينيّ ثم قاطعت كفيّ مفروشتين امامهما ، مثلما ينغلق مصراعا باب ، وسمعته يهمهم ، ثم قال : « فهمت » وخيم الصمت اثقل مما كان ، وبدا لي اطول مما توقعت ، وجاءت كلماته من ثم مثل شيء يعبر مسرعاً دون ان يترك سوى صدى الحفيف : « وأين يمكن لاصم واعمى ان يلتقيا الا هنا ؟ »

ووضع كفه على كتفي وخيل الي انها التصقت بي الى الابد.

« اين يمكن لاصم واعمى ان يلتقيا الا عند ضريح عبد العاطي ؟ » قلت لنفسي : « ومع ذلك، فان العالم صغير » ورفعت كفي نحو السماء السوداء ، وأشرت الى فوق . « هذا رأس عبد العاطي ، وانت لا تستطيع ان تراه ، هو نفسه الذي رأيته في الصورة ، هو نفسه الذي يجترح المعجزات ، وهو الذي سيعيد اليك بصرك ، ولكنك لا تراه الآن » .

وضحك ، فرن في البرية صوت يشبه افراغ قربة ماء . « ليس اجن منك الا انا ، نبحث في كوم الطين عن كنز مسروق ، ورأس عبد العاطي يضحك علينا ، لا انت تراه ولا انا اسمعه » وخبط كفه على كتفي فبدونا صديقين عتيقين

نتبادل حواسنا على صورة فريدة . ولا شك في انني ضحكت عند ذاك ، اذ انه ضحك بدوره مرة اخرى بعد ان كان قد توقف ، وسأل : « أتريد أن تراه ؟ » ودار حولي : « أعني أن تلمسه » .

ومضى عني الى قرب الشجرة ثم عاد الي : « لو رفعتك على كتفي فستصل بكفيك اليه وهو معلق على الجذع ، تستطيع ان تلمسه وتتعرف اليه ، لا احد هنا يرانا » وصمت ثم مضى « ... ليرانا ويضحك علينا ، هيا ! » وشدني من كمي الى الامام ، وجعلني اتحسس جذع الشجرة ، ثم اخذ العكاز « وضعت عكازك على قبر عبد العاطي ، سيحافظ عليها جيداً » وضحك مرة اخرى مصدراً صوت قربة تفرغ من مائها . ويبدو انه ركع على الارض اذ صرت اسمعه من تحت ، وثبت احدى قدمي على كتفه وامسك بكلتا كفي : « ارفع قدمك الاخرى » .

تركت نعلي ينزلق وسحبت قدمي ببطء على ملمس من ظهره ، وشعرت بعضلات كتفيه مشدودة ومفروشة تحت قميصه كأسنان مشط عريض ، وبدأ يقف حين وجدت قدماي مكانهما على كتفيه ، يرتج قليلاً تحت ثقلي ولكن دون ان يبدو انه سيفقد توازنه ابداً ، وعندما انتصب تماماً ترك كفي فتمسكت بجذع الشجرة ، وتركتهما ينطلقان الى فوق كأنما من تلقائهما ، يتحسسان الخشب الخشن واسمع حفيفهما .

كنت ارتجف قليلاً . ولست ادري ان كنت خائفاً او متوجساً او قلقاً . وربما كنت مستثاراً فقط . « وجدته ؟ » كانت احدى كفي قد وصلت الى منبت الغصن الثخين المنطلق من الجذع ، ومضيت معه ببطء « الى يسارك قليلاً » وفجـأة اصطدمت يدي بشيء طري . « هذا هو عبد العاطي . هل له اذنان؟» وضحك وهو واقف هناك. لا بد ان يكون ذلك الذي لمسته هو الرقبة . كان شيئاً طرياً ولكنه اكثر نشافاً من اللحم . شيئاً بين اللحم والثمر . هذه الذقن ، ملتصقة من جهة بالعنق ومن جهة اخرى بخشب الغصن ، وفوقها انبساط صغير . هنا ينبغي ان تكون الشفتان ، ولكن لا يوجد أي شيء . ثمة نتوء يكاد يكون مستديراً الى الاعلى . هذا الانف ، ثم تلمست الخدين اللذين كانا خشنين قليلاً . وببطء بحثت فوقهما عن العينين ، ولكنني لامست سقف المحجر . لا توجد عينان ، والى فوق جاء نتوء الجبهة مندفعاً الى الخارج أكثر من المعتاد . وتأتي الجبهة منبسطة عالية ، وبدت لاصابعي وكأنها لن تنتهي ، وعدت فوق استدارة الرأس اتحسس الصدغ ، لا توجد اذنان . وكانت اصابعي تقول انه رأس غريب وغير ودود . عنق ثخين قصير وذقن عريضة تكاد تكون مربعة ، وانف مستدير وبارز ، وخدان قصيران وجبهة عالية ناتئة اكثر من المعتاد ، وعدت اتحسسه من جديد ، بجمع راحتي كله ، اضغط عليه قليلاً ، واعتصر ندواته برفق . اي رأس هذا بلا عينين وبلا فم وبلا اذنين ؟

ومن تحت سمعته يقول : « هل استغرقتما في الحديث ؟ كدت أتعب ... ماذا قال ؟ » وأخذ يضحك ، وبدأت كتفاه تهتزان . ولست أدري كيف قلت له هامساً ، دون ان اعي : « انه فطر ، مجرد ثمرة فطر . فطر . » ثم ادركت انه لا يسمع ، فصحت بصوت عال : « انه فطر . فطر » .

وسمعته يسأل : « هل قلت شيئاً ؟ وصحت بكل قدرتي : « فطر » وراق لي صوتي يرتد الي في البرية وكأنه صراخ آلاف من الناس المختبئين تحت الحجارة ووراء الاشجار : « فطر . مجرد ثمرة فطر ! الا تسمع بعد ؟ فطر ».

واشتبكت الاصوات حتى ملأتني ، قادمة من كل مكان تحت سقف العتمة الواطىء ، وبدأ هو يغوص الى تحت ، وشعرت بانني اهوي الى القاع ببطء ، ولكن بصورة نهائية . وكنت ما زلت اقول « فطر .. فطر . ! » حين انزلني عن كتفيه . « ماذا تقول ؟ » وأخذت أصرخ نافضاً ذراعي حولي : « انه فطر ، رأس عبد العاطي مجرد ثمرة فطر طلعت هناك بالصدفة » وشعرت به يقترب مني ، وأدركت انه لم يسمع ، ابعدته من امامي وتقدمت الى جذع الشجرة . كنت متيقناً ان الشجرة التي تنبت فطراً على غصنها تنبته ايضاً في كعب جذعها . بحثت بيدي في اسفل الجذع ، ومن بين الحشائش النامية حوله عثرت على واحدة تشبه التفاحة الصغيرة . انتزعتها ، ودفعتها اليه ، مشيراً بيدي الى فوق حيث كان الرأس ما زال معلقاً .

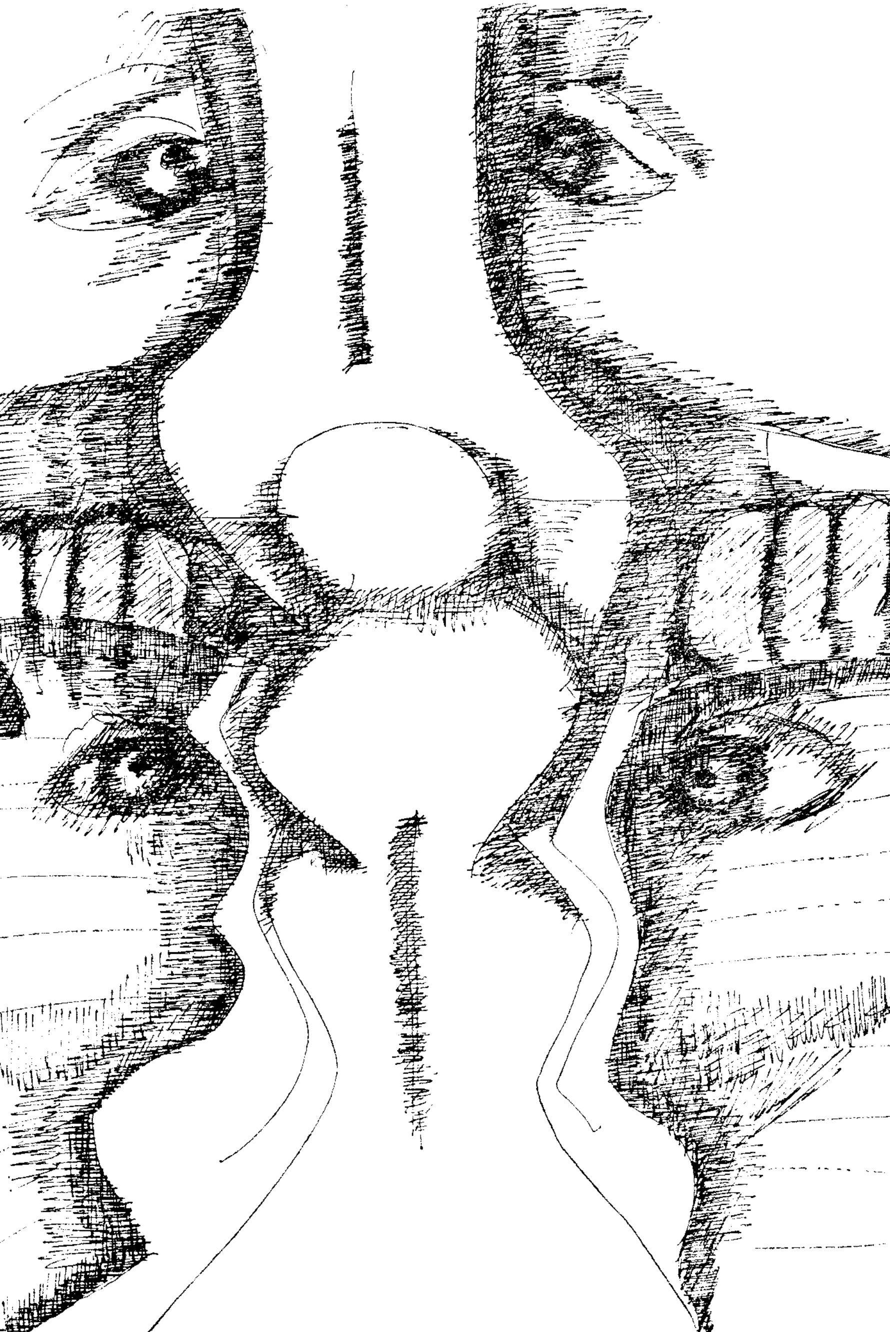

وخيم الصمت الثقيل مرة أخرى . وكما توقعت . جاءت ضحكته التي لا تنسى : « هذا هو اذن! » وضحك مرة اخرى واخذ يضرب على كتفي بكفه القوية . « يسمونه ايضاً فقعاً » وسكت . « سأظل كل عمري اضحك على نفسي كلما اتذكر انني جئت اطلب من حبة فقع ان تعطيني اذنين اسمع بهما ! » وتابع « وأنت أيضاً ! » ثم لا شك انه تطلع الى فوق : « اهكذا تضحك علينا يا عبد العاطي ؟ »

ومشى الى الامام قليلاً ، ثم عاد وكأنه تذكر شيئاً . ناولني العكاز ، وامسك بيدي . « هيا بنا نعود » . وبعد ثلاث خطوات فقط وقف مرة اخرى وقال : « اسمي ابو قيس . ما اسمك ؟ » قلت له « عامر » ولكنه لم يسمع ، ولو سمع لما كان لذلك أية أهمية ، ولما كان جديراً بأن يعني شيئاً ، وقال : « سأسميك عبد العاطي ، مباركة لهذه الذكرى » وضحك ، ولم يسمعني اضحك ، فيما اخذنا نخطو معاً في قلب العتمة والصمت .

- ٤ -

كان اول ما قاله حمدان حين جاء بفرش الخبز الأول ، في الصباح :

— « كنت اعرف جيداً انك ستذهب لضريح الولي ، وقد انتظرت في الخارج حتى رأيتك تمضي » .

وسألته : — « لماذا لم تتعقبني الى هناك ؟ » .

— « لانني اردتك ان تصفو وحدك مع الولي . لعل لدي من الخطايا ما يمنع وقوع المعجزة في دائرة قطرها ميل » .

قلت ، بما يشبه الهمس : « ولم تقع اية معجزة » .

— « ربما لانك لم تكن صافي النية ، ذلك يحتاج الى ايمان عميق وحقيقي ، والى صبر ومثابرة .. اتحسب ان الامر يحدث بهذه السرعة ؟ » .

وعددت خمسة ارغفة لزبون ، وانزلت الثمن في الدرج ، ولم اقل شيئاً . ايمكن ان تكون ثمة نية أصفى من نية رجل يريد

البصر لعينيه ؟ ايمكن ان يكون هناك ايمان اكثر عمقاً من ايمان رجل يتوق للخروج من العتمة ؟ الصبر والمثابرة ! اية عملة غير رائجة في حبس الليل الابدي ! لست استطيع ان اكسب من الضوء والبصر اكثر من حصتي ، وكل لحظة تمضي وانا في هذا الليل الرهيب خسارة لا تعوض ، ليست ابداً رصيداً للحظة آتية . ليست صبراً ، ولكن كيف يمكن لحمدان ان يعرف ؟

— « قرأوا لي اليوم في الجريدة ان امرأة لم تنجب طوال عشرة اعوام . انفك عنها الرصد ببركة الولي عبد العاطي ، وحملت . جاؤوا بها الى الجريدة وصوروها ، وها هي صورتها لها جديلة طويلة . وهي تضحك » .

قلت :

— « خانت زوجها » .

— « استغفر الله ! انت لا تطاق » .

— « شيخك ليس الا كتلة من الفطر » .

— « اعوذ بالله ... لا اريد ان اسمعك » .

وعاد ، يدب بخطواته الحافية . الى الفرن ليخبز دفعة جديدة ، فيما كنت احس بأنني تغيرت بصورة لا استطيع ان اتجاهلها لحظة واحدة . ما الذي حدث ؟ شيء ما انكسر في اعماقي بلا ريب ، وقد حدث ذلك بسرعة ، وكأنما على الرغم مني . ربما صارت الامور أمامي اكثر قسوة ، ولكنها بلا شك اكثر وضوحاً وصفاء . وكان ذلك يبتعث في راحة غريبة

ومفاجئة ، واخذت اتساءل ان كان الشيء ذاته قد حدث لأبي قيس ، وكنت ما زلت اسمع ضحكته مثل قرقرة قربة ماء ، واحس كفه القوية تخبط على كتفي .

آه ايها الليل ، يا ملك المعجزات الحقيقي ! . ان كان هناك ما هو معجز في قبر الطين فهو انه يجتذب الخاسرين ، وحوله يكتشفون شراكتهم في هذا العمر المحطم ، ثم يمضون تاركينه وراء ظهورهم وكأنه لم يكن . اكان من الممكن ، ابداً ، ان اكتشف الولي على تلك الصورة الفريدة ؟ ان نقتحمه معاً ، من خلال العتم والصمت ، ونسبر غوره حتى القرار ؟ أكان حتماً علينا يا ابا قيس ان نزحف كأثواب مهترئة يجررها حبل من الغيب ، لننشر ذلنا وكساحنا امام فقاعة فطر ؟

عددت ثلاثة ارغفة ووضعت ثمنها في الدرج فخشت مصدرة صليل قيد ، ووراء ظهري اصطفقت ارغفة العجين على بلاط الفرن حين قذفها حمدان ، واخذت النار تهرج مثل ريح حبيسة .

كنت احسب ان المعجزات تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف ، نعلق عليه اعمارنا كما تعلق القمصان ، ولكن اصابعي ما زالت تغوص في ذلك الخشب الطري الذي انبثق في غور العتمة ، ثمرة من الطيش وقنديلاً مطفأ في ليالي البائسين المسحوقين المنكفئين على وجوههم واللاعقين جراحهم بالسكاكين . أما هي فقد خانت زوجها ، وعلقت عارها على

مشجب الولي النائم الى الابد تحت قبضة طين لم تعد تصلح الا ليتكيء عليها عكاز رجل أعمى .

عددت رغيفين واسقطت ثمنهما في الدرج . وخفت صوت النار . فيما اخذ حمدان يغسل كفيه .

وجاءت خطوات أبي قيس . وانتابني فرح صغير لانني تعرفت الى صوتها ، وقال : «كيف أنت اليوم يا عبد العاطي ؟ وورائي كفت يدا حمدان عن الاغتسال هنيهة . فلاشك ان التسمية حيرته . وجاء الصمت مثلما يجيء الاستفهام ، ليوقف تدفق الامور لحظة ، ويعيد ترتيبها من جديد . « جئت اسألك ان كنت تريد الذهاب مرة اخرى الليلة » انه يرفع صوته قليلاً فيبدو وكأنه يخاطب رجلاً يقف على بعد منه . وهززت رأسي محتاراً متسائلاً وانا ارد عن وجهي ضحكة كانت تتسلقه من الداخل . وعاد يقول : « نذهب هذه المرة لنعترف بفضله ، لقد اجترح المعجزة » .

عددت ستة أرغفة ، وتركت ثمنها يسقط قطعة بطيئة وراء قطعة بطيئة في الدرج ، ولا شك ان ابا قيس لم يكن ليسمع اصواتها وهي تصطدم بالقطع المعدنية الاخرى . وتصورت للحظة كيف ستبدو له وكأنها تسقط في حفرة بلا قرار ، وتظل تهوي في الفراغ الى الابد : « لقد اجترح المعجزة ، وهي معجزة غريبة حقاً » وأدرت وجهي نحوه ، فهمس : « سألت عنك اليوم » .

كان شيء ما يولد في تلك المسافة المتوترة والممتدة بين عالمينا ، وانا استشعر ذلك بصورة لا يمكن تفسيرها . ومضى : « قالوا لي انك من طيرة حيفا » وسكت قليلاً : « وانا ايضاً من طيرة حيفا » . أسقطت قطعة النقد الاخيرة من بين اصابعي الى الدرج ، فصدر رنين كأنه صوت الدهشة « نلتقي بعد عشرين سنة ! » وضحك ، مصدراً ذلك الضجيج الصغير ، والودود : « اثنان من طيرة حيفا ، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع ! اليس ذلك معجزة يا عبد العاطي ؟ »

- ٥ -

الحياة ، وايقاعها الرتيب الذي له صوت التقوض . خطوات العبث تضرب في تيه مجنون الى ابدي وابدك وآباد الآخرين . الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة . العتم الذي له صوت النواح . هذه الجسور التي لم توجد قط . لم تبن قط ، لم تكن قط ، بيني وبين العالم . انني انمو على الحائط الخارجي لهذا الكون . أنمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائماً عن الزاوية وعن الظل . الصمت والعتم . الصخب والضوء . اي بديل لاي شيء ؟ الخسارة عدوى . وكذلك الفجيعة . وحين افتقد الضوء يضحي الصوت عبثاً . حين اغطس في الصمت الابدي تصبح العينان هماً ، ونحن انما نتمدد تحت مطرقة العالم ، بايقاعها الذي له صوت التقوض . الا يمكن ان يكون التاريخ كله حلم طفل احمق يعبث بالعاب اكثر تعداداً من ان تستطيع طاقته استيعابها ؟ يا للخاسرين حين يؤلبون على

انفسهم الكون بحثاً عن سلوى ! حين يعلقون اقدارهم على مخالب قدر لا يعرفون عنه شيئاً كي يصير بوسعهم ان يتحملوا انفسهم ! يا لك يا عبد العاطي ، الحي والميت ، يا لكما من هذا العالم المجنون الذي لا يصدق ! ترى كيف ركبت ايها الولي عبد العاطي زورق الناس التعساء وعلمتهم ان العالم انما يصنع من وراء ظهورهم ؟ وان عليهم انتظار اقدارهم مثلما ينتظر صف من المصابين بالبرص شفاءهم أمام عيادة طبيب لم يوجد قط ؟ وها انتذا تعود على جذع شجرة مثلما تنبت الاسطورة في وهم المهزومين ، تعطي تحت جبة التقوى للمرأة حظ ان تنتهك زوجها . وللدجال وراء دخان المعجزة حظ ان يتقدم متلصصاً الى صف الامام في طابور المنسيين ! .. وقد خلعت عنك قداستك ، سلبتك اسمك واعطيته لرجل حي ينبض بالبؤس الذي لا تستطيع انت شفاءه ، وهو لم ينبت على جذع شجرة ، ولكنه نبع مثلما يتفجر الصبح ، مثلما يسقط الشهب مطفأ من المجهول ليصير شيئاً ، وهاءنذا جعلت عبد العاطي الولي عبد العاطي الرجل . اراه يمشي ، واحس اصابعه على كتفي ، واشمه كائناً يقف الى جواري . اعدتك انساناً رغماً عنك ، خلعتك عن وهمي مثلما يخلع الطفل ضرسه . تخلصت منك ، هزمتك ، جعلتك قبضة من عتم الليل قذفت بها الى وهج نار ضروس .. كسرتك من تحت قبضتي عصا كنت اتوكأ عليها ، وصرفت عمري آملاً منها ان تعطيني ما لا يعطى ، ولست أريدك بعد : لا درعاً ولا زورقاً ولا وعداً .

أخلعك عن شجرتك . عن عمرك ، عن معجزاتك كما يسترد العاري قميصه المعلق على خطاف يتدلى من السماء ... وأقول لك . لم يعد يوجد في جدار أو هامي مكان لمسمار جديد ، أعلق عليه وعداً بالاصوات التي لم اسمعها قط . وقد خلقت لنفسي اذنين اسمع بهما العالم ، اما أنت فلست الا حبة فقع . سقطت بالصدفة في مستنقع الناس المهزومين ، ورأوا فيها جزيرة طافية من وعود ليس بالوسع تلمسها باليد ، ولا سماعها بالاذن . ولا رؤيتها بالعين والاصابع ...

وانا ؟ لولا ابو قيس لما كان بوسعي ان اراك يا عبد العاطي . واذا كان العمى فخ الاخاديع فكذلك البصر ، ولقد تحسستك بالاصابع التي لا تخطىء ، في تلك اللحظة الفريدة التي ترتطم فيها اشياء الواقع بأشياء الوهم . واني لاصفح عنك ، واغفر لك . فماذا بوسعي ان افعل اكثر من ان اراك تغيب في الفضاء وتذوب مثلما يذوي حلم ؟ وهماً كنت ، ووهماً ولدت . ووهماً انتهيت ، وها أنا استرد قدري واحس ملمسه الثقيل على كتفي ، مثلما كانت امي — بلا ريب — تحس جسدي معلقاً على كتفها وهي تمضي بي ، انا ، قدرها الصغير والوحيد . لتضعني بين أيدي اوهام العالم كله . ولا تحصد الا الخيبة . ولا احصد الا العرق يتفصد عن جبهتها العالية ...

ولولا ابو قيس لما عرفت . انا الاعمى . كيف تلتقي اقدار البائسين تحت جبال الانتظار المهيض الجناح . لولاه لما استطعت ان اراك . يا عبد العاطي ، ولولاي لما استطاع ان يسمعك ...

انما انت ثمرة طيش تنبت في رؤوس الكسحاء الذين يتعلمون ، بجرعات البؤس المر ، ان الحياة ليست سوى الانتظار ، ولولا اننا تقاسمنا الخيبة ، سمعاً وبصراً ، لما ارتدت الي طيرة حيفا ، ولما التقيت فوق قبرك قدري ، ولما عثرت تحت رأسك على شريكي في هذه المرارة التي يكاد طعمها ان يقتلني اختناقاً .
ولقد قادني المبصرون خارج طيرة حيفا ، وآن للعمي ان يتحركوا. ان الاشياء التي ترونها ليست هي ، وذات يوم سأشرح لكم ذلك كله ، والا لما كان بوسعكم أن تروا في ثمرة فطر نبياً صامتاً يجترح المعجزات ، وانا الاعمى الذي اعرف ان المعجزة انما تجترح من القاع ، فالثمرة هي معجزة الجذور الضاربة في رحم الارض ، الضاربة في غور هذا البدن المقدس للتراب الذي ليس له ملامح ، وليس بوسع الفطر الا ان ينزلق على الجذوع الجوفاء ، ان يطل على الناس من فوق وان يخدعهم ، ولكنه ليس المعجزة ، وانا الآن ربما لاول مرة ارى في الظلمة المحيطة بعيني حقيقة تتوهج بضوء لا قبل لاحد على احتماله ، واقبلك ايها العمى ، اتحداك ، واستطيع ان اسبر غورك ، واذا كان المبصرون يرون في الفطر نبياً ووليأ يجترح المعجزات ، فانا الذي رأيت فيه ، باصابعي ، ثمرة من الطيش تنزلق على سفح احلامنا مثلما التفاهة تنمو وتنقرض ، ولقد اطرحتك ، ايها الولي ، واعطاني الرجل الاصم اسمك ، ولم يكن بوسعك ان تدافع عن هذا الذي بقي لك ، وتركتنا نمضي ، ونحن حين مضينا انما قتلناك ودفناك مرة اخرى ، بلا ضوء وبلا صوت ، وبالصمت الذي تستحقه !

- ٦ -

جاء حمدان فوقف ابو قيس واخذ يستعد ليمضي : « اسمع يا عبد العاطي . نستطيع ان نأخذ فأساً ومنكوشاً ونذهب الليلة الى هناك » .

قال حمدان : « أعوذ بالله » . الا ان ابا قيس لم يسمعه . فمضى يقول : « لو قطعنا الشجرة . ودفنا رأس الولي . فلعلنا نسترد ابصارنا واسماعنا » .

واخذ يضحك فيهز الطاولة امامي . ويضرب بجمع كفه على ظهر حمدان الذي اخذ يدمدم حانقاً . وعاد ابو قيس يقول متجهاً بصوته الي : « ان ظهور الولي لم يجترح المعجزة . فلعل غيابه يفعل .. أتأتي معنا يا ولد ؟ »

وكنت اعرف أن حمدان سيفقد صبره . فأخذ يتنهد بصوت مسموع . ثم قال : « انتما كافران مارقان تستحقان العمى والطرش . اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرتـــه

فسيحكم عليكما بالمحق ، ويمسخكما » .

قلت له : « اذهب انت ، واطلب منه عقلاً ، لعله يستجيب » .

فعاد يقول : « اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته اخذت على عاتقي ابلاغ الشرطة ، انني انذركما : سأبلغ الشرطة » .

قلت لنفسي : ها قد صار عند الولي جهاز شرطة !

وصاح ابو قيس بصوته الذي يشبه صوت رجل يتحدث من نافذة قطار في محطة صاخبة : « هذا الولد خائف ، اليس كذلك ؟ ماذا كنت تقول يا ولد ؟ » ولكنه لم ينتظر الجواب ، بل مضى بخطواته الثقيلة الى خارج المخبز ، وعندما وصل الرصيف صاح : « سأراك فيما بعد يا عبد العاطي ، علينا ان نتحدث » .

وخيم صمت تخش فيه رائحة الوقد في الفرن ، وهو يغوص صوب الموت . وظل حمدان صامتاً ويفوح في صمته طنين الندم ، مثلما يفوح كلما كان يشتط به الغيظ فيتحدث عن العمى الذي أصابني وكأنه عقاب . عددت ثلاثة ارغفة وأسقطت ثمنها في الدرج واتجهت برأسي صوب حمدان أحثه على الكلام فقال :

– لماذا يسميك عبد العاطي ؟

– لانه لم يسمع اسمي .

– لا . انه يتمسخر على الولي ، هذا الكافر .

– ربما . عندنا في الطيرة حين يموت عزيز ، حين يموت اب أو جد أو اخ ، نعطي الوليد الجديد اسمه ، وابو قيس من الطيرة كما سمعته يقول .

– وما علاقة هذا بذاك ؟

– لا شيء . ظننت ذلك ..

وامتد الصمت مرة اخرى بيننا . هذه المرة مثل جسر ، وليس مثل هوة ، كان حمدان محتاراً قليلاً ، ولكنه كان عازماً على سبر غور ذلك الموقف المعقد الذي اقحم نفسه فيه ، فقال :

– « هل تعتزمان حقاً تخريب قبر الولي وشجرته ؟ »

وفجأة اخذت كفاي تنضحان عرقاً ، ولاول مرة في حياتي لاحظت ان العرق يملأ راحتي يدي كلما تحدثت أو تحدث احد امامي عن ولي . لعله التوتر . لعله انبثاق أمل هش ليس بالوسع امساكه باليد . لعلها الخيبة المحزنة . اخذت افرك راحتي يدي على صدري ، وقال حمدان :

– « ان ليس من اجلك ومن اجل الناس فمن اجل المرحومة امك . هذه المرأة الصالحة التي عرفت قبور جميع الاولياء . من أجلها انس تلك الفكرة الحمقاء ، ما الذي تستفيده من تخريب قبر الولي وشجرته ؟ ثم ان الشرطة ... »

– « لقد عرفت المرحومة امي قبور كل الاولياء. صحيح ، ولكنها لم تعرف فيها الا الخيبة .. »

– « ومع ذلك لم تفقد ايمانها ، انت قلت لي . قلت لي

انها كانت تحملك على كتفيها وتمشي . وكانت .. »

وكنت انا اقيس المسافة بتلمس العرق الذي كان يتفصد من جبهتها المجهدة . واحياناً كانت تنزلق كفاي الصغيرتان فأحس وجهها كله ينضح بالعرق وبالدموع معاً . لو كان البؤس بذاراً لنبت في شقوق وجهها شوكه الضاري من فرط ما سقتها بالعرق وبالدموع . ولكنها لم تفقد ايمانها . هذا صحيح . لم تفقد ايمانها . وماتت فيه . وها هو ذا بالنسبة لي يموت معها .

رفعت راحتي يدي في وجه حمدان . وكانتا ما تزالان تنضحان عرقاً :

— « اسمع يا حمدان . أتعرف لماذا تمتلىء راحتا يدي بالعرق كلما جاءت سيرة ولي ؟ الآن عرفت . وكنت اجهل ذلك من قبل. وسأقول لك : لان هذا العرق هو العرق الذي سقاهما من جبهة امي . سنة وراء سنة وميلاً وراء ميل في طرق لا نهاية لها . كلما كانوا يقولون لها : « هناك قبر ولي » كانت تحملني . وكنت اتعلق بالعرق المنساح على وجهها ذهاباً وبالدموع البائسة الكسيحة ونحن في طريق الإياب . هاهما كفاي ينضحان ذلك العرق كلما سمعت اسم ولي . ذلك هو كل ما أورثته لي أمي المرحومة » .

الا ان حمدان لم يكن يكترث . كان كل ما يهمه هو ان

يعرف فيما اذا كنا ننوي حقاً هدم قبر الولي وقطع شجرته ، فعاد يسأل :

– هل ستذهب مع ذلك الاطرش الكريه ؟

ولكنني لم أكن لاعرف ، لقد عرفت فقط ان شيئاً ما في داخلي ، مثل جسر يستند عليه بناء ، قد انكسر . وسوف يتقوض شيء ما في لحظة ما . وكان يتعين علي ان اترقب ذلك دون ايقافه – لانني لا اريد – ودون الاسراع بحدوثه – لانني لا استطيع .

- ٧ -

وصلت الى مكتبي في مركز توزيع الاعاشة في وكالة الغوث ، كنت قد تأخرت . ولاحظت ذلك على الوجوه الجامدة لزملائي الذين كانوا بالانتظار . بدأت رائحة غبار الفول ورائحة السمن والحليب المجفف تختلط وسط بحيرة الصمت التي اعيش فيها .

جلست ، ونظرت الى طاولتي . ثمة شيء قد تغير في داخلي. كان احد الموظفين يتحدث الي ، وكنت اشعر بذلك ، الا انني اصطنعت عدم الانتباه . احياناً يكون الصمم درعاً في وجه التفاهة .

قلت لنفسي : « الله الله يا عبد العاطي ! سقا الله ايام الطيرة .. » ثم وجدت انه لا سبب يمنعني من رفع صوتي ، فذلك طراز فريد من الحوار ، خصوصاً عندما يكون المرء مثلي الآن ، غير مكترث بما سيقوله الآخرون .

قلت ، غير متجه الى احد على وجه التعيين : « ذهبت

امس الى قبر الولي ، وقلت له : يا سيدنا الولي اريد ان ترد لي سمعي ، فانا اطرش .. اتعرفون ماذا قال ؟ » وانتظرت قليلاً ، لا شك ان واحداً منهم سأل : « ماذا قال؟ » فمضيت : « لم اسمع ما قال . فانا اطرش ! ها ! ها ! ها ! ها ! » .

فتحت الدروج واخرجت هذه القوائم الطويلة من الاسماء التي علكتها اصابعي دون صوت شهراً وراء شهر . وكانت الاسماء متشابهة ، تصطف مثلما تقف باصات الحكومة في الكراج . أحياناً نشطب اسماً ونقول : « مات . يا حرام . في السماء لايوزعون اعاشة ! » . وكل يوم نسجل اسماء جديدة لاطفال يولدون ، ونقول : « بزر جديد ، اللاجئون الذين أضاعوا التراب يحرثون ويزرعون الفراش ! » وهذا الصف الطويل من البشر ، واقف مثل طريق مسفلت متعرج يمتد من عام ٤٨ الى عام ١٩٦٧ ، ليس فيه ثغرة واحدة . مثل الطرق الصحراوية في دول النفط . كلما انفتحت فيها حفرة جاؤوا بالزفت ورقعوها . كلما سقط واحد من الصف ، ميتاً من السل او فقر الدم او القهر او الشيخوخة او الهجرة او السجن جاؤوا بولد ولصقوه محله .

نظرت الى الموظفين ، الذين شرعوا ينصرفون الى عملهم ، وقلت : « اللاجئون مثل شارع طويل . طوله عشرون سنة .. ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ » نظروا الي ، وقال احدهم شيئاً فضحكوا ، وعدت اقول : « تمشي سيارات وباصات . كادلاك وفولكسفاكن . بسكليتات وكنادر

ومداحل ، صنادل وحوافر ، جنازير دبابات وكلاب .. خصوصاً يمشي على هذا الشارع الاولياء الصالحون . عبد العاطي مثلاً .. »

وضرب مصطفى على الطاولة وقال شيئاً لا شك انه شتيمة . فقلت أهدىء خاطره : « لا تزعل .. ذات يوم سأحضر عبد العاطي الى هنا .. لا ، لن يوزع الاعاشة معنا ، لا . الاولياء لا يوزعون اعاشة، يوزعون وعوداً، نحن فقط نوزع اعاشة!.. »

وعاد هو نفسه يرعد غاضباً . كان يحمل قلماً عريض الرأس يستخدمه للشطب ، فكتب على ورقة كبيرة : « اخرس » .

وضعت كفي مفروشة فوق رأسي وقلت له : « حاضر يا سيد مصطفى ، سأخرس . انا اعرف ان الولي عبد العاطي قريبك . حماك . أليس هو والد زينة ؟ »

مزق الورقة حانقاً ، وأخذ باقي الموظفين يبتسمون وينظرون الى دفاترهم وكأنهم لم يلحظوا شيئاً ، هم الذين شرحوا لي ما حدث وأفهموني اياه يوماً بعد يوم واشارة وراء اشارة . زينة ! لا شك انه حلف يومها بكل الاولياء الصالحين .

جاءت المسكينة تصرخ وتبكي وتقول انهم شطبوا اسمين في اعاشتها لان اخبارية نقلها احد جواسيس الوكالة تقول انها تعمل خادمة وتحصل مئة ليرة كل شهر . أرملة مشحرة مات زوجها تحت حمولة شاحنة حصى حين افرغها السائق فوقه دون ان ينتبه . عندها اربعة أولاد ، وجاءت تولول عند مصطفى ، وتقول انها وأولادها سيموتون جوعاً . كانت

ما تزال شابة سمراء قوية . ووعد مصطفى أن يدبر المسألة .

وبعد اسبوع عادت زينة تبكي وتولول : « وعدت انك ستعيد الاعاشتين فأعدت اعاشة واحدة فقط . لقد اقسمت يومها ... » وأخذت تبكي وتضرب رأسها على الحائط وقالت أنها خدعت ، وأخذت تردد كلمات باكية : « اولادي . تعبي . عرضي .. عرضي ! عرضي ! عرضي ! » .

تعلقت هذه الكلمة في سقف المخزن . مثل ضوء اللوكس ، وأخذت تمطر علينا هياجاً وعاراً في آن واحد ، ولا شك انها ما تزال معلقة هناك وقد خفت اشعاعها مثلما يخفت ضوء اللوكس مع الوقت .. « عرضي » ! .

هكذا يا سيد مصطفى يتحول الخبز الى فراش . انت تريد الفراش وهي تريد الخبز . آه يا عكروت . لا شك انك أقسمت لها يومها بكل أولياء الارض ، الآن وظفت نفسك عند الولي عبد العاطي . الآن صرت تدافع عن تلك الثمرة الطائشة من الفطر ! ترى هل وعدتها بالزواج ؟ سيد مصطفى . مصطفى افندي ؟

« اخرس » . مكتوبة بالحبر الاسود العريض من القلـــم المخصص لشطب الاسماء ، كأنما نستخدم هذا القلم العريض لنطمئن الى ان الاسم الذي نشطبه انما انشطب كلياً وتماماً فلا تقوم له قائمة من بعد . من يدري ؟ لعل مديرية الوكالة تحسب ان اللاجئين يولدون من جديد ، فلماذا يعثرون على اسمائهم بسهولة ؟ اننا نكتب الاسماء الجديدة بأقلام حبر رفيعة .

خجولة ، فلماذا نشطبها بذلك القلم الاسود الثخين الذي يستخدمونه لكتابة الاسماء على اكياس الخيش .

حملت القوائم ووقفت . نظرت الى الموظفين وقلت : « لنبدأ بتوزيع اعاشة اليوم » . مضينا في صف الى المخزن يتقدمنا مصطفى الذي يحتفظ بالمفاتيح ، ووقف كل واحد في مكانه . انا قرب الباب المطل الى الخارج .

فتحت الباب، فأخذت الاكف تلوح بدفاتر الاعاشة الحمراء وتتدافع وترتطم الاواني ببعضها فلا تصدر صوتاً . استغرقت في العمل ، وكانت يداي تنشطان : من البراميل الى الاكياس الى الميزان الى الدفاتر . فجأة حدث شيء غريب . فقد اكتشفت لاول مرة انني انما أقرأ شفاه الناس الذين أمامي . أفهم ماذا يقولون : « عدس . كوكوس . حليب . طحين . فول .. » آه يا عبد العاطي ! أتراك اجترحت المعجزة ؟ هراء . طق حنك . ولكن الحقيقة هي أنني كنت أقرأ شفاه الناس . وأعرف ماذا يطلبون .. ما الذي حدث ؟ عملتها يا عبد العاطي يا ولي ؟ مستحيل ، فأنا ما زلت مصراً على ان أحمل الفأس والمنكوش وأذهب مع عبد العاطي لاهدم قبر الولي وأقطع شجرته ..

وظلت الافواه تقول لعيني ، طوال ذلك اليوم : عدس . حليب ، فول . كوكوس . تمر ، طحين ...

- ٨ -

كنا على وشك أن نغلق المخبز ، انا وحمدان ، حين سمعت خطوات ابي قيس على الرصيف ، دخل فسلم وأخذ يتحسس الارغفة ويقلبها ، ثم اختار واحداً وناولني ثمنه وأخذ يلفه بورقة . دفعت نحوه كرسياً واطئاً من القش فجلس . وجاء حمدان من الداخل ، وقال :

— ها قد جاء ذلك الشقي الكافر .. هل تريدان الذهاب الى هناك ؟

ولم يسمع ابو قيس شيئاً ، الا أنه قال لي :

— يبدو ان هذا الولد كثير الثرثرة .

ضحكت وهززت رأسي موافقاً . وأخذ حمدان يدمدم حانقاً ، فقال أبو قيس :

— لا تضيع وقتك . لماذا لا تذهب وتشتري لنا نص وقية جبنة ؟

قال حمدان :

– لا . لن اتركك هنا وحدك مع عامر . لن أسمح لكما بالذهاب الى قبر الولي . سأظل هنا وسأظل أراقبكما .

وجاء الصمت ، الذي صرت معتاداً عليه الآن ، والذي هو صوت الانتظار ، بكل ما فيه من ترقب يحبل بالجديد . صوت الولادة وهي تتدفق بسكون من قلب الفراغ ، مثل الارتطام الساكن لغيمتين متفقتين على موعد المطر ..

وبهدوء ، تماماً مثلما يشرع المطر ، قال ابو قيس :

– أتعرف يا عبد العاطي ؟ ظننت اليوم ان الولي قام بالمعجزة.

قلت لنفسي : أمس قام بالمعجزة فعرّف واحداً من الطيرة على واحد من الطيرة بعد عشرين سنة ، اليوم قلت لنفسي : ها هو ذا جعلني أسمع على صورة فريدة ، لقد اكتشفت فجأة اني افهم ما يقوله الناس وذلك بقراءة حركة شفاههم . ولكن أتدري ؟ هراء . طق حنك . في آخر النهار عرفت انني لا استطيع ان أقرأ من حركات الشفاه الا تلك الكلمات المحدودة : فول . عدس . حليب . كوكوس . طحين . تمر وغير ذلك من بضائع الاعاشة .. اما غيرها فلا شيء .. أتعرف لماذا ؟ لان هذا هو كل ما تعلمت أن أسمعه من عشرين سنة . كل يوم كل يوم كل يوم . لا معجزة ولا من يجترحونها . ذلك شيء مثل أن أتعرف في وجه الانسان على البكاء ، ذلك لا يحتاج الى سمع ، لا هو ولا تلك الكلمات المعولة .. يا لعفريت البؤس كم هو ذكي ! مثلما تتعرف أصابعك على الرغيف ،

أنت الاعمى . دونما حاجة الى بصر ، أتعرّف أنا على تلك الكلمات التي ليست لغة ، والتي ترتسم على الوجه مثل الحزن او النعاس او الخيبة ... »

وعاد الصمت ، صوت الانتظار هذا ، الذي أحسه الآن أكثر من أي وقت مضى مترعاً حتى حافته بولادة غامضة . على وشك ان تنبثق في أية لحظة . ان هذا العالم يدور بسرعة مجنونة وتختلط أشياؤه في فوضى مروعة ما تلبث ان تنداح في حقائق متسقة . هذه اللغة التي يتحدث عنها ابو قيس ، لغة اللاجئين ، لغة البؤس التي لا يسمعها ، ولكنه يراها . لغة البؤس التي لا أراها ، ولكنني اسمعها . وغالباً أحسها ، تارة في رغيف الخبز ، وتارة حين تتفصد راحتا يدي بالعـرق والدموع . اللغة التي لا يستطيع عبد العاطي لا سماعها ولا رؤيتها .

وأخذ ابو قيس يضرب رغيف الخبز الذي يحمله على حافة الطاولة برفق ، غارقاً في أفكاره ، ثم مضى يقول :

ـــ « اللغة عادة ، وقد تعودت أنا لغة الاعاشة ، وأنت تعودت لغة بيع الخبز . انني أفهم لغة زينة جيداً ، ولغة مصطفى ، ولغة شارع الاسفلت الذي تسير عليه الاحذية والمداحـل والدبابات والكلاب ، ترى لو تعودت لغـة أخرى ، أما كنت أفهمها ؟ أعني لو انني عشت في جو آخر . اما كان لدي لغة اخرى ؟ »

ووقف ثم راح يتمشى في الممر الضيق الذي يفصل الفرن

عن دكان البيع . وجاء حمدان فوضع يده على كتفي ، وقال هامساً :

— « لا تترك هذا الشيطان يضللك . اترك الولي بحاله . ان المعجزات التي اجترحها تكاد لا تحصى ، سيقطعك الناس ارباً »

قلت له :

— « هل ستذهب اليه الليلة ؟ لماذا لا تذهب يا حمدان ؟ اطلب منه أن يعطيك قميصاً ، أن يعطيك حذاء تدخل به الى العيد . ان يعطيك أباً أنت الذي عشت عمرك بلا أب ، فاذا أعطاك سمعنا وصيتك ، واذا لم يعطك تنضم الينا » .

— « أنتما كافران متساويان. هل يعني ذلك انك مصر على الذهاب لتخريب قبر الولي وقطع شجرته ؟ »

— « لست أدري ، اسأله » .

— « ولكنه لا يسمع » .

— « اكتب له السؤال .. »

— « لا أعرف » .

— « اذن اسكت » .

— « لا . أريدك انت ان تجيب ، هل ستذهب ؟ »

أحسست بصدري يمتلىء فجأة بالهواء ، فتنهدت مرة ومرتين . كان ابو قيس قد كف عن التجوال الحائر فجلس على الكرسي الواطىء ومضى يزداد غوصاً في صمته الفريد .

— « هل ستفهم ؟ هل ستفهم لو قلت لك ؟ اذن اسمع : لا حاجة بعد لتخريب قبر الولي وقطع شجرته . ذلك عمل لا يزيد شيئاً ولا ينقص شيئاً بالنسبة لي . الولي عبد العاطي مات ،

انتهى ، خلص ، فاذا ذهبت ونكشت قبره وأحرقت شجرته فذلك مجرد احتفال ، مجرد احتفال ، وليس هذا هو المهم ، هل فهمت ؟ »

وفجأة قال ابو قيس كمن يكمل حديثاً بينه وبين نفسه :

— « وماذا سنفعل الآن يا عبد العاطي ؟ »

وأحسست بعينيه تفترسان وجهي ، مثلما أشعر أحياناً بأذني مشرعتين امام أذني طنين ، مثل فخ جيد الاخفاء تحت الحشائش ، الا أنني لم أقل شيئاً ، كانت كل الابواب في رأسي مغلقة ، ولم ينتظر أبو قيس طويلاً ، فدمدم ساخراً :

— « تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء » .

ومضى يضحك ، فأتذكر تلك الليلة الغريبة في البرية ، حين كان صوته الضاحك يشبه صوت افراغ قربة ماء ، يرتد صداه من خلف الاشجار وتحت الحجارة وأعماق التراب . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء . انه ينظر الآن ، بلا ريب ، نحو حمدان . أجل ، تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ؟ ولكن لا بد منها . ها هم الرجال يرفعون أعمارهم عن الخطاف المتدلي من السماء ويمضون ، يتلمسون بأصابعهم رأس الولي المتفجر ثمرة على شجرة ويعتصرون نداوته فيجدونه ثمرة فقع بـــلا وعود . يلتقي المهزومون المكسورون المحزونون فوق البلاطة التي تنام تحتها المعجزة ، فلا يرون تحتها الا جثة الموت الجبان . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود ويتعين عليك أن تحمل قدرك .

- ٩ -

مضيت طوال الليلة التالية احلم حلماً قصيراً واحداً ، اصحو من أعماقه مذعوراً ، ولكنه ما يلبث ان يعود فيتكرر وكأنه اعادة عرض لشريط مصور : كنت أرى نفسي متجهاً الى مكتبي في وكالة الغوث ، وفجأة أجدني واقفاً فوق أكياس الطحين ، وباب المخزن مشقوق شقاً رفيعاً يدخل منه شعاع الشمس مثل نصل سكين ، وعبر هذا الشق ارى اكوام اللاجئين تغلي على امتداد البصر ، وأشرع وسط طنين لا مثيل له بالقاء خطاب ، ويختلط الامر فاذا بي أنظر من شق الباب الى زينة واقفة هناك تخطب وأنا أحاول أن أفهم صوتها الغاضب ، الا انها تنزل بين ذراعي مصطفى ، وأعود فأخطب وقد استبد بي غضب يملؤه الالم ، وتتحرك الجموع وتحطم باب المخزن ، وفجأة تمتلىء اذناي بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها ، وأرى عبد العاطي وسط السيل يتدافع بالاكتاف ، وأصحو .

وكنت أعرف ان الذهاب الى مكتبي في الوكالة ، صباح اليوم التالي ، سيكون مؤلماً ، وان شيئاً ما قد حدث في حياتي ، لا أستطيع تبينه على وجه الدقة . لقد حطمت شيئاً وليس لدي ما أستعيض به . كنت اعرف انني لن اطيق ، بعد ، العمل في المكان الذي وضعوني فيه عشرين سنة ، ولكنني لم اكن لاعرف اين يتعين علي ان اتجه . ليست الحياة الا سلسلة تأخذ فيها الحلقة بيد الحلقة ، فاذا اكتشفت ولياً أدخلت العالم تحت جبته ، واذا قتلته أخرجت العالم كله من هناك ، ولكن الى أين ؟

وأخذت أتذكر الشيخ حسنين ، أمام الجامع في طيرة حيفا ، فقد كان جارنا ، وظل يشدد علي وعلى أبي حتى صرت اذهب الى الجامع ، ولكنني كنت أخفق في سماع خطاباته كل يوم جمعة ، وذات يوم قلت له وهو يأخذ بيدي خارج المسجد : « لو كان الله يريدني ان أسمع خطبتك لأعطاني أذنين » ولفرط دهشتي ضحك الشيخ حسنين ضحكاً شديداً ، وصار يتراخى في تشديده علي حتى تركت تقريباً عادة الذهاب الى المسجد . ولكنني صرت أكثر اعتماداً على أبي ، وقد لاحظ الجميع ذلك الى حد كان يبعث في الالم ، وقد انضم الشيخ حسنين الى المجاهدين في الطيرة ، وكان منظر عمامته فوق البدلة الكاكية طريفاً ، وبدت البندقية على كتفه وكأنها خدعة دينية لا أكثر . ولكنه في الحقيقة كان مقاتلاً من الدرجة الاولى ، وكان دوره مهماً الى أن استشهد ذات ليل ، وأخفق الرجال في العثور على جثته من فرط ما كان متقدماً على خطوط البلدة .

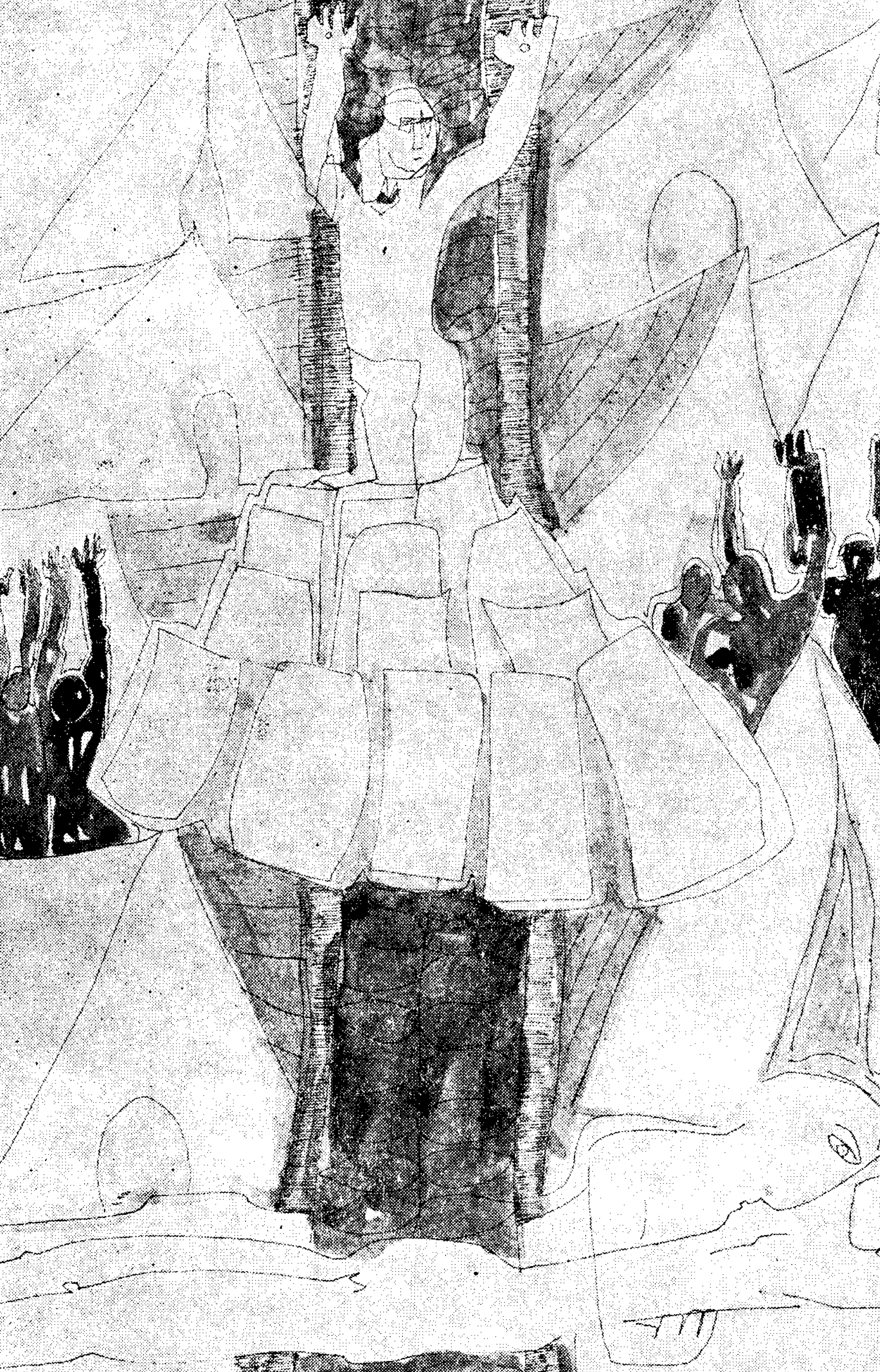

تذكرت الشيخ حسنين لانه عندما مات شعرت تقريباً بما أشعر به الآن . ذلك الفراغ المروع الذي يضعك على عتبة قرار جبان ، وقد فعلت ، اذ انني أخذت منذ ذلك الوقت أنتظر المعجزة ، وحتى عندما وقعت الواقعة كنت أشعر في أعماقي بأن معجزة ما قد أنقذتني . وقد حدث الامر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها : يبدو انني لم أسمع أصوات الانفجارات ونحن نجلس أمام بيتنا في الطيرة ذلك المساء ، واندفع والدي وشقيقي وأمي عبر الطريق الى حيث يقوم الملجأ المرتجل ، وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة ، اما انا فكنت ما أزال جالساً في مكاني ، وأنقذني الصمم ، وقلت لنفسي سنة وراء الاخرى ان المعجزة قد وقعت ، وانني أدين بحياتي لعلة طالما شكوت منها .

الآن ، لا فرار . لعل وجود عبد العاطي قد دفع القرار الى نهايته ، فتمزق كل شيء دفعة واحدة ، وليس ثمة الآن الا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت ، ذلك المفترق الذي تميزه فجأة ، والذي تكتشف انك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون ان تتخذ قرارك ، ليس لانك لا تريد ، ولكن لانك غافل عن ضرورة ذلك .

القرار . القرار . القرار . ماذا أستطيع أنا وعبد العاطي أن نفعل في وجه هذا العالم ؟ هل بقي لدينا ، بعد ، متسع من الوقت لنفعل شيئاً ؟ ام تراه بقي متسع من الوقت لكي نعود فنمزق صفحة عبد العاطي الولي من حياتنا وننساها ونعود الى

أمكنتنا وكأن الزلزال لم يقع ؟

ولكن قدمي ساقتاني ، دون أن أعي ، الى مكتبي في وكالة الغوث . دخلت وسلمت وجلست الى طاولتي . أخرجت القوائم ، وراحت الاسماء المتشابهة تمتد امام بصري مثل طريق لا نهاية له ، وبدت لي فجأة سلسلة من القيود التي تكبلني وتحول دوني ودون أن أتحرك . خطر لي أن أستل القلم الاسود العريض وامضي اشطبها واحداً وراء الآخر ، او اختار اسماء بعينها فأشطبها ، ولكنني استبعدت ذلك ، وأخذت أنظر الى المخزن عبر الباب نصف المفتوح ، حيث كنت أقف في حلمي وأخطب بصوت مجلجل ، وخيل الي ان الباب الكبير للمخزن سيتحطم تحت قبضة الجموع في لحظة واحدة . وان اللاجئين سيتقدمون صفاً وراء صف مثل سيل لا يكف عن الهدير ، وان اصواتهم الغاضبة ستحطم ، فيما ستحطمه ، بوابات الصمت المغلقة في أذني . سيحدث ذلك . هذه اللحظة . هذه اللحظة . وقفت واستندت على الطاولة وأخذت أحدق ببوابة المخزن . هذه اللحظة . الدوي سيتفجر الآن . الآن . الآن . فجأة استبدت بي استثارة لم أعشها في حياتي . وشعرت انني أرتجف بلا هوادة وكادت عيناي تنفجران وأنا أصوب نظري الى ذلك الباب المغلق . كأنه باب الصمم . باب الموت . باب القدر الذي لا يهزم والذي يوشك في اللحظة التالية ان يتقوض .

كنت في قرارة نفسي متيقناً من انه سيتحطم امام الاكتاف المتكدسة وراءه لصف من اللاجئين طوله عشرون سنة مرة . سيتحطم في أية لحظة . فجأة ضاع ذلك الحد الذي يفصل بين

الحلم وبين الحقيقة وامتزج كل شيء . ورأيت بعين الحقيقة ما رأيته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في اكتافهم وراء هذا الباب ، يكورون قبضاتهم فتصبح مثل الصخور المحيطة بصفد ، ويستعدون . هذه اللحظة . هـــذه اللحظة . الآن . الآن . الآن ..

ولكن غور الصمت أصبح أشد عمقاً ، وظل . كما كان دائماً ، يخيم على كل شيء ، نظرت حوالي ورأيت في عيون الموظفين نظرات الدهشة المليئة بالخشية تنصب عليّ من كل جانب ، وكان مصطفى يبتسم ابتسامة لا تكاد ترى . تنهدت ، وفككت التوتر من قبضتي يدي اللتين كانتا ما تزالان مكورتين فوق خشب الطاولة ، وعدت فجلست .

بذلت جهداً كي لا انظر مرة أخرى الى ذلك الباب الكبير المغلق ، الصامت ، الذي يشبه شاهدة ضريح . ثم قلت لنفسي : « ها انت مرة أخرى يا أبا قيس تتوقع معجزة . لا . ان الأمور يا حبيبي لا تحدث كذلك .. الله عليك شو خفيف ! »

- ١٠ -

نمت في غرفة الفرن ، فوق فرش الخبز ، وقبل أن أغفو سمعت خطوات حمدان الخافتة تتجه الى الباب ، حيث مد فراشه ونام . قلت لنفسي : « انه ينام أمام الباب كي يصحو اذا ما حاولت الخروج . لقد وجد لنفسه أخيراً عملاً مفيداً يرضي ضميره . عين نفسه دركياً لحراسة الولي ! . آه كم يحتوي كيس البؤس من الاخاديع ! انه يشبه نبعاً لا تنضب مياهه .. » .

وبدا لي حمدان ، بجسده الضيئل وطيبته وتصميمه . سداً يشبه جداراً من الصخر ، يقف أمامي وأمام أبي قيس ، وانه . على صغره ، يحجب من أمام أعيننا امتداد الطريق الذي ضيعناه. أخذت أسمع تنفسه الثقيل ، تنفس رجل اعتصر عضلاته طوال النهار بالعمل المضني ، وهو يغطس في عالم النوم كما يغطس رجل في العمى أو رجل في الصمم ، وكان نومه هناك تمثيلاً

طريفاً لواقع أحسه احساساً صميمياً : فقد كان فعلاً يغلق الباب بجسده القوي . ويعرقل أمامي طريق الخروج ، لو شئت أن أخرج ، وبدا لي أن اختياره العفوي هذا ليس في الحقيقة الا تجسيداً عابراً لدوره في حياتي .

ولم أكن اعرف من حمدان الا صوته ، وهو صوت فتى عقد عزمه وقر رأيه وملأ نفسه بقناعات صغيرة ولكنها متراكمة في كل جسده . كانت زحزحته مستحيلة ، وكان الحوار معه أكثر صعوبة . ففي عالم مرتب على تلك الصورة التي في رأس حمدان يستحيل العبث بالاشياء الموضوعة ، منذ الولادة ، على رفوف الذاكرة ، نائمة تحت الغبار والقبول والاستسلام الكلي .

ولست أعرف على وجه التحديد من أين أتى ، وما الذي انتهى به الى هذا الفرن . وكان هو ضنيناً في الحديث عن ماضيه ، ولكنني علمت ، مثلما يجمع الانسان شظايا صحن زجاجي محطم ، انه لم يذهب الى المدرسة الا أياماً قليلة ، وقد تزوجت أمه بعد شهور من ذهاب والده للسجن ، واذاقه زوج أمه مر العيش ، فقد كان فقيراً ، وفظاً وشرهاً ، وحين وجد في طريقه طفلاً مستسلماً مستعداً للقبول ، أخذت شراسته تشتد ضراوة .

وقد لجأ الى أماكن عديدة الى أن انتهى به الامر الى هـــذا الفرن منذ عشر سنوات تقريبـــاً . ونحن ما زلنا منذ ذاك نعيش معاً . ونشكل ثنائيـــاً غريباً فاقت شهرته حـــدود الحي الذي يقوم فيه الفرن . كان جسده قد أضحى قوياً بلا حدود ، وصار

مضرباً للمثل في البأس والشدة . الا أنه لم يستخدم قط تلك القوة الهائلة النائمة في ساعديه واكتافه لتحقيق أي نوع من أنواع العنف ضد اي كان ، لقد كان فعلاً على قناعة عميقة بأن أمور هذا العالم لا تحتاج الى تقويم ، وأن القوة في جسد الرجل ليست الا رفاهاً اضافياً يمكن الاستغناء عنه . وانه اذا ما اعترضت حياة الانسان معضلة ما فلا سبيل لزحزحتها الا بالمعجزة ، وليس بقوة العناد او بعناد القوة .

ومنذ عشر سنوات وأنا أنظر الى العالم بعيني حمدان . ومع ذلك فانني لم استطع أن أرى شيئاً حقاً . كان العالم بالنسبة لعينيه منبسطاً كأنه مرسوم على بلاطة وكان يرى الاشياء والناس على صورة فريدة من البساطة والآلية ، وفي أحيان كثيرة كانت رؤيته تشكل في ذهني جداراً أو باباً بيني وبين الحقيقة في شكلها الاكثر صفاء . تماماً كما هو نائم الآن أمام الباب .

ومنذ أيام قليلة وأنا أحس ذلك أكثر من أي وقت مضى . وأكاد أرى في حمدان قيداً يزداد ثقله . ومع ذلك لا غنى عنه بالنسبة لي . انا الذي أدرك كيف تحول خلال عشر سنوات الى جزء لا يتفكك من حواسي . وتحولت في هذه السنوات العشر الى جزء ثابت في عالمه . والى رف كبير داخل رأسه . يضع عليه أشياء الذاكرة ، وصور العالم ، المدفونة تحت غبار لا يريد مسه .

- ١١ -

كان يوم جمعة ، عطلتي من العمل في مكتب توزيع الاعاشة في وكالة الغوث . ومع ذلك صحوت باكراً على غير عادتي في أيام العطل ، ولما شعرت بأنني نهب للحيرة والضجر والافكار المتناقضة ، مضيت أزور عبد العاطي .

وقد وصلت الى الرصيف المقابل للفرن في ساعة مبكرة جداً . وكان النهار ما زال محتفظاً بطعم النوم ، وغير قادر بعد على ان يكون حقيقياً تماماً . كأنه لم يسحب نفسه بصورة كاملة من عالم الاحلام الصامت . ولعل ذلك بالذات ما جعلني أرى ما رأيت على تلك الصورة المدهشة : فقد كنت اعتزم عبور الشارع الى الفرن عندما لاح لي عبد العاطي واقفاً قرب الواجهة . كان ما يزال لابساً ثوبه الليلي الابيض ، وكان يزن خبزاً لزبون لم يكن بوسعي ان أراه من مكاني ، وهكذا فقد كان واقفاً بطول قامته وذراعه امامه ترفع عصا الميزان النحاسي

ذي الكفتين المربوطتين اليها بالسلاسل وهو يقوم بوزن الخبز وقد وضع تحت ابط ذراعه الاخرى عدة أرغفة اضافية ، فيما مضى يتجه بعينيه الضريرتين الى الامام مثلما يفعل العميان حينما ينصرفون الى تركيز وعي حواسهم الاخرى .

كان الصباح الممتلىء بجو الليل يخيم على الطريق . والفرن من الداخل ما يزال مظلماً تقريباً ، وهكذا فقد بدأ عبد العاطي الواقف قرب الباب بثوبه الابيض الطويل وكأنه يتوهج بنور خاص ، يمد ذراعه بخط مستقيم وهو يرفع حلقة الميزان ويصوب رأسه الى الامام كأنه ينظر الى آفاق لا يراها غيره ، ويضع تحت ابطه عدة ارغفة ، فأراه مثل تمثال من الرخام المتوقد بالحياة .

وقفت أنظر اليه عبر الطريق ، ولا ريب أنني كنت مأخوذاً تماماً ، اذ لاحظت ان احد المارين اخذ يحدق الي ، ثم نظر الى حيث كنت انظر الا أنه لم يجد على باب ذلك الفرن ما يستحق الانتباه ، فعاد ينظر الي مدهوشاً ، وقال شيئاً ثم مضى .

عبرت الشارع وكأنني مسحوب بخيوط غير مرئية الى حيث يقف عبد العاطي ، وحين وصلت قربه شاهدت الزبون الذي كان يزن الخبز له ، كان ولداً صغيراً حجبه أحد أعمدة الواجهة عن نظري حين كنت على الطرف الآخر من الطريق . اما عبد العاطي فقد كان يوشك ان يضع الميزان جانباً ، وظننت انه لم يشعر بمقدمي اذ وقفت بلا حراك اشرب بعيني المزيد من ذلك المشهد الذي ظننت انه غير حقيقي تماماً .

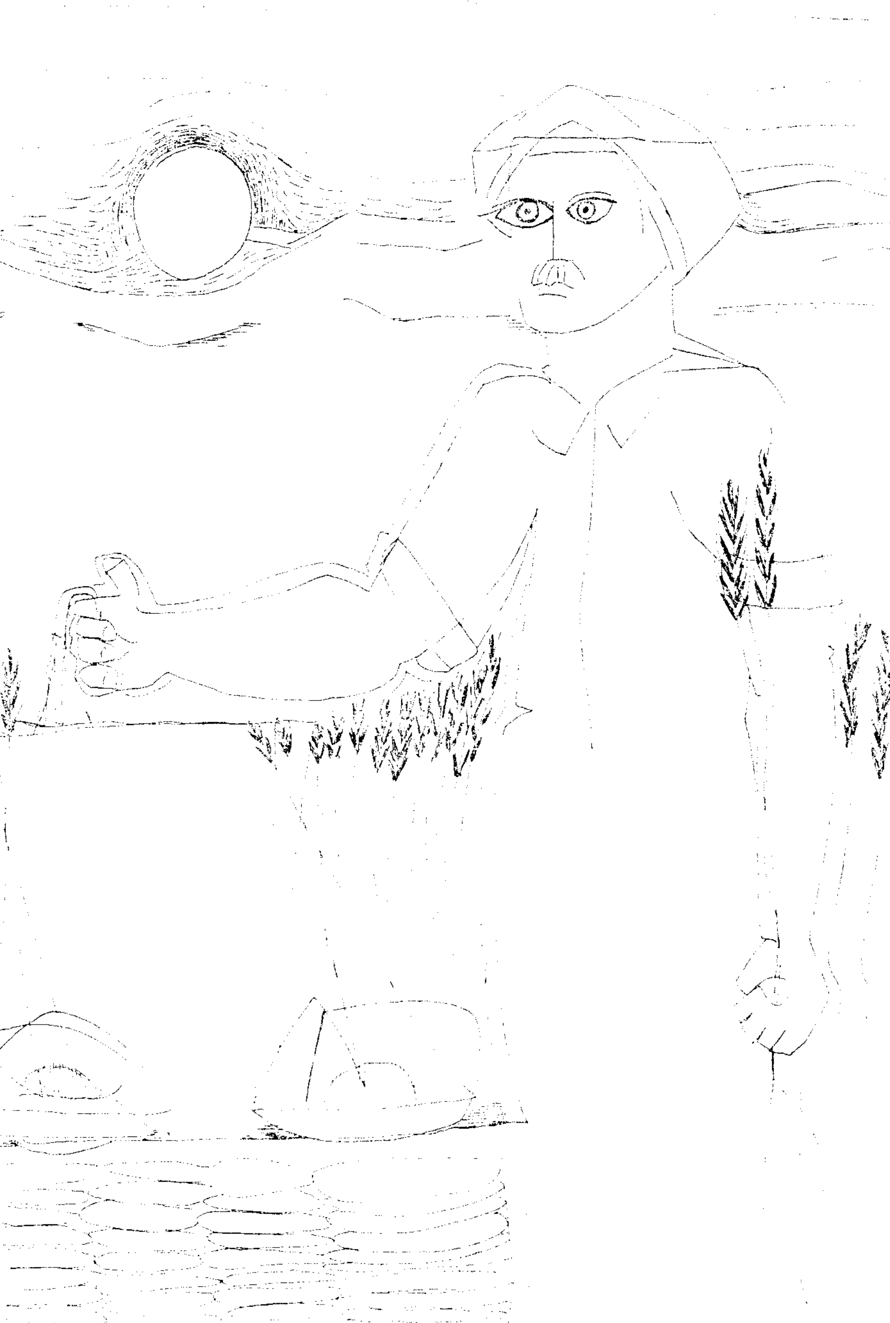

في اللحظة التالية وجه عبد العاطي رأسه نحوي وابتسم ، فعرفت انه أحس بمقدمي ، فقلت له :

– لا تتحرك . ابق واقفاً لحظة واحدة اخرى .. انك تبدو مثل تمثال قديم .. تمثال العدالة . تلك المرأة التي تحمل ميزاناً وسيفاً ، ويبدو لي رغيف الخبز تحت ابطك أكثر معنى من ذلك السيف الذي تحمله امرأة معصوبة العينين .

ونظر الطفل نحوي ، ثم عاد ينظر الى عبد العاطي الذي ظل واقفاً دون حراك ودون ان يرتسم على وجهه اي تعبير ، ولم أسمع ما قاله الطفل لعبد العاطي الذي رد عليه مبتسماً ، ثم جاء الولد يدب من الداخل ويتصبب العرق على وجهه من حرارة الوقد الذي كان يحشوه في بيت النار . كان عارياً فوق سرواله الابيض المتسخ ، وكانت عضلات صدره وكتفيه تبدو متسقة وجميلة وقوية دون حدود . نظر الي بامتعاض ، ولم استطع معرفة ما اذا كان قد حيا أو شتم ، فظللت صامتاً .

كان يتجه الى الطاولة يبحث عن شيء ما ، فتح الادراج وعاد فأغلقها ، ورفع الصحف والاكياس ونظر وراء الواح الخشب ، واخيراً مد يده خلف احد تلك الالواح وتناول من هناك سكيناً كبيرة طويلة النصل من ذلك النوع الذي يستخدمونه لتقطيع العجين ، وخطا عائداً إلى الفرن .

الا أنه بعد خطوتين اثنتين عاد أدراجه ، واخذ ينظر الى عبد العاطي واقفاً هناك ، ما يزال ، جامداً . امسكه من ذراعه بقبضته القوية وقاده بحنان لا مثيل له الى حيث اعتاد ان يجلس ،

ثم اخذ الميزان من كفه واعطى الخبز للطفل وقال شيئاً دون ان ينظر الى احد . وعاد أدراجه الى الداخل .

وفي لحظة صغيرة ، تكاد لا تحس ، تقاطعت الاشياء والاشخاص على صورة فريدة ، فقد تداخل ذلك الجسد الفولاذي العاري ، المتصبب بالعرق ، وتلك السكين ذات النصل اللامع الطويل بذلك الوهم الذي خيم علي عندما شهدت عبد العاطي واقفاً والميزان مرفوع امامه ، على امتداد ذراعه ، عالياً ..

هززت رأسي بعنف ، وقلت لنفسي انني رجل آخذ منذ أيام أفقد صلتي بالواقع الذي عشته حتى الامتلاء كل عمري ، وانني أغوص في عالم الاحلام والاوهام والرؤى العجيبة ، وأرى الأشياء والناس والحركات كما لم يحدث لي قط من قبل في حياتي ، وأورثني هذا كله شعوراً مفاجئاً بالتعاسة ، فقد تذكرت ما حدث أمس الخميس في مكتبي في مركز توزيع الاعاشة عندما كنت طوال لحظات خارجة عن عالم المعقول متأكداً من أن جموع الواقفين على البوابة سيحطمونها وان جدار الصمت المبني بيني وبين العالم سيتحطم في اللحظة ذاتها ، وقد احتاج خروجي من ذلك الوهم جهداً يكاد لا يصدق ، مثلما يقتلع الرجل جذر شجرة ، وكدت اجعل نفسي نكتة الموظفين في المكتب .

والآن ، أول ما يحدث لي هذا الصباح شيء لا مثيل له ، فأعيش بين عبد العاطي والولد والطفل ، الخبز والميزان والسكين ،

حلماً جديداً يكاد يشبه كابوساً يصاب به حارس ليلي جديد لمتحف قديم .

لا شك ان شيئاً رهيباً يحدث لي ، ولا ريب بوجود مخرج ما ، لم استطع الى الآن استكشافه او تلمسه ، وكان عبد العاطي جالساً هناك ، مغوصاً هو الآخر كما بدا لي ، في عالمه الذي لا يعرف احد أين يقع قراره ، وقلت لنفسي : أتراه يفكر بالشيء ذاته ؟

قلت فجأة ، دون ان ادرك بالضبط ما الذي كنت انوي قولـــه :

— « أتعرف يا عبد العاطي ؟ يتعين علي أنا وكذلك انت ان نفعل شيئاً . لا ينبغي ان نستمر كذلك ، لم يعد بوسعنا أن نستمر حتى لو اردنا . يجب ان نفعل شيئاً .. »

وكان عبد العاطي يتجه برأسه نحوي ويستمع بكل جسده ، ليس بأذنيه فحسب ، وقد هز رأسه موافقاً على ما قلت ، الا انه أشار الى داخل الفرن اشارة لها معنى ، فقلت :

— « تقصد الولد ؟ أنا وأنت والولد ؟ »

هز رأسه ، فيما مضيت أقول :

— « وماذا ينفع ذلك الولد ؟ انني متأكد انه يكرهني ويكرهك ، وذات يوم سيقتلنا » .

ابتسم عبد العاطي ، وقال شيئاً وهو يهز رأسه منكراً ما قلته ، الا أنني لم أكن مقتنعاً بجدوى هذا الثلاثي المتنافر الذي لا يعرف أين يتعين عليه أن يذهب .

قلت :

— « طيب ... حتى لو كنا ثلاثة . انا وأنت وذلك الولد . فماذا ترانا سنفعل ؟ »

ولم أعد احاول معرفة ما سيقوله عبد العاطي ، فقد كنت متأكداً انه يعيش مثلما اعيش ، وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام ، فمضيت أتحدث وكأنما لنفسي :

— « نستطيع مثلاً أن نذهب فنحطم قبر الولي ونخلع شجرته ونفش غلنا . نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى ونرغمه على الزواج من زينة . نستطيع أن نلقي خطاباً في جموع اللاجئين الذين يقفون بالصف لتسلم الاعاشة . نستطيع أن نفعل ذلك وأكثر ... نستطيع أن نعود الى الطيرة .. ألا نستطيع ؟ »

تلك اللحظة دخل الولد مرة اخرى ، قادماً من الفرن . ويبدو انه سمع جزءاً مما كنت أقوله ، فرماني بتلك النظرة القاسية التي يعطيهاجسده الحديدي العاري نبرة أشد قسوة ، واتجه الى عبد العاطي بالحديث ، وقد استغرق الاثنان بالجدل فجأة حتى أنهما لم يلتفتا الي وانا واقف ، ثم أغادر الفرن خارجاً الى الطريق الذي كان يسبح ، صامتاً ، في وهج الشمس .

- ١٢ -

ها أنت تغطس في عتمة الذاكرة كما تنطفىء الشمعة ، أيها الولي المقدس النائم في البرية تحت شجرته المباركة ، وحين ذهبت انما اخذت معك كل الشموع التي أضاءتها أمي في ليلي الذي قالت لي انه سيمتد الى الابد ، وقد حسبت ان العتمة ستزداد حلكة ، ولكنها بقيت على حالها ، وها أنت ذا توغل في الماضي كأنك لم تكن قط .

وطوال أيام ، بعد أن قتلناك تلك الليلة في اعماق البرية ، كنت انتصارنا الذي رد الينا نبض الحياة في صدورنا ، وها هي الايام تمضي ، فاذا بموتك يفقد نضارته ، واذا بنا نحسه في أيدينا انتصاراً صغيراً يذوب ويفقد توهجه ، انت يا درع البؤساء الوهمي ، ما الذي فعلته بنا ؟

كنت درعنا وكنا نحسب انك تحمينا من طعن رماح الزمن الذي نخوض في غماره ونسبح بين أنصالها . وحين اطرحناك

عرفنا اننا لم نكن نخوض في غابــة الزمن . وكنا واقفين على ضفته واهمين . متمسكين بذلك الدرع الذي هو أنت وكأن القتال في أوجه .. الآن نحن بلا درع ، ولكننا نخوض في شوك الزمن وفي ناره وفي أمديته ، بصدور مشرعة عارية تطعم لحمها لذلك الارتطام المخيف مع المجهول .

فأعطنا يا عبد العاطي . أيها الولي النائم تحت بلاطة النسيان ، في البرية التي تعوي فيها الغربة . القدرة على أن نكرهك ، فقد تيقنا ان موتك لا يكفي . وانه انتصار يذوب مع الايام ولا نستطيع ان نعتاش على مذاقه الذي كان له ، ذات ليلة ، طعم القضاء والقدر .

فاعطنا ، ايها الولي الذي صرفت عن اعمارنا عمراً اضافياً لك . القدرة على أن نكرهك بكل وشيجة من وشائج قلوبنا ، فليس امامنا . بعد . الا أن نحييك بالكراهية ، كي نقتلك مرة أخرى . فكما صرفت أنت من اعمارنا كي تعيش ، لا نستطيع الا أن نصرف من موتك ، كي نمحوك تماماً من حياتنا ، ثم نرتقي فوقك .

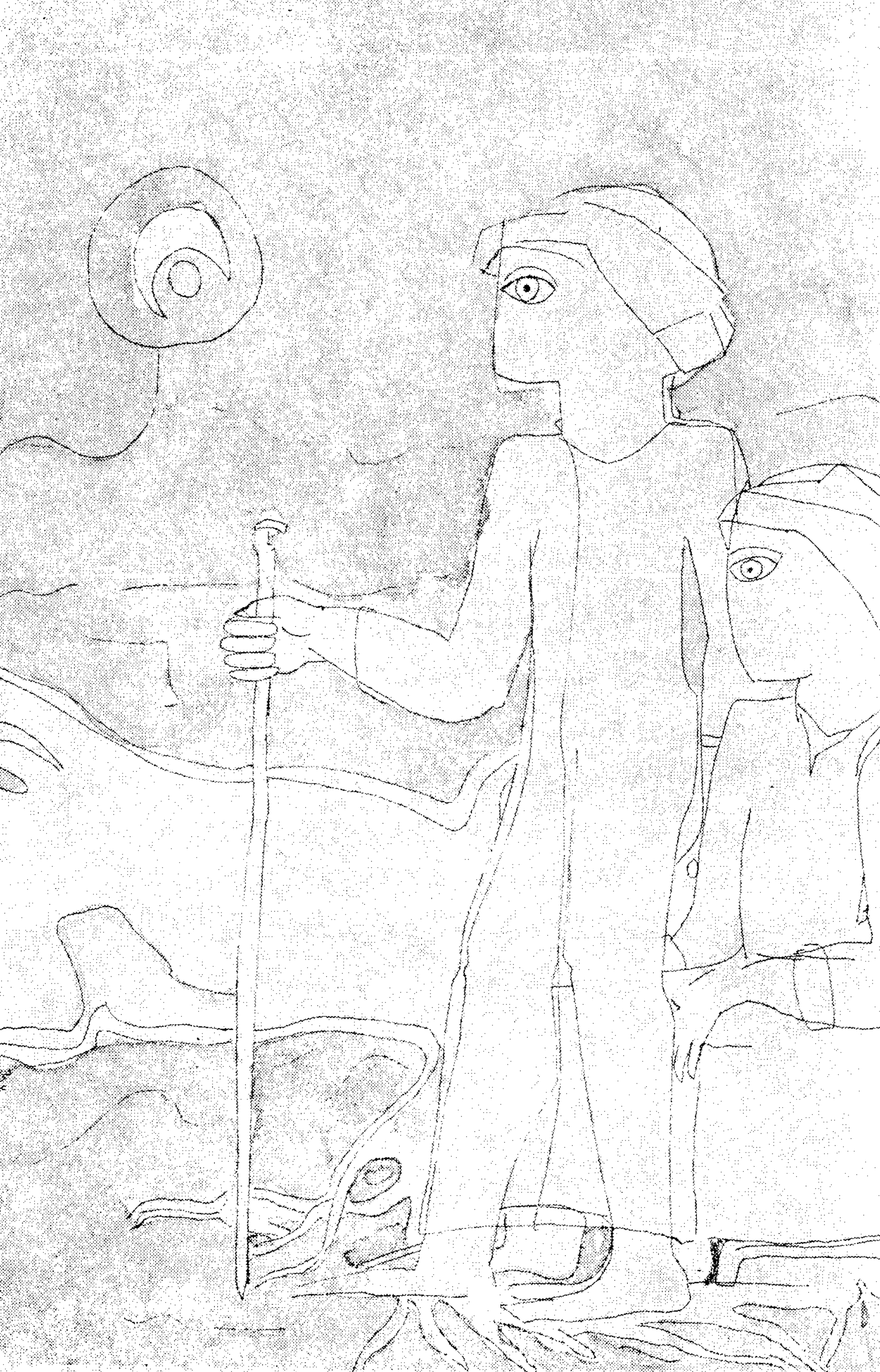

- ١٣ -

كان يوماً مترعاً بالضجر حتى قرارته . لكأن الناس كفوا عن شراء الخبز لسبب غامض لا يفهم ، وكنت جالساً هناك على باب الفرن ، غارقاً في تأملاتي . حينما جاء حمدان يلهث من الداخل ، وكانت رائحة العرق تفوح من صدره العاري وتملأ المكان ، وقد عرفت انه أراد الكلام ، فتلك هي عادته حين كان يعتزم مفاتحتي بأمر يشغل باله . وكنت أحسب أنه يريد إنهاء ذلك الخلاف ، بيني وبينه ، حول منزلة الولي عبد العاطي ، اذ انني لم أكن اعرف ان هناك ما يشغل باله في هذه الايام أكثر من هذا الموضوع . الا أن ظني خاب تماماً ، فقد تنهد ، ثم قذف جملته دفعة واحدة مثلما يرمي المرء صندوقاً ثقيلاً عن ظهره :

— « لقد عاد والدي » .

وأخذت بهدوء امتص الصدمة حين لطمتني هذه العبارة

القصيرة دون توقع مني ، ورغم أنني كنت طوال السنوات الماضية على يقين من أن ابا حمدان ، الذي لم اعرفه قط الا من خلال أحاديث قصيرة متقطعة مع حمدان ، لا بد له ان يعود يوماً ، الا أنني أبداً لم أتصور ذلك يحدث على هذه الصورة ، بل انني لم اتصوره يحدث على اية صورة ، فقد كنت اتوقع حدوثه ، ليس غير .

وعاد حمدان يكرر عبارته ، بعد ان تصور انني لم اسمعها :

— « لقد عاد والدي . أطلقوا سراحه أمس » .

ولا ريب ان حمدان لاحظ كيف انتفضت ، اذ انه لم يقل لي قط ان والده كان محبوساً ، وبدا لي لوهلة ان هذا الفتى الذي عشت معه عشر سنوات كاملة احتفظ لنفسه طوال تلك السنوات بحياته الخاصة ، ولم يسمح لي بالتعرف الا على اجزاء يسيرة منها . الا أنني حاولت ان ابدو طبيعياً ، وقلت له :

— « هل انتهت مدة حبسه ؟ »

— « لا . كان محكوماً بالحبس المؤبد . دخل السجن قبل نحو ١٢ سنة ، وكان عمري سبع سنين ، او ربما ثماني .. لقد أخذوا منذ شهور قليلة يطلقون المحابيس الذين مثله ، وأنت تعرف لماذا . الحرب والهزيمة والفدائيون .. انت تعرف .. »

— « وما علاقة والدك بالحرب والهزيمة والفدائيين ؟ »

— « كان فدائياً .. »

— « كان ماذا ؟ »

— « كان فدائياً .. »

— « منذ ١٢ سنة ؟ »

— « نعم ، دربوه في سوريا ، ونزل الى هناك عدة مرات ... »

— « ولماذا حكموه بالحبس المؤبد ؟ »

— « اطلق الرصاص على خمسة من العسكر ، فجرحهم وسلم نفسه .. »

— « عسكر ماذا ؟ »

— « عسكر في الاردن . كان ذاهباً مع شخصين الى الداخل فأطلقوا عليهم الرصاص . مات واحد ، ووالدي أخذ يطلق النار على العسكر .. هذا غير مهم الآن » .

اخذت نفساً عميقاً وتنهدت ، ولاول مرة في حياتي شعرت انني راغب حتى اعماقي في التعرف على وجه حمدان ورؤية تعابيره وهو يروي ذلك كله ، اذ أن صوته كان محايداً كأنه يتحدث عن كمية الطحين التي يتوجب علينا أن نعجنها اليوم .

وامتد صمت قصير بيننا ، الا أن حمدان قطعه فجأة :

— « كان من الافضل لو ظللت صامتاً . لا يجوز أن أتحدث لأحد عن ذلك كله . كان عليك أن تطلب مني السكوت » .

ومع ذلك فقد كان منساقاً الى الحديث كأنما بقوة لا يستطيع ايقافها . وقد تردد لبرهة قصيرة فقط ، ثم مضى يقول :

— « لو رأيته في المحاكمة ! كنت مع أمي ، وقد حكمه القاضي بالحبس المؤبد . فنظر توا من داخل القفص الى أمي ومد نحوها ذراعه وصاح : « روحي طالقة بالثلاثة ، طالقة ،

طالقة » ثم ادار ظهره دون ان ينظر الي ، وخرج من القفص بين الحراس » .

وصمت قليلاً ، ثم تنهد :

– « وها هو يعود .. أطلقوا سراحه أمس . لو كانت أمي تعرف ان ذلك سيحدث لما كانت ... »

وصمت فجأة ، وبدا لي انه لن يتكلم قط بعد هذه اللحظة ومع ذلك فقد ظللت محتاراً في سبب مفاتحته لي بالامر كله ، أتراه ينوي ترك العمل في الفرن ؟ أم تراه يستكشف الطريقة التي يتعين عليه ان يعامل بها هذه الحقيقة الجديدة في حياته ؟ لا ريب انه محتار حتى قرارة أحاسيسه ، فلم يحدث له قط في حياته ان واجه حالة على هذا المستوى من الخطورة ، الا ربما عندما قر قراره ذات يوم على الفرار الى الابد من بيت امه وزوجها ..

وعندما طال سكوته ، سألته :

– « وما الذي ستفعله الآن ؟ »

– « انا ؟ انا ؟ لا شيء . لماذا ؟ ماذا تغير ؟ حسبت انك تسأل عما سيفعله هو .. »

– « صحيح . هو . ما الذي سيفعله يا ترى ؟ »

– « لست أدري . هذا ما يحيرني .. »

– « كم عمره الآن ؟ »

– « ٣٨ أو ٤٠ سنة ، واعتقد انه ما زال قوياً ، ولكنني لا أعرف شيئاً عنه ، بل انني لا اعرف الى اين ذهب » .

وخيم الصمت . أعمق غوراً ، هذه المرة ، ووقف حمدان ثم سمعت خطواته تدب الى الداخل . وما لبثت أن سمعت اصوات ارغفة العجين وهي تصطفق على أرض بيت النار فتصدر ذلك الصوت الحميم الذي يشبه تصفيقاً خجولاً لطفل يختبىء وراء ظهرك .

كان حمدان ، طوال السنوات التي عرفته فيها، يميل الى اعتبار والده ميتاً ، فقد حذفه من حياته بنجاح او شبه نجاح ، وقد اعتقدت دائماً ان السنتين اللتين أمضاهما مع أمه المتزوجة من ذلك الرجل الفظ هما اللتان شكلتا أساس هذه العادة ، ففي بيت من ذلك النوع لا بد ان يرغم الطفل على نسيان والده وعلى حذفه من وجوده ، ومع ذلك فقد كان من السهل أن يكتشف المرء بأن حمدان يحتفظ لوالده بمكانة خاصة في ذاكرته ، ولكن كرجل ميت ليس أكثر ، مثلما يتحدث حفيد عن كنز دفنه جده في مكان مجهول ، ولا أمل له بالعثور عليه ، فلم يبق امامه الا الاعتزاز بذكراه .

ولست أدري بالطبع كيف بنى حمدان لنفسه صورة ذلك الأب الغائب ، الذي تبدت لي حياته الآن عاصفة ومثيرة وأيضاً محزنة ومغلوبة على أمرها . ولست أعرف شيئاً عن سعة تلك الهوة بين والد حمدان كما هو ، وبينه كما هو في رأس حمدان ، ومهما يكن الأمر فقد كنت على يقين بأن حمدان أخذ منذ الآن يقف على عتبة حياة جديدة ، واني قد أفقده في اية لحظة .

- ١٤ -

مضت اسابيع منذ ذلك اليوم الذي استطاع فيه عبد العاطي ، بالاشارات والكتابة وكل انواع الاتصال التي اخترعها البشر . ما عدا السمع والبصر ، أن يشرح لي فيه كيف ظهر والد الولد حمدان الى الوجود فجأة ، قادماً من مكان يشبه عالم الموت .

وكان الولد حمدان نفسه قد استغرق في تأمل يكاد لا ينتهي ، ولكنه لم يعد يكترث ، مثلما كان من قبل ، بما يدور حوله ، ومع ذلك فلم يقدر لي ، ولا لعبد العاطي ، ان نرى والد الولد حمدان ولو مرة واحدة ، ولم يكن بوسعنا ان نعرف فيما اذا كان الولد حمدان نفسه يرى والده ، وأين ، ومتى .

وفي لحظات عابرة كان يخيل الي ان الولد حمدان اخترع قصة مثيرة من قلب رأسه الصغير ليشغلنا بها أو يشغل نفسه فيها ، على انني لم أكن على يقين من ذلك ، فقد كنت أشك أساساً في قدرة الولد حمدان على اختراع شيء من هذا النوع .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الولد حمدان ان ينسينا ، ولو الى حين . قصتنا مع الولي عبد العاطي ، وكان يمكن له أن يجرنا بعيداً عما كنا غارقين فيه ، اولا انني وجدت نفسي انا الآخر اعيش مشكلة غير متوقعة . فاجأتني في المكتب ..

فقد لاحظنا كلنا كيف اخذ مصطفى يتغيب عن المكتب بين الفينة والاخرى . ثم امتد غيابه في احدى المرات أسبوعاً كاملاً . وحين عاد في الاسبوع الماضي كان يلبس بذلة خاكية ، وقد جعلنا ــ كأنما دون قصد ــ نرى المسدس الكبير الذي كان يدسه تحت حزامه .

وفي اثناء غيابه كانت الشائعات قد اكتسحت المكتب . وقيل لي ان مصطفى أصبح فدائياً ، وهو يختفي بين الفينة والاخرى في مكان ما ليتدرب على استخدام مختلف الاسلحة ، وانه قد تسلم قيادة مجموعة من الفدائيين الشبان التحقوا قبل فترة وجيزة بالثورة الآخذة في الصعود .

كان مصطفى أول من فعل ذلك من بين جميع الموظفين الذين أعرفهم في الدائرة التي أعمل فيها ، وفي الدوائر الاخرى التي أزورها بين الفينة والاخرى ، وقد أكسبه ذلك العمل ، على التو ، نفوذاً جديداً في المكتب ، وصار ــ دون اتفاق مسبق من احد ــ يلعب دور الرئيس .

على أن مصطفى نفسه ما لبث بعد أقل من ثلاثة أيام ان استغنى عن جميع الاحتياطات المصطنعة التي كان يتخذها . وصار يتمنطق بالمسدس فوق قميصه الخاكي ، ووضع على

صدره شعاراً نحاسياً لامعاً وعلق وراءه ، على الجدار ، خارطة مضرجة بالدم ، ومعنونة بأبيات من الشعر الوطني .

وأمس جاء مصطفى الى طاولتي ، وأخذ يتحدث بصوت غاضب ، وكان من الواضح انه يجعله عالياً قدر الامكان متوقعاً مني أن اسمع ، الا انني لم أفهم شيئاً ، وقد هدأت من فورته بحركة متصلة من كفي ، ثم قلت :

— « لا اسمع شيئاً .. لا اسمع شيئاً ، فلا تتعب نفسك .. »

وصمت قليلاً ، ثم احتقن وجهه بالغضب من جديد ، وأخذ مرة اخرى يصرخ بملء صوته ، وأخيراً ، انحنى ، وكتب على ورقة أمامي :

— « ماذا فعلت من أجل وطنك ؟ »

ونظرت اليه مندهشاً ، ولكنني لم استطع ان اجيب لتوي على ذلك السؤال المفاجىء ، وقد شعرت — خصوصاً — انه سؤال مهين اذ جاء على لسان مصطفى ، وقد انتهز هو فرصة حيرتي وترددي فالتفت الى بقية الموظفين الذين كانوا يراقبوننا صامتين ، واشار اشارة جانبية نحوي ، واخذ يتحدث اليهم ضارباً بجمع قبضته ، بين لحظة وأخرى ، على الطاولة ، ملوحاً بذراعيه ، متقدماً خطوة الى الامام متراجعاً الى الوراء بحركات شبه مسرحية ، وكان من الواضح ، وانا أراقب عروق رقبته ، ان صوته آخذ بالعلو درجة وراء درجة ..

وفجأة تذكرت ذلك الحلم الذي عشته فترة من الزمن ، وقلت لنفسي : « ها هو ذا مصطفى يأخذ مكاني ! » فأخذت

ابتسم ، الا أنه رآني . فتقدم نحوي والشرر يتطاير من بين اسنانه ، وأمسك بياقتي بكلتا يديه وأخذ يهزني بضراوة وهو يقول شيئاً، هو أغلب الظن شتيمة واحدة مضى يكررها مرة تلو المرة .

منذ زمن طويل لم استخدم عضلاتي التي كانت ذات يوم قوية ، وقد انتابتني في تلك اللحظة قشعريرة من الغضب لم أشعر بمثلها في حياتي . أمسكت زنديه بقبضتي وأخذت أضغط بكل الغضب الذي كان يستعر في صدري — وقد رأيت في عينيه انحناءة الضعف . وحين فك اصابعه عن ياقتي ظللت ممسكاً بزنديه ، وكان يقاوم جاهداً ، الا أنني ضغطتهما الى أدنى ببطء ، حتى أوصلتهما الى سطح الطاولة ، فضربتهما هناك مرتين ، ثم تركتهما ، وجلست .

وظل مصطفى برهة ينظر الي مشدوهاً ، دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة . الله الله يا طيرة حيفا ! هكذا تصبح قبضات الايدي من فرط ما تعاملت مع الارض والوعر والشتل ! الله الله يا طيرة العز ! حتى عندما كنت طفلاً صغيراً كنت ارى في الحقول المكان الوحيد الذي يصح فيه الكلام . كنت أمضي النهار وأنا أدق بالمنكوش ذاك التراب الذي سرعان ما ينشف من جديد ، أحمل الحجارة ، أستل النبات الضار من جذوره الضاربة في عمــق التراب .. الله الله يا طــيرة العز ! كنت معروفاً هناك — وأنا ما أزال فتى — بأن القوة الكامنة في زندي هي من الضخامة بحيث لا يقوى أحد على تحديها ، ولطالمـا

انتظرت أمام الجامع ، في الطيرة ، حتى يفرغ الشبان من اختيار بطلهم حتى أثنى له ذراعه على بلاطه درج المسجد ، ولم يكن ذلك ليستغرق مني الا دقيقة او دقيقتين .. كم مضى من الزمن دون أن اختبر تلك القوة ؟ أتراها ما تزال مختزنة في جسدي ، أم ان مصطفى بالذات رجل خرع ؟

عدت فوقفت ، ولوحت أصبعي في وجه مصطفى الذي كان ما يزال واقفاً هناك يحدق الي مشدوهاً ، وصحت بوجهه :

— « اسمع يا ضرُنط ! سأكسر يدك ان حاولت مرة اخرى أن تمدها نحوي .. تستطيع ان تذهب وتتشاطر على الارامل والمطلقات ... ام تراك تحسب ان البدلة صيرتك رجلاً ؟ يا حرام الشوم ! »

وأخذت شفتاه تتحركان ببطء . الا أن وجهه ظل جامداً كأن رجلاً آخر كان يتكلم في تلك اللحظة . ولم استطع حتى ان أخمن ما الذي كان يقوله لي ، وما لبث ان استدار ، بعد أن انتهى ، وخرج من المكتب صافقاً الباب خلفه بعنف ..

وقد هدأ الغضب في صدري مثلما تنطفىء نار مهملة ، وظللت جالساً الى مكتبي مضطرباً طيلة ساعات الدوام ، فقد كنت أحس في أعماقي بأن مصطفى يعد لي فخاً ، وانه قد يعود في أية لحظة ويفاجئني بأمر لا أحسب حسابه ، وتوزعتني مشاعر متناقضة . ومع ذلك ، فقد كنت أدرك وسط كل حيرتي أنه يتعين علي الذهاب الى عبد العاطي ، فقد أحتاج للولد حمدان ، او لعلي أحتاج الى والده المجهول الغامض .. ولكنني

لم أكن أعرف على وجه التحديد ما الذي يستطيعون عمله ، وقد انتظرت بلهفة انتهاء الدوام ، ومضيت لتوي الى عبد العاطي ...

وقد شرحت لعبد العاطي ما حدث ، وكان حمدان واقفاً على باب الفرن يستمع بعناية الى كل كلمة اقولها ، ولست أدري لماذا كنت أخشى ، أكثر ما أخشاه ، أن يؤلب مصطفى ضدي كثيراً من الناس ، وكذلك الشرطة ، بسبب حديثي المتواصل عن الولي عبد العاطي ، وعن تكرار التصريح بعزمي على هدم قبره وقطع شجرته ، ولعلني قلت ، مرة ، انني سأبول هناك . والواقع ان اصراري على الحديث عن الولي عبد العاطي على تلك الصورة كان سببه بالدرجة الاولى اصرار مصطفى على الدفاع عنه ، فقد كنت عازماً على الانتقام منه واغاظته وقلب حياته في المكتب الى جحيم ..

ومع ذلك ، فانني لم أصرح لعبد العاطي بمخاوفي هذه ، رغم انها تمسه مباشرة ، ولعلني كنت خائفاً من ان اثير غضب حمدان ، الذي كان ينصت الى حديثي بانتباه فائق ، وكنت أخشى أن يأخذ جانب مصطفى فأفقد تأييده لي .

ولكن ما أن انتهيت من شرح حكايتي مع مصطفى ، وعبرت عن مخاوفي من انتقامه ، وطلبت نصح عبد العاطي ، حتى انغمس حمدان مع عبد العاطي في جدال مطول ، وقد انتهى الامر بأن طلبا مني التريث ، وأن أترقب بحذر خطوة مصطفى التالية .

وقبل أن أذهب لحق حمدان بي ، وقد رأيته لاول مرة في حياتي يبتسم ، وقد شرح لي بالاشارات انه سيخبر والده بكل ما حدث ، مؤكداً لي أن والده له مكانته المهمة ، حتى الآن ، بين قادة الفدائيين .

- ١٥ -

عاد حمدان من عند أبيه ، وشعرت من خطواته وهو يدخل الى الفرن انه يحمل على أكتافه خيبة أمل . وقد جلس على الكرسي الذي نضعه عادة قرب الباب ، واستغرق في الصمت منتظراً مني أن أحرضه على الكلام . مثل عادته كلما كان يحمل خبراً سيئاً ..

وقد تركته صامتـــاً لفترة طويلة ، وأنا أفكر فيما عساه سمع من والده الغامض بشأن القضية التي تقلق أبو قيس . وأخذت أتصور مـــا يمكن أن تكون اثنتا عشرة سنة من الحبس قد فعلت برجل مثل أبي حمدان . لعله قد غرق في النسيان ، ولعله حين قطع أواصره بالعالم . وهم يقتادونه الى ما حسب انه قبره طوال العمر . فطلق امرأته . ونسى ولده ، وغرق في وحدته المضجرة . انما عود نفسه على أن يحتقر العالم ، وليس بوسعك ان تفعل ذلك الا اذا روضت نفسك على اليأس منه الى حد القطيعة معه . وهي الحيلة التي يلجأ اليها السجناء

كي لا يموتوا من الحزن في وحشتهم وبعدهم عن العالم ..

فكيف تراه ينظر الى هذا العالم ، والى الناس ، والى كل المعاني البسيطة التي تشغلنا وتشغل رجلاً مثل أبي قيس ؟ أتراه يستطيع ان يخرب حمدان او يزرع في شبابه غيوم اليأس من هذا العالم ؟

قلت أخيراً ، كي اخفف على حمدان :

– لا ريب ان اباك يسخر من كل شيء ، وهو يرى ان قضية أبي قيس لا تستحق كل ذلك ... بشرفك ، ألم يضحك عليك ؟

وبعد هنيهة جاءت الدهشة التي توقعتها ، في صوت حمدان :

– كيف عرفت ؟ قل لي كيف عرفت ؟

– ذلك شيء متوقع ..

– ربما ، ولكنك لا تعرف ! لقد تغير والدي كثيراً ، كثيراً جداً . السجن غيره ، وهو ليس كما كنت أتوقع ...

– ماذا تعني ؟

وأخذ حمدان يتأتيء ، متردداً ، فعرفت انه لا يستطيع التعبير على وجه الدقة عما حدث ، فتركته يفكر ، وقد اختار جملة أو جملتين ، على انه عاد فتوقف في منتصف كل منهما والتجأ الى الصمت . وأخيراً قذف عبارة مختصرة دفعة واحدة وكأنه كان يخاف أن يغير رأيه :

– لقد تعلم السياسة في الحبس !

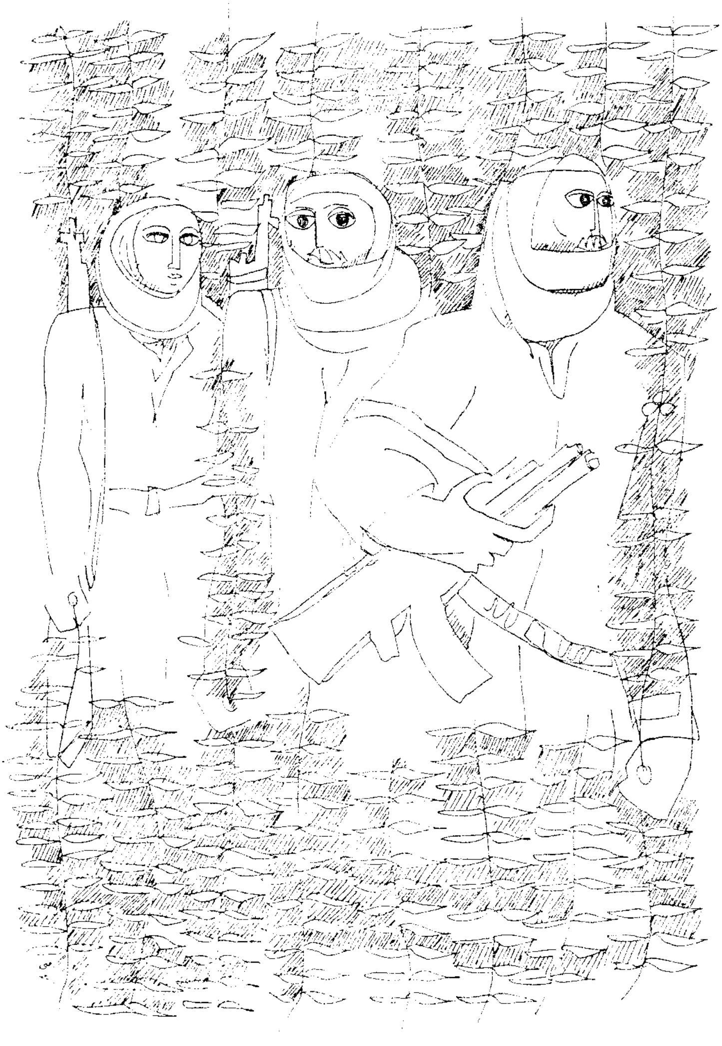

وخيم صمت طويل بعض الشيء ، ميزت فيه ذلك النوع من السكون الذي اعتدت أن ينشأ بيني وبين ابو قيس . ذلك الصمت الذي يدوي فيه صوت الانتظار ، وكان هذا النوع من الصمت نادر الحدوث بيني وبين حمدان . وأخيراً عاد حمدان الى الحديث :

ـ انه طوال الوقت يتحدث عن رجل كان سجيناً معه . تارة يقول انه رفيق . وتارة يقول انه مناضل . وكل شيء له معنى عنده ، ويستجر حديثاً طويلاً . وحين شرحت له ما حدث بين مصطفى وبين أبو قيس ضحك وقال ان مصطفى من « جماعة الطق طق » ..

ـ « جماعة الطق طق ؟ »

ـ اي نعم . قال « جماعة الطق طق » . اي اولئك الذين يختارون من بين كل المتاعب بند « الطق طق » ..

ـ ماذا يعني « بالطق طق ؟ »

ـ يعني القواص . يقول ان اطلاق الرصاص نوعان . نوع يسميه « الطق طق » . ونوع يسميه السياسة ... وهو يقول ان مصطفى من « جماعة الطق طق » ..

ـ لم أفهم شيئاً ..

ـ وانا لم افهم ، والظاهر انني أخطأت حين قلت له انك انت الذي تستطيع ان تفهم عليه . وذات يوم لا بد ان احضره الى هنا كي تثرثرا حتى تنفلقا . انكما تشبهان بعضكما من حيث انكما تقولان اموراً كثيرة لا معنى لها ..

وقام حمدان من مكانه وأخذ يتجه الى الداخل . وعندما مر بجواري أمسكت بزنده القوي فوقف ، وسألته :

— مهما يكن ... ماذا بشأن أبو قيس ؟

وأجاب حمدان :

— قال انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً ، وان على ابو قيس ان يقلع شوكه بيده ..

وفيما كنت أسمع خطواته تدب نحو الفرن كان رنين الاعتزاز الكامن في صوته ما زال يرن في رأسي ، ولم يكن من الصعب على المرء أن يسمع ، تحت نبرة الحيرة التي كانت تكسو صوته ، رنة عميقة من الافتخار بوالده ، انه يتحدث عنه ، وعما قاله ، وكأنه تعاليم ينبغي علينا التعمق في حل رموزها واشكالاتها ، ولكن لا ينبغي لنا الشك بصوابها مهما كان الامر.

وقلت لنفسي ان الاقدار تلعب ببراعة ، اذا ما حاولنا ان نفهم ، فهاءنذا أضيع نبياً حين اخفق الولي عبد العاطي في نجدتي ، وها هو حمدان يجد ولياً جديداً ، ولكنه ولي محير ، ومع ذلك فليست عذاباتنا تختلف كثيراً عن بعضها ..

ويبدو ان حمدان لم يستطع البقاء طويلاً أمام بيت النار مع افكاره ، اذ ما لبث ان عاد ، وقد جاءت رائحة العرق التي تنبعث من جسده ، كلما وقف امام النار ، قبل ان تجيء أصوات خطواته . ووقف أمامي ، وسألني :

— أتعتقد ان السجن أثر على والدي ؟ أم انه كان طوال عمره هكذا ؟ لقد قال لي هو نفسه انه تعلم كثيراً من السجن ،

وان الحظ قد ساق له ذلك الذي يسميه تارة رفيقاً وتارة أخرى مناضلاً ، فتعلم منه الشيء الكثير .. وقد سألني عما أفعل ، وحين قلت له انني أعمل هنا لم يقل شيئاً ، بل أخذ ينظر الي بدهشة ..

– هل يعمل الآن مع الفدائيين ؟

– أعتقد ذلك ، ولكنه يقول ان ما تعلمه في السجن يجعله يعتقد بأن « جماعة الطق طق » بحاجة الى تعلم الكثير ، وانه هو نفسه كان من جماعة الطق طق قبل ١٢ سنة ، أما الآن ..

وخيم صمت قصير ، وفجأة غير حمدان الموضوع ، ولكن دون ان يبدو ذلك التغيير في نبرة صوته :

– لقد تحدثنا عدة مرات عن الولي عبد العاطي ..

– ماذا ؟

– رويت له قصتكما معه ، ومعي ، وسألته رأيه ، أنت تعرف ، أردت أن أتيقن من هذه القضية . فهي تشغلني منذ فترة ..

– طيب ، ماذا قال ؟

– لقد ضحك كثيراً ، ثم قال ان الاولياء مثل الافاعي التي في قصة الزير ، اذا قطعت لها رأساً طلعت مكانه سبعة رؤوس ... ثم شتمني ، وقال انني « وليّة ». وقال انه ياما هدم الناس قبوراً للاولياء ، وياما كفروا ، وياما حلفوا بالطلاق ألا يسمحوا لاحد بأن يخدعهم مرة أخرى ، ولكنه قال ان هذا ليس هو المهم ، المهم أنك اذا هدمت قبر الولي فعليك أن

تقلعه من شروشه ، وألا تسمح لولي آخر بأن يأتي من وراء ظهرك .. انه طول الوقت يحكي هكذا ، تقول له : كيت وكيت يقول لك . طيب ، ولكن شرط كذا وكذا . كل شيء عنده له أول ووسط وأخير ، ودائماً يقول ان الامور غير هذا ، وان المسائل أعمق من هكذا .. وهكذا .. ولكنني لا أفهم كل شيء ، وأظل أهز رأسي ..

ـ أنا أعتقد انني أفهم بعض الشيء أيضاً ..

ـ أنت مثله . انتما تتحدثان أكثر من قاضي معزول . وأنا أعتقد انه لم يشعر بالملل في السجن . فقد أمضى الوقت . طوال ١٢ سنة ، يتحدث مع ذلك الرجل الآخر بالسياسة ... على كل حال . فقد رأيت انه يحتفظ تحت فرشته بمدفع رشاش. هل تعرف معنى هذا ؟ معناه أن الحبس لم يغيره . أليس كذلك ؟

- ١٦ -

دخل أبو حمدان الى حياتنا عن بعد ، ولكنني لم أره قط ، ولا استطاع عبد العاطي أن يراه . وكنا نسمعه من خلال الولد حمدان ، ونراه من خلال التغير الثابت الذي كان يطرأ على هذا الفتى يوماً بعد يوم ، وكان عبد العاطي يستمع الى الولد حمدان وهو ينقل تفاصيل مقطعة عن الكلام الذي كان يتبادله مع أبيه ، ومن ثم كان يشركني بالحصيلة عبر أساليب مختلفة كنا ، دون أن ندري ، نطورها نحن الثلاثة معاً من خلال احتكاكنا المتواصل ، ومن خلال المواضيع التي كنا نرى انفسنا نبحثها في كل يوم .

ولم يعد مصطفى يخيفني ، وفي الحقيقة انه لم يخفني قط قبل ذلك ، الا انه كان يثير فيّ خشية بالنسبة للمستقبل ، ومع مضي الايام أخذت أنا . وأخذ بعض الموظفين . يدركون بأن الحدود التي يستطيع ان يصلها في نشاطه ليست بعيدة الى الحد الذي

اعتقدناه في البدء ، وان مسار يومياته قد مضى على الاسلوب نفسه الذي كان لها منذ ان عرفناه ، لعدة سنوات خلت ، الا أن زيادات طفيفة – مثل ملح الطعام او بهاراته – قد طرأت هنا وهناك على نشاطه اليومي .

وقد كانت حياتنا تسير بشيء يشبه الهدوء ، لولا ذلك الطعم الجديد الذي أدخله حمدان اليها ، بطريقته المفعمة بالتحير ، الى أن حدث ذات يوم حادث بدا لي صغيراً في لحظتها ، ولكنه لم يكن كذلك كما تيقنت فيما بعد ، فقد كنت في مكتبي في الوكالة حين أحسست بأن شخصاً ما يقف قرب طاولتي ، وحين رفعت بصري وجدت زينة واقفة هناك وهي تحمل احد أطفالها على خاصرتها ، وقد بدت لي أقل جمالاً مما تصورت ، ولا شك ان الحزن قد أنهكها ، وكانت تتحدث الي والدموع تملأ عينيها ، الا أنني لم أكن لأفهم شيئاً ..

وفجأة اصطدم بصري بمصطفى الذي كان جالساً وراء طاولته ، قبالتي يسترق النظر دون ان يتحرك ، فأشرت لها ان تذهب اليه ، ولكنها دون ان تنظر الى حيث أشرت أخذت تهز رأسها رافضة وهي تصرخ ، وشرع طفلها يبكي ويتمسك بها ، ودون توقع مني بدأت دموعها تنهمر وكأن ابواباً موصدة امام عينيها قد فتحت فجأة على مصاريعها .

وربما لن أعرف ، طوال عمري ، ما الذي كانت تقوله تلك اللحظة ، واشعر في كل لحظة بندم شديد ولا أدري لمن يتعين علي ان اوجه وخزاته ، اذ لست اعرف من الذي ينبغي

أن يلام ، ولقد استدارت وخرجت من المكتب وانا أنظر الى كتفيها يهتزان من تأثير النشيج الذي كانت غارقة فيه ، وكان رأس طفلها المعلق على خاصرتها يهتز هو الآخر بتناغم محزن ، وفي تلك اللحظة نظرت نحو مصطفى ، وأعتقد انني شهدت ، للحظة أقل من الثانية ، بقايا ابتسامة خبت بسرعة حين شاهدني انظر اليه ، وعندها فقط مر في رأسي قرار صغير ، بأن أنهض وأتجه نحو مصطفى وأستل عمره من عروق رقبته ، ولكنني هدأت بسرعة ، وتنهدت ، وعدت الى أوراقي .

بَرقوق نيسَان

برقوق نيسان

عندما جاء نيسان اخذت الارض تتضرج بزهر البرقوق الاحمر وكأنها بدن رجل شاسع ، مثقب بالرصاص . كان الحزن ، وكان الفرح المختبيء فيه مثلما تكون الولادة ويكون الالم ، هكذا مات قاسم[1] قبل سنة ، وقد دفن حيث لا يعرف

---

(١) كان قاسم خليل قد ولد في طيرة دندن قرب يافا في الخامس من أيلول من عام ١٩٤٠ ، وأصبح بعد سنة واحدة الابن الاوحد في العائلة بعد أن مات شقيقه الذي يكبره سنتين إثر إصابته بالحصبة ، ولم يتمكن قاسم من أن يدرس في مدرسة القرية إلا حوالي سنتين ، وقد أصبح لاجئاً في نيسان من عام ١٩٤٨ ، قبل أن يكمل العام الثامن من عمره ، وبعد ذلك سكن في احد بيوت الصفيح في مخيم عقبة جبر قرب أريحا مع أبويه ، وفي غضون ذلك كان يعمل اجيراً في كراج للسيارات في أريحا ، وتمكن – حين صار في العشرين – من أن يطلق على نفسه لقب ميكانيكي ، وكانت آماله تنحصر في ان يتمكن ذات يوم من ان يصبح ميكانيكي طائرات ، أو على الأقل مالكاً لكراجه الخاص ، الا أنه في الخامسة والعشرين تخلى عن هذه المطامح . كانت الأحزاب الوطنية في تلك الفترة قد تخلخلت تحت الضربات المتلاحقة التي وجهتها السلطات الاردنية ، وهكذا ضاع أمله في الالتحاق بالحزب الشيوعي الذي كان أحد رفقائه في الكراج يمتدحه أمامه ، فقد ضاعت أخبار ذلك الرفيق فجأة ، وهكذا فكر في ان ينشىء حزباً فدائياً بنفسه ، =

أحد . دون اسم[1] ، ويبدو الآن بعيداً كأنه لم يكن طوال العمر إلا واحداً من هذه الاحلام العظيمة التي تظل مع المرء وكأنها جزء منه . وترافقه الى الفناء دون ان توجد حقاً ، ومع ذلك فانها قادرة على أن تكون مثل حقيقة ما ، يفتقدها المرء من حـــين الى آخر ، ويشعر في لحظة او اخرى ملمسها وكأنها فرت للتو من بين راحتيه .

= والتحق بدورة تدريب للحرس الوطني لذلك الغرض، وحين شرع يرسم خططاً صغيرة ليبدأ اتصالاته تفجرت حرب ١٩٦٧ ، وسمع وسط الفوضى أن الفدائيـــين يحشدون صفوفهم وراء النهر ، فترك والده ومخيم عقبة جبر واتجه الى السلط في الثاني عشر من حزيران ١٩٦٧ .

(١) في نيسان من عام ١٩٧٠ نشرت الصحف أن دورية اسرائيلية اصطدمت بمجموعة من الفدائيين جنوبي البحر الميت ، وقد استمرت المعركة عدة ساعات استشهد فيها من أصل سبعة فدائيين كانوا هناك ستة ، وتمكن السابع من الفرار ، وقد ظلت اسماء جميع الشهداء مجهولة حيث دفنت بمعرفة السلطات فحسب . الا أن حادثاً صغيراً وقع عند ذاك يجدر تذكره : فقد عرضت الجثث على بعض الفدائيين الأسرى في محاولة للتعرف عليها ، وكانت أربع جثث مشوهة بحيث استحال التعرف على أي منها ، وأبدى احد الأسرى شكه في أن تكون احدى الجثتين الباقيتين لشاب يدعى قاسم ، كان يعمل ميكانيكياً في أريحا ، وفي اليوم التالي أحضرت الشرطة والد قاسم الذي اعترف بأن ولده يعيش شرقي النهر ولكنه بعدما تفحص الجثة أنكر أن تكون لولده ، وكان التشويه يمنع من الوصول الى قرار ، وحين ووجه الفدائي الأسير الذي تعرف على الجثة بوالد قاسم نفى أن تكون شكوكه مبنية على معرفة حميمة بالشاب المجهول ، ، وما لبث ان تراجع عن شهادته ، وهكذا أخلي سبيل الرجل العجوز بعدما سجل توقيعه وتعهداته على أوراق عديدة تنص على أنه سيتحمل بنفسه مسؤولية أي عمل يمكن لابنه قاسم الذي يعيش شرقي النهر ان يرتكبه ضد سلطات الاحتلال .

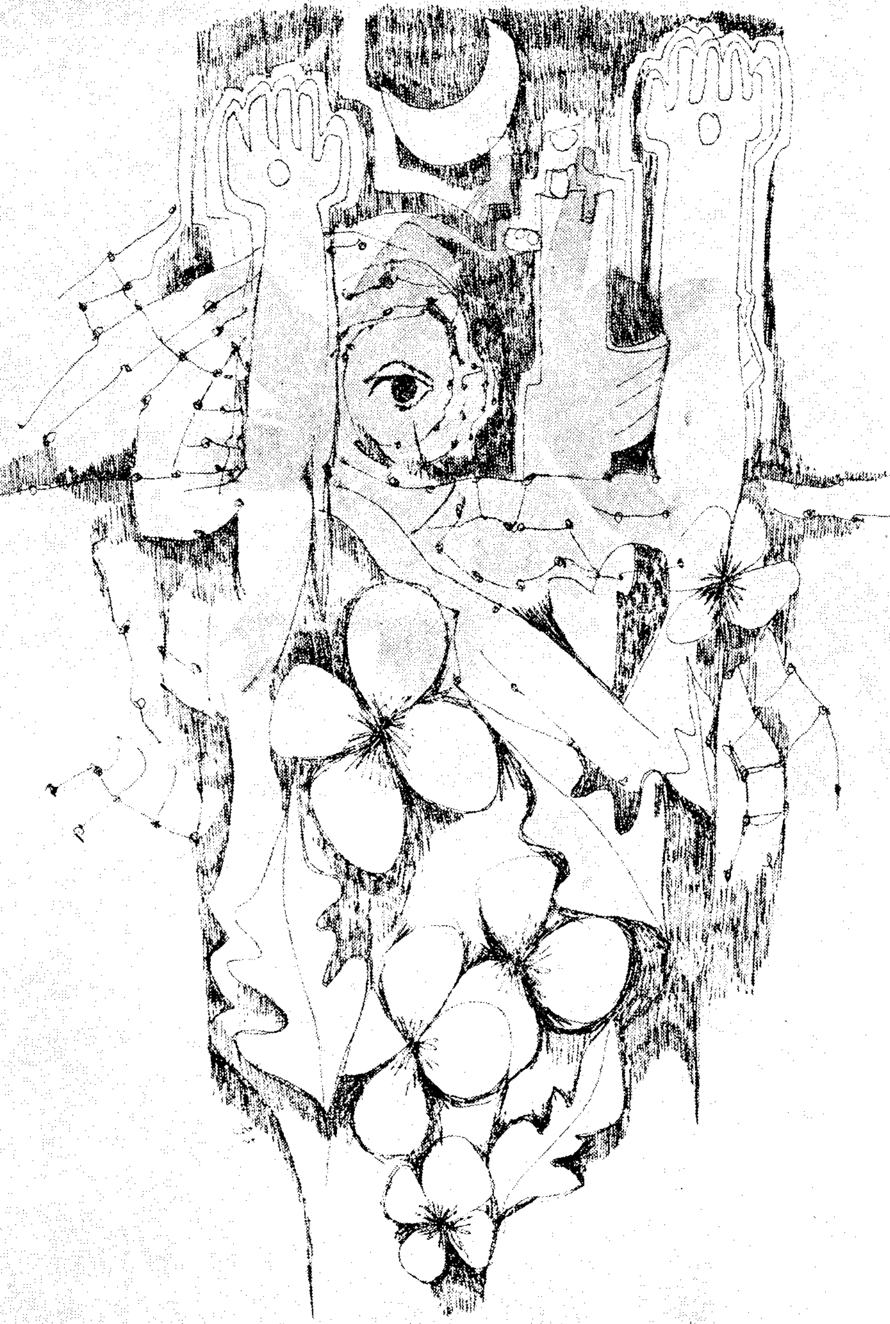

وكانت نابلس ، ذلك الصباح ، منكفئة على نفسها وكأنها ما تزال نائمة . وقال ابو القاسم[1] لنفسه ان المدن مثل الرجال : تشعر بالحزن وتشعر بالوحدة . تفرح وتنام ، وتعبر عن نفسها بصورة فريدة تكاد لا تصدق ، وتتعاطف بغموض مع الغرباء او تركلهم .. بل ان الاحياء في المدينة مثل الاولاد في العائلة : لكل منهم شخصيته ومنزلته ومزاجه ، فثمة شوارع محببة ، وأخرى تتقاذف العابرين فيها بفظاظة . وشوارع خبيثة ، واخرى صريحة ، ولكن ابا القاسم كان الآن منشغلاً بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بحجر : بدن الأرض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص ، يتضرج بزهر البرقوق ، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته ، ولا ريب ان قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه ، ثم ذبلت بقع الدم على سترته الخاكية مثلما تجفف شمس الصيف المتوقدة اوراق البرقوق الهشة . استدار أبو القاسم ، واخذ يتأمل من جديد تلك البقع الحمراء الممتدة امام عينيه فوق تلة صغيرة . ودون ان يعرف بالضبط ما الذي يريده . خطا نحو التلة ، وأخذ يجمع باقة من الزهر المخضب بالاحمرار القاني ، وقال لنفسه وهو ينحني : « منذ سنة وانا آتي لسعاد[2] بكفين فارغتين

(١) في الواقع انه يشعر الآن بأنه اكبر سناً مما هو حقاً ، ويردد لنفسه ان الكوارث الثلاث التي نزلت به ينوء تحتها جبل : فقدان قريته وتزوحه عام ١٩٤٨ ، وموت ام القاسم بالسل عام ١٩٥٣ ، واستشهاد قاسم قبل سنة .

(٢) ولدت سعاد وقاد في نابلس عام ١٩٤٥ ، وكان والده موظفاً صغيراً في —

كل شهر ، ولا ريب ان منظر هذه الزهور سيبدو على الطاولة البيضاء جميلاً ، ثم ان ... » وقد شعر بالتعب وهو يستل الزهور الغضة ، وبدت له أشد تمسكاً بالارض مما خيل اليه

= دائرة النفوس التي كانت آنذاك تابعة لحكومة الانتداب ، وقد ظل موظفاً في نفس المرتبة والدائرة خلال هيمنة النظام الأردني على الضفة الغربية ، وهكذا تمكن من إرسال ابنته سعاد الى جامعة دمشق عام ١٩٦٢ ، وقد درست لمدة سنة في كلية الاداب ، الا أنها عادت والتحقت بقسم العلوم السياسية ، وهناك تعرفت على أحد الشبان المتحمسين لحزب البعث ، وما لبث أن ألحقها بالحزب ولكنها لم تستطع أن تكون عضواً منظم الولاء والنشاط ، وكانت هذه المشكلة بالذات هي التي فتحت عينيها على رغبة عميقة في دراسة المسائل التنظيمية في العمل السياسي ، وساقتها هذه الدراسة الى القاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي ، وعلى بنية حركة القوميين العرب التي شعرت آنذاك أنها آخذة بالتمزق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكن مشدودة الى قانون صارم للعلاقات الداخلية ، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحدث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الآونة الى مرتبة السلطة ، وقد كان لسعاد آراء غامضة ، ولكنها بالغة التأثير ، بالتغير الذي يطرأ على الاحزاب السياسية عموماً ، وذات البرامج الفضفاضة والغامضة خصوصاً ، حين تهيمن على دفة السلطة ، وهكذا فقد شهدت تلك الفترة من حياة سعاد وقاد خمولا سياسياً وحيرة بالغة الحدة ، ولكنها مع ذلك أبدت اهتماماً خاصاً بمجموعة من الشبان أبدوا تصميمهم على احداث تغيير نحو اليسار في حركة القوميين العرب ، وكان سبب هذا الاهتمام بالدرجة الأولى دراسة تعدها سعاد عن مكانة الناصرية في المسيرة الوطنية العربية في تلك الفترة ، الا أن الارتباط مضى أبعد من ذلك ، فقد التحقت سعاد بالذراع الفلسطيني للحركة الذي كان قد بنى تنظيماً فدائياً صغيراً أطلق عليه اسم « شباب الثأر » ، وكانت تشعر بشيء من الاعتزاز حين كلفت بالقيام باتصال صغير في نابلس ابان عطلتها الصيفية ، والعمل على بناء خلية هناك ، الا أن الحرب فجأتها فقررت البقاء ، وكانت القدرات التي أظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي أوصلتها في فترة وجيزة الى مرتبة قيادية في نابلس .

حين كان ينظر اليها من بعيد ، وما لبثت الافكار التي كانت تحوم على غير هدى في رأسه ان اخذت تترابط بصورة تبعث على الدهشة . فقد تذكر انه حين رأى سعاد لاول مرة في أريحا لفت نظره قرص احمر من زهر البرقوق يتوقد وسط شعرها الفاحم السواد . وان ذلك بعث فيه السعادة لان طلال قال له بأن سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره في اريحا[1] . وتحدثه عن قاسم . وقد دقت هذه السيدة الباب في اليوم التالي ، وطلبت منه ان يحدثها بالتفصيل عما حدث له حين استدعي الى المخفر الاسرائيلي قبل اسبوع لتعرض عليه جثة احد الفدائيين القتلى[2]

---

(١) كان طلال شاباً قصير القامة لم يبلغ العشرين بعد ،ويبدو أنه كان يتقن عبور النهر ونقل الرسائل ، وفي الماضي كان يزور ابو القاسم مرة في الشهر و يعطيه ثلاثة دنانير و يقول له : « قاسم يسلم عليك » ، ولا يزيد كلمة واحدة . وفي آخر مرة رآه قال له ان سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره ، وانه لن يراه بعد . وكانت تلك السيدة هي سعاد ذاتها ، ومنذ ذلك الوقت تولت سعاد اعالته ، وكانت تعطيه خمسة دنانير في كل مطلع شهر .

(٢) توجس خيفة منذ الصباح ، وكان يشعر بثقل غامض يجثم على صدره ، وعند الظهر جاء شرطيان وأخذاه الى المخفر ، وأخذ رجل ابرص ، يلمع كأنه مدهون ، يسأله عن قاسم ، وبعد وهلة عرف في قرارة نفسه ان ولده قد قتل ، ولكن الابرص لم يكن قد اشار الى ذلك بعد . « أتعرفين كيف يتصارع الرجل مع دموعه ؟ مثلما يحاول فلاح أن يسد ثقوب الساقية بكفيه . وظل الابرص يسأل ولم اكن اعرف بماذا كنت اجيب » وأخيراً أدخلوه الى غرفة مترعة برائحة الموت « وكان قاسم هناك ، ممدداً على طاولة ، وقد نظرت اليه لحظة واحدة فحسب ، ثم اخذت انظر الى راحة يده ورأيت فيها ارادة رجل بطل ظل ممسكاً بسلاحه حتى اللحظة الأخيرة ، ولم تفرد اصابعه الا بالقوة ، وبعد ان مات » وسألوه ان كان يعرفه ، فنفى ذلك بشدة« ان قاسم شاب اطول قامة وأشد سمرة ، ثم انه سافر الى —

وحين كان يروي لها قصته اخذت عيناها السوداوان تنضحان دمعاً من تلقائهما ، وقالت له : « يا ابا القاسم ، ليس بوسع احد أن يملأ مكان أحد ، وقد كان قاسم بطلاً ، وعليك ان تكون فخوراً به ، وقد فعلت شيئاً حسناً حين أنكرته لانك انقذت الكثيرين من رفاقه . لا تقل الحقيقة لاحد ، وخذني انا مكان قاسم » . ومنذ ذلك اليوم وهو يزورها في نابلس ويقيم في بيتها يوماً او يومين ، ويأخذ الدنانير الخمسة ويعود الى اريحا[1] ، وقد قال لها ذات يوم : « الختيار.. هل ما زال حياً ؟ » وحين قالت له « لا » ، اجابها : « هل تقبلينني أباً ؟ » وقالت سعاد : « يا أبا القاسم ، انت والدنا كلنا ، لان الشهيد كان أخانا كلنا » وعندها سألها عما اذا كان يستطيع ان يفعل شيئاً مفيداً ، واجابته سعاد بنبرتها الحاسمة : « ذات يوم ، ربما » .

وقف أبو القاسم مستشعراً الالم في خاصرته من طول الانحناء وكانت باقة الزهر الاحمر قد اصبحت كبيرة وبدت في يده الخشنة شعلة من اللهب ، ووراء التلة كان بيت سعاد بشبابيكه

= الكويت وهو يعمل في كراج للسيارات هناك» وشعر بالعار لانه يكذب ، ولم يكن يعرف لماذا كان خائفاً الى هذا الحد . « لقد انكرته ، ولكنه سيغفر لي ، فأنا رجل عجوز لا أتحمل السجن ولا الضرب ، وأريد أن أموت هنا ، وليس شرقي النهر . انت تفهمين ذلك أيتها السيدة .. أليس كذلك ؟»

(١) كانت وكالة الغوث قد قطعت اعاشته ، وسحبت منه الدفتر الاحمر الذي كان يخوله تناول المؤن ، وذلك لان تقارير شعبة التحري في الوكالة قد أثبتت بأن ابنه يحصل مدخولا شهرياً يزيد عن عشرة دنانير .

الصغيرة في الطابق الثاني ، وقال لنفسه : « ربما كانت تنظر الي الآن » ، وقرر ان يبادرها بالجملة ذاتها التي بادرته بها حين زارته لاول مرة[1] في اريحا ، ومن ثم انطلق نازلاً التلة الى الطريق ، ومضى نحو منزل سعاد .

آخر شيء يذكره أبو القاسم من عالمه القديم كان ذلك السلم الطويل الخشن الذي يوصل الى بيت سعاد ، الا ان الباقة الحمراء التي كانت تتوقد في كفه ظلت أكثر رسوخاً في ذاكرته ، منذ هذه اللحظة ، اكثر من اي شيء آخر : لقد صعد درجات السلم ذلك الصباح دون ان يراوده اي شك بأنه سيعود فينزلها كما صعدها ، ويعود الى عالمه القديم الذي يبدو له الآن انه غادره تماماً . ان للرجال أقدارهم المكتوبة منذ الازل ، والتي هي مثل اسمائهم ، تلتصق بهم في لحظة لا يدركون كيف جاءت . لقد قرع الباب متوقعاً وجه سعاد بملامحه القاسية ، ولكن الجميلة ، الا انه فوجيء بقبضة قوية تعض كتفه ، وتجذبه بعنف الى الداخل ، ثم سمع اصطفاق الباب وراءه مثل انفجار .

وحين استرد توازنه على المقعد الذي قذف اليه ، أطلت عليه ثلاثة رشيشات . ووراءها وقف جنديان وضابط . وفتح ابو القاسم فمه دون ان ينوي قول شيء معين ، الا ان الضابط

---

(١) دخلت البيت ، وانتزعت الزهرة الحمراء من شعرها وهي تقول له : « البرقوق ورد الفقراء يا أبا القاسم » ، وبعد هنيهة قالت له : « اهل القسطل كانوا يقولون : هذه دماء الشهداء تطل علينا » .

نهره : « هش » .

وأخذ احد الجنديين يفتشه . باحثاً في جيوب قنبازه عن شيء ما . وعندها تنبه أبو القاسم الى وجود ثلاثة أشخاص آخرين في الغرفة . واقفين ووجوههم الى الجدار ، وفي الزاوية كان ثمة طفل في العاشرة يبكي بما يشبه الهمس . ولم تكن سعاد هناك . وبدت صورة والدها المعلقة على الجدار ، بشاربيه العظيمين[1] أكثر غرابة مما كانت في اي وقت مضى ، وكان ما يزال مشوشاً . غير قادر على اعادة ترتيب ما حدث ، حين قبضت يد الجندي بشدة على زنده ورفع يده بعنف الى فوق : عندها فقط شهد باقة الزهر الاحمر مرة اخرى ، وتعجب لهنيهة كيف لم تسقط من يده ، ولم تتمزق . وسط ذلك العراك الاحمق الذي يجري دون هدف معين . ودفعه الجندي الى الحائط ، وساعده الجندي الآخر في صلبه امام الجدار بذراعيه المفتوحتين الى اقصى ما يستطيع . وبهدوء ارغمه الضابط على فتح كفه ببطء ، وتناول الباقة بحذر مبالغ به ، وسحبها بما يشبه الاحتفال المنظم على الطاولة الرخامية[2] . ووقف

---

(١) حين قال لسعاد مرة ان شاربي والدها في الصورة يبدوان مخيفين ، ضحكت برهة ، ثم انصرفت الى التفكير ، وأخيراً سألته : « ماذا يحدث للشوارب ، يا أبا القاسم ، حين يأكل الدود جسد الرجل الميت ؟ » ومنذ ذلك الحين وهو غير قادر على صرف هذا السؤال من ذهنه كلما رأى صورة الأب ، بشاربيه الكبيرين .

(٢) مرة قالت له سعاد وهي تشير الى الطاولة ، وكانت مغطاة بشرشف سكري اللون مشغولة حواشيه بالصنارة : « انظر ماذا كانت تفعل امي طوال عمرها ، تشتغل بالصنارة وتفني عينيها كي تبدو طاولة أبي طاولة محترمة أمام ضيوفه ! »

يتأملها لحظة ، ثم استدار فجأة وسأله بعنف :

ــ ما هذا ؟

ــ هذا ؟

ــ أجل ، ما هذا ؟

ــ كما ترى . زهر يا سيدي . برقوق نيسان .

ــ هه !

وابتسم ابتسامة خبيثة ونظر من طرف عينيه الى الجنديين ، وعاد يسأل وكأن فترة المزاح التي أتاحها قد انتهت :

ــ ما هذا ؟

ــ ورد ، زهر ، برقوق ، يا سيدي .

ــ انني أسألك للمرة الأخيرة : ما هذا ؟

ولم يستطع أبو القاسم ان يعرف ان كان الضابط يحاول ان يجعل منه اضحوكة ام انه جاد حقاً. واكتسحته موجة من حيرة حزينة ، واخذ ينظر حواليه محاولاً الاستنجاد بشيء ما . كان الطفل قدكف عن البكاء ، واخذ ينظر بفضول الى باقة الزهر الاحمر فيما كان وجهه يكتسي بملامح تشبه الدهشة ، وتذكر سعاد فيما كانت الافكار تعود الى التراكب في رأسه ، وتساءل ان كان يتعين عليه الآن مرة اخرى ان يدخل الى الغرفة الثانية وينظر اليها ممددة على السرير وراحة يدها مفرودة الاصابع بالقوة وملطخة بالدم .

ــ ماذا يمكن ان يكون هذا يا سيدي غير زهر البرقوق الذي تفتح هذا الصباح على قارعة الطريق ؟

ــ أنا الذي أسألك .

وهز أبو القاسم كتفيه وسكت . لقد أدرك أن الكلام لم يعد يفيد أحداً ، وان ثمة شيئاً لا يفهمه يحدث بغموض ، وأمام مثل هذه الحيرة لا يسعه في الواقع الا ان يصمت وينتظر ، الا ان الضابط نهره :

ــ تهز كتفيك وكأنك بريء ! أتريد أن أساعدك قليلاً ؟ من الذي أعطاك هذه الباقة ولماذا ؟

ــ قطفتها عن الطريق ، وكنت ...

ــ أأنت عشيقها ؟

وضحك الجندي ، فيما تساءل ابو القاسم :

ــ استغفر الله ، عشيق من ؟

ــ عشيق العفريتة التي تسكن هنا ؟ ...

ــ انا رجل عجوز يا سيدي ، أيمكن أن يحدث هذا ؟

ــ اذن لماذا أحضرت الزهر ؟ من الذي أرسلك ؟

ــ جئت ...

الا ان صورة قاسم جاءت عاصفة مثل الارتطام ، ووراءها جاءت صورة سعاد ، ولم يعد يعرف ماذا يتعين عليه ان يقول ، فيما اخذ ينظرحواليه وهو شديد الارتباك ، محتاراً تحت النظرات التي كان يسلطها الضابط عليه ، ثم سأل بصوت ادهشه كيف انفلت من صدره مليئاً بالاستجداء :

ــ ماذا حدث لسعاد يا سيدي ؟ هل هي بخير ؟

ــ كفى تمثيلاً أيها الشائب ، وقل لي ما معنى هذا ؟

ونظر ابو القاسم الى حيث أشار الضابط . كانت باقة الزهر الاحمر ملقاة فوق الطاولة . وبدت أقل جمالاً مما كانت ، وأجاب :

ــ ماذا يمكن للزهر ان يعني يا سيدي غير الود ؟

ــ هه !

ــ اسأل هؤلاء كلهم .. أيعني الزهر غير الود والاحترام ؟

ــ من الذي بعثك بالباقة ؟

ــ أنا الذي قطفتها ..

ــ من الذي طلب منك أن تقطفها ؟

ــ لا أحد ..

ــ ما هي علاقتك بسعاد اذن ؟ هل أنت عشيقها ؟

واخذ الجندي (١) الواقف قرب الطاولة يضحك بصوت

---

(١) كان يهودياً مغربياً اسمه ابراهيم ، ولد في الدار البيضاء عام ١٩٤٥ ، وكان أبوه يمتلك دكاناً صغيراً في حي شعبي لبيع الاقمشة وبعض الألبسة الجاهزة ، أما شقيقه الأكبر فقد كان عاملا في مصنع للنسيج يقع على بعد يسير من المدينة . كان الوالدان تقيين ، الا ان الأخ الاكبر ، يعقوب ، التحق بتنظيمات الشغيلة وأخذ يظهر ميولا شيوعية ، ولا شك أن ذلك سبب ارتباكاً كبيراً في المنزل ، فقد كان الاب يربط بشدة بين الشيوعية وبين العلاقات السوفياتية المصرية وبالنتيجة بين الشيوعية وبين الحرب الاسرائيلية العربية . وفي أحيان كثيرة كان الجدل العنيف بين الاب وبين يعقوب يوشك ان ينتهي الى انفصام في العائلة التي لم تعتد على هذا النوع من التناقض ، وقد وصلت الامور في توترها الى الذروة حين ألقى البوليس المغربي القبض على يعقوب في الاضطرابات العمالية التي وقعت في عام ١٩٦٣ ، وذاقت العائلة كلها من نتائج هذا الحادث ، وتعرضت مثل عوائل العمال جميعاً في تلك الفترة ، الى تشديد مبالغ فيه من قبل السلطات التي واجهت=

مكتوم ، وقال شيئاً ما لم يسمعه احد بوضوح ، وعاد فضحك من جديد لفترة قصيرة وصمت حين رمقه الضابط [1] بشدة أما أبو القاسم فقد شعر بأنه قد اصطيد ، وبأن أكفاً جبارة تطبق على صدره ، وانه بحاجة الى سعاد الآن أكثر من أي وقت مضى .. أترى انتهى الصمت ؟ أصار بوسعه ان يقول لهم بأن ذلك الفتى المضرج ، الممدد على الطاولة في مخفر أريحا ، هو ابنه قاسم ؟ أم أن ذلك كله قد اضحى الآن سراً أكثر حاجة للكتمان مما كان في أي وقت مضى ؟ لقد أحس فجأة بأنه مؤتمن على شيء خطير لا يعرف ما هو بالضبط ، وربما كانت

= النشاط النضالي المتزايد لاتحاد الشغيلة المغربي وللتحالف الذي اشتد آنذاك بين الاتحاد هذا وبين الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وبين عدة احزاب سياسية تقدمية ، بالمزيد من العمل القمعي . وفي تلك الفترة وجد الاب في اتصال أجراه معه رجل فرنسي فرصة للخلاص من كل تلك الشدة ، وقد انتظر على مضض خروج يعقوب من السجن فرحل مع العائلة على متن زورق صغير ، مع عدد آخر من الاشخاص الى الساحل الاسباني ، ومن هناك بدأت الرحلة الاكبر الى اسرائيل ، الا ان يعقوب قرر معانداً ان يبقى في فرنسا . فلم تكن خطط الوكالة اليهودية ودوائر الهجرة لتروقه ، وهكذا مضى الى الاحياء الباريسية التي يتواجد فيها العمال المغاربة حيث وجد الكثيرين من رفاقه القدامى . اما ابراهيم ، الذي صار منذ تلك اللحظة ابراهام ، فقد وصل في اواخر ١٩٦٥ مع عائلته الى ميناء حيفا ، وكان الاب محظوظاً اذ أسكن في ضاحية قريبة من تل أبيب ، وقد تمكن في اقل من عام أن يشارك رجلا آخر في ملكية دكان صغيرة لبيع الاقمشة والملابس الجاهزة . أما ابراهام فقد اصبح عاملا في معمل للنسيج يقع على غير بعيد من حيث يسكن ، الا انه ، منذ حرب ١٩٦٧ ، فضل ان يظل جندياً في الجيش .

(١) برتبة كابتن ، وكان جندياً محترفاً مع الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد نال أوسمة عدة لخدماته في المخابرات .

حياة سعاد نفسها ، بل حياة هؤلاء الشبان الثلاثة الواقفين ووجوههم الى الحائط ، بل ربما حياة ذلك الطفل الصغير ايضاً، معلقة في كلمة واحدة قد يلفظها في أية لحظة دون ان يدري ، أيمكن لذلك كله ان يكون حقيقياً ؟

— انها باقة زهر يا سيدي ، وهي لا تعني شيئاً خطيراً على الاطلاق . قلت لنفسي وأنا أمر من هنا: هذا بيت صديقي القديم ، وابنته وحيدة فيه، ولا بأس لو حملت لها باقة زهر ..

— لا فائدة من الكذب أيها الشيخ الخبيث . سوف ترى بعد برهة أن الصدق هو أقصر الطرق الى السلامة .. أتقول الحقيقة الآن أم ماذا ؟

— زهر يا سيدي ، زهر .

— هش ..

وفي الخارج جاء الصوت خافتاً في البدء ، ثم اخذ يعلو شيئاً فشيئاً : كانت ثمة خطوات تصعد الدرج ، وشعر أبو القاسم بأن الامر آخذ في التعقد ، وان الفخ المنصوب في الغرفة انما يتعلق بقضية أكثر خطراً مما يعتقد ، وبعد برهة دقت يد ما خشب الباب ، وفي اللحظة التالية انقض الجنديان ، وقد فتح الضابط الباب فجأة ، على الرجل الواقف هناك وقذفاه إلى الداخل .

وامتلأت الغرفة فجأة بجلبة غريبة ، واخذ الطفل الذي كان قد اركن الى الصمت قبل برهة يبكي من جديد ، بنشيج أكثر مرارة ، فيما مضى الجنديان يفتشان الرجل بعنف وشراسة ثم

ساقاه الى الحائط وارغماه على رفع ذراعيه الى الاعلى ووجهه نحو الجدار ، وعاد الجنديان فوضعا الاوراق التي انتزعاها من جيوبه على الطاولة ، ووقفا وراء الضابط الذي قال بصوت يملؤه رنين الانتصار :

– صيد ثمين اليوم ، هذه الملعونة سعاد كانت تعيش تحت بصرنا ونحن لا نعرف ، وها هم أفراد العصابة يتقاطرون الى بيتها واحداً اثر الآخر ، انت ! ما اسمك ؟

واجاب الرجل الجديد ووجهه ما يزال الى الحائط :

– انني زياد حسين ، والد الطفل الجالس هنا ، يا سيدي ، جئت افتش عنه بعد ان تأخر ..

قال الضابط :

– اذن أنت الذي أرسلته ..

– نعم يا سيدي ، خبزنا صباح اليوم صدراً من الكنافة ، وكعادتنا في الحي بعثنا مع وليد صحنا لسعاد ، وعندما تأخر وليد جئت ابحث عنه ..

ولاول مرة منذ ان دخل الغرفة شهد ابو القاسم صحن الكنافة على الطاولة ، وكانت القشرة الشقراء تلمع من فرط ما اشبعت قطراً ، وتساءل بينه وبين نفسه : « أتراها قصة حقيقية؟ أيمكن ان يكون زياد هذا والد او شقيق فتى ما ، استشهد ذات يوم ، وهو يأتي كل شهر لسعاد كي يأخذ خمسة دنانير ؟ »

وقال الضابط فجأة :

– استدر وانظر هنا ..

واستدار زياد ، فبدا وجهه شديد الصفرة . كانت عيناه كبيرتين ، وربما بسبب حجمهما بدا خائفاً أكثر مما كان صوته يوحي ، وكان اول ما فعله ان نظر الى حيث كان الطفل جالساً ينشج بهدوء ، وهز رأسه هزة خفيفة جعلت الطفل يصمت . ثم اخذ ينظر حواليه متفحصاً الموجودين باعتناء ، وسأله الضابط

– هل تعرف أياً من هؤلاء ؟

– لست أعرف أحداً ، بل انني أكاد لا اعرف سعاد نفسها ، ولكن العادات يا سيدي تقتضي منا ان نرسل مثل هذه الهدايا الصغيرة الى جيراننا .

واشار نحو الصحن ، وافتعل ابتسامة سمجة :

– انني غالباً ما افشل في صنع الكنافة . واخشى ان يكون طعم هذا الصحن هو الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها ..

وضحك وحده ضحكة صغيرة ، ثم صمت دون ان يخفي حرجه ، وعاد يتودد بعد لحظة :

– هل استطيع ان آخذ وليد يا سيدي واذهب الى البيت ؟ ان امه ستشعر بالقلق ؟

– هش ..

– هل حدث شيء لسعاد يا سيدي ؟ هل امسكتموها ؟

– لماذا تسأل ؟

– لأنها جارتنا ..

– ماذا تعرف عنها ؟

– انها طالبة . تقيم هنا في الصيف . ونادراً ما يزورها

احد . وقد اعطت هذه السنة بعض الدروس في « الاونروا » .

– وأين هي الآن ؟

– لست أدري يا سيدي ؟ كنت اعتقد انها هنا . ولذلك ارسلت لها صحن الكنافة .. ماذا فعلت يا ترى ؟

ونهره الضابط بحركة من يده ، واخذ يتجول في الغرفة وهو يفكر . ثم سأل فجأة :

– أتعتقدأنها ستعود الى هنا ؟

– من ؟

– سعاد طبعاً ايها الغبي ..

– لست أدري . هذا بيتها على أي حال . وكل انسان يعود الى بيته ..

وقاطعه الضابط بحدة :

– الا اذا استطاع الهرب قبل ذلك .

وخيم الصمت من جديد ، فيما ظل زياد (١) واقفاً ينظر

---

(١) لم يكن زياد حسين يعرف سعاد معرفة حقيقية ، كان يعرف اهلها بصورة غامضة ، وكان معجباً بها من بعيد لكونها أظهرت عدة مرات خلافاً مع والدها الذي كان يحتقره بصورة ما . كان زياد عضواً قديماً في الحزب الشيوعي ، ثم ترك الحزب منذ ان بدأت المصاعب تشتد في اوائل الستينات ولكنه لم يترك حماسه له ، كان استاذاً في المدرسة الثانوية ، وكان يعتبر من المثقفين الاكثر اطلاعاً في نابلس ، وربما كان هذا بالذات ما جعل كراهيته لوالد سعاد تقليداً قديماً لا يعرف كيف نشأ ، وقد ظلت هذه الكراهية حتى بعد موته ، وقبل ذلك كان =

الى طفله بحيرة ، وفجأة حدث شيء غريب ، لم يلحظه الا أبو القاسم ، فقد التقت عيناه بعيني زياد ، ولمح فيهما بومضة تشبه البرق رسالة قصيرة ، تشبه أن يقول المرء للآخر : « أيها الرجل ، اننا نعرف بعضنا ، فاطمئن »[1] ، وأحس أبو

= قد سماه « أكاكي اكايفتش » وكان بالفعل يرى فيه تجسيداً حقيقياً لبطل « غوغول » في قصة « المعطف » . ويشاهد في تصرفاته نموذجاً لذلك البيروقراطي ضحية البيروقراطية المضحك الذي لا يكف عن النسخ ، ولهذا بالذات اعجب بسعاد بالرغم من ان سعاد في تلك الفترة لم تكن لتخفي ، شأنها شأن أعضاء حزب البعث وأعضاء حركة القوميين العرب ، كراهيتها للشيوعيين وحملاتها الدائمة عليهم .

(١) الصحيح أن تلك النظرة لم تكن رسالة بالمعنى الحقيقي ، والصحيح اكثر انها كانت تشبه ان يقول المرء للآخر : « ها ! هذا هو انت اذن ! » وسببها لا ينفصل عما حدث ليلة امس ، فعند منتصف الليل قرع باب بيته بشدة ، واذا بسعاد ، التي لا يذكر انها زارتهم قبل ذلك ، تقف هناك مضطربة ، وقد أدخلها وأيقظ زوجته ولم يشعل الضوء ، وقالت له سعاد بسرعة : « اريد مساعدتك ايها الرفيق زياد » ، ولاحظ هو كلمة « رفيق » التي هزت فيه مشاعر قديمة وحارة . ومع ذلك قال لنفسه : « الله الله يا زمان .. الحركيون يقولون رفيق ! » وأخذ سعاد ، دون ان يتكلم ، وأجلسها في الصالون . ومضت تقول : « لقد قبض الاسرائيليون على احدى الرفيقات ، وأخشى ان تعترف بعلاقتها بي ، لا استطيع الذهاب الى المنزل » وأحس بشيء من الخوف ، الا انها استطردت : « القصة هي اني لا أريد ان اثير شكهم في حال عدم اعتراف الرفيقة ، ولذلك فانني لن أركن الى الفرار الا اذا تأكدت من انهم اكتشفوا كل شيء ... هل تستطيع غداً صباحاً ان تستكشف لي البيت ؟ هل جاؤوا ام انهم ... » واخذت نفساً عميقاً واكملت : « اريد مساعدتك . ان المسألة معقدة ... أسلوبهم هو أن يتسللوا الى البيت كي يقبضوا على اكبر عدد ممكن من المتصلين بي ، لا أريدهم ان يقبضوا على طلال ..» وبعد ذلك أمضى زياد وسعاد طيلة الليل وهم يرسمون الخطة ، وقد اهتدوا الى النقطة التي يكتشفون فيها تفاصيل ما سيحدث في بيت سعاد عن طريق ارسال وليد بصحن=

القاسم بكنز غامض يملأ صدره ، وان عليه الآن ان يكون اكثر حذراً ، فثمة امور كبيرة تجري ، وهو بلا ريب يلعب فيها دوراً كبيراً دون ان يعرف على وجه التحديد ما هو دوره هذا، على انه تيقن الآن من ان هذا الرجل ، الباحث بقلق عن ابنه ، هو الذي ينبغي ان يقود خطواته منذ هذه اللحظة ، واستجمع ابو القاسم أطراف شجاعته وقال :

– الا تستطيع ان تقول لهم يا سيدي انني رجل بريء ، وان عليهم اطلاق سراحي ؟

وحدث شيء غريب في الغرفة ، اذ اخذ الجميع يضحك ، بما في ذلك الاستاذ زياد والضابط ، وقال زياد :

– ماذا تحسبني أيها العجوز ؟ انني في وضع اكثر سوءاً من وضعك ..

وقال ابو القاسم مصراً :

– انها باقة زهر يا سيدي ، باقة زهر فقط ..

– ولماذا تكون باقة الزهر اكثر براءة من صحن الكنافة ؟

وصاح الضابط :

– هش !

= الكنافة منذ الصباح ، وفي حال تأخره تنطلق سعاد شرقاً ، ويصبح على زياد ان يتدبر باقي المهمات : « سيأتي رجل عجوز اسمه أبو القاسم ، اذا ادركته قبل الوصول الى البيت دعه يأخذك الى طلال ، انه وحده الذي يعرف اين يجده ... » وقد مضت سعاد متنكرة باتجاه النهر بعد ربع ساعة من غياب وليد ، الذي لم يكن يعرف شيئاً عن دوره .

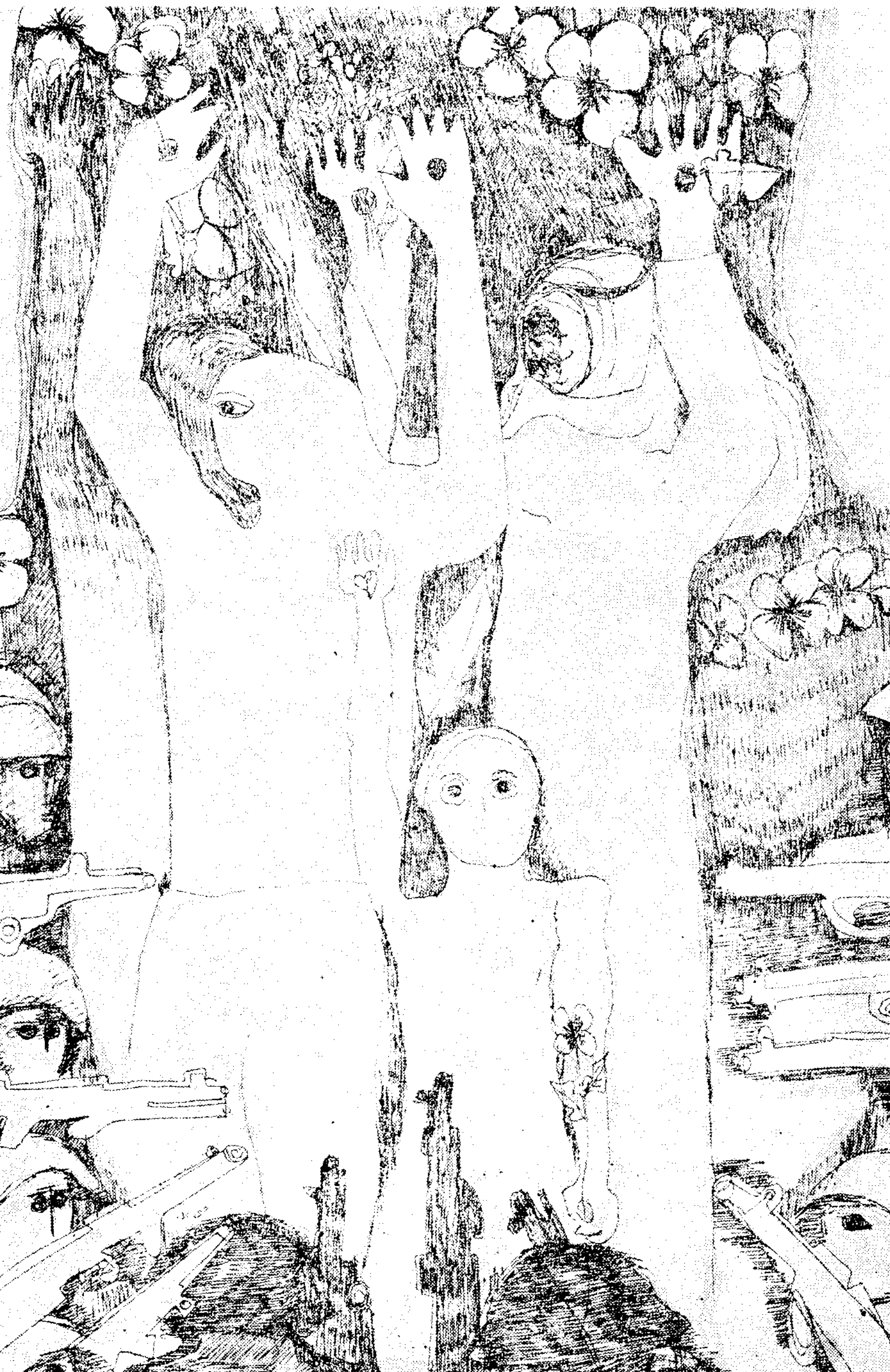

وقال زياد بلهجة ضارعة . متجهاً نحو الضابط :

– ألا استطيع يا سيدي ان آخذ ابني وليد وامضي ؟ ان صديقه طلال ينتظره ..

– هش ..

ولمح ابو القاسم مرة اخرى تلك الرسالة الغامضة تومض كالبرق في عيني زياد وهما تطلان عليه وكأنهما تعبران به . ولكنهما كانتا تحملان رسالة ، وأبو القاسم يعرف اكيداً انهما كانتا كذلك . الا انه لم يكن قادراً على فهمهما . ثمة علاقة ما بين باقة الزهر وصحن الكنافة ، وربما كان الطفل الذي اسمه طلال هو جزء من تلك الرسالة الغامضة . ولكن أبا القاسم لم يكن ليستطيع ان يفهم اولئك الاساتذة اويتجاوب مع اشاراتهم ، حتى في مواقف اكثر طلاقة من هذا الموقف . وأورثه هذا الشعور غضباً مهيض الجناح . فضرب راحتيه على ركبتيه وقال :

– لست أفهم شيئاً .. لست أفهم شيئاً ..

ونظر الى زياد ، آملاً ان تستطيع عيناه الشاخنتان ان ترسلا شيئاً الى الرجل الواقف هناك ، فيما اخذ الضابط والجنديان ينظران بفضول الى الرجل العجوز وهو يواصل ضرب راحتيه على ركبتيه ، وأخيراً قال الضابط :

– « ان قصتك لم تنته أيها الشيخ الخبيث ، بل انها لم تكد تبدأ . فأحسن لك ان تلتزم الصمت ، اما انت فسوف تظل معهم . ان كل من يأتي الى هذا البيت . طوال اليوم والايام

القادمة . هو متهم بالضرورة . التحقيق سينظر في امر اطلاق سراحكم أو اعتقالكم . والآن لا اريد ان اسمع صوتاً .. »

وصاح زياد :

ـ الا نستطيع ان نرسل كلمة الى اهالينا ؟

ـ قلت لكم ان تصمتوا ..

ـ الا تستطيع ان تقول لنا لماذا نحن هنا ؟ ماذا فعلت سعاد ؟

ـ هذا ليس من شأني . ستعرفون كل شيء في التحقيق ...

ـ ما ذنب هذا الشيخ ؟ انه يبدو أكثر براءة منا جميعاً . الا تسمحون له بالذهاب الى بيتي ليطمئن زوجتي . ويطمئن طلال ؟

ـ قلت لك اغلق فمك . والا اغلقته بالقوة ..

وأخذ ابو القاسم ينظر مجدداً الى زياد . غير قادر على فهم ما يجري على وجه التحديد . وقد استطاع ان يلتقط للمرة الثانية اسم « طلال » . ولكنه لم يكن ليستطيع ان يفهم ماذا يعني هذا كله . وماذا يتعين عليه ان يفعل . ومضى يتململ في مقعده . مستعيداً في ذاكرته صورة طلال القديمة ، الذي صار يراه لماماً منذ ان تسلمته سعاد . انه يدرك ان زياداً يريد ان يقول شيئاً عن طلال . ولكن اي طلال ؟ وما علاقته هو بالامر . لقد تذكر الآن انه . مرة . سأل سعاد ان كان طلال يعمل معهم . فضحكت وقالت : « لولا طلال لكانت حالتنا حالة .. طلال يا أبا القاسم رجل . رجل قادم من تحت .. » أيمكن ان يكون الامر على هذه الخطورة ؟ ان المفتاح في يد

الاستاذ زياد . وهو وحده الذي يجيب على هذه الاسئلة ، ولكن لماذا لا يفعل ؟ اذا كان الامر خطيراً على هذه الصورة ، فلماذا لا يقدم الاستاذ زياد على التصرف ؟ وفجأة سأل أبو القاسم نفسه : لو كان قاسم هنا ، مكان الاستاذ زياد ، كيف كان سيتصرف ؟ ثم عاد فسأل نفسه مرة اخرى : لو كان مكاني ، ماذا كان يفعل ؟

وقاطعه صوت مكتوم يشبه خطوة خائفة ، وكان يمكن لهذا الصوت ان يعبر دون انتباه لو لم يتحرك الضابط بهدوء ، ويرفع سلاحه عن ركبتيه وهو ينظر نحو الجنديين اللذين اتجها نحو الباب دون ان يصدرا أي صوت . ومضت فترة من الوقت خيم فيها صمت عميق ، ثم صدر ذلك الصوت المكتوم لخطوة خائفة مرة أخرى . وبدت وكأنها في اول السلم ، وعاد الصوت يخطو ، وكأنه يصعد بحذر .

ودون ان يتخذ قراره بصورة مسبقة ، انتصب ابو القاسم وصاح :

– لماذا تقبضون علينا ؟ ماذا فعلنا ؟ اننا ابرياء ..

وانقض عليه الضابط وصفعه بقفا كفه على وجهه فالقاه على الارض ، واندفع الجنديان نحوه وجراه بعيداً الى الداخل ، فيما ركض الضابط باتجاه الباب ، والصق اذنه هنيهة على الخشب ، ثم فتحه بعنف واتجه الى الخارج .

وضع احد الجنديين ركبته على صدر ابي القاسم ، وصوب فوهة الرشاش الى رأسه ، فيما اخذ ابراهام يراقب بقيـــة

المحتجزين بحذر ، وما لبث الضابط ان عاد ، وأغلق الباب وراءه باحكام وهدوء ، ثم اشار للجنديين فأجلسا أبا القاسم على المقعد ، كان فمه ينزف خيطاً رفيعاً من الدم يتسرب في شعر لحيته الشائب ، ولكنه بدا في حالة غير خطرة ، وقال له الضابط بهدوء مبالغ به :

— لقد تعمدت ذلك أيها الثعلب العجوز ..

وقال ابو القاسم بوهن :

— تعمدت ماذا يا سيدي ؟ ..

— لقد صرخت كي يهرب ..

— من ؟

— أنت الذي ستقول لنا من .. يا الهي ! كنت على وشك ان اعتقد انك عجوز بريء .. اما الآن فقد تيقنت من كل شيء ، لم أكن على خطأ حين شككت بهذه الباقة اللعينة ..

— انها باقة زهر يا سيدي . برقوق نيسان ..

— ها !

وتناول الضابط عصاً قصيرة عن الطاولة ، دقيقة كأنها من الخيزران ، وأشار بها نحو زياد ، ثم اخذ ينقلها كمؤشر ، بين زياد وأبي القاسم ، وأخيراً اتجه نحو زياد :

— أرأيت أيها الثرثار ؟ أرأيت ؟ كنت أنت الذي اقترحت ان نطلق سراح هذا الشيخ الخبيث لانه يبدو بريئاً ! ها ! هذا الشغل شغلنا .. انه يعتقد الآن انه اتاح فرصة الفرار لاحدكم . كم هو مخطىء هذا العجوز المسكين ! . سننتزع اسمه مثلما

ينتزع الضرس النتن ..

وتنحنح زياد ، وهو ما يزال واقفاً مكانه ، وقال الضابط :

ــ هذا الشغل شغلكم يا سيدي ، ولكن اذا سمحت لي ارجو الا تقلق كثيراً ، فقد يكون الشخص الذي مر امام السلم هو الطفل طلال ، صديق وليد ، جاء يسأل عنه وخاف عندما سمع الجلبة فهرب .. ألم أقل لك يا سيدي قبل ذلك ان طلال ينتظر وليد ليلعب معه ؟ .

وهز الضابط رأسه مرتاباً وهو يبتسم ابتسامة العارف الذي لا يسهل خداعه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ــ لم تكن الخطوة خطوة طفل ..

ومرة اخرى ، بمثل لمح البرق ، شهد ابو القاسم في عيني زياد ، وهما تعبران به ، ومضة تشبه الرسالة .

المحتويات

الموضوع	صفحة
مقدمة الدكتور احسان عباس	٩
رجال في الشمس	٢٩
ابو قيس	٣٥
اسعد	٥١
مروان	٦٩
الصفقة	٨٧
الطريق	١٠٣
الشمس والظل	١٢٥
القبر	١٤٥
ما تبقى لكم	١٥٣

الموضوع	صفحة
ام سعد	٢٣٥
ام سعد والحرب التي انتهت	٢٤٣
خيمة عن خيمة تفرق	٢٥٧
المطر والرجل والوحل	٢٦٧
في قلب الدرع	٢٧٥
الذين هربوا والذين تقدموا	٢٨٩
الرسالة التي وصلت بعد ٣٢ سنة ...	٢٩٩
الناطور وليرتان فقط	٣١١
ام سعد تحصل على حجاب جديد ...	٣٢١
البنادق في المخيم	٣٢٧
عائد إلى حيفا	٣٣٧
توضيح	٤١٥
العاشق	٤١٧
الاعمى والاطرش	٤٦٩
برقوق نيسان	٥٧٧

مطبعة دار الكتب
بيروت - لبنان